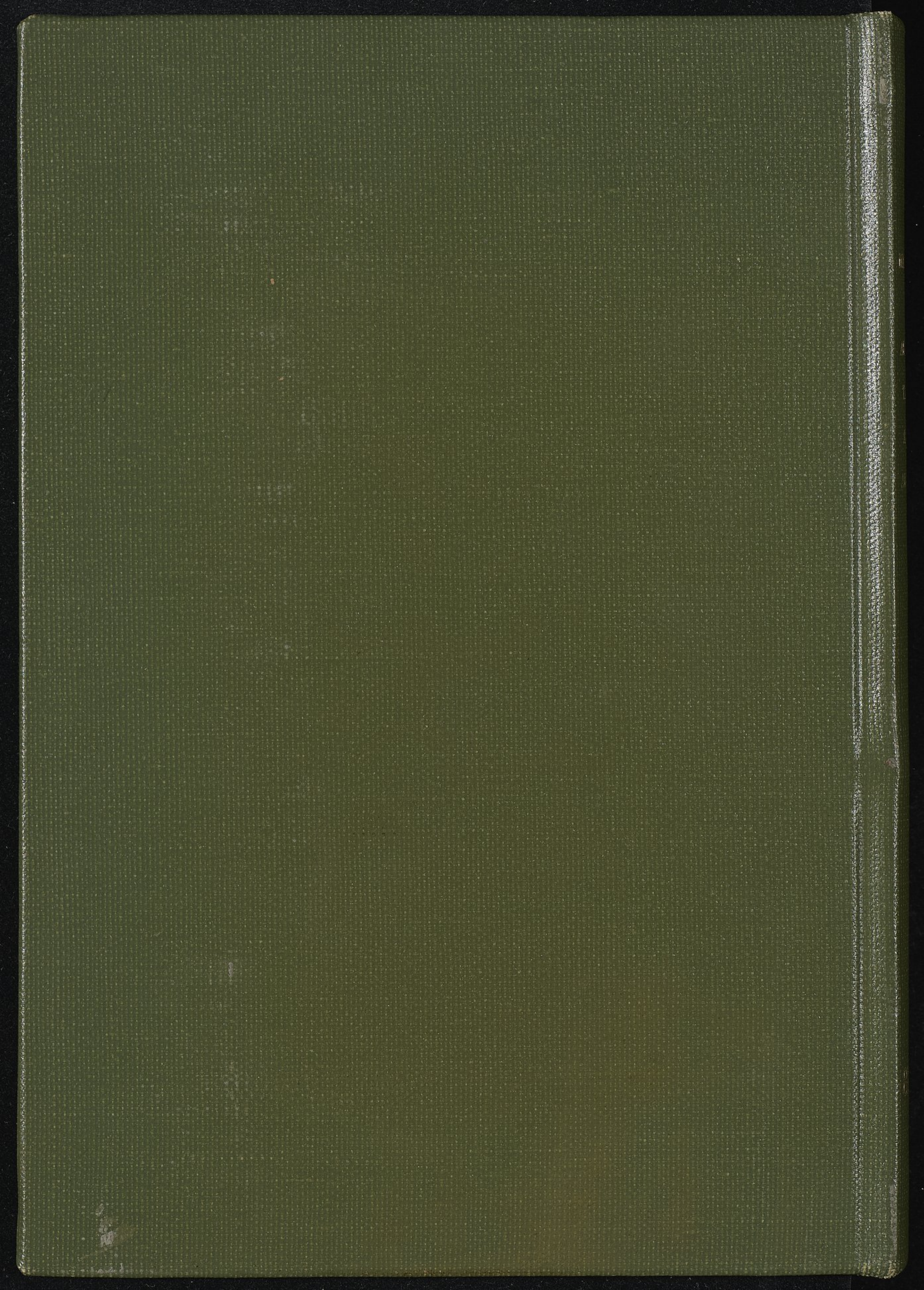
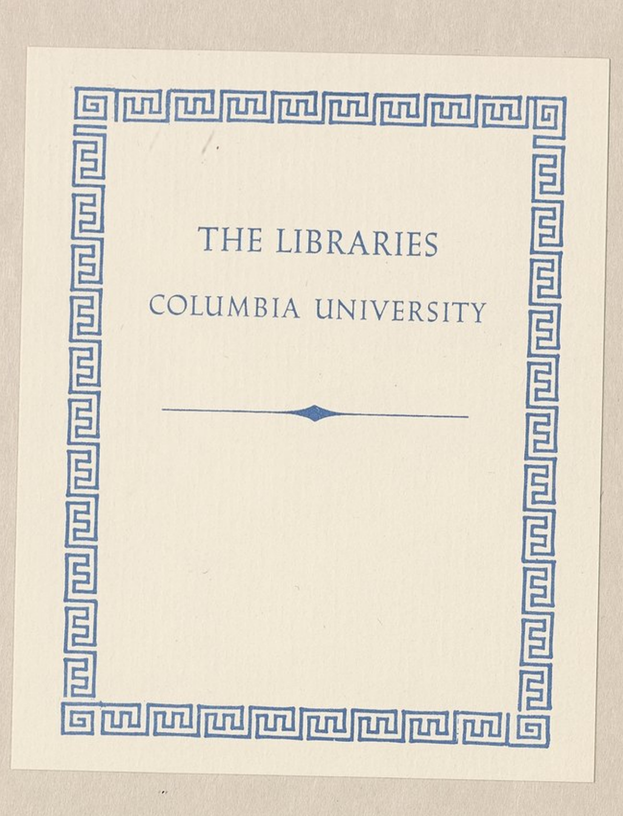
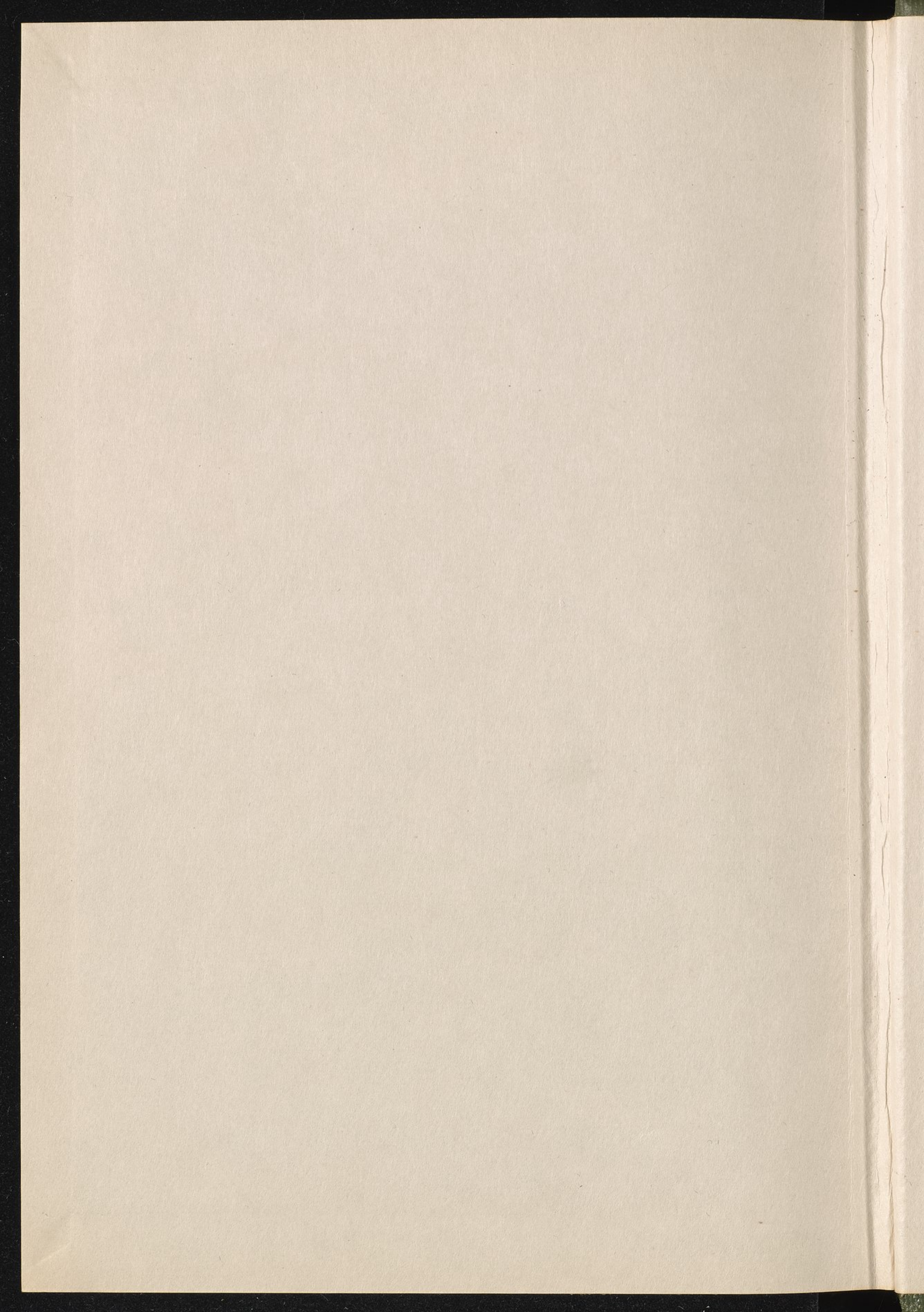
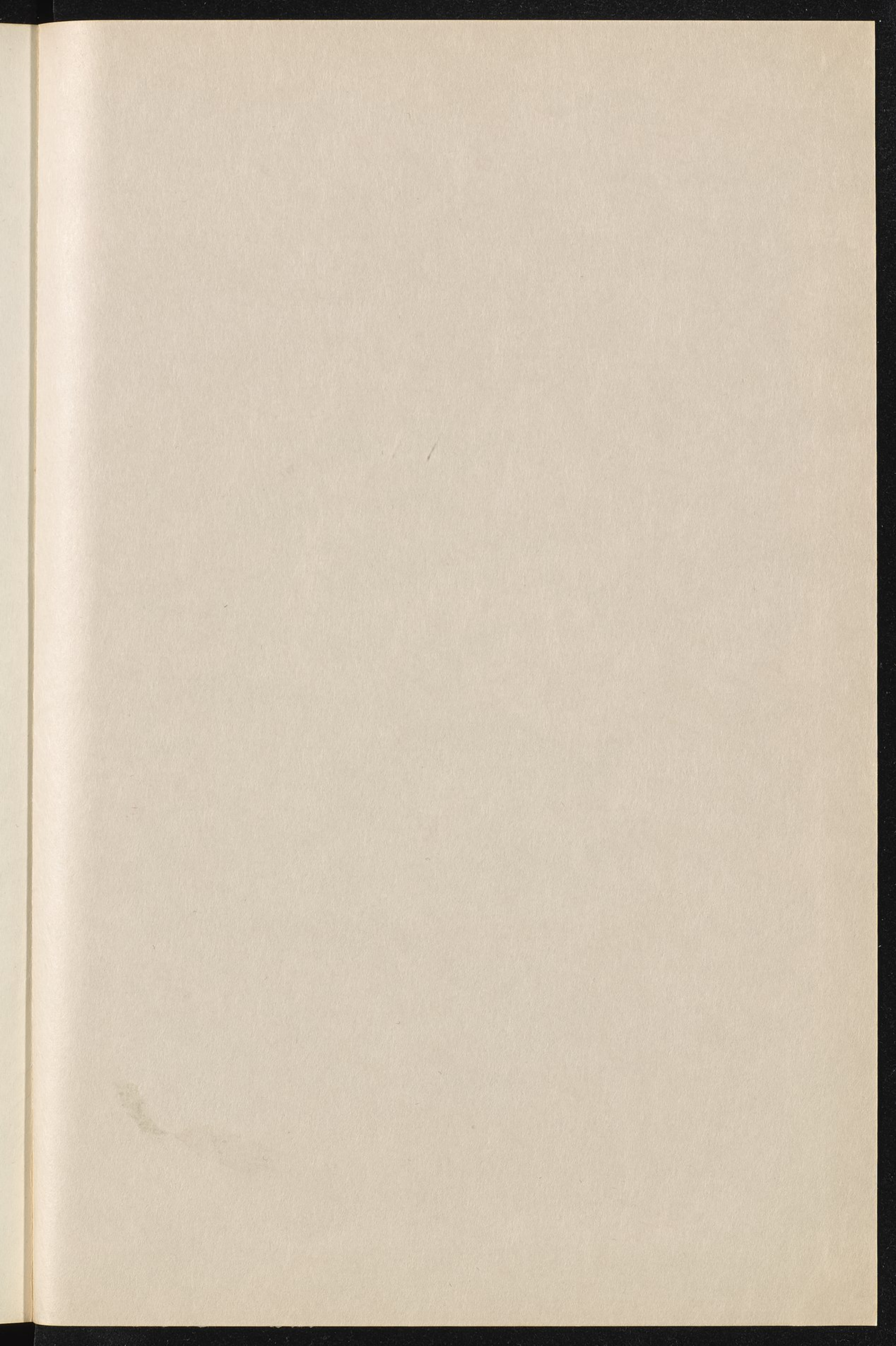
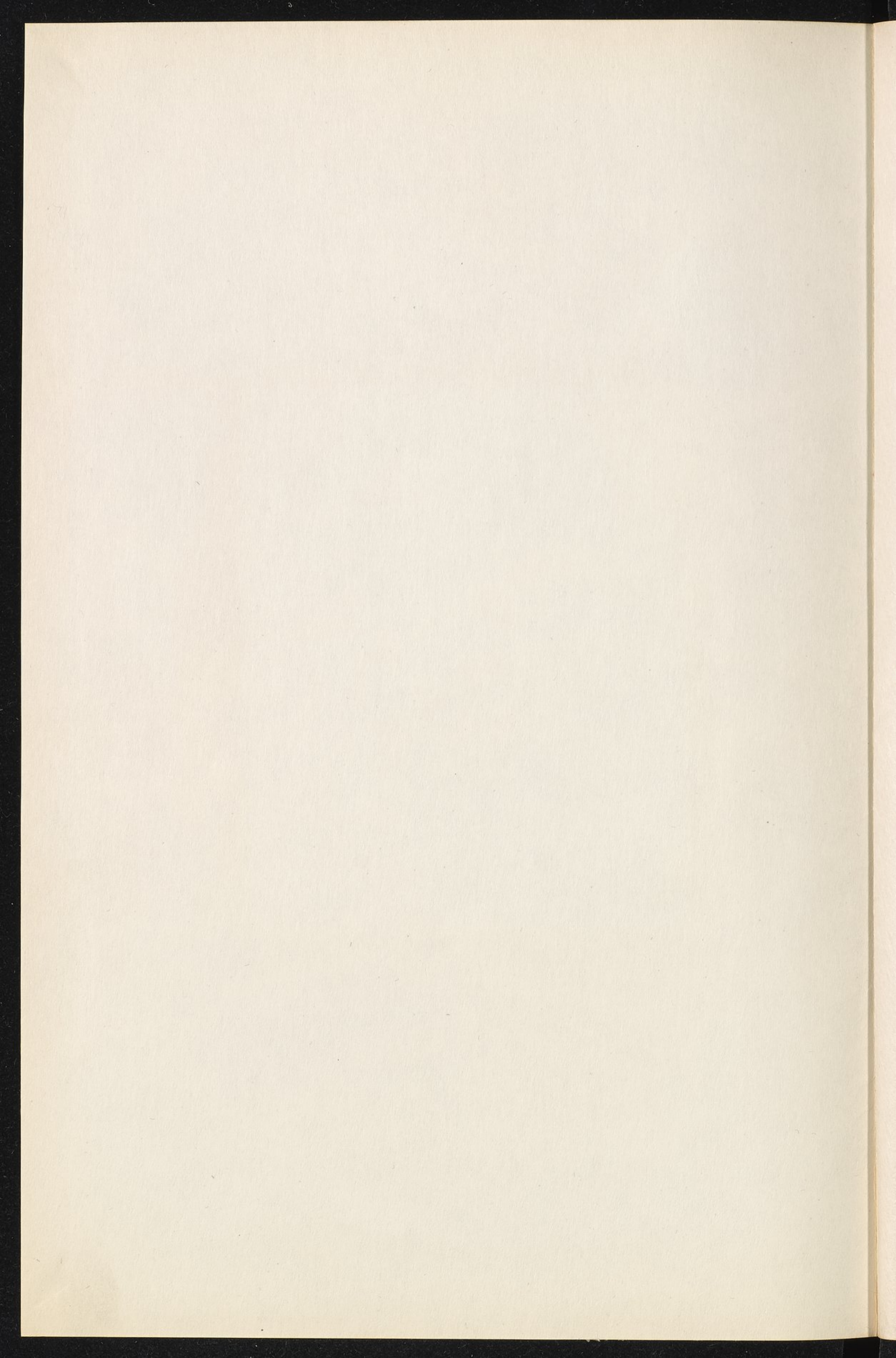
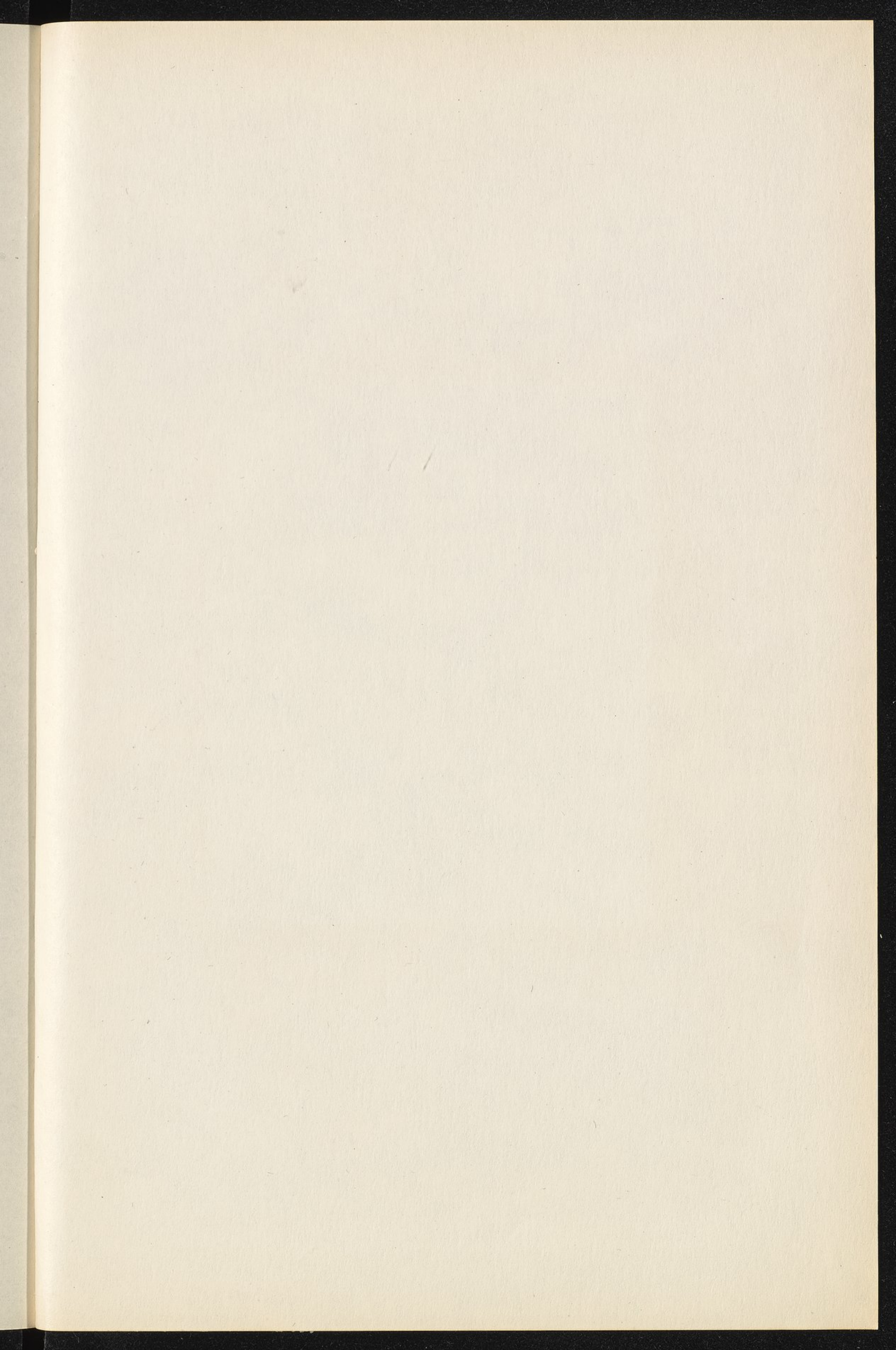












المُعْجِب

فى تلخِيص أخبَارِ المغْرِب

[من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين]

[مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب]

تأليف

عبد الواحِد المراكِشي

ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته

محمد سعيد العريان و محمد العربى العلمى

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

شارع نوبار باشا نمرة ١٢

[الطبعة الأولى]
١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى : بشارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مقدمة

بقلم

محمد سعيد العريان

هذا كتاب أدب وتاريخ ، ألَّفه مؤلفه مَدْعُوًّا إليه ، فى الرُّبع الأول من القرن السابع الهجرى ، ليكون تعريفاً لأهل المشرق بأحوال المغرب ؛ فجاء تعريفاً شافيا وافياً بما أراد مؤلِّفه والمؤلَّف له ؛ وقد مات مؤلِّفه وانطوى تاريخه منذ قرون ، فليس لنا من أسباب العلم به والكشفِ عن ذاته وصفاته ونسبه وأدبه إلا اللمحاتُ الضئيلة الخافتة التى تلمع من ثنايا كتابه ؛ ومات السيد الكريم الذى أُلِّف من أجله الكتاب كذلك ، فلسنا نعرف اسمه ولا رسمه ولا موطنه ولا صلته بأحداث عصره ؛ إلا ما يتراءى لنا من ذلك فى ثنايا الكتاب كذلك ، على سبيل الحدْس والتخمين لا على وجه القطع واليقين ؛ مات المؤلِّف والمؤلَّف له ، وانطوى تاريخهما فى مَدْرَجة الإهمال أو فى مَدْرَجة النسيان ؛ ولكن الكتاب بقى تتوارثه الأجيال خلفاً عن سلف حتى انتهى إلينا ، ليعرِّفنا التعريفَ الشافىَ الوافى بأحوال المغرب العربى منذ كان للمغرب العربى دولة ، إلى السنة الحادية والعشرين من القرن السابع الهجرى . . .

أما الحدود الجغرافية لهذا المغرب كما يصفه مؤلف هذا الكتاب ، فتتسع وتنبسط حتى تشمل شبه جزيرة إيبريا ، من جبال البرانس إلى المحيط

الأطلسى، بما تضم من دول ومدائن ؛ ثم ما يلى بلاد الأندلس جنوباً على الشاطئ الأفريقى، من مراكش، إلى الجزائر، إلى تونس ... إلى حدود مصر الغربية ؛ إذ كانت هذه المساحة المنبسطة فى عرف كثير من المؤرخين القدماء، هى المغرب .

وأما الأحوال التى يصفها مؤلف الكتاب فى الكتاب من أحوال هذا المغرب الكبير ؛ فليست هى تاريخه السياسى وما تعاقب على عرشه ، أو عروشه ، من ملوك وأمراء فحسب ؛ وليست هى كذلك تاريخه الأدبى والعلمى وما ازدهر فيه من ألوان الأدب وفنون المعرفة ومن اشتهر به من أمراء البيان وقادة الفكر ؛ وليست هى الخصائص الاجتماعية والصفات النفسية لمن ينتسبون إليه ويدرجون على ظهره من أمراء وسوقة ومن ملوك ورعية ؛ وليست هى طبيعة أرضه وسمائه ، وخصبه وجدبه ، وجَنّاته وقفاره ، ومناجمه وأنهاره ... ولكنها كل ذلك وغير ذلك من أحوال المغرب ؛ فهو كتاب يصف التاريخ السياسى لذلك المغرب الكبير فى تلك الحقبة وصفا شافيا وافيا فى إيجاز وبلاغة ، كما يصف تاريخه الأدبى والعلمى فى براعة وفنّ ، ولا يغفل إلى جانب ذلك أن يتحدث عن طبيعة المكان والسكان ، ماتراه العين من ذلك وما هو من إحساس النفس ووَمْض العاطفة والشعور ...

وقد ألّف المؤلف كتابه هذا قبل أن يخلع إهاب الشباب ؛ فقد كان يوم ألّفه فى الأربعين من عمره ، وهى آخر نضج الشباب وأول حكمة المشيب ؛ ألّفه ليذكر به وطنه وهو بعيدٌ عن وطنه ، قد فارقه منذ بضع سنين غير آمل ــ فيما يبدو ــ أن يعود إليه ؛ فجاء صورة من الشعور إلى صور من الذكريات تفيض بها نفس جيّاشة بالحنين ؛ فهو إذن كتاب أدب وفنّ ؛

وهو كتاب تاريخ وسياسة ؛ وهو إلى هذا وذاك تقويم جغرافى ، اقتصادى ، اجتماعى ، لذلك المغرب الكبير فى تلك الحقبة الزاهرة من تاريخه .

* * *

ولست أزعم أن لى أهلية الحكم على الكتاب من حيث قيمته بين المراجع التاريخية ، فلست بين أهل ذلك الفن بالمنزلة التى تؤهلنى للحكم ؛ ولكنى إلى ذلك أستطيع أن أؤكد — بما أتيح لى من أسباب الاطلاع والبحث — أنه كتاب فريد بين كتب التاريخ فى موضوعه ؛ وموضوعُه الأصيل — فيما أرى — هو تاريخ دولة الموحدين ؛ فهو يصف تاريخها وصف عيان ومشاهدة على نحو لم يشارك مؤلفه فيه أحدٌ ممن دوَّنوا تاريخ تلك الدولة ؛ وإن القارئ الخبير بألوان التعبير ليتبين روح الصدق فى كل مايرويه المؤلف فى كتابه من خبر وما يصف من حادثة وما يرى من رأى أيضا ، برغم صواب ذلك الرأى أو خطئه . وبعضُ الخطأ فى الرأى نوعٌ من صدق الرأى !

أما ماقبل تاريخ الموحدين مما أورده مؤلف الكتاب ، فهو تلخيص دقيق متقن لروايات فى تاريخ المغرب سبقه إلى تدوينها مؤرخون قدماء روى عنهم موجزاً أو مسهبا ، على أسلوبهم فى الرواية أو على أسلوبه فى السرد والتسلسل والانسجام ، فانتهى إلينا عِلمهم بالتاريخ — عن طريقه — قبل أن ينحدر الزمن بذلك التاريخ إلى وادى النسيان ؛ ولكنه فى أى أحواله : واصفاً أو راوياً ، لم يخرج عن الإطار العام الذى اختاره لموضوعه أو اختير له ؛ فكان كتابه — كما أراد — أوفى كتاب أدبى فى تاريخ المغرب لمن يريد أن يعرف موجزاً من تاريخ المغرب إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى . . .

فهو إذن مرجع أصيل من مراجع التاريخ عن دولة الموحدين لايمكن أن

يستغنى عنه باحث فى تاريخ تلك الحقبة من تاريخ المغرب ، وهو إلى ذلك موجز من روايات شتى عن تاريخ المغرب قبل دولة الموحدين قد ضاعت مصادره فصار بذلك كذلك أصلا من أصول تاريخ المغرب قبل دولة الموحِّدين ؛ وهو إلى هذا وذاك كتابُ أديبٍ مغربى لم يكن تدوين التاريخ فنَّه الأصيل ، ولكنه طُلب إليه ـ فى غربته ـ أن يصف تاريخ بلاده فى كتاب ، فزاوَجَ بين الأدب والتاريخ فى ذلك الكتاب !

إن له فيما يسرد من التاريخ وما يصف من حال البلاد ، أسلوبَ الأديب المطبوع وإن لم يُذكر له اسم بين أدباء المغرب ولا أدباء المشرق ؛ وإنه ليخيَّل إلىّ ـ من طول ماتصفَّحتُ من أساليب الكُتاب وأصحاب البيان ، ومن طول ما عالجت من فنون الكتابة ـ أن ذلك الكتاب ليس هو أول ما أنشأ المؤلف من فصول وما حبَّر من صحائف ؛ بلى ، قد لايكون له قبل هذا الكتاب كتابٍ ؛ ولكنى أكاد أجزم أنه كتب كثيراً وعالج من الكتابة فنونا شتى قبل أن يعالج إنشاء هذه الفصول التى ضمَّنها هذا الكتاب ، وأحسبه كان من كتاب الإنشاء فى بلاط بعض أمراء الموحِّدين قبل أن تقذف به النوى إلى المشرق ليؤلف هذا الكتاب . . .

وإذا صحَّ حدسى هذا فإنه يلقى بصيصا من الضوء على التاريخ الغامض لهذا الأديب المجهول ، الذى فارق وطنه فى ظروف غامضة وهو لم يزل بعدُ فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم لم يَعُدْ إليه إلا اسماً على غلاف كتابٍ ألفه فى غربته النائية ، الباقية على مرّ القرون . . .

* * *

إنه أديب غريب ، ومؤرخ ليس له تاريخ !

أول ما نعرف على وجه اليقين من أخباره ، أنه مؤلف هذا الكتاب ،

وأن اسمه عبد الواحد بن على ، ينتسب إلى تميم ، ويلقب « محيي الدين » ، وأصله من مراكش ؛ كذلك وُجد اسمه على غلاف كتابه . . .

أما تاريخ حياته ، وكيف عاش ، وأين قَضى ، ومتى ، ولمن ألف كتابه ذاك ، وأين — فكل ذلك مجهول ، لاسبيل إلى العلم به إلا لَمْحًا خاطفا ، أو حَدْسًا واستنتاجا ، من خلال عبارات متناثرة بين أول هذا الكتاب وآخره . . .

إن ذلك الكتاب هو تاريخ المغرب الكبير إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى ، وهو أيضا تاريخ الأديب المغربى المجهول « عبد الواحد المراكشى » لامرجع لتاريخه غيره . . .

فمنه نعرف أنه ولد فى مراكش فى السابع من ربيع الثانى سنة ٥٨١ فى بدء حكم أبى يوسف المنصور الموحِّدى (١) .

وأنه غادر مراكش وهو فى التاسعة إلى فاس ، حيث قرأ القرآن وجوده وأُذِن له فى روايته ؛ ثم عاد إلى مراكش ؛ ولكنه لم يقطع صلته بفاس ، فلم يزل يتردّد بين الحاضرتين سنين (١) .

وأنه كان فى فاس سنة ٥٩٥ وسنه إذ ذاك أربع عشرة سنة ، وفيها التقى بالعالم الطبيعى العظيم أبى بكر بن زهر ، وكان بينهما حديث ومسامرة ، وابن زهر يومئذ فى الثمانين أو جاوزها (٢) .

وأنه عبر إلى الأندلس حين بلغ الثانية والعشرين ، حيث التقى بجماعة من أهل الفضل لهم ذكر وصيت (١) ، وحيث اتصل سببه بالأمير أبى إسحاق بن

---

(١) انظر ص ٣٦٠

(٢) » » ٨٨

أبي يوسف المنصور الموحّدى ، وكان يومئذ حاكما لأشبيلية ، من قِبل أخيه محمد الناصر سلطان الموحدين لذلك العهد ، فصفا بينهما الود وتوثقت أواصر المحبة (١) .

وأنه نزح إلى قرطبة فى العام التالى حيث لزم حلقة شيخه وأستاذه أبى جعفر الحميرى سنتين يتأدب بأدبه ويروى عنه (٢) .

وأنه عاد إلى مراكش فى سنة ٦١٠ وشهد بيعة السلطان يوسف الثانى فى الرابع عشر من شعبان (٣) .

وأنه قد أتيح له بعد ذلك ببضعة أشهر ، وهو لم يزل بعدُ شابا فى الثلاثين ، أن يخلو إلى السلطان يوسف هذا ، فيحدثه ويستمع إلى حديثه (٤) .

وأنه لم يطب له المقام بعد ذلك طويلا فى المغرب ، فعبر البحر ثانية إلى الأندلس (٥) ، ليقيم فى كنف صفيّه الأمير أبى إسحاق حاكم أشبيلية ، وعمّ السلطان يوسف الثانى ؛ فيتصل بينهما الود حتى يقول له الأمير مرة بعد مرة : « والله إنى لأشتاقك إذا غبت عنى أشد الشوق وأصدقه . . . » (٦) .

وأنه فى آخر يوم من سنة ٦١٣ ، وعمره يومئذ اثنتان وثلاثون سنة ، ودّع صاحبه ، وودّع المغرب والأندلس جميعاً (٦) لأسباب غير معلومة ، فركب البحر المائج متجهاً إلى الشرق ، إلى مصر وما وراء مصر من بلاد

---

(١) انظر ص ٣٠٨
(٢) « « ٣٠٠ — ٣٠٤
(٣) « « ٣٢٦
(٤) « « ٣٢٨
(٥) « « ٢٣٤
(٦) « « ٣٠٩

المشرق ؛ ثم لم يَعُدْ ... [1]

وأنه قد انقطع عن المغرب منذ ذلك التاريخ ، لأنه أنشأ لنفسه حياة جديدة فى المشرق ؛ ولكنها حياة قلقة مضطربة ، كلها حنين وشكوى وضيق ، و « هموم تزدحم على الخاطر ، وغموم تستغرق الفكر » [2]

وأنه قضى فى مصر سنين [3] ، ثم غادرها إلى الحجاز [4] ، ثم غادر الحجاز إلى غيره من بلاد المشرق ، إلى الشام ، أو إلى بغداد ، تائها فى بيداء من الهموم ، والغموم ، والحنين الدائم ، والقلق المؤرق .

وأنه لقى فى أثناء تجواله ببلاد المشرق وزيراً من خاصة أمير المؤمنين الناصر لدين الله العباسى ، فأضفى عليه من عطفه ، وأصفاه وده ، ولطف به ؛ « وتتوالى عليه نعمه ، ويأخذ بضَبْعه من حضيضَى الفقر والخمول اعتناؤه وكرمُه » [5] ، فيسأله ذلك الوزير بحق ما بينهما من الإحسان والحب ، أن يملى له أوراقاً « تشتمل على بعض أخبار المغرب ، وهيئته ، وحدود أقطاره ، وشىء عن سير ملوكه ، وخصوصا ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم ... [5] » - فيملى عبد الواحد كتاب المعجب هذا ، ويكون فراغه من إملائه يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ ... [6]

ثم تنتهى أخبار عبد الواحد ، فلا يعود إلى المغرب ، ولا يذكره أحد

---

(١) انظر ص ٢٦٣
(٢) « « ٤
(٣) « « ٣٢٩
(٤) « « ١٤
(٥) « « ٣
(٦) « « ٣٧٦

فى المغرب ؛ ويموت ، فلا يذكره ذاكر فى مراكش ، ولا فى فاس ، ولا فى أشبيلية ، ولا فى قرطبة ؛ وكان له أهل ودار فى مراكش ، ومسعى إلى قصر سلطان الموحدين فى فاس ، وأشواق مشبوبة بينه وبين عم السلطان فى أشبيلية ، وذِكر على ألسنة الكثير من أهل العلم والأدب فى قرطبة ...

ذلك هو عبد الواحد المراكشى كما تحدث عن نفسه فى كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » فماذا كان فى حياته وبين أهله ، وأين كان موضعه من الحياة العامة فى بلاده ؟ .

هذا سؤال لم يجب عنه أحد بعد ، لأن عبد الواحد لم يخلّف من ذكراه غير هذا الكتاب ؛ ولكننى مع ذلك أزعم أننى أستطيع جواباً ، وإن لم يكن بين يدىَّ من مصادر العلم غير هذا الكتاب ...

إن عبد الواحد المراكشى لم يكن نكرة فى قومه ، ولم يكن نكرةً عند نفسه ؛ وإن فى هذا الكتاب الذى خلّفه عبد الواحد تاريخا لبلاده وتاريخاً لنفسه ، أماراتٍ صريحة الدلالة على أرومته ومكانته من قومه وموضعه من الحياة العامة فى بلاده ...

إن فتى من مراكش ، يتاح له فى الرابعة عشرة من عمره أن يرحل إلى فاس ليتخذ مجلسا فى حضرة العالم الطبيب أبى بكر بن زهر يتحدث إليه ويسمع منه وينتسب له ويذكر أباه وأهله ... (١)

... ويتاح له وهو فى الثانية والعشرين أن يكسب صداقة أمير أشبيلية ، وهو أمير من أمجد أمراء الموحدين ، كان أبوه أمير المؤمنين المنصور ، وأخوه

---

(١) انظر ص ٨٨ — ٩٢

لم يزل أمير المؤمنين الناصر [1] . . .

. . . ويتاح له وهو شاب لم يبلغ الثلاثين أن يخلو إلى السلطان أبي يعقوب الثاني يتحدث إليه ويسمع منه ، وهو مَن هو صرامةً وعنفوانا وقوة [2] . . .

. . . إن فتى يتاح له كل ذلك مما ذكر فى كتابه ، ونحو ذلك مما لم يذكر ، لا يمكن أن يكون فتى من سواد الناس .

وهنا يقتضيني التحقيق أن أقف هنيهة عند بعض عبارات أوردها المراكشي فى كتابه ، تلقى ضوءا قويا على بعض الغموض الذى يكتنف حياته وأسباب رحلته النائية إلى المشرق ؛ أما أولاها فهى تعليقه على كتاب وصل إليه من صديق له من أبناء الولاة فى « سوس » سنة ٥٩٧ — وكانت سن المراكشي يومذاك ست عشرة سنة — يصف فيه موقعة بين جيش الناصر ابن أبي يوسف وثائرٍ من جزولة كان قد شق عصا الطاعة ، فيتعجب المراكشي من وصول نبأ هذه الموقعة إليه من صديقه « قبل وصوله إلىَّ من جهة كتاب الموحدين المتولين له . . . » [3] .

وعبارة أخرى ، هى قوله عند الحديث عن الأمير أبي إسحاق إبراهيم من أولاد السلطان أبي يوسف المنصور « وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطّراح الهوى » [4] .

وعبارة ثالثة ، هى قوله عند الحديث عن الوزير أبي عبد الله الحسني :

---

(١) انظر ص ٣٠٨ — ٣٠٩

(٢) » » ٣٢٨

(٣) » » ٣١٦

(٤) » » ٣٠٨

« سمعته يقول وأنا عنده فى بيته : جملة ما وصل إلىَّ من أمير المؤمنين أبى يوسف . . . الخ [1] » .

وعبارة أهم من كل ذلك ، هى قوله عند الحديث عن الأمير يحيى من أولاد السلطان أبى يعقوب بن عبد المؤمن : « كان يحيى هذا ، رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم ؛ لم أر فى الملوك ولا فى السوقة مثله ، رحمة الله عليه ؛ وما استجزت لفظة الصداقة ، مع أن الواجب لفظ الخدمة ، إلا لما كان رحمه الله يكتب إلىّ : أخى ، وصديقى فى بعض الأوقات ، وولـيِّى فى بعضها . اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة خلع علىَّ فيها من فضله وحلاّنى بما لم أكن أستحقه . . . » [2] .

فما دلالة هذه العبارات جميعا ؟

أليست أُولاها دليلا على أن عبد الواحد كان — وهو لم يزل فى السادسة عشرة — أهلا لأن يتلقى كل أنباء الفتوح أو بعضها « من جهة كتاب الموحدين المتولين له » ؟

وهل يكون للعبارة الثانية دلالة غير أن عبد الواحد كان يرى أن ولاية الناصر عرش الموحدين دون أخيه أبى إسحاق كانت أمراً يقوم على اطّراح الحق وإيثار الهوى ؟

وعلام تدل العبارتان الأخيرتان ، ومن يكون عبد الواحد حتى يتحدث إليه الوزراء فى بيوتهم عما وصل إليهم من صِلات الملوك ، وحتى يصطفيه أبناء السلاطين ويتولّوه بالإحسان والمبرة ، ويفضوا إليه بأسرار الدولة ، ويكتبوا

---

(١) انظر ص ٣١٢

(٢) » » ٢٤٥

إليه الرقاع إذا غاب ؟ . . .

ثم نعود إلى ما بدأنا فنسأل كرة أخرى : فيم كانت هجرة عبد الواحد إلى المشرق ، تلك الرحلة التى بدأت من أشبيلية حيث كان يعيش فى كنف الأمير أبى إسحاق فى موضع الإعزاز والكرامة ، والتى انتهت به إلى شكوى الفقر والاختلال والهموم والغموم والأحزان ؟

لغير الحج ولا شك كانت رحلته تلك ، ولغير طلب العلم أيضا ؛ فلو أنها كانت للحج لما تأخر عن أداء الفريضه من سنة ٦١٣ — وهى السنة التى بدأ فيها رحلته — إلى سنة ٦٢٠ — وهى السنة التى حج فيها ؛ ولو أنها كانت للعلم لسمعنا من روايته وقرأنا من خبره فى مساند الحديث مايشير إلى بعض ما حصّله من العلم فى السنين السبع أو الثمان التى قضاها فى المشرق منذ غادر الأندلس إلى أن أملى كتاب المعجب ؛ وإذن فإن رحلته لم تكن للحج والزيارة ، ولا للعلم والرواية ، ولكنها كانت لسبب آخر يتصل من قريب أو من بعيد بتطورات السياسة المغربية فى تلك السنين ؛ فقد عرفنا عرفانا لايتطرق إليه الشك أن عبد الواحد كان ينتمى فى المغرب إلى أسرة عربية مجيدة يباهى بالانتساب إليها (١) .

وأن أسرته هذه كانت من الغنى والجاه بحيث أتيح له فى سنّ مبكرة أن يرود أقطار المغرب فى العُدوتين ذهابا وجيئة مرات عدة (٢) .

وأنه كان أهلا لأن يتلقى أنباء الفتوح فى إبّانها من جهة كتاب الموحدين المتولّين لذلك الأمر (٣) .

---

(١) انظر حديثه مع ابن زهر ص ٨٨ — ٩٢

(٢) انظر ما اقتبسنا من تلخيص حياته فى ص ح من هذه المقدمة ،

(٣) انظر ص ١١٦

وأنه كان يشهد بيعة السلطان (١) ، ويتاح له أن يخلو إليه (٢) ، ويتخذ من ولده صديقاً يأنس إليهم ويتلقى عنهم أخبار القصر مشافهة أو فى رقاع مكتوبة (٣) .

وأنه كان صاحب رأى فى سياسة الدولة يتيح له أن يقول فى سرٍّ أو فى علانية : إن ذلك الأمير كان أحق بعرش الموحّدين من ذلك الأمير وأنه أكفأُ له وأنهضُ بأعبائه ! (٤) .

عرفنا ذلك كله عرفان اليقين ، وعرفنا معه أن عرش الموحّدين فى تلك الحقبة من حياة عبد الواحد المراكشى كانت تتنازعه أسباب الانتقاض والفتنة ، ففى كل بلد ثائر من بنى عبد المؤمن أو من زعماء البربر ورؤساء القبائل أو من قادة الجند يحاول أن يستأثر بالحكم فيما يليه من البلاد ، فما تزال السرايا ذاهبة آيبة لتأديب العصاة والثائرين ، وما تزال الطير تأكل من الرءوس المعلقة على أبواب مراكش وفاس .

وقد كان الخليفة على عرش الموحدين فترة من ذلك العهد هو السلطان محمد الناصر ، ابن السلطان أبى يوسف المنصور ، وأخو الأمير أبى إسحاق إبراهيم حاكم أشبيلية وصديق المراكشى ؛ ثم ولى ذلك العرش من بعده ولده أبو يعقوب الثانى ، وكان عبد الواحد من شهود بيعته ؛ وعمه أبو إسحاق لم يزل حاكما على أشبيلية (٥) ، وهو الذى يصفه عبد الواحد فيقول إنه خير أبناء المنصور

---

(١) انظر ص ٣٢٦

(٢) « « ٣٢٨

(٣) « « ٢٤٥ و ٣٠٨ ـ ٣٠٩

(٤) « « ٣٠٨

(٥) كانت ولاية الناصر محمد فى سنة ٥٩٥ ، وظل على العرش إلى أن مات فى سنة ٦١٠ ، ثم ولى العرش من بعده ولده أبو يعقوب ، فأقام على العرش إلى مابعد هجرة عبد الواحد من المغرب بسنين ذات عدد

وأجدرهم بالأمر « لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطّراح الهوى » .

وكان الأمير أبو إسحاق هـذا قد وزر لأخيه الناصر فترة [1] ، ثم خُلع عن الوزارة وأُبعد ثانية إلى أشبيلية ، ومن أصفيائه هنالك عبد الواحد . . .

. . . ثم نرى عبد الواحد يودّع صديقه أمير أشبيلية وداعاً لا لقاء بعده ، ليبحر إلى المشرق ، متنقلا بين بلاده فى هم وغم واضطراب وقلق وفقر وحاجة ...

فمن ذا يزعم بعد ذلك أن عبد الواحد قد مضى فى هذه الرحلة مختاراً ليخلّف ما كان فيه من الجاه والنعيم إلى الفقر والقلق واضطراب العيش ؟

لم يهجر عبد الواحد بلاده إذن مختاراً كما كان يهجر المغاربة بلادهم فى تلك السنين للحج أو لطلب العلم ، وإنما هجرها مكرها لسبب من تلك الأسباب السياسية الكثيرة التى يُبعد لمثلها الزعماء وأهل الرأى عن بلادهم فى أيام الجور والطغيان . . .

وفى ذلك المنفى الذى أُلجئ إليه بلا إرادة ، أنشأ كتابه « المعجب » : استجابة لدعاء الوزير العباسى الذى أصفاه ودّه وأغدق عليه إحسانه ، واستجابة فى الوقت نفسه لتلك العاطفة التى كانت تدفئ صدره شوقاً إلى بلاده وحنيناً إلى صحابته هناك وأهله . . . وليس مثلَ اجترار الذكريات دواءٌ من داء الحنين إلى الأهل والوطن !

* * *

وقد قدّمت فى صدر هذا البحث موجزاً فى وصف ذلك الكتاب فلا أعود إليه ؛ وإنى لأرجو أن يصف الكتابُ نفسه لقارئه أبلغ مما أستطيع أن أصف ؛ ولكنى لا أرى مندوحة من الإشارة إلى الحظ التعس الذى صاحب مؤلفه حيا وميتا ؛ ذلك الحظ الذى حرَم قراءَ العربية وعلماء التاريخ

---

(١) انظر ص ٣٠٨

إلى اليوم - وقد يكون إلى الأبد - من الانتفاع بنسخة كاملة من كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ؛ فكما اندثر ذِكر مؤلفه المراكشي في بلاده وفي بلاد هجرته منذ قرون عدّة ، اندثر كذلك كتابه ، فليس منه اليوم - فيما نعلم - إلا مخطوطة واحدة غير كاملة في مكتبة ليدن ، وأحسبها قد جُلبت من المشرق : الشام أو العراق ؛ وعن هذه المخطوطة أخرج العلّامة دوزى الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سنة ١٨٤٧ منذ أكثر من مائة عام ، ثم طُبع بعد ذلك في مصر بلا تحقيق طبعتين نقلا عن طبعة دوزى باسم « تاريخ الأندلس » ، ثم طبعه دوزى طبعة ثانية لم تصل إلَيَّ ؛ وعن هذه الطبعة أو عن الطبعة الأولى - لا أدرى - أخرجته شركة النشر المغربية بفاس سنة ١٩٣٨ بتحقيق الأستاذ محمد الفاسي المراكشي ، ثم كانت هذه الطبعة . . .

* * *

قلت إن المخطوطة الفريدة من هـذا الكتاب ، والمحفوظة في مكتبة ليدن ، غير كاملة ؛ ذلك لأن كراسة تضم عشرين ورقة منها قد فقدت ؛ ويشير تسلسل التاريخ إلى أن هذه الكراسة كانت تتضمن الحديث عن تتمة تاريخ الحكم بن هشام ومن وليه من أمراء بني أمية بالأندلس إلى عهد الحكم المستنصر ، وقد كانت ولاية الحكم بن هشام في صفر سنة ١٨٠ ، وكانت ولاية الحكم المستنصر في رمضان سنة ٣٥٠ ، فبين الحَكَمَين نحو مائة وسبعين سنة ، تضمنت تاريخَها تلك الصفحاتُ العشرون المفقودة .

ومن الواضح أن عشرين صفحة لا يمكن أن تصف تاريخ مائة وسبعين سنة إلا على سبيل الإيجاز والسرد بحيث لا يكون ضياعها أمراً ذا بال إلا من حيث القيمة الفنية لمخطوطة نادرة كهذه المخطوطة ولكننا مع ذلك لم نقطع الأمل في تكميل هذا النقص بكل وسيلة ممكنة .

ولما كانت هـذه الفترة من تاريخ المغرب ، أو من تاريخ الأندلس ، تسبق مولد المؤلف بقرون عدّة ، فإن من المؤكد أنه لم يكن مصدراً أصيلا فيما يروى من أخبارها ، وإنما نقل عن غيره ممن سبق من أهل التاريخ ؛ وإذن فقد كان علينا لنستكمل هذا النقص أن نبحث عن المصادر الأصيلة التى اقتبس عنها المراكشى مارواه من تاريخ تلك الحقبة ؛ وقد أثبت لنا البحث أن المرجع الذى كان المؤلف يعوِّل عليه كل التعويل فيما ينقل من تاريخ أمراء بنى أمية بالأندلس ، هو كتاب « جذوة المقتبس » لأبى نصر الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ . وتوجد منه مخطوطة فريدة فى أكسفورد ، يمكن استنساخها أو تصويرها للاستعانة بها على تكميل ذلك النقص . . .

على أننا حين التمسنا أسباب الحصول على صورة من كتاب جذوة المقتبس لم يتيسر لنا ذلك فى يسر وسرعة ؛ فلم نر بأساً من الاستعانة بغيره من مراجع التاريخ المعاصرة ريثما تتيسر تلك الأسباب ؛ فأثبتنا فى موضع النقص من هامش تلك الطبعة تاريخاً موجزاً لتلك الحقبة ، ونبهنا إلى تلك الزيادة فى مواضعها من الأصل ومن الحاشية (١) . . .

وإذ كان الخرم فى النسخة قد بدأ عند الحديث عن تاريخ الحكم بن هشام الأموى قبل تمام قصة يرويها عن الفقيه طالوت المعافرى ، فقد التزمنا إتمام القصة فى صلب الكتاب كما رواها أهل التاريخ بين علامتَى الزيادة [ ] حرصاً على أمانة النقل .

ثم تسلسلنا بالتاريخ فى هامش الكتاب من آخر عهد الحكم بن هشام إلى عهد الحكم المستنصر ؛ ليتصل التاريخ بعضه ببعض ؛ ولكن صعوبةً ما قد عرضتْ لنا حين وجدنا أول الحديث بعد الخرم شعراً لأبى عمر الرمادى ـ من

(١) انظر ص ٢٢ — ٢٣

شعراء دولة الحكم المستنصر - لا نعرف أوّله ولم نقف على مصدر من مصادره ، وهو شعر ينظم قصة معروفة ، مروية فى كثير من كتب الأدب ، ولكننا لم نقف عليها منظومةً قبل أن نطالع ماجاء منها فى كتاب المعجب ؛ وثمة صعوبة أخرى ؛ هى أن المناسبة التى رُويت لها هذه القصة الشعرية لم تكن واضحة على الحقيقة ولا على التخمين والحدس ؛ إزاء ذلك لم نجد بُدًّا من بقاء النص الشعرى على نقصه ، مع رسم علامة الحذف ... ...

وبذلك تساوق موضوع الكتاب وتسلسلت فصوله إلا فى موضع واحد ، هو الموضع الذى بدأ عنده ذلك الشعر .

ومضينا فى طبع الكتاب حتى انتهى ، ثم وصلت إلينا النسخة المصوَّرة من كتاب « جذوة المقتبس » التى طلبناها من جامعة أكسفورد بمعونة دار الكتب الملكية بالقاهرة ؛ وفى هذه النسخة المصورة وجدنا تمام النقص !

وهانحن نورد فيما يلى تمام هذا الشعر ومناسبته ، نقلا عن جذوة المقتبس للحميدى ؛ ليكون ذكر ذلك فى هذا الموضع من المقدّمة ، تعويضا مما فاتنا ذكره فى صلب الكتاب [1] .

قال الحميدى :

« وكان [الحكم المستنصر] قد رام قطع الخمر من الأندلس ، فأمر بإراقتها وتشدّد فى ذلك ، وشاوَرَ فى استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، فقيل له : إنهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك .

« وفى أمره بإراقة الخمور فى سائر الجهات يقول أبو عمر يوسف بن هارون الكِندى قصيدته المشهورة فيها ، متوجعا لشاربها ؛ وإنما أوردناها تحقيقا لما

---

(١) موضع هذه القصة فى أول الصفحة رقم ٢٣ من هذه الطبعة ؛ فمن شاء من مقتنى الكتاب فليثبت هذا النقص فى موضعه هناك بخطه .

ذكرنا عنه من ذلك ، وهى قوله :

بخطب الشاربين يضيق صدرى ... وتُرمِضنى بليَّتُهم لعمرى !
وهل هم غيرُ عشاق أُصيبوا ... بفقد حبائب ومُنُوا بهجرِ
أعُشّاقَ المدامة إن جزعتم ... لفُرقتها فليس مكانَ صبرِ !
سعى طُلابُكم حتى أُريقت ... دماءً فوق وجه الأرض تجرى
تضوّعَ عَرفُها شرقا وغربا ... وطبّق أُفْقَ قُرطبةٍ بعطر
فقل للمُسْمِحِين لها بسفح ... وما سكنْتُه من ظَرفٍ بكسر ،
وللأبواب إحراقا إلى أنْ ... تركتم أهلَها سكانَ قفرِ :
تحرّيتم بذاك العدلَ فيها ... بزعمكمو ، فإن يك عن تحرّى . . .
. . . فإن أبا حنيفة وهو عَدْلٌ ... وفَرَّ من القضاء مَسيرَ شهر . . .
فقيه لا يدانيه فقيهٌ ... إذا جاء القياسُ أتى بدُرِّ ،
وكان من الصلاة طويلَ ليلٍ ... يُقطّعه بلا تغميض شفْر ،
وكان له من الشُرَّاب جارٌ ... يواصل مَغْرِبا فيها بفجر
وكان إذا انتشى غَنَّى بصوت الْمُضَاعِ بسجنه من آل عمرو :[1]
« أضاعونى وأىَّ فتّى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ ! »
فغيّبَ صوتَ ذاك الجارِ سجنٌ ... ولم يكن الفقيهُ بذاك يدرى ،
فقال وقد مضى ليلٌ وثانٍ ... ولم يسمعه غَنَّى : ليت شعرى . .
. . . . الخ الخ . . .

* * *

وثمة نقص آخر فى كتاب المعجب التزمنا إكماله ؛ ذلك أن الكتاب ـ على

(١) يعنى العرجى الشاعر .

ماقدّمنا من وصفه - يعتبر مرجعا أصيلا فى تاريخ دولة الموحّدين ؛ وتلك ميزته الأولى ، ولكن دولة الموحدين - وإن كانت قد دخلت فى طور الانحلال منذ وفاة الناصر محمد بن المنصور - لم ينته أجلها على التحقيق إلا فى سنة ٦٦٨ ، وكان فراغ المراكشى من إملاء كتابه فى سنة ٦٢١ ، قبل انتهاء أجل الدولة ببضعة وأربعين عاما ؛ فرأينا تكميل ذلك النقص بوصف الأحداث التى جرت على الدولة منذ التاريخ الذى انتهى إليه عبد الواحد فى إملائه ، إلى آخر عهد الموحدين فى المغرب والأندلس سنة ٦٦٨ ، ليكون عصر الموحدين كاملًا بين دفتى كتاب لم يؤلَّف مثله عن دولة الموحّدين .

وقد أثبتنا هذه التكملة التى أضفناها ، فى هامش الصفحات ، تمييزاً لها عن أصل الكتاب [1] .

* * *

أما بعد ، فهذا كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » لم نأل جهداً فى إخراجه على أكمل وجه يمكن أن يخرج فيه لقراء العربية ؛ ولسنا نحاول أن نصف مابذلنا له من الجهد بأكثر مما يصف هذا الجهد نفسه فى كل صفحة من صفحاته .

نسأل الله أن يضاعف النفع به ، وأن يجعل عملنا فيه خالصا لوجهه الكريم ؟

ذو الحجة سنة ١٣٦٩
أكتوبر سنة ١٩٥٠

محمد سعيد العريان

---

(١) انظر ص ٣٣٣ — ٣٣٦

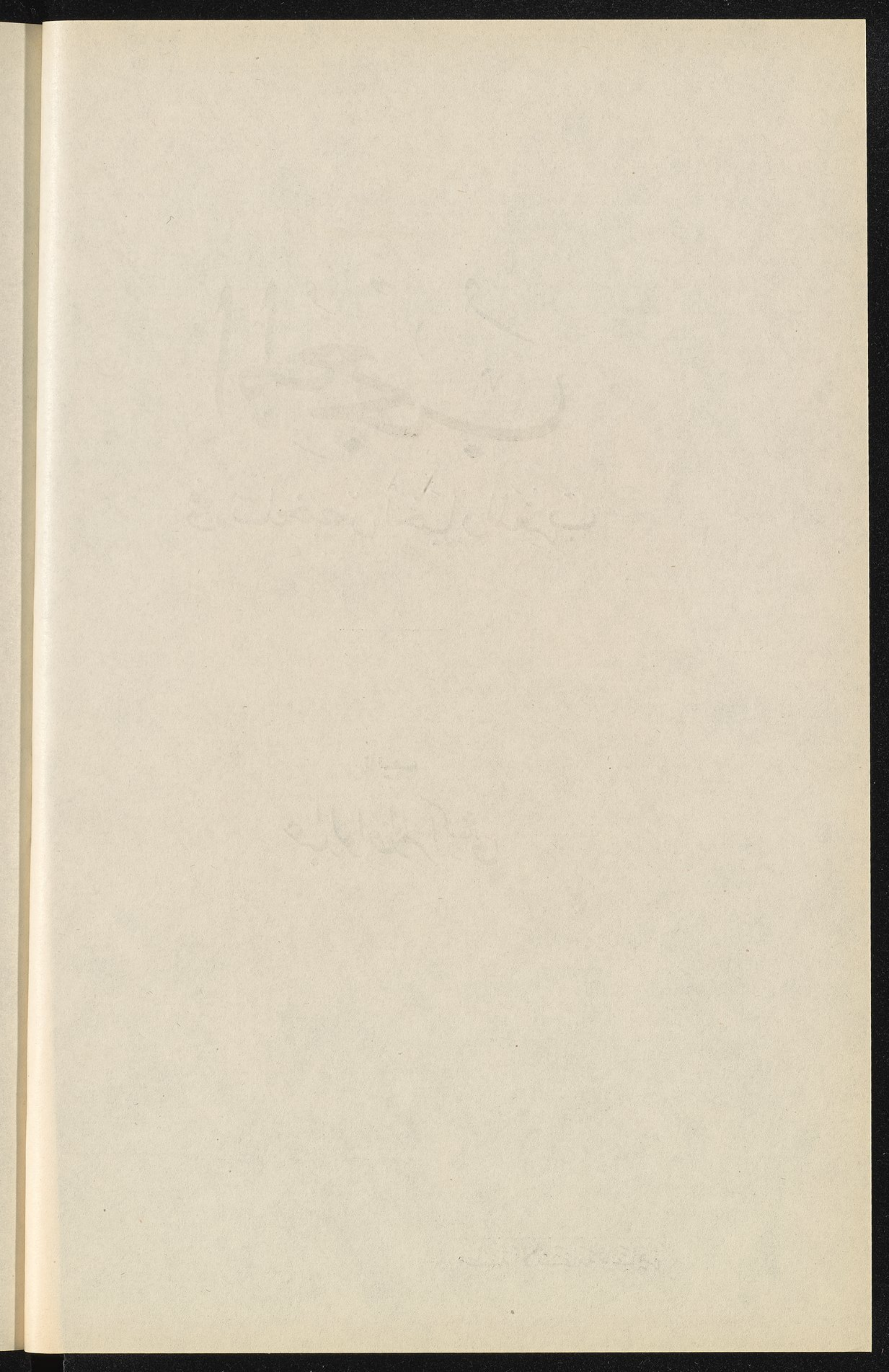
المُعْجِبُ

فى تلخيص أخبارِ المغْرِب

تأليف

عبد الواحِد المراكشي

مطبعة الاستقامة بالقاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفنى الأمم ، وباعث الرمم ، وواهب الحكم ، [ذى] البقاء والقِدم ، الذى لامطمع فى إدراكه لثواقب الأذهان ونوافذ الهمم ؛ أحمده على ماعلّم وألهم ، وسوّغ وأنعم ؛ وصلى الله على كاشف الظُّلم ، ورافع التُّهم ، ومُوضح الطريق الأَمم (١) ، المخصوص بجوامع الكَلِم ؛ والمبتعثِ إلى جميع العرب والعجم ، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم ، وسلّم عليه وعليهم وشرّفَ وعَظّم .

وبعد - أيها السيد الذى توالت علىّ نِعمُه ، وأخذ بضَبْعى (٢) من حضيضِ الفقر والخمول اعتناؤه وكرمُه ، وقضى إحسانُه إلىّ ومحبتُه التى جُبلتُ عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ماأنا مُلتزِمُه - فإنك سألتنى - بوأك الله أعلى الرتب ، كما عمّر بك أندية الأدب ، ومنحك من سعادتى الدنيا والآخرة أوفر القِسَم ، كما جمع لك فضيلتى التدبير والقلم - إملاءَ أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره ، وشىء من سِيَر ملوكه ، وخصوصا ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداءِ دولتهم إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وأن ينضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيتُه أو لقيتُ من لقيه أو رَويتُ عنه بوجه مّا من وجوه الرواية ، من الشعراء

---

(١) الطريق الأمم : القريب البين .

(٢) أخذ بضبعي : بيدى وانتشلنى . والضبع بسكون ثانية : العضد ؛ وبضمه : الحيوان المعروف .

والعلماء وأنواع أهل الفضل ؛ فلم أر بُداً من إسعافك والمسارعة إلى مافيه رضاك ؛ إذ هى الغاية التى أجرى إليها ، والبغية التى أثابر أبداً عليها ؛ ولوجوب طاعتك علىَّ من وجوه يكثر تعدادُها ؛ فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى إليه ، واستعنته واعتمدت فى كل ذلك عليه ؛ فهو الموئل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا مع أنى أعتذر إلى مولانا ـ فسَح الله فى مدته ـ من تقصير إن وقع ، بثلاثة أوجه من الأعذار :

فأولها ضعف عبارة المملوك وغَلَبَةُ العِىِّ على طباعه ، فمهما وقع فى هذا الإملاء من فتور لفظ ، أو إخلالٍ بسرد ، فهو خليق بذلك .

والوجه الثانى أنه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىء أعتمد عليه وأجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصا فلم يقع إلىَّ لأحدٍ فيها تأليفٌ أصلا ، خلا أنى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها ، وهذا المجموع لاأعرفه إلا سماعا .

والوجه الثالث أن محفوظاتى فى هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ؛ أوجبتْ ذلك همومٌ تزدحم على الخاطر ، وغموم تستغرق الفكر ، فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضى ، لازال مجده العالى يرفع الهمم ، ويعقد الذمم ، ويوصل النعم ، ويعمر ربوع الفضل والكرم .

فصل

فى ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول مايقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس [١] وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١؛ إذ هى كانت معتمَدَ المغرب الأقصى، والمعتبرة منه، والمنظورَ إليها فيه؛ وهى كانت كرسىَّ المملكة، ومقرّ التدبير، وأمَّ قُرَى تلك البلاد: لم يزل هذا معروفا من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتونى [٢]؛ فصارت إذ ذاك تبعا لمرّاكش من بلاد العُدْوَة [٣]، ثم تغلب عليها المصامدة بعده [٤]، فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، فأقول وبالله التوفيق:

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبى منتهى الخليج الرومى الخارج من بحر مانطس، وهو البحر الرومى [٥] مما يقابل طنجة [٦]، فى موضع يعرف

---

(١) الجزيرة: الأرض التى يدور بها الماء من جميع جهاتها، وليست الأندلس كذلك، فهى تتصل من الشرق بالأرض الكبيرة «فرنسا»؛ وإنما سميت جزيرة على المجاز، كما سميت جزيرة العرب فى آسيا جزيرة وليست كذلك.

(٢) يعنى دولة المرابطين، وسيرد ذكرها فيما يأتى من الكتاب.

(٣) العدوة فى الأصل: المكان المتباعد، وشاطىء الوادى، ويعنى بها هنا: بلاد الشاطىء الأفريقى، أو المغرب الأقصى، وقد يعنى بها فى بعض مايلى من الكتاب: الشاطىء الأندلسى، وكلا التعبيرين صحيح.

(٤) يعنى دولة الموحدين بنى عبد المؤمن.

(٥) يعنى البحر المتوسط، ومانطس عند الجغرافيين العرب القدماء، هو اسم للبحر الذى نسميه الآن بحر آزوف، ويستطرق بحر آزوف هذا إلى البحر الأسود، الذى يستطرق إلى بحر مرمرة، إلى البحر المتوسط: وهو بحر الروم عند القدماء، فكأنما سماه المراكشى بحر مانطس وهو يعنى بحر الروم، تبعاً لاستطراق الماء إلى أقصاه من ناحية المشرق.

(٦) مرفأ على الساحل الأفريقى من بلاد مراكش، يلى أمرها خليفة من قبل السلطان فى =

بالزُّقاق ، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا ؛ وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعنى بحر مانطس وبحر أُقيانس (١) ، وحداها الشمالى والمغربى البحر الأعظم ، وهو بحر أُقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة ، وحدها المشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل مابين البحرين: بحر الروم وهو مانطس، والبحر الأعظم ؛ ومسافة مابين البحرين فى هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس ؛ وحدّاها الأكبران الجنوبى والشمالى مسافةُ كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة ؛ وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكلَ الزهرة الذى هو الحد المشرقى من الأندلس ، هو الحاجز مابين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسة من الأرض الكبيرة ، أرض الروم التى هى بلاد إفرنجة العظمى (٢) .

= الرباط ، وتخضع فى الظروف الراهنة لنظام دولى معقد يرجى تعديله بحول الله إلى نظام أمثل يحفظ لها عروبتها وكرامتها الوطنية . وطنجة مدينة عريقة ، كان اسمها عند الرومان طنجيس (Tangus) وكان بها مولد الرحالة العربى الشهير ابن بطوطة .

(١) هوالأوقيانوس ، أوالمحيط الأطلسى ، نسبة إلى سلسلة جبال أطلس التى تشرف عليه من المشرق ؛ وله فى كتب القدماء أسماء شتى ؛ فهوالأوقيانوس ، وبحرالظلمات ، أو بحرالظلمة ؛ والبحر الأخضر ، والمحيط ؛ وإليه بلغ عقبة بن نافع الفهرى فى فتوحه فى القرن الأول للهجرة ، وعلى شاطئه وقف على صهوة جواده وقفته المأثورة وهويقول : « اللهم رب محمد ، لولا أنى لاأعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا ... » أو كما قال .

ترى ماذا كان يحدث لو أن عقبة كان يعلم يومئذ أن وراء ذلك الهول المائج بلاداً وناساً ودنيا تعدل فى الغنى والعمران سائر بلاد الدنيا القديمة !

ولكن أحفاد عقبة من عرب الأندلس قد علموا فيما بعد ، ووطئت أقدامهم أرض أمريكا قبل أن تطأها قدم كولمبوس بسنين ، ولكنهم — واأسفا — قد ضيعوا الأمانة وأفلتوا الفرصة فنسب فضل اكتشاف أمريكا دونهم إلى نصارى الأسبان !

وقد يسمى هذا المحيط بالمحيط الأطلنطى ، نسبة إلى « أطلنطا » وهى الجزيرة الرملية التى خسف بها فى متاهات الصحراء الكبرى على ماجاء فى بعض الأساطير .

(٢) كل مايلى شبه جزيرة الأندلس شرقا إلى القسطنطينية ، كان يسمى عند القدماء بالأرض الكبيرة ، أو بلاد إفرنجة ، وقاعدتها رومية .

والأندلس آخر المعمور فى المغرب [١] ، لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أقيانس الذى لاعمارة وراءه.

ومسافة مابين طُلَيطلة التى هى قريبة من وسط الأندلس ، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة ، قريب من أربعين مرحلة ، ووسط الأندلس كما ذكرنا مدينة طُليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ماسيأتى بيانه ، وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، على البحر الجنوبى منها [٢] ، وعرضها ست وثلاثون درجة ؛ وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة .

فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس فى الإقليم الخامس أميلُ إلى الشمال ؛ فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغِلَظ ماهى ، فنبتْ عن كثير من الحكمة .

وطائفة من الأندلس فى الإقليم الرابع ، كأشبِيليَةَ ومالقة وقُرطُبة وغَرناطة والمرِيَّة ومُرسِية ، فهذه البلاد التى ذكرنا فى الإقليم الرابع أعدلُ هواء وأطيبُ أرضا وأعذب مياها من البلاد التى فى الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألوانا وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك ؛ إذ كان للميول والسُّموت

(١) كذلك كانت معارفهم إلى ذلك الوقت ، قبل اكتشاف القارة الأمريكية .

(٢) يعنى بحر الروم .

فى اللغات تأثير بين لمن استقرا ذلك وفهم علته (١).

وجملة مدن الأندلس التى هى أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضعُ مخاطبات أولى الأمر منها: أُولاها فى الحد الشمالى مدينة شِلْب، ثم مدينة أشبيليَّة، ثم قُرْطُبة، ثم جيَّان، ثم أَغِرناطة (٢)، ثم المرِيَّة، ثم مُرسِيَة، ثم بَلنْسِيَة، ثم مالقة وهى على البحر الرومى.

فالذى على البحر الأعظم من هذه المدائن: شلب، وأشبيلية، وبينهما قريب من خمس مراحل.

والذى على البحر الرومى المدينةُ المعروفة بالجزيرة الخضراء، وهى من أعمال أشبيلية؛ ثم مالقة، وهى مستقلة، ثم المرِية، ثم دانية؛ هذه كلها على البحر الرومى.

ثم سائر ماذكرنا من المدن ليست على ساحل.

ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس فى غُرة المائة الثانية، تخيروا مدينة قُرطبة فجعلوها كرسىَّ المملكة ومقر الإمارة، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية بالأندلس، فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلِّبٌ على ماسيأتى بيانه.

وهذه المدن التى ذكرتُ هى التى يملكها المسلمون اليوم، وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها فى هذا الموضع؛ إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتى من تفصيل أخبار الأندلس، تعرف ذلك بقولى «أعادها الله للمسلمين».

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدى المسلمين.

---

(١) يقرر المراكشى هنا قاعدة فى علم الأحياء وعلم النفس الاجتماعى لانعرف أحداً عرض لها غيره، إلا ابن خلدون بعده بقرنين من الزمان.

(٢) كذلك تسمى، كما تسمى غرناطة، بفتح فسكون، وكانت آخر مابقى فى يد العرب حتى أجلاهم عنها الأسبان.

ذكر فتح جزيرة الأندلس

ولمع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها

ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق :

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس فى شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وكان فتحها على يدى طارق ، قيل ابنِ زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان والياً على طنجة ، مدينةٍ من المدن المتصلة ببرّ القَيْرَوان (١) فى أقصى المغرب ، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزُّقاق ، وبالمجاز ، رتّبه موسى بن نصير أمير القيروان ؛ وقيل إن مروان بن موسى بن نصير خلَّف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأمرٍ عَرَض له ، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزاً لفرصة أمكنته ؛ وذلك أن الذى كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم (٢) خَطَب إلى

(١) كانت مدينة عظيمة بالمغرب ، بناها عقبة بن نافع سنة ٤٥ هـ وجعلها معقلا وحصنا لعسكره ، ومقرا لولاة أفريقية ؛ وإليها ينسب الحسن بن رشيق صاحب « العمدة »
والقيروان فى اللغة : القافلة تخرج للغزو .

(٢) يذكر المراكشى فيما يلى سببين لدخول طارق الأندلس ، خلاصتهما أن الذى حبب إليه ذلك هو حاكم الجزيرة الخضراء من قبل ملك القوط ؛ والذى عليه أكثر المؤرخين أنه كان حاكما لسبتة أو طنجة ، على الشاطئ المغربى ، ويصفه ابن القوطية بأنه كان تاجراً من تجار العجم ، يعنى الروم ، أو القوط ، لا أميرا من أمرائهم ولا حاكما من حكامهم ، واسمه يوليان ، « وكان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر — المغرب — ويجلب إلى لذريق عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب ؛ فتوفيت زوجة ذلك التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره لذريق بالتوجه إلى العدوة ، فاعتذر له =

الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعّده ، فلما بلغه ذلك جمع جموعا عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقا خلوّ تلك الجهة ، فهذه الفرصة التى انتهزها ...

وقيل إن العلج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره ، وهو أن لُذْرِيقَ مِلك الجزيرة لعنه الله كان له رسمٌ : يوجّه إليه أعيان قواده و [أمراء دولته] ببناتهم ، فيربيهن عنده فى قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه ...... ؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحسُن أدبُها ، زوّجها فى قصره لمن يرى أنه كفءُ أبيها ، فوجّه إليه صاحبُ الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور ، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء ، فرآها يوماً فأعجبته ، فدعاها فأبت عليه ، وقالت : لا والله حتى تُحضِرَ الملوكَ والقواد وأعيانَ البطارقة وتتزوجَنى ، هذا بعد مشورة أبى ! فغلبتْه نفسه واغتصبها على نفسها ، فكتبت إلى أبيها تُعلمه بذلك ؛ فهذا كان السببَ الذى بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح ، فالله أعلم أىّ ذلك كان .

فأول موضع نزله فيما يقال منها : المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم ، نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه ، فبُنى بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، أسأل الله إبقاءه إلى أن تقوم الساعة ...

= بوفاة زوجته وأنه ليس له أحد يترك ابنته معه ، فأمر بإدخالها للقصر ، فوقعت عين لذريق عليها فاستحسنها فنالها ، فأعلمت أباها بذلك عند قدومه . . . نقصد طارق بن زياد فرغبه فى الأندلس وذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل شجاعة . . . »

ثم دخل طارق هذا الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى بن نصير مُولِّيه بخبر الفتح وغلبتِه على ما غلَب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يُعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده ، إذ دخلها بغير إذنه ، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذى ينتهى إليه الكتاب فيه حتى يلحقَ به ، وخرج متوجهاً إلى الأندلس ، واستخلف على القَيروان ابنه عبد الله ، وذلك فى رجب من سنة ٩٣ ، وخرج معه حبيب بن أبى عبدة الفهرى (١) ووجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فى عسكر ضخم ، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريق الملك ـ لعنه الله ـ بالأندلس ، فتلقاه طارق وترضّاه ، ورام أن يستلّ مافى نفسه من الحسد له ، وقال له : إنما أنا مولاك ومن قِبلك ، وهذا الفتح لك وبسببك ؛ وحمل طارقٌ إليه ما كان غَنم من الأموال ؛ فلذلك نُسب الفتح إلى موسى بن نصير ، لأن طارقا من قِبله ، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقى على موسى .

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً وجامعا للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهراً من سنة خمس ، وقبض على طارق ، ثم استخلَف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى ، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدّ الثغور وجهاد العدو ، ورجع إلى القيروان ، ثم سار

(١) فى غيره : حبيب بن أبى عبيدة . جده عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح فى أفريقية .

منها بما حَصَل له من الغنائم وأعدّه من الهدايا إلى الوليد بن عبد الملك ـ وكان مما وَجد بمدينة طُليطلة حين فتحها ، مائدةُ سليمان بن داود عليهما السلام ، فيقال إنها طوق ذهب وطوق فضة ، مكللة باللؤلؤ والياقوت ـ ومعه ـ فيما يقال ـ طارق ، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية فى سنة ٩٦ ، فحمل ماكان معه إلى سليمان بن عبد الملك ؛ ويقال إنه وصل وأدرك الوليد حيا ، فالله أعلم .

وأقام عبد العزيز بن موسى بن نصير أميراً على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة ، فيهم حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، وزياد بن النابغة التميمى ، فقتله بعضهم ، وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك ـ وذلك فى صدر سنة ٩٨ ـ [١] بعد أن أمّروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير [٢] ؛ ويقال إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكروا من أمره ، فأمرهم بما فعلوه ، فالله أعلم .

ثم اختلف الأمر هنالك ، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم وال ، ثم وَلِىَ عليها السَّمْحُ بن مالك الخَوْلانى قبل المائة [٣] ، واجتمع عليه الناس ، ثم ولى عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ، ثم وليها عنبسة بن سحيم

---

(١) كان مقتله فى المسجد وهو قائم لصلاة الصبح ، وكان قد اتخذ داراً فى كنيسة تشرف على مرج أشبيلية ، ونكح امرأة لذريق القوطية وسماها أم عاصم ، وآواها إلى داره تلك ، وابتنى على باب الدار مسجداً هو الذى قتل فيه ، وقد بقى دمه فى ذلك المسجد زمانا !

(٢) هو أيوب بن حبيب اللخمى .

(٣) كانت الأندلس يومئذ إلى والى أفريقية يولى عليها من يختار ، وكانت ولاية أفريقية بعد عزل موسى بن نصير إلى عبد الله بن يزيد مولى قيس ، فولى على الأندلس من قبله الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فلم يزل عليها حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، فجعل على أفريقية إسماعيل ابن عبد الله مولى بنى مخزوم ، وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولانى .

الكلبي وعُزل الغمر بن عبد الرحمن ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكى نحواً من العشر ومائة ، وكان رجلا صالحا ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى ، ثم عقبة بن الحجاج ، فهلك عقبةُ بالأندلس ورُدَّ عبد الملك بن قطن ، ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك ، وشهد له بعض من كان معه ، ووقعت فتن من أجل ذلك ، وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء ، حتى ارسل إليهم والياً أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فحسم مواد الفتن ، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة ؛ وفى تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف ، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بنى أمية قبل ذهاب دولتهم فى المشرق (١) .

---

(١) لم يتفق اثنان من رواة التاريخ — فيما وقفنا عليه — على تسمية الأمراء فى هذه الفترة أو تعاقبهم ، فثمة النقص والزيادة والتقديم والتأخير ؛ وإنما كان ذلك لأن الأندلس لذلك العهد لم تكن خالصة التبعية إلى الخليفة الأموى فى دمشق ، بل كانت تتبعه حينا وحينا تتبع والى أفريقية ؛ ومن ثمة كان هذا الاختلاط والاختلال .

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكر هاهنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط :

فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، يروى عن أبى هريرة .

ومنهم حنش بن عبد الله الصنعانى ، يروى عن على بن أبى طالب وفضالة بن عبيد .

ومنهم عبدالرحمن بن عبد الله الغافقى ، يروى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب .

ومنهم يزيد بن قاسط ، وقيل ابن قسيط ، السكسكى المصرى ، يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

ومنهم موسى بن نصير الذى يُنسب الفتح إليه ، يروى عن تميم الدارى .

فصل

[فى فضل المغرب]

وقد جاء فى فضل المغرب غير حديث ، فمن ذلك ماحدثنى الفقيه الإمام المتقن المتفنن أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل الشيبانى سماعا عليه بمكة فى شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال : حدثنى المؤيد بن عبد الله الطوسى قراءة عليه بنيسابور قال : حدثنا الإمام كمال الدين محمد بن أحمد بن صاعد القراوى قراءة عليه قال : حدثنا ابن عبد الغافر الفارسى : حدثنا محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودى : حدثنا أبوإسحاق إبراهيم بن سفيان : حدثنا أبوالحسين مسلم بن الحجاج

القشيري النيسابوري قال : حدثنا يحي بن يحي عن هشام بن بشر الواسطي عن داود بن أبي هند بن أبي عثمان النهدي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لايضرُّهم مَن خذَلهم حتى تقومَ الساعة » .

ومن فضل الأندلس أنه لم يُذكر قطُّ أحدٌ على منابرها من السلف إلا بخير (١) .

وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قِبل بني أمية أو من قِبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر ، فلما اضطرب أمرهم في سنة ١٣٦ بقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، اشتغلوا عن مراعاة أقاصي البلاد ، ووقع الاضطراب بأفريقية والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل ، ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة إلى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطَب ، ففعلوا ، وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فسكنت به الأمور ، واتفقت عليه القلوب ؛ واتصلت إمارته إلى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بني أمية بست سنين .

---

(١) يشير إلى بعض ما كان في المشرق نتيجة للتنافس على الخلافة ؛ فقد كان بنو أُمية يسبون عليا على منابر دمشق ؛ وكان بعض الشيعة في بلاد المشرق ينالون من الشيخين أبي بكر وعمر ؛ وكان العبيديون في مصر يذكرون معاوية ويزيد بالسوء ؛ واتسعت الفتنة في ذلك حتى أَثم به كل من خاض فيه ؛ وبرئ المغرب والأندلس من ذلك الشر !

ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس

وفى هـذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس ، الملقب بالداخل ؛ فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف بن عبد الرحمن بن أبى عبدة [١] بن عقبة بن نافع الفهرى الوالى على الأندلس المذكور آنفاً ، فهزمه ؛ واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك ، وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة ، فتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ .

وكان مولده بالشام سنة ١١٣ ، أمه أم ولدٍ اسمُها « راح » [٢] ويكنى أبا المطرف ، دخل الأندلس فى ذى القعدة ، واستولى على قرطبة دار مُلكها فى التاريخ المذكور ؛ وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بنى العباس ، فلم يزل مستتراً ينتقل فى بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ، ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال ، فلم يزل يُصرِّف حِيَله ويسمو بهمته والقدَرُ مع ذلك يوافقه ، إلى أن احتوى على مُلكها ومَلكَ بعض بلاد العُدوة ؛ وكان أبو جعفر المنصور إذا ذُكر عنده قال : « ذاك صقر قريش [٣] »

---

(١) انظر الهامش ص ١١

(٢) كانت أمه « راح » بربرية ، من بنى نفرة فى طرابلس ، وكذلك كانت أم أبى جعفر المنصور بربرية ؛ فما أعجب التوافق بين الرجلين فى الصرامة وبعد الهمة والاجتراء على العظائم ، وكلاهما أمه جارية من البربر !

(٣) روى ابن خلدون أن بنى أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وتتبعوا بنى أمية بالقتل — كان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية هـذا ، وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مسلمة بن عبدالملك (عم أبيه) . فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ونزل على أخواله بنى نفرة ، =

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل ؛ ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمى الحِمْصى ، وله أدب وشعر ، ومما أَنشد وقاله يتشوق إلى معاهده بالشام (١) قوله :

أيُّها الراكبُ الميمِّمُ أرضى * اِقْرَ من بعضِىَ السلامَ لبعضى

إن جسمى كما علمتَ بأرضٍ * وفؤادى ومالِكيه بأرضِ

قُدِّر البَيْنُ بيننا فافترقنا * وطوى البينُ عن جفونى غَمْضى

قد قَضى الله بالفِراقِ علينا * فعسى باجتماعنا سوف يَقضى !

وله شعر كثير أبرعُ من هذا أورده المؤرخون فى كتبهم (٢) ، وكانت مدة

= واستنصر بقوم من زناتة ، ثم انتقل إلى مكناسة فمليلة وبعث مولاه بدراً إلى أشياع بنى مروان فى الأندلس يستنصرهم ، فاجتمعوا عليه وبثوا له فى الأندلس دعوة ونشروا له ذكرا ، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمنية والمضرية ، فاجتمعت اليمنية على نصرته كيداً ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى ؛ وعبر عبد الرحمن المجاز والظروف مواتية ، ونشبت الحرب بينه وبين يوسف وهو ينتصر فى موقعة إثر موقعة ، حتى غلب يوسف على أمره واحتز رأسه ودخل قرطبة حاضرة الملك . . .

وظل عبد الرحمن الداخل يدعو للمنصور على منابر الأندلس زمانا ثم قطع دعوته ، ولكنه اكتفى من ذلك بلقب الأمير تأدبا مع الخلافة ، وظل خلفاؤه من بعده مقتصرين على لقب الإمارة ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو الثامن من أمراء بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين ، كان ذلك حين ضعف أمر الخلافة العباسية فى بغداد بعد المائة الثالثة ؛ وتوارث أبناؤه الإمارة من بعده إلى أن كانت آخرة الدولة المروانية فى الأندلس .

(١) كتب بها إلى أخته بالشام .

(٢) روى أن بعض أهله استقل ما رتب له من العطاء ، فكتب إليه يذكره بحقه ويسأله زيادة عطائه ؛ وكأنما شعر عبد الرحمن بعض المن فى كتاب قريبه هذا المروانى ، فكتب إليه مجيبا :

شتَّان من قام ذا امتعاضٍ منتضىَ الشفرتين نصلا

فجاب قفراً ، وشقّ بحرا ، مُسامياً لجةً ومَحْلا

دبّر مُلكا ، وشاد عزًّا ومنبراً للخطاب فصلا =

ولايته منذ استولى على قرطبة دارِ الملك إلى أن تُوفى ، اثنتين وثلاثين سنة .

= وَجنَّد الجندَ حين أودى ومَصَّر المصرَ حين أجْلى
ثم دعا أهـله إليـه حيث أنتاوا أن هَلُمَّ أهلا
فجـاء هـذا طريدَ جوعٍ شـديدَ روعٍ يخاف قتلا
فنال أمناً ، ونال شبْعاً ، ونال مالاً ، ونال أهـلا
ألم يكن حقٌّ ذا على ذا أعظمَ من مُنعِمٍ ومولى !

ويروى هـذا الشعر على وجه آخر لسبب آخر ؛ ذلك أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام كانوا يتحدثون فى مجلسه عن شجاعة الغمر بن يزيد بن عبـد الملك فى مجلس عبد الله بن على السفاح أيام المحنة ، حين جبهه بالمعارضة لم تردعه هيبة مجلسه ولا سيوف شيعته الحافين من حوله ، مستطيلا بنسبه وآله والملوك من آبائه ، حتى أغص عبد الله بن على بريقة ، لم يسكت حتى تناولته سيوف بنى العباس تمزقه . . .

فكأن الأمير عبدالرحمن حين استمع إلى حديث أولئك القوم فى التنويه بشجاعة الغمر بن يزيد قد استصغر ذلك منه ورأى نفسه فيما بلغ بهمته أعظم قدراً منه ، فقال ذلك الشعر . . .

وبلغه وقد استقامت له الدولة أن بعض من أعانه يمن عليه بما بذل له من المعونة ويزعم أنه لولا جهده مابلغ الداخل مبلغاً ؛ وأنه نال مانال بسعده لا بتدبيره وعقله ، فحرك ذلك عبد الرحمن إلى شعر يروى له ، وهو :

لا يُلْفَ مُمْـتَنٌّ علينا قائلٌ : «لولاى ما ملك الأنامَ الداخلُ»
سـعدى وحزمى والمهند والقنا ومَقَادرٌ بلغتْ وحالٌ حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكب نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفِـل
والحزمُ كلُّ الحزم ألا يَغْـفُلوا أيروم تدبيرَ البريةِ غافل ؟
ويقول قومٌ سعدُه لا عقُله خيرُ السعادة ما حماها العاقل
أبنى أمية قـد جبرنا صَدْعَـكم بالغرب رغما والسعودُ قبائل
ما دام من نسـلى إمام قائمٌ فالملك فيكم ثابت متواصـلُ

ومن شعره وقد رأى نخلة فى رصافته بقرطبة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل =

ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن

ثم ولى بعد عبد الرحمن ابنُه هشام ، يكنى أبا الوليد ، وسنه حينئذ [خمس و] ثلاثون سنة ، واتصلت ولايته سبعة أعوام (١) إلى أن مات فى صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة ، متحريا للعدل ، يعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدةِ المطر ومعه صُرَرالدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء ؛ لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات فى التاريخ المذكور . أمه أم ولد اسمُها حوراء (٢) .

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالرَّبَضى

ثم ولى بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة ، يكنى أبا العاص ، أمه أم ولد اسمها زُخرف ، وكان طاغياً مسرفا ، وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذى أوقع بأهل الرَّبَض الوقعة المشهورة (٣) ، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم ؛

= فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطولِ اكتئابى عن بَنِيَّ وعن أهلى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى يصح ويستمرى المساكين بالوَبْل

(١) أتم فى الإمارة سبعة أعوام وشهوراً لاتبلغ العام ، وقيل إنه أتم ثمانية .

(٢) فى نفح الطيب أن أمه اسمها حلل .

(٣) تفصيل هذه الوقعة أن الحكم الربضى هذا فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته ومباذله حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بألسنتهم ؛ وكان الفقهاء يومئذ هم قادة الرأى فى البلاد ، فاجتمع منهم بقرطبة جماعة من أهل الفقه والورع ، منهم يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار المعافرى ، من أصحاب مالك بن أنس ورواة الموطأ ؛ فثاروا به يريدون خلعه وإقامة أخيه المنذر بن هشام مكانه ، وكان اجتماعهم بالربض الغربى من قرطبة ؛ ثم زحفوا إلى قصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم ، وهدم دورهم ومساجدهم ، وفر من بقى منهم على وجهه ؛ فمنهم من لحق بفاس من أرض العدوة ، ومنهم من لحق بالإسكندرية من أرض المشرق ، ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا =

وكان الربض محلة متصلة بقصره ، فاتهمهم فى بعض أمره ، ففعل بهم ذلك ، فسمى الحكم الربضىّ لذلك .

وفى أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع ، أعنى صوامع المساجد ، وأَمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به ، مثل أن يقولوا : « ياأيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصرّ على كِبره ، المتهاونُ بأمرِ ربه ، أَفِق من سكرتك ، وتنبَّه من غفلتك ... » وما نحا هذا النحو ؛ فكان هذا من جملة ماهاجه وأوغر صدره عليهم ، وكان أشدّ الناس عليه فى أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس ، أنه لما تُسُوِّر عليه القصرُ وأحس بالشر ، قال لأخص غلمانه : اذهب إلى فلانة ، إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية [١] . فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه ؛ فقال : يامولاى ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك ياابن الفاعلة ! بم يُعرَف رأسى إذا قطع من رءوس العامة إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم ، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصرَ وعامةُ الحشم والجندِ يشغلونهم ، إلى أن دهمتهم الخيلُ من ورائهم ، فانهزموا وقُتلوا قتلا قبيحا ،

= بالإسكندرية أن ثاروا بها ثورة أخرى ، وكانت مصر يومئذ إلى عبد الله بن طاهر من قبل المأمون ، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم ، ففروا من وجهه إلى إقريطش (كريت) فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة .

(١) قارورة عطر !

وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحُرِّقت ، وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صِقِلِّية ، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية [١] .

ومن أعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الوقعة ، قال : كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضا ، رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت [٢] كان جليل القدر في الفقهاء ، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه ، وكان قويا في دينه ؛ فلما أوقع الحكم بأهل الربض - كما ذكرنا - وأمر بتغريب من بقي منهم ، كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال ، فاستخفى في دار رجل يهودي سنة كاملة ، واليهودي في كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ، ويعظِّمه أشد التعظيم ؛ فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء ، فاستدعى اليهوديَّ وشكره على إحسانه إليه ، وقال له : قد عزمتُ غداً على الخروج وقصْدِ دارِ فلان الكاتب [٣] ، لأنه قرأ عليّ ولي عليه حقُّ التعليم ، وقد بلغني أن له جاها عند هذا الرجل ، فعسى هو يشفع لي عنده فيؤمِّنني ويدعني في بلدي ! فقال له اليهودي : يامولاي ، لاتفعل ، فما آمَنُهم عليك ! وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده ، أنه لو أقام عنده بقية عمره ماأَمَلَّه ذلك ولا ثقُلَ

(١) ارجع إلى ما أثبتناه في التعليق رقم ٣ ص ١٩ ففيه بعض خلاف لما يذكر المراكشي .

(٢) هو طالوت بن عبد الجبار المعافري .

(٣) هو أبو البسام الكاتب وزير الحكم بن هشام الربضي ، على ماحكاه صاحب نفح الطيب .

عليه ؛ فأبى إلا الخروج ، فخلى بينه وبين ذلك ؛ فخرج حتى أتى دارَ ذلك الكاتب بغَلَس ، فاستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه رَحَّب به وأدنى مجلسه ، وسأله أين كان فى هذه المدة ؟ فقصّ عليه قصتَه مع اليهودى ، ثم قال له : اشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمّنني فى نفسى ويمُنَّ علىَّ بتركى فى بلدى ! فوعده بذلك ، وركب من فوره ودخل على الحكم ، فقال [(١) له كل ماسمع من طالوت ، ووشى به إليه ؛ فأحضره الحكم إليه فعنَّفه ووبّخه ، فقال له طالوت : كيف يحل لى أن أخرج عليك ، وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول : « سلطان جائرٌ مدةً خيرٌ من فتنة ساعة » ؟ قال الحكم : الله تعالى ! لقد سمعتَ هذا من مالك ؟ قال طالوت : اللهم إنى قد سمعته . قال : فانصرف إلى منزلك وأنت آمن . ثم سأله أين استتر ، فقال : عند يهودى مدة عام ، ثم إنى قصدتُ هذا الوزير فغدر بى ! فغضب الحكم على أبى البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً ألا يخدمه أبداً ؛ فرؤى أبو البسام الكاتب بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت رحمه الله تعالى] (١) .

---

(١) أثبتنا هذه الزيادة بين العلامتين [ ] عن نفح الطيب ، مع تصرف قليل اقتضاه السياق ؛ ذلك أن المخطوط الوحيد من هذا الكتاب – كما وصفه دوزى – تنقصه كراسة ذات عشرين ورقة ، فانقطع بها الكلام من حيث وضعنا هذه العلامة إلى مابعد ذلك التاريخ بنحو مئة وسبعين سنة ؛ وتشمل تلك الحقبة تتمة تاريخ الحكم بن هشام ، وكانت ولايته فى صفر سنة ١٨٠ ووفاته فى ذى الحجة سنة ٢٠٦ .

ثم ابنه عبد الرحمن بن الحكم ، وقد ولى الإمارة بعد أبيه ، وتوفى سنة ٢٣٨ وقد بلغ من العمر اثنتين وستين سنة .

ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ وقد بلغ من السن خمسا وستين سنة .

ثم ابنه المنذر بن محمد ، وكانت وفاته بغتة فى سنة ٢٧٥ وقد بلغ من السن ستا وأربعين سنة .

ثم أخيه عبد الله بن محمد ، وكانت وفاته سنة ٣٠٠ وقد بلغ اثنتين وسبعين سنة . =

... ...

... ...

فقال وقد مضى ليل وثان ٭ ولم يسمعه غنَّى : ليت شعرى... [1]

... أجارِى المؤنسى ليلاً غناءً ٭ لِخيرٍ قطعُ ذلك أم لِشرٍّ ؟

فقالوا إنه فى سِجن عيسى [2] ٭ أتوه به بليلٍ وهو يسرِى

فنادى بالطَّويلةِ «وهى مما ٭ يكون برأسهِ لجليلِ أمرِ» [3]

ويمَّم جارَه عيسى بنَ موسى [2] ٭ فلاقاه بإكرامٍ وبِرِّ

وقال : أحاجةٌ عرضتْ فإنى ٭ لقاضيها ومُتبِعُها بشكرِ !

فقال : سجنْتَ لى جارا يُسمَّى ٭ بِعمرٍو ! قال: يُطلَقُ كلُّ عمرٍو...

= ثم أخيه عبد الرحمن الناصر ـ وهو أول من نودى بلقب أمير المؤمنين من بنى أمية فى الأندلس ـ وكانت وفاته سنة ٣٥٠ وقد بلغ ثلاثا وسبعين سنة قضى منها على العرش خمسين سنة ! وفى عهده وفد إلى الأندلس من المشرق أبو على القالى صاحب الأمالى .

ثم تولى ولده الحكم المستنصر بالله ، وكانت ولايته غداة موت أبيه الناصر فى رمضان سنة ٣٥٠ .
وفى سياق الحديث عن الحكم المستنصر هذا أورد المراكشى شعراً لأبى عمر يوسف الرمادى وصل الخرم إلى منتصفه ولم نوفق إلى بدايته ؛ وسيأتى مزيد تفصيل عنه فيما يلى من حديث المراكشى عن أحداث عصر المستنصر ...

(١) أول الشعر مجهول ، وهو لأبى عمر الرمادى ، من شعراء عصر الحكم المستنصر كما سبقت الإشارة ، ويتضح من السياق أن الشاعر ينظم حكاية معروفة يوردها المراكشى منثورة فيما بعد .

(٢) عيسى بن موسى صاحب الشرطة فى بغداد لعهد الرشيد .

(٣) الطويلة كلمة يفسرها الشاعر : لباس خاص للرأس .

... بِسجنى حيثُ وافقَهُ اسمُ جارِ الْـفقيهِ ولو سَجنْتُهمُو بوِتْرِ !

فاطلقَهُم له عيسى جميعاً ✡ لجارٍ لايبيتُ بغيرِ سُكرِ !

فان أحببتَ قُلْ لجوارِ جارٍ ✡ وإن أحببتَ قل لِطِلابِ أَجْرِ

فإن أبا حنيفةَ لم يَؤُبْ مِنْ ✡ تطلُّبِهِ تخلُّصَه بوِزْرِ

وتلخيص هذه الحكاية التى نظمها أبو عمر فى شعره ، أن أبا حنيفة رحمه الله كان يجاوره رجلٌ كيَّال ، فكان كلَّ ليلة يأخذ سمكة ورغيفاً وشيئاً من النبيذ ، فإذا صلى العشاءَ الآخرة أكل ثم شرب ، حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت :

أَضاعُونى وأىَّ فتًى أضاعوا ✡ لِيومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

فلا يزال يُعيده حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة ـ على ماشتهر عنه ـ يُحيي الليلَ كلَّه صلاةً ، فلما كان فى بعض الليالى فقَدَ صوْتَ ذلك الرجل ، فقال لبعضِ مَن عِنده : مافعَل جارُنا هذا الذى كان يُغنى كلَّ ليلة ؟ أهو مريض أم غائب ؟ فقالوا له : إنه مسجون ! فقال : ومَنْ سجَنه ؟ فقالوا : خرج فى الليل لبعض حاجته فلقيه أصحابُ عيسى بن موسى صاحبِ الشُّرطة فأتوا به فأمر بسجنه ؛ فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى فى بيته ، فلما أُعلم عيسى بمكان أبى حنيفة خرج يتلقاه مسرعا ، وبالغ فى تكريمه وبره ، وسأله عن حاجته ، فقال : لى فى سجنك جارٌ اسمه عمرو ؛ فقال عيسى : يُطلقُ كلُّ من كان اسمه عمرٌو بسجنى من أجل جار الفقيه ! فأطلقه وخلقاً كثيراً معه ؛ فأتى الرجلُ أبا حنيفة يتشكر له ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أَضعْناكَ ؟ قال الرجل : لاوالله ، بل حفظتَ الجوار حفظك الله !

والبيت الذى نظمه أبو عمر وكان يُغنى به الرجل جارُ أبو حنيفة ، هو للعَرْجى ، رجلٍ من ولد عثمان بن عفان ، سجنه المغيرةُ خالُ هشامِ بن عبد الملك وعامُله على مكة ، فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن .

ولأبى عمر هذا شعر كثير الجيد ، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الأندلس ؛ فمما على حفظى له أول قصيدة يمدح بها أبا علىّ القالى المتقدم الذكر [1] ، وهى :

مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى * الشجوُ شَجْوِى والعويلُ عويلى
أَقْصِرْ فما دِين الهوى كُفرٌ ولا * أَعتدُّ لوْمَك لى من التنزيل
عجباً لقوم لم تكن أذهانهم * لِهَوًى ولا أجسادُهم لِنُحُول
دقَّتْ معانى الحب عن أفهامهم * فتأوّلوه أقبحَ التأويل
فى أىِّ جارحةٍ أصونُ مُعذِّبى * سَلِمَتْ من التعذيبِ والتنكيل
إن قلتُ فى عينى فثَمَّ مَدامعى * أو قلتُ فى قلبى فثم غَليلى
[لكنْ جعلتُ له المسامع موضعا * وحجبتُها عن عَذْلِ كل عذول] [2]

هذا ما بقى فى حفظى منها . وكان أبو عُمر هذا من مقدَّمى شعراء الحكم المستنصر [3] ،

(١) مضى ذكره — ولاريب — عند الحديث عن الناصر ؛ إذ كان مقدمه إلى الأندلس فى عهده سنة ٣٣٠ ؛ أو لعل ذكره قد مضى فى صدر هذا الحديث عن المستنصر .

(٢) مابين العلامتين [ ] زيادة عن نفح الطيب .

(٣) كان الحكم المستنصر محبا للعلوم مكرما لأهلها ، جماعا للكتب على اختلاف أنواعها ، اجتمع له منها مالم يجتمع لأحد من الملوك قبله ؛ قال تليد الخصى — وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان — : إن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين . وقد أقام الحكم للعلم والعلماء =

وكان مختصاً بأبى الحسن المُصْحَفىّ (١) ، منضويا إليـه ؛ وهو الذى حمله على هَجْو محمد بن أبى عامر (٢) ، فلما أفضى الأمر إلى محمد قبض على المصحفىّ واستصفى أمواله ووضعه فى المُطْبِق ، فلم يزل به حتى مات جوعا وهُزالا ؛ وأما ماكان من أبى عمر الشاعر فإنه أوسعه عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه (٣) ،

= سوقا نافقة ، جلبت إليها البضائع من كل قطر ، وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار يزودهم بالمال الجم لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهد ، وبعث فى كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ــ وكان نسبه فى بنى أمية ــ بألف دينار من الذهب العين ثمناً لنسخة من كتابه ، فبعث إليه أبو الفرج بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . ولما وفد على أبيه أبو على القالى من بغداد سنة ٣٣٠ أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده واختص به ، واستفاد منه الحكم علما . قال ابن بشكوال : « قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لاتكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن . » وله شعر جيد ، فمما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مسرف ... علىّ ظلوم لا يدين بما دنتُ

نأتْ عنه دارى فاستزاد صدوده ... وإنى على وجدى القديم كما كنت

ولو كنتُ أدرى أن شوقىَ بالغٌ ... من الوجد مابلّغتُه لم أكن بنتُ

وقوله :

عجبتُ وقد ودّعتُها كيف لم أمت ... وكيف انثنتْ بعد الوداع يدى معى

فيامقلتى العَبْرَى عليها اسكبى دماً ... ويا كبدِى الحرَّى عليها تقطّعى !

(١) هو أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى حاجب الحكم المستنصر ، غلبه المنصور بن أبى عامر على مكانته بعد موت الحكم واستأثر بالسلطان كله ، ثم نكبه !

(٢) هو المنصور بن أبى عامر ، وكان الحكم قد استوزره لولده هشام ، فترقى أمره حتى بلغ مابلغ من الجاه والسلطان ، وصارت الدولة ، والعرش ، والقصر ، والخليفة الصبى ، وأم الخليفة ــ كل أولئك طوع يمينه ، وسيأتى من تفصيل أمره مايغنى هنا عن الإفاضة .

(٣) لم تكن أول حال الرمادى مع المنصور بن أبى عامر تؤذن بهذه الخاتمة ؛ فقد كان له عليه دالة وعنده مكان ؛ روى أن المنصور قال له يوما : « كيف ترى حالك معي ؟ » قال أبو عمر : « فوق قدرى ودون قدرك ! » قالوا : فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسل الرمادى =

فشُفِعَ له عنده فى أن يتركه ببلده ، فأذن فى ذلك ، غير أنه خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة : أمر مناديه أن ينادىَ [بذلك] فى جميع جهات قُرطبة ؛ فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام أبى عامر .

وكان الحكم المستنصر مواصلا لغزو الروم ومَن خالفه من المحاربين ، فاتصلت ولايته إلى أن مات فى صفر سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بويع له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهرا ؛ وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد ، لم يعش له ولد غيره .

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر

[وتغلب المنصور بن أبى عامر]

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم ، يكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها صبح ، وسنُّه إذ وَلى عشرة أعوام وأشهر ، فلم يزل متغيِّباً لا يظهر ولا ينفُذ له أمر ؛ وكان الذى تغلب على أمره أولا وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته ،

= وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : أخطأت ؛ لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ؛ ما كان ضرنى لو قلت له إنى بلغت السماء وتمنطقت بالجوزاء ؟

وكان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ؛ إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ؛ لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا ولا ذمة ؛ كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجلب ! ...

قالوا : فرفع المنصور رأسه — وكان محامى أهل الأدب والشعر — وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال : ما بال قوم يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضى أم يسخط ... إلى آخر ما روى .

انظر الجزء الثانى من نفح الطيب « قصة الرمادى الشاعر مع المنصور » .

أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ابن عامر المعافرى القحطانى(١).

وكان أصل ابن أبى عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، من قرية من أعمالها تسمى طُرّش، على نهر يسمى وادى آرُوا، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعيُّن، ورد شابا إلى قرطبة، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث، وتميَّز فى ذلك؛ وكانت له همة يحدِّث بها نفسه بإدراك معالى الأمور، وتزيَّدَ فى ذلك حتى كان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك؛ وله فى ذلك أخبار عجيبة، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدِّث الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحُمَيْدِى(٢) طرفا فى كتابه المترجم بـ« الأمانى الصادقة»، فمن جملتها قال الحميدى:

حدثنى أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال: أخبرنى أبو عبد الله محمد بن إسحاق التميمى قال:

كان محمد بن أبى عامر نازلا عندى فى حجرة فوق بيتى، فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل، فوجدته قاعداً على الحال التى تركته عليها أولَ الليل حين فصَلْتُ عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة! قال: لا؛ قلت: فما

(١) هو المنصور السابق ذكره.

(٢) كان الحميدى شاعراً مؤرخاً حافظا راوية، تتلمذ على الإمام الفيلسوف ابن حزم الظاهرى، وعنه يروى أكثر علمه، وكان مولده سنة ٤٢٠ ووفاته سنة ٤٨٨ وكان له رحلة إلى المشرق، ألف فيها كتاباً فى طبقات علماء الأندلس سماه «جذوة المقتبس»، وعن كتابه هذا وكتابه الآخر المسمى بـ« الأمانى الصادقة» نقل عبد الواحد كثيراً من أخباره عن الفترة الأولى من تاريخ المغرب والأندلس، وتوجد من كتاب «جذوة المقتبس» نسخة مخطوطة فى أكسفورد.

أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ! قلت : في ماذا كنت تفكر ؟ قال : فكرت : إذا أفضى إلىَّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضي ، بمن أستبدلُه ، ومن الذي يقوم مقامه ؟ فجلْتُ الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلا واحداً ... قلت : لعله محمد بن السَّليم (١) ؛ قال : هو والله هو ؛ لَشدَّ ما اتفق خاطري وخاطرك !

قال الحميدي : وأخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد قال : كان ابن أبي عامر يوما جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : لِيَخْتَرْ كلٌّ واحد منكم خطة أُولِّيه إياها إذا أفضى إلىَّ الأمر ! فقال أحدهم : تُوليني قضاء كورة رَيَّة ، وهي مالقة وأعمالها ؛ فإنه يعجبني هذا التينُ الذي يجيء منها !

وقال الآخر : توليني حِسبة السوق ؛ فإني أُحب هذا الإسفنج !

وقال الثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأْمر أن يُطاف بي قُرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا مطليٌّ بالعسل ليجتمع عليَّ الذباب والنحل (٢) !

وافترقوا على هذا ؛ فلما أفضى الأمر إليه كما تمنى بلَّغ كلَّ واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب !

ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام

---

(١) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الشهير بالسليم ، قاضي الجماعة بقرطبة ، ذكره المقري فيمن كانت لهم رحلة إلى المشرق . وله شعر كتب به إلى الحكم المستنصر ، هو قوله :

لو أن أعضاء جسمي ألسنٌ نطقت ... بشكر نعماك عندي ، قلَّ شكري لكْ
أو كان ملَّكني الرحمن من أجلي ... شيئا وصلتُ به ياسيدي أجلكْ
ومن تكن في الورى آماله كثرتْ ... فإنما أملي في أن ترى أملكْ !

توفي سنة ٣٦٧

(٢) واضح أن صاحبه هذا كان يسخر من أمنيته تلك ، فلم يخطر في وهمه أنه يكون شيء من ذلك ، ولكن كل ذلك قد كان ، لتبلغ السخرية تمامها !

المؤيد بن الحكم والنظرِ فى أموالها وضِياعها ، فزاد أمره فى الترقى معها إلى أن مات الحكم المستنصر ؛ وكان هشام صغيراً كما ذكرنا ، وخِيفَ الاضطراب ، فضمن لصبح سكونَ الحال وزوال الخوف واستقرارَ المُلك لابنها ؛ وكان قوىَّ النفس ، وساعدته المقادير ، وأمدّته المرأة بالأموال ؛ فاستمال العساكر إليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحبَ التدبير والمتغلبَ على الأمور ؛ وحجب هشاماً المؤيد ، وتلقَّب هو بالمنصور ؛ فأقام الهيبة ، فدانت له أقطار الأندلس كلها وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شىء منها أيام حياته ، لعظم هيبته وفرط سياسته .

واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفى [١] ؛ ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى ، ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الذى اختصر كتاب العيْن ـ وقد تقدم ذكره [٢] ـ وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدى هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه .

واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الرَّبَعِىّ اللغوى البغدادى ، وله معه أخبار مستطرفة ، ولعلى ساورد طرفا منها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وكان محبا للعلوم مؤثراً للأدب مفرطا فى إكرام من ينسب إلى شىء من

---

(١) انظر التعليق رقم ١ ص ٢٦

(٢) كتاب العين : هو ـ فيما يقولون ـ أول كتاب فى اللغة ، وضعه الخليل بن أحمد ؛ ولم يرد له ولا لمختصره ذكر فيما بين يدينا من كتاب المراكشى ؛ فلعل خبرا عن هذا أو ذاك قد ورد فيما انخرم من الكتاب وسبقت الإشارة إليه .

ذلك [ويفد] عليه متوسلا به ، بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه [١] ؛
ورد عليه الأندلس فى أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعى المذكور
آنفا ، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالا جمة ؛ وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ ؛
أظن أصله من بلاد الموصل ، دخل بغداد فقرأ بها ، وكان عالما باللغة والآداب
والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكه المجالسة مُمْتعا ؛
فأكرمه المنصور وأفرط فى الإحسان إليه والإفضال عليه ؛ وكان مع ذلك محسنا
لظريف السؤال ، حاذقا فى استخراج الأموال ، طَبًّا بلطائف الشكر .

أخبرنى بعض مشايخ الأندلس بإسناد له ، أن أبا العلاء دخل على المنصور
أبى عامر يوما فى مجلس أنسه ، وقد كان تقدَّم له أن اتخذ قميصاً من رِقاع
الخرائط التى كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ؛ فلما خلا
المجلس ووجد فرصة لما أراد ، تجرّد وبقى فى القميص المتـَّخذ من الخرائط ،
فقال له : ماهذا ياأبا العلاء ؟ فقال : هذه الخرائط التى وصلتْ إلىَّ فيها صِلات
مولانا أَتخذها شعاراً ! وبكى ، وأَتبع ذلك من الشكر فصلا كان رواه ، فأعجب
ذلك المنصور ، وقال له : لك عندى مزيد ! وكان كما قال .

وألف له أبو العلاء هذا كتبا ، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص ، على نحو
كتاب النوادر لأبى على القالى ؛ واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن
أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر ، نهر قرطبة ؛ فخانت
الغلام رجله فسقط فى النهر هو والكتاب ؛ فقال فى ذلك بعض الشعراء

---

(١) انظر قصته التى رويناها فى التعليق رقم ٣ ص ٢٦ عما كان من شأنه وشأن الرمادى فى بعض مجالسه .

ـ وهو أبو عبد الله محمد بن يحيي المعروف بابن العريف ـ بيتاً مطبوعا بحضرة المنصور ، وهو :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص ✡ وهكذا كلُّ ثقيل يغوص !

فضحك المنصور والحاضرون ، فلم يَرُعْ ذلك صاعداً ولا هالَه (١) ، وقال

(١) يبدو أن مكانة صاعد من أبى عامر المنصور قد أحنقت عليه قلوباً كثيرة هاجها الحسد إلى معابته والتنقص من قدره ، وكان من أشد مناقضيه ابن العريف النحوى هذا المذكور ؛ وكان صاعد لايدعه حتى يأخذ منه بحقه ؛ روى أن ابن العريف دخل على المنصور يوما وعنده صاعد اللغوى ، بالعامرية ، وهى قصر أنشأه إلى جانب الزهراء تسرح العين فى بهائه ، والخيال فى أبهائه ؛ فأنشده ابن العريف أبياتا ، منها :

فالعامرية تُزْهَى على جميع المبانى
وأنت فيها كسَيف قد حل فى غمدان

وغمدان : قصر الأذواء من سيوف اليمن ، وقد كان المنصور يزهى بيمانيته . فقام صاعد يناقض ابن العريف مرتجلا :

يأيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخارُ كل يمان
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد مابين أهل الزمان

ثم مضى فى إنشاده إلى أن قال فى وصف العامرية :

انظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذرا الأغصان
والقضْب تلتفُّ سُكراً بميِّس القضبان
والروض يفترّ زهواً عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغضُّ يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ... ر نفحة الريحان

مرتجلا مجيباً لابن العريف :

عاد إلى معــدِنه إنمــا ٭ توجد فى قعرِ البحار الفصوص !

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجى أبى السرى سهل بن أبى غالب ، سماه كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف ، وكتاب آخر فى معناه سماه كتاب الجوّاس بن قَعْطَل المَذْحِجِى مع ابنة عمه عفراء ، وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ؛ وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب ، أعنى الجوّاس ، حتى رتّب له من يخرجه أمامه كل ليلة ؛ ويقال إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أُنس لأحد ممن ولى الأمور بعده من ولده ، وادّعى وجعا لحقه فى ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصا ويعتذر به فى التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم ؛ وفى ذلك يقول فى قصيدته المشهورة فى المظفّر أبى مروان عبد الملك بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وهو الذى ولى بعد أبيه ، وأولها :

إليـك حَدَوْتُ ناجيـةَ الركاب ٭ محمَّلةً أمانىَ كالهضابِ

= فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان !

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف : إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ! فقال له صاعد : فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك وبعدت عليك المأخذ !

فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما !

وقد كانت كثرة حساد صاعد سبباً إلى ماشاع على ألسنة الرواة من أنباء انتحاله واحتياله وتزييفه . على أن الحق أن أبا العلاء كان أديبا من أهل الذوق والبيان لاراوية من أهل العلم باللغة والخبر .

وبِعتُ ملوكَ أهلِ الشرق طُرا * بواحدِها وسيِّدِها اللُّباب

وفيها يقول :

إلى الله الشَّكِيَّةُ من شَكاةٍ * رَمتْ ساقى فَجلَّ بها مُصابى

وأقصتْنى عن الملكِ المُرَجَّى * وكنتُ أَرِمُّ حالى باقترابى

ومما استُحسن له قوله :

حَسَبْتُ المنعِمين على البَرَايا * فألفيتُ اسمَه صَدْرَ الحساب

وما قدَّمتُه إلا كأنى * أُقدِّم تالياً أُمَّ الكتاب

قال أبو عبدالله الحميدى : أخبرنى أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد ابن حزم ، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدى المظفَّر فى عيد الفطر سنة ٣٩٦ - قال أبو محمد : وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر - ولما رآنى أبو العلاء أَستحسنُها وأُصغى إليها كتبها لى بخطه وأنفذها إلىّ . انتهى كلام الحميدى .

وكان أبو العلاء كثيراً ما تُستغرب له الألفاظ ، ويُسأل عنها فيجيب بأسرع جواب ، على نحو مايحكى عن أبى عمر الزاهد المطرّز غلام ثعلب ؛ ولولا أن أبا العلاء كان كثير المَزْح حُمِل على التصديق فى كل مايأتى به من ذلك ؛ وقد ظهر صدقه فى بعض ماقال ؛ فمما يحكى عنه من هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوما وفى يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له فى بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد ، يذكر فيه القلب والتزبيل ، وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع ، فقال له : أبا العلاء ! قال : لبيك مولانا ! قال : هل رأيت فيما وقع

إليك من الكتب كتاب القوالب والزوابل [١] لميدمان بن يزيد ؟ قال : إى والله يامولانا ؛ رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دريد بخط كأكرع النمل فى جوانبها علامات الوُضَّاع هكذا هكذا ... فقال له : أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا (الذى تقدم ذكره) ، وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولَّدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ونسبْتُه إلى عاملى لأختبرك ! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافَق .

وقال له المنصور مرة أخرى وقد قدم طبق فيه تمر : ياأبا العلاء ، ماالتَّمْرُكُلُ فى كلام العرب ؟ قال : يقال تَمْرَكَلَ الرجل تمركُلاً إذا التف فى كسائه !

وله من هذا كثير ، ولكنه مع هذا كان عالما .

قال أبو عبد الله الحميدى : حدثنى أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بن أبى عبدة ، عن أبى عبد الله العاصمى النحوى قال : لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، جَمَعنا معه ، فسألناه عن مسائل من النحو غامضةٍ فقصر فيها ، فلما رآه ابن أبى عامر كذلك قال : دعوه ، هو من طبقتى فى النحو ، أنا أُناظره . قال : ثم سألَنا صاعد فقال : مامعنى قول امرئ القيس :

كأنَّ دماء الهاديات بِنَحْرِهِ ٭ عُصارةُ حِنَّاءٍ بِشيْبٍ مُرَجَّلِ ...؟

فقلنا : هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عُقِرَتْ عليه الوحش فتطاير

(١) فى الأصل : القوالب والدوالب ؛ والتصحيح عن « أنباء الرواة » وإنما آثرناه لأن « الزوابل » أقرب إلى أن تكون مولدة من « التزبيل » على مايشار إليه بعد .

دمها على صدره فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا :

كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ ✡ كما زلَّت الصفواءُ بالمتنزّلِ ... ؟

قال : فبُهتنا كأنا لم نقرأ هذا البيت قط ، واضطُرِرنا إلى سؤاله عنه ، فقال : إنما عَنَى أحد وجهين : إما أنه تَغَشَّى صدره بالعَرَق ، وعرقُ الخيل أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ؛ وإما شيءٌ كانت العرب تصنعه ، وهو أنها كانت تَسِمُ باللبن الحارّ فى صدور الخيل فيتمعّط ذلك الشَّعر وينبت مكانه شعرٌ أبيض ؛ فأيَّما عَنَى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم .

قال أبو عبد الله : وحدثنا أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه ، أن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب فى مجلس المنصور أبى عامر عن قول الشَّمَّاخ بن ضِرار :

دار الفتاة التى كُنا نقول لها ✡ ياظبيةً عُطُلاً حُسَّانةَ الجِيد

تُدْنِى الحمامةُ منها وهى لاهيةٌ ✡ من يانع المردِ قِنوانَ العناقيدِ

فقالوا : هى الحمامة ، تنزل على غصن الأراكة أو الكَرْمة فتنفضُه فتتمكن الظبية منه فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة فى هذا البيت هى المرآة ، وهى اسم من أسمائها ؛ فأراد أن هذه الجارية المشبَّهة بالظبية إذا نظرت فى المرآة أدنت المرآةُ منها فى المنظر شعرَها الذى هو كقِنوان العناقيد من يانع الكَرْم أو المَرْد ، فرأته .

ومن عجائب الدنيا التى لا يكاد يتفق مثلها ، أن صاعد بن الحسن اللغوى هذا أهدى إلى المنصور أبى عامر أُيّلاً وكتب معه بهذه الأبيات :

يا حِرْزَ كلِّ مُخوَّفٍ ، وأمانَ كلِّ مُشرَّدٍ ، ومُعِزَّ كل مُذلَّلِ

جَدْواكَ إن تخْصُصْ بهِ فلأهلِه ۞ وتعُمُّ بالإحسان كلَّ مؤمِّل
كالغيثِ طبَّق فاستوى فى وَبْلِه ۞ شُعْثُ البلادِ مع المراد المقبل
اللهُ عَونك ماأبرَّك بالهدى ۞ وأشدَّ وقْعَك بالضلال المُشْعل
ماإن رأت عينى ، وعِلمُك شاهد ، ۞ شِرْوَى عَلائك فى مُعِمٍّ مُخْولِ
أَنْدَى بمُقْرَبَةٍ كسِرْحانِ الغضا ۞ ركضاً ، وأَوْغلَ فى مُثَارالقَصطَلِ
مولاى ، مؤنِسَ غُربتى ، مُتخطِّفى ۞ من ظُفْرِ أيامى ، مُمَنِّعَ مَعْقِلى
عبدٌ نشَلْتَ بضَبْعِهِ وغرستَه ۞ فى نعمة أهدَى إليك بأيِّلِ
سَمَّيْتُهُ «غَرسِيَّةً» وبعثتُه ۞ فى حَبله ليُتاح فيه تفاؤلى
فلَئن قبلتَ فتلك أَسْنَى نعمةٍ ۞ أَسْدَى بها ذو منحة وتطوُّل
صحبتْك غاديةُ السرور وجللتْ ۞ أرجاءَ رَبعِك بالسحاب المُخضِلِ

فقضى الله فى سابق علمه أن غَرسِيَةَ بن شانجُه من ملوك الروم -[1] وكان أمنع من النجم - أسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد بالأيل وسماه غرسية متفائلا بأسره ؛[2] وهكذا فليكن الجدُّ للصاحب والمصحوب ؛ وكان أسر غرسية هذا فى ربيع الآخر سنة ٣٨٥ .

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن ، وقصد صقلية فمات بها فى قريب من سنة ٤١٠ [3] - فيما بلغنى - عن سن عالية .

---

(١) ملك البشكنس .

(٢) روى صاحب نفح الطيب خبر أسره ، قال :

« وسبب أخذه أنه خرج يتصيد ، فلقيته خيل للمنصور من غير قصد ، فأسرته وجاءته به ؛ فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب ! »

(٣) كانت وفاته فى ابن خلكان ، وياقوت ، بصقلية سنة ٤١٧ وفى أنباء الرواة : سنة ٤١٩ =

ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر طول أيام مملكته مواصلا
لغزو الروم ، مفرطا فى ذلك لا يشغله عنه شىء ؛ وكان له مجلس فى كل أسبوع
يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيما بقرطبة ؛ وبلغ من إفراط حبه
للغزو أنه ربما خرج للمصلَّى يوم العيد فحدثت له نيـة فى ذلك فلا يرجع إلى
قصره ، بل يخرج بعـد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه
عساكره وتلحق به أولا فأولا ، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه
كل من أراده من العساكر . غزا فى أيام مملكته نيفا وخمسين غزوة ذكرها
أبو مروان ابن حيان كلها فى كتابه الذى سماه بـ «المآثر العامرية» ، واستقصاها
كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها ؛ وفتح فتوحا كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت
امتنعت على من كان قبله ، وملأ الأندلس غنائم وسَبْياً من بنات الروم
وأولادهم ونسائهم ؛ وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهّزون به بناتهم
من الثياب والحلى والدور ؛ وذلك لرخص أثمان بنات الروم ؛ فكان الناس
يرغّبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ؛
بلغنى أنه نُودِى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة - وكانت ذات جمال
رائع - فلم تساوِ أكثر من عشرين ديناراً عامرية ؛ وكان فى أكثر زمانه لا يُخِلُّ
بأن يغزو غزوتين فى السنة ، وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر
بأن ينفض غبارُ ثيابه التى حضر فيها معمعة القتال ، وأن يُجمع ويُتحفَّظَ به ؛

= وروى ابن الأبار فى التكملة أنه كان بقرطبة سنة ٤١٤ يقرئ اللغة .

فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن يُنثر على كفنه إذا وُضع في قبره [١].

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين، بموضع يعرف بمدينة سالم، مبطونا؛ فصحَّت له الشهادة، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ [٢] فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة، وكان معافريَّ النسب، وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيي ابن زكريا التميمي، كان يعرف بابن بَـرْطَل؛ ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دَرّاج الشاعر المعروف بالقسطلي من قصيدة له:

تلاقتْ عليه من تميمٍ ويَعرُبٍ ✽ شُموس تَلألأ في العلا وبُدُورُ

من الحِمْيَرِيِّين الذين أكفُّهم ✽ سحائبُ تَهْمِي بالنَّدَى وبُحورُ

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم، ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب اليتيمة وقال فيه: القسطلي عندهم كأبي الطيب بصقع الشام. هذا قول أبي منصور أو معناه [٣]؛ وكنت أنا في أيام شبيبتي مولعاً بشعره كثير الدراسة له، فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلا، خلا بيتين هما مما ارتجل في بعض مجالسه، وهما:

أَجِدِ الكلامَ إذا نطقتَ فإنما ✽ عقلُ الفتى في لفظِه المسموعِ

كالمرءِ يَختبرُ الإناءَ بصوته ✽ فيَرَى الصحيحَ به من المصدوع

(١) وروى أنه أمر بما اجتمع من ذلك التراب أن تصنع منه لبنة يجعلونها كالوسادة لرأسه في قبره، رحمه الله!

(٢) الصواب: ٣٩٢.

(٣) نص عبارة الثعالبي: «أبو عمر ... كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول، وكان يجيد ماينظم ويقول.

[وزارة المظفر بن أبى عامر]

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبى عامر هذا ، ابنُـه أبو مروان عبد الملك ابن أبى عامر ، وتلقب بالمظفَّـر ، فجرى فى الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سَـنَن أبيه ، وكانت أيامه أعيادا فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين ، إلى أن مات وثارت الفتن بعده .

[وزارة الناصر بن أبى عامر]

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده ، أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر ؛ فخلط وتَسَـمَّى ولىَّ العهد [1] ؛ ولم يزل مضطربَ الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سـنة ٣٩٩ ، فخلع هشاما المؤيد ، وأسلمت الجيوشُ عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ، فقُـتل وصُلب [2] .

---

(١) حمل هشاماً المؤيد — وكان لم يزل محجوباً مكفوف اليد عن التصرف فى شئون الدولة — على أن يوليه العهد من بعده ؛ فكان هذا أول الفتنة .

(٢) حكى صاحب نفح الطيب عن ابن الرقيق قال :

« ومن أعجب مارؤى أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء ، فتحت قرطبة ، وهدمت الزهراء ، وخلع خليفة وهو المؤيد ، وولى خليفة وهو المهدى ، وزالت دولة بنى عامر العظيمة ، وقتل وزيرهم محمد بن علاجة ، وأقيمت جيوش من العامة ، ونكب خلق من الوزراء ، وولى الوزارة آخرون ؛ وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدى » !

ثم قال المقرى :

« ولقد كان قيامه — يعنى المهدى — مشئوما على الدين والدنيا ؛ فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس ، وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكسر الرؤساء ، وتطاول العدو إليها وأخذها شيئاً فشيئاً ، حتى محى اسم الإسلام منها . أعادها الله تعالى ! »

وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار - المتقدم ذكره - لما قام تلقَّب بالمهدى، وبقى الأمر كذلك إلى أن قُتل محمد بن هشام بن عبد الجبار، ورُدّ هشام المؤيد إلى الأمر؛ وذلك يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٤٠٠؛ وبقى كذلك وجيوشُ البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان، واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣؛ فدخل البربر مع سليمان قُرطبة، وأخلوها من أهلها، حاشا المدينة وبعض الرَّبَض الشرقى، وقُتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر؛ وكان - كما ذكرنا - فى طول دولته متغلَّباً عليه لا ينفُذ له أمر؛ وغَلَب عليه فى هذا الحصار، أعنى حصار البربر، واحدٌ من العبيد بعد محمد بن أبى عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر.

[تفصيل ماسبق إجماله]

ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، على هشام بن الحكم فى جمادى الآخرة - كما تقدم - فخلعه وتَسَمَّى بالمهدى، وكان يُكنى أبا الوليد، أمه أمُّ ولدٍ اسمُها مُزْنة، وكان له ولد اسمه عبيد الله؛ وكان مولد المهدى فى سنة ٣٦٦، وقُتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة [١]؛ ولم يزل واليا إلى أن قام عليه - يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ - هشامُ بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر، فحاربه بقيةَ يومه والليلةَ الآتية وصبيحةَ اليوم الثانى؛ فقام عامةُ أهل قُرطبة مع محمد المهدى، فانهزمْ البربر وأُسر هشام

(١) فى الأصل: سبع وثلاثون سنة، وهو تحريف.

ابن سليمان ، فاتى به إلى المهدى فـضرب عنقه .

[بدء الفتنة]

واجتمع البربر عند ذلك فقدَّموا على أنفسهم سليمانَ بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر ، وهو ابن أخى هشام القائم المذكور ؛ فنهض بالبربر إلى الثغر، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة ؛ فبرز إليه جماعةُ أهلِ قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتل من أهل قرطبة نيفٌ وعشرون ألفَ رجل ، فى جبل هنالك يعرف بجبل قنطش ، وهى الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير . واستتر محمد بن هشام المهدى أياما ، ثم لحق بـطُليطلة ؛ وكانت الثغور كلها من طُـرْطوشة إلى الأشبونة باقيةً على طاعته ودعوته ، واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ؛ فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقرب قُرطبة على نحو بضعة عشر ميلا يدعى « دار البقر » ، فانهزم سليمان والبربر ، واستولى المهدى على قرطبة ؛ ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر ، وكانوا قد عاثوا بالجزيرة ، فالتقوا بموضع يعرف بوادى أره ؛ فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدى ؛ وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبى (١) ، فقتلوه وردُّوا هشاما المؤيد كما تقدم قبل .

---

(١) كان واضح الصقلبى من موالى بنى عامر ، وكان يسمى أيضا واضحا العامرى ؛ فقد أخذ بثأر مواليه إذن حين أعان على قتل المهدى ، كما مهد الأمر لنفسه بذلك ، إذ تولى الحجابة لهشام المؤيد !

فكانت مدة ولاية المهدى منذ قام إلى أن قُتل سبعة عشر شهراً [١] ، من جملتها الستة الأشهر التى كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر ؛ وانقرض عقبه فلا عقب له .

ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر
المتلقب بالمستعين بالله

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ ، وتلقب بالمستعين بالله ، ثم دخل قرطبة كما تقدم فى ربيع الآخر سنة ٤٠٠ ، فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله ، مضافا إلى المستعين بالله ؛ ثم خرج عنها فى شوال من السنة بعينها ، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه فى بلاد الأندلس، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقُرى بالسيف والغارة ، لا يُبقِى البربرُ معه على صغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخل قرطبة فى صدر شوال سنة ٤٠٣ .

[أولية بنى حمّود]

وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن على بن أبى طالب، يسميان القاسم وعليا ابنى حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس [بن إدريس] بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ؛ فجعلهما قائدَين على المغاربة ، ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة ، وهو علىّ الأصغر منهما ؛ وولّى القاسم الجزيرة الخضراء ، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزّقاق ، وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا ، وقد ذكر فيما قبل .

(١) فى الأصل : ستة عشر شهرا ... الخ ، وهو تحريف ، فقد ذكر من قبل أنه قام فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، وقتل فى ذى الحجة سنة ٤٠٠ .

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة ، فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها ، فراسلهم على بن حمود المذكور ـ وقد حدث له طمعٌ فى ولاية الأندلس ـ فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يولِّيه عهده[1]، فاستجابوا له وبايعوه ، فزحف من سبتة إلى مالقة ، وفيها عامر بن فَتُوح الفائق ، مولى فائق مولى الحكم المستنصر ؛ فاستجاب له وأدخله مالقة ، فتملكها على بن حمود وأخرج عنها عامر بن فَتُوح ؛ ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فخرج إليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر ، فانهزم محمد بن سليمان ، ودخل قرطبةَ علىٌّ بن حمود ، وقُتل سليمان بن الحكم صبراً : ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ ، وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً فى ذلك اليوم ، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة !

وكانت مدة ولاية سليمان ـ منذ دخل قرطبة إلى أن قتل ـ ثلاثةَ أعوام وثلاثةَ أشهر وأياما ، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم ؛ وكانت مدته ـ منذ قام مع البربر إلى أن قُتل ـ سبعةَ أعوام وثلاثة أشهر وأياما .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وذِكْرُهم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس ، إلى أن عادت بعد ذلك فى الوقت الذى نذكره إن شاء الله تعالى .

وكانت أم سليمان هذا أمَّ ولدٍ اسمها ظبية ، ومولده سنة ٣٥٤ ، ترك من الولد ولىَّ عهده محمدا ، لم يعقب ، والوليد ، ومسلمة .

---

(١) يذكر هنا أن هشاماً المؤيد كان قد ولى عهده عبد الرحمن الناصر بن أبى عامر ؛ وكان ذلك أول الفتنة التى تقوض بها بنيان بنى عامر وانحلال الأندلس !

وكان سليمان أديباً شاعرا ؛ قال الحميدى : أنشدنى أبو محمد على بن أحمد قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد بن الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه ، قال أبو محمد : وأنشدنيها قاسم بن محمد المروانى قال : أنشدنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين :

عجبا يهابُ الليثُ حدَّ سِنانى * وأهابُ لَحْظَ فواترِ الأجفانِ
واقارِع الأهوالَ لا مُتَهيِّباً * منها سوى الإعراض والهِجران
وتملَّكتْ نفسى ثلاثٌ كالدُّمى * زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبدان
ككواكب الظلماء لُحْنَ لِناظرٍ * من فوق أغصانٍ على كُثبان
هذى الهلالُ وتلك بنتُ المشترِى * حُسناً ، وهذى أختُ غصنِ البان
حاكمتُ فيهن السُّلوَّ إلى الضَّنى * فَقَضى بسلطانٍ على سُلطانى
فأبحْنَ من قلبى الحِمَى وثَنينَنى * فى عِزِّ مُلْكى كالأسيرِ العانى
لا تعذلوا مَلِكا تذلَّل للهوى * ذُلُّ الهوى عِزٌّ ومِلْكٌ ثان
ماضرَّ أنِّى عَبْدُهُنّ صبابةً * وبنو الزمانِ وهُنّ من عبْدانى
إن لم أُطع فيهن سلطانَ الهوى * كَلَفاً بهن فلستُ من مَرْوان
وإذا الكريمُ أَحبَّ أمَّنَ إلْفَه * خَطبَ القِلَى وحوادثَ السُّلوان
وإذا تجارَى فى الهوى أهلُ الهوى * عاش الهوى فى غِبطة وأمان

وإنما قصد المستعينُ بهذه الأبيات معارضةَ الأبيات التى عَمِلها العباسُ بن الأحنف على لسان هرون الرشيد فنُسبت إليه ، وهى :

تَمَلَّكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنانى * وحَلَلْنَ من قلبى بكلِّ مكان
مالى تُطاوِعُنى البرية كلُّها * وأطيعهن وهن فى عِصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى * وبه قَوِينَ أعزُّ من سلطانى

أبو محمد الذى يحدّث عنه الُحميدىّ : هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسى ، مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى ، قُرِئ علىّ نسبُه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه ، أصْل آبائه الأدنَين من قرية من إقليم لَبْلَة من غرب الأندلس ، سكن هو وأبوه قرطبة ، وكان أبوه [١] من وزراء المنصور محمد بن أبى عامر ، ووزراء ابنه المظفَّرِ بعده ؛ وكان هو المدبِّرَ لدولتيهما ، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله ، أخى المهدى المذكور آنفا ؛ ثم إنه نبذ الوزارة واطّرحها اختيارا ، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسُّنن ، فنال من ذلك مالم ينل أحدٌ قبله بالأندلس ؛ وكان على مذهب الإمام أبى عبد الله الشافعى رحمه الله ، أقام على ذلك زمانا ، ثم انتقل إلى القول بالظاهر ، وأفرط فى ذلك حتى أربى على أبى سليمان داود الظاهرى وغيرِه من أهل الظاهر ؛ وله مصنَّفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد فى أصول الفقه وفروعه، على مَنْهَجِه الذى يسلكه ، ومذهبِه الذى يتقلده ؛ وهو مذهب داود ابن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى ومَن قال بقوله من أهل الظاهر ونُفاةِ

(١) هو الوزير أبو عمر أحمد بن حزم .

القياس والتعليل؛ بلغنى عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه فى الفقه والحديث والأصول والنِّحَل والمِلل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له - نحوٌ من أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة؛ وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا، فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغانى فى كتابه المعروف بالصِّلة، وهو الذى وصل به تاريخ أبى جعفر الطبرى الكبير: أن قوما من تلاميذ أبى جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى فى سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة؛ وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية البارى تعالى وحسن تأييده له.

ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة، وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة؛ فمن شعره:

هل الدَّهرُ إلا ما عرفْنا وأدركْنا * فجائعُه تبقَى ولذاتُه تفنَى
إذا أمكنتْ فيه مَسَرَّةُ ساعةٍ * تولَّت كمرِّ الطَّرف واستخلفتْ حُزنا
إلى تَبِعاتٍ فى المَعاد وموقفٍ * نَوَدُّ لديه أننا لم نكن كُنا
حَصَلْنا على هَمٍّ وإثم وحسرةٍ * وفات الذى كنا نَقَرُّ بِهِ عَينا
حَنينٌ لما وَلَّى، وشُغلٌ بما أتى * وغَمٌّ لما يُرجَى، فعيشُك لا يَهْنا
كأن الذى كنا نُسَرُّ بكونه * إذا حققته النفسُ، لفظ بلا معنَى

وله من قصيدة طويلة:

أنا الشمسُ فى جوِّ العلوم منيرة ✲ ولكن عيبى أن مَطلعىَ الغربُ
ولو أننى من جانبِ الشرقِ طالعٌ ✲ لجدَّ على ماضاع من ذكرىَ النهبُ
ولى نحو أكناف العراق صبابةٌ
ولا غَرْوَ أن يستوحشَ الكلِفُ الصَّبُّ
فإن يُنزِل الرحمنُ رحلِىَ بينهم ✲ فحينئذ يبدو التأسُّفُ والكربُ
فكم قائلٍ : أغفلْتُهُ وهو حاضرٌ ✲ وأطلبُ ماعَنْهُ تجىء به الكُتْبُ !
هنالك يدرِى أن للبعد قصة ✲ وأن كساد العلم آفته القرب !
[(١) فياعجباً مَن غاب عنهم تشوَّقوا ✲ له ، ودُنوُّ المرءِ من دارهم ذنبُ
وإن مكاناً ضاق عنى لضيِّقٌ ✲ على أنه فُسْحٌ مَهامِهُهُ سُهْبُ
وإن رجالاً ضيَّعُونى لَضُيَّعٌ ✲ وإن زماناً لم أنل خِصبَهُ جَدْب (١)]
ومنها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه :
ولكنَّ لى فى يوسفٍ خيرُ أُسوةٍ ✲ وليس على مَن بالنبيِّ ائْتَسَى ذَنْبُ
يقولُ - وقال الحقَّ والصدقَ - إننى ✲ حفيظٌ عليهم ؛ ماعلى صادقٍ عَتْبُ
ومن المختار له قوله :
لا يَشْمَتَنْ حاسِدِى إن نكبةٌ عرضتْ
فالدهرُ ليس على حالٍ بِمُتَّرِكِ
ذو الفضلِ كالتِّبرِ طوراً تحتَ مِيقعَةٍ (٢)
وتارةً فى ذُرى تاجٍ على مَلِكِ !

---

(١) مابين العلامتين [ ] زيادة عن نفح الطيب .
(٢) الميقعة : خشبة القصار التى يدق بها ، والمطرقة . ورواية نفح الطيب : تحت متربة .

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحتُ مرتحِلاً بشخصِى ٭ فرُوحى عندكم أبداً مُقيمُ
ولكنْ للعِيانِ لطيفُ معنًى ٭ له سالَ المعاينةَ الكليمُ

ومن أجود ماأحفظ له بيتان قالهما فى رجل نمَّام :

أَنَمُّ من المرآة فى كلِّ مادرَى ٭ وأقطعُ بين الناس من قُضُبِ الهِند
كأن المنايا والزمانَ تعلَّما ٭ تحيُّلَهُ فى القطع بين ذوى الوُدِّ !

وُجد بخطه أنه وُلد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ توفى رحمه الله فى سِلخ شعبان من سنة ٤٥٦ .

وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحةً عن بعض الغرض ، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ؛ وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبدادِه بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم [١] .

ولاية ابن حمود الناصر

ثم ولى على بن حمود على ماتقدم ، وتسمى بالخلافة ، وتلقَّب بالناصر ، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه ، وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك

(١) كذلك كان شأنه — فيما يحكى المراكشى — بعد وفاته بما يقرب من قرنين ، أما فى حياته فكم شنع عليه الفقهاء وطعنوا فيه حتى تغيرت عليه قلوب الخاصة والعامة ، وحتى نفر إلى البادية غريبا مستوحشا إلى أن مات ؛ فلا ييتئس أصحاب الرأى بما يلقون فى حياتهم من عنت وشقوة وسوء تقدير . وكأنما كان ابن حزم — رحمه الله — ينظر إلى هذا المعنى بظهر الغيب حين قال :

٭ فكم قائل : أغفلته وهو حاضر ٭ الأبيات !

ابن عبد الرحمن الناصر ، ولقّبوه بالمرتضى ، وزحفوا به إلى غَرناطة ، وهى من البلاد التى تغلّب عليها البربر ؛ ثم ندموا على تقديمه لِمَا رأوا من صرامته وحِدّة نفسه ، وخافوا من عواقب تمكّنه وقدرته ، فانهزموا عنه ودسُّوا عليه من قتله غِيلة ، وخفى أمره .

وبقى على بن حمود بقرطبة مستمرّ الأمر عامين غير شهرين ، إلى أن قتله صقالبةٌ له فى الحمام سنة ٤٠٨ ، وكان له من الولد : يحيى ، وإدريس .

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولى بعده أخوه القاسم بن حمود ، وكان أسنّ منه بعشرة أعوام ، وكان وادعا ، أَمِنَ النّاسُ معه ، وكان يُذكر عنه أنه تشيَّع ؛ ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غيّر على الناس عادةً ولا مذهبا ، وكذلك سائر من ولى منهم بالأندلس (١) .

فبقى القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ ، فقام عليه ابن أخيه يحيى ابن على بن حمود ، بمالَقة ، فهرب القاسم عن قُرطبة بلا قتال وصار باشبيلية ، وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال ، وتَسَمَّى بالخلافة ، وتلقّب بالمعتلى ؛ فبقى كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيى بن على إلى مالقة ، فبقى القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره .

وغلب ابنُ أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى كانت معقَل القاسم ، وبها كانت امرأته وذخائره ؛ وغلب ابن أخيه الثانى إدريس

---

(١) يعنى بنى حمود ، وهم ــ كما علمت ــ من بنى الحسن بن على .

ابن عليّ صاحب سَبتة على طنجة ، وهى كانت عُدة القاسم ، يلجأ إليها إن رأى مايخافه بالأندلس .

وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة ، وغلّقوا أبوابها دونه [١] ، وحاصرهم نيفاً وخمسين يوما ، وأقام الجمعة فى مسجد خارج قرطبة ، يعرف بمسجد ابن أبى عثمان ، أثرُه باقٍ إلى اليوم ؛ ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر ، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها فى شعبان سنة ٤١٤ ، ولحقت كلُّ طائفة من البربر ببلدٍ غَلبت عليه .

وقصد القاسم أشبيلية ، وبها كان ابناه محمد والحسن ، فلما عرف أهل أشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئَه إليهم ، طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر ، وضبطوا البلد ؛ وقدَّموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد اللَّخْمى [٢] ، ومحمد بن يريم الألهانى ، ومحمد بن الحسن الزبيدى ؛ ومكثوا كذلك أياما مشتركين فى سياسة البلد وتدبيره ، ثم استبد القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير ، وصار الآخران من جملة الناس .

ولحق القاسم بِشَرِيش ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيي ، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار فى قبضة ابن أخيه ، وانفرد ابن أخيه يحيي بولاية البربر .

وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس ،

(١) لما ثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته ، خرج إلى ماوراء الأسوار فحاصرهم بالمدينة .

(٢) هو رأس أسرة بنى عباد ملوك أشبيلية فيما بعد .

فقُـتل القاسم خنقاً سنة ٤٣١ ، وحُمـل إلى ابنه محمـد بن القاسم بالجزيرة ، فدفنه هناك .

فكانت ولاية القاسم منذ تسمى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ، ستة أعوام ، ثم كان مقبوضاً عليـه ستَّ عشرةَ سنة عنـد ابنى أخيه يحيي وإدريس ، إلى أن قتل - كما ذكرنا - فى أول سنة ٤٣١ ، ومات وله ثمانون سنة ، وله من الولد محمد والحسن ، أمهما أميرة بنت الحسن بن قَنُّـون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب .

ولاية يحيي بن على المعتلى

اختلف فى كنيته ، فقيل أبو القاسم ، وقيل أبو محمد ؛ وأمه لَبُـونةُ بنت محمد ابن الحسن بن القاسم المعروف بقَنُّـون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ وكان الحسن ابن قنُّـون من كبار ملوك الحسَـنِـيِّين وشُجعانهم ومَرَدَتِهم وطُغاتهم المشهورِين ؛ فتسمى يحيي بالخلافة بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ، ثم هرب عنها إلى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ، ثم سعى قوم من المفسدين فى ردِّ دعوته إلى قرطبة فى سنة ١٦ فتم لهم الأمل ، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عـطَّاف اليَـفْـرِنى (١) ، فبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٧ ،

---

(١) منسوب إلى يفرن : من قبائل البربر ، وقد بلغ من جاهه وسلطانه أن عبيد الله بن محمد المهدى — وكان أبوه الخليفة بعد انتهاء دولة بنى عامر — كتب إليه مسترفدا :

أقول لآمالى : ستبلغ إن بدا * محيا ابن عطاف ، ونعم المؤمَّل ! =

ثم قطعت طاعتَه جماعةُ البربر، [(١) وصرفوا عاملهم، وبايعوا المعتلى الأموى أخا المرتضى (٢)؛ وبقى المعتلى هذا يردد لحصارهم العساكر، إلى أن اتفقت كلمة البربر على الاستسلام لأبى القاسم (١)] وسلموا إليه الحصون والقلاع

= فقالت: دعانى؛ كل يوم تعلُّل! فقلت لها: إن لاح يغنى التعلل
لئن كان منى كلَّ حين ترحُّل فإنىَ إن أحلل به لست أرحل
فتى ترد الآمال فى بحر جوده وليس على نعمى سواه المعوَّل!

قالوا: فضن عليه ابن العطاف اليفرنى حتى برد الجواب؛ فكتب إليه ابن المهدى ثانية يقول:

أيها الممكن من قدرته لايراك الله إلا محسنا
إنما المرء بما قدَّمه فتخيَّر بين ذم وثنا
لا تكن بالدهر غِرًّا وإذا كنت فانظر فعله فى ملكنا!
كل ما خُوِّلت منه ذاهب إنما تصحب منه الكفنا
مُدَّ كفًّا نحو كفٍّ طالما أمطرت منه السماء الهتنا
أو أرحنى بجوابٍ موئس فمِطال البر من شر العنا

ولكن ابن العطاف مع ذلك لم يلن له، ولان له أحد كتابه فأعطاه خمسين درهما؛ فلما سمع بذلك ابن العطاف طرده .. ثم لم يلبث ابن عطاف أن نزلت به النكبة؛ فتزوج ذلك الكاتب امرأته وسكن فى داره وتخول فى نعمته، فكتب بالفحم على حائط تلك الدار:

أيادار قولى أين ساكنك الذى أبى لؤمه أن يترك الشكر خالدا
تسمَّى وزيراً، والوزارة سبَّة لمن قد أبى أن يستفيد المحامدا
وولَّى ولكن ليس يبرح ذمُّه فها هو قد أرضى عدوًّا وناقدا
وأضحى وكيل كان يأنف فعله نزيلك فى الحوض الممنَّع واردا
جزاءً بإحسان لذا، وإساءة لذاك، وساعٍ ورَّث الحمد قاعدا

وإنما أوردنا هذه الحكاية لدلالتها على مقدار ما كان من تبدل أمور الدولة ومنازل الأشراف فى غمار تلك الفتنة التى كانت!

(١) ما بين العلامتين [ ] زيادة اقتضاها السياق، ملخصة عن نفح الطيب.

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد المرتضى الذى بايعه العبيد فى زمن على الناصر ثم اغتالوه. انظر ص ٤٩ ـ ٥٠

والمدن ، وعظم أمره بقرمونة ، فصار محاصراً لأشبيلية ، طامعاً فى أخذها ، فخرج يوما وهو سكران إلى خيل ظهرت من أشبيلية بقرب قرمونة ، فلقيها وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرعَ من أن قتلوه (١) ، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ؛ وكان له من الولد : الحسن ، وإدريس ، لأمّىْ ولد .

[ردّ الأمر إلى بنى أمية]

ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبى القاسم كما ذكرنا ، اتفق رأى أهل قرطبة على ردّ الأمر إلى بنى أمية ، فاختاروا منهم ثلاثة : وهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أخو المهدى المذكور آنفا (٢) ، وسليمانُ بن المرتضى المذكور آنفا ، ومحمد بن عبد الرحمن بن هشامِ بن سليمان القائمِ على المهدىّ بنِ الناصر (٣).

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤ ، وله اثنتان وعشرون سنة ، وتلقب بالمستظهر ؛ وكان مولده سنة ٣٩٢ فى ذى القعدة ، يكنى أبا المطرف ، وأمّه أمّ ولدٍ اسمُها غاية .

ثم قام عليه أبو عبدالرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن الناصر ، مع طائفة من أراذل العوام ، فقتل عبدَ الرحمن بن هشام ، وذلك

(١) كان ذلك بدسيسة من ابن عباد الطامع فى الملك بأشبيلية .

(٢) انظر ص ٤١

(٣) الذى قام على المهدى ابن الناصر ، هو جده هشام بن سليمان . انظر ص ٤١

لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ، ولا عقب له [١] .

وكان فى غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ؛ كذا قال أبو محمد على ابن أحمد [٢] ، وكان خبيراً به لأنه وَزَرَ له : وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد : كان المستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد ، وهو القائل فى ابنة عمه :

حمامةُ بيتِ العَبْشَمِيِّين [٣] رفرفتْ ✿ فطِرتُ إليها من سَرَاتِهم صَقْرَا
تَقِلُّ الثريا أن تكون لها يداً ✿ ويرجو الصباحُ أن يكون لها نَحْرَا
وإنى لَطعّانٌ إذا الخيل أقبلتْ ✿ جوانبُها حتى ترى جُونها شُقْرَا
ومُكْرِمُ ضَيفى حين ينزلُ ساحتى ✿ وجاعلُ وفْرِى عند سائله وَفْرَا

وهى طويلة ، قالها أيام خِطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين .

قال أبو عامر : « وكان متهماً فى أشعاره ورسائله ، حتى كتب أبياتا ليعلى بن أبى زيد حين وفد عليه ارتجالا ، فعجب أهل التمييز منه ، وأما أنا فقد كنت بلوته ، وكان ورود يعلى فجأة ولم يبرح من مجلسه حتى ارتجل الأبيات وأنا والله أخاف أن يزل ، فأجاد وزاد . » هذا آخر كلام أبى عامر .

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله

ولى محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر ، لأن مولده فى سنة ٣٦٦ ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، أمه أمُّ ولدٍ اسمُها حواره ،

---

(١) ولم يمكث على العرش إلا بضعة وسبعين يوما !

(٢) يعنى ابن حزم السابق ذكره .

(٣) العبشميون : بنو عبد شمس .

وكان أبوه قد قتله ابن أبى عامر فى أول دولة هشام المؤيد ، لسعيه فى القيام وطلبه للأمر .

وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفى بالله ، وكانت ولايته ستة أشهر وأياما ، وكان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وَزَرَ له رجلٌ حائك يعرف بأحمد بن خالد ، هو كان المدبِّرَ لأمره والمدير لدولته ؛ فقل فى دولةٍ يُديرها حائك ... !

ولم يزل كذلك إلى أن خُلع وقُتل وزيره المذكور فى داره : دخل عليه عَوامّ أهل قرطبة نهاراً فتولَّوه بالحديد إلى أن بَرَد ، وخلعوا المستكفى بالله وأخرجوه عن قرطبة ، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجونا لا يصل إليه طعام ولا شراب ؛ ثم نفَوه – كما ذكرنا – فلحق بالثغور ، ورجع الأمر إلى يحيى بن على الفاطمى (١) .

وانتهى المستكفى المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بـ « شمنت (٢) » بالقرب من مدينة سالم ، ومعه أحد قواده ، وهو عبدالرحمن بن محمد بن السليم ، من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر ؛ فكرِه هذا القائد التمادىَ معه ، فاستدعى المستكفى غداءه ، فعمد القائد إلى دجاجة فدَهنها له بعُصارة نبت يقال البيش (٣) – وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة – فلما أكلها المستكفى مات مكانه ، فغسَّله وكفَّنه وصلّى عليه ودفنه ؛

---

(١) يعنى المعتلى ابن حمود ، وآل حمود فاطميون من بنى الحسن بن على .

(٢) عبارة المقرى : « وفر المستكفى إلى ناحية الثغر ومات بفرة »

(٣) زهرة ذات ألوان ولكن عصارتها سم ناقع .

فقبره هناك ، ولا عقب له (١) .

ثم أقام يحيى بن على الفاطمى فى الولاية نافذ الأمر ، إلا أنه لم يدخل قرطبة ، وإنما كان مقيما بقرمونة كما قد قدمنا (٢) إلى أن قُتل فى التاريخ الذى تقدم ذكره .

ولاية هشام المعتدّ بالله

ولما انقطعت دعوة يحيى بن على الفاطمى عن قرطبة فى التاريخ الذى ذكرنا ، أجمع رأى أهل قرطبة على ردّ الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك والذى تولى معظمَه وسعى فى تمامه ، الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبى عبدة ؛ وقد كان ذهب كل من ينافس فى الرياسة ويَخُبّ فى الفتنة بقرطبة ؛ فراسل جَهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلّبين هنالك على الأمور ، وداخلَهم فى هذا الأمر ، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى المذكور آنفا (٣) .

وكان هشام هذا مقيما بحصن يدعى ألبُنْت ، من الثغور ، عند أبى عبدالله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلّب بها ؛ فبايعوه فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقّب بالمعتدّ بالله .

وكان مولده فى سنة ٣٦٤ ، وكان أسنّ من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ،

---

(١) هو أبو « ولادة » صاحبة ابن زيدون .

(٢) ونائبه على قرطبة هو ابن عطاف المذكور آنفا . انظر ص ٥٢ ـ ٥٣

(٣) انظر ص ٤٩ ـ ٥٠

وسنّه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة ، أمّه أمُّ ولدٍ اسمُها «عاتب»

فبقى يتنقل فى الثغور ثلاثة أعوام لايستقر بموضع ، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلّبين واضطراب شديد ، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبةِ المُلك ، فسار إليها ودخلها فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يُقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند ، فخُلع ، وجرَت أمور يطول شرحها ، من جملتها إخراج المعتدِّ بالله هذا من قصره هو وحشمه ، والنساء حاسراتٌ عن أوجههن ، حافيةٌ أقدامُهن ، إلى أن أُدخلوا الجامعَ الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياما يُتعطَّفُ عليهم بالطعام والشراب ، إلى أن أُخرجوا عن قرطبة .

ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقالٍ بقرطبة ، فلم يزل يجول فى الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلِّب على مدينة لاردة وسَرَقُسْطَة وأفراغة وطُرْطُوشة وما والى تلك الجهات ، فأقام عنده هشام إلى أن مات فى سنة ٤٢٧ ولا عقب له ؛ فهشام هذا آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

نسبُه : هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم .

وبخلعه انقطعت الدعوةُ لبنى أمية وذِكرُهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعُدوة إلى الآن .

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بنى أمية بالأندلس على شرط التلخيص .

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها

ومن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١

[مآل قرطبة بعد انتهاء الدولة الأموية]

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة ، استولى على تدبيرِ مُلك قُرطبة جهور ابن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدم ذكر نسبه فى ترجمة هشام المعتد.

وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحَكَمِية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء وبُعد الغَور وحصافة العقل وحسن التدبير ؛ ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك ، كان يتصاوَنُ عنها ويُظهِر النزاهة والتديُّن والعفاف ؛ فلما خلا له الجوُّ وأَصفَر الفِناء وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة ، وثب عليها فتولى أمرها واضطلع بحمايتها.

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهرا ، جرياً على ماقدّمنا من إظهار سُنن العفاف ؛ بل دبّرها تدبيراً لم يُسبَق إليه ؛ وذلك أنه جعل نفسه مُمْسِكا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارته فيسلِّم إليه ذلك ؛ ورتّب البوابين والحشمَ على تلك القصور على ماكانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحوّل عن داره إليها ، وجعل مايرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتّبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصيّر أهل الأسواق جُنداً له ، وجعل أرزاقهم رؤوس أموالٍ تكون بأيديهم مُحْصَاةً عليهم يأخذون ربحها ورءوس الأموال باقية

محفوظة ، يُؤخذون بها ويراعَوْن فى كل وقت كيف حِفظُهم لها ، وفرّق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت ، حتى إذا دهمهم أمرٌ فى ليلٍ أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه .

وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبّر الأمور تدبير الملوك المتغلّبين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة فى أيامه حرماً يأمن فيه كلُّ خائف .

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات فى غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً .

ثم ولِى ماكان يتولىَّ من أمر قرطبة بعده ابنُه أبو الوليد محمد بن جَهْور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه ، غير مُخِلٍّ بشىء من ذلك ، إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سِلخ شوال من سنة ٤٤٣ .

فغلب عليها بعد أمورٍ جرَتْ ، الأميرُ الملقَّب بالمأمون بن ذى النون صاحب طُليْطلة ، فدبّرها مدة يسيرة إلى أن مات .

وخلَفَ فيها بعده من البربر رجلٌ يعرف بابن عكاشة ، أظن اسمه موسى ؛ فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأميرُ الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على مايأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

فهذا آخر أخبار قرطبة وكونِها داراً للملك .

وبعد غَلَبة المعتمد عليها صارت تبعا لأشبيلية .

فصل

[رجع الحديث إلى بنى حمّود]

[ومطمع بنى عباد فى التغلب على قرطبة]

وأما أحوال الحسنيين ، فإنه لما قُتل يحي بن على (١) كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ - رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بَقَنَّة ، ونجا الخادمُ الصَّقْلَبى ، وهما مدبّرا دولة الحسنيين ، فأتيا مالقة ، وهى دار مملكتهم ، فخاطبا أخاه إدريس بن على ، وكان بِسَبْتة ، وكان يملك معها طنجة ، واستدعياه ، فأتى مالقة ، وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسنَ بن يحي المقتول مكانه بسبتة ؛ ولم يبايعا واحداً من ابنَى يحي ، وهما إدريس وحسن ، لصغرهما ؛ فأجابهما إلى ذلك ؛ ونهض نجَا مع حسن هذا إلى سبتة وطنجة ، وكان حسن أصغرَ ابنَى يحي ولكنه أسَدُّهما رأيا .

وتلقّب إدريس بالمتأيّد ، فبقى كذلك إلى سنة ٣٠ أو ٣١ ، فتحركت فتنة ، وحدث للقاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد صاحب أشبيلية أملٌ فى التغلّب على تلك البلاد ، فأخرج ابنه إسماعيل فى عسكر مع من أجابه من قبائل البربر ، ونهض إلى قرمونة فحاصرها ، ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة ، وحصن آخر يدعى استجة ، فأخذهما ؛ وكانا بيد محمد بن عبد الله ، رجلٍ من قواد البربر من بنى بَرْزال ؛ فاستصرخ محمدُ بن عبد الله إدريسَ بن علىّ الحسنى وقبائلَ

(١) يعنى المعتلى ابن حمود .

صنهاجة ، فأمدّه صاحب صنهاجة بنفسه ، وأمدّه إدريس بعسكر يقوده ابنُ بَقَنَّة أحمدُ بن موسى مدبّرُ دولته ؛ فاجتمعوا مع محمد بن عبد الله ، ثم غلبت عليهم هيبةُ إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، قائدِ عسكر أبيه القاضى أبى القاسم ، فافترقوا ، وانصرف كل واحد منهم إلى بلده ؛ فبلغ ذلك إسماعيل ابن محمد ، فقوِى أمَلُه ، ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحب صنهاجة ، وقدّر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه ، فوجّه إلى ابن بَقَنَّة يسترجعُه ، وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة ، فرجع إليه ، والتقت العساكر ؛ فما كان إلا أن تراءى الجمعان ، فولى عسكرُ ابنِ عباد منهزما ، وأسلموا إسماعيل ، فكان أول مقتول ، وحُمل رأسه إلى إدريس بن على الحسنى .

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك ، فنزل عن مالقة إلى جبل بُباشتر ، وهو الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر (١) ، فتحصّن به وهو مريض مُدْنَف ، فلم يَعِش إلا يومين ومات ، وترك من الولد يحيي ، قُتل بعده ، ومحمداً الملقب بالمهدى ، وحسناً المتلقب بالسامى ؛ وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على ، مات فى حياة أبيه ؛ وترك ابنا اسمه عبد الله ، أخرجه عمه (٢) ونفاه لما وَلِى .

وقد كان يحيي بن على المذكورُ قبلُ قد اعتقل ابنَى عمه محمداً والحسنَ ابنَى القاسم بن حمود بالجزيرة ، وكان الموكَّل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبى الحجاج ، فحين وصل إليه خبرُ قتل يحيي ، جمع من كان فى الجزيرة من المغاربة

(١) لم يرد ذكر لابن حفصون فيما مضى من الكتاب ، وإنما كان ذلك فى الجزء الذى انخرم منه .
(٢) يعنى المعتلى يحيي بن على بن حمود .

والسودان ، وأخرج محمداً والحسن ، وقال : هذان سيّداكم ! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما ، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم ؛ وانفرد محمدٌ بالأمر دون الحسن ، ومَلك الجزيرة ، إلا أنه لم يَتَسَمَّ بالخلافة ، وبقى معه أخوه الحسن مدة ، إلى أن حدث له رأى فى التنسك ، فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا ، وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم ، زوجة يحيى بن على المعتلى (١) .

فلما مات إدريس كما تقدم ، رام ابنُ بَقَنَّة أحمدُ بن موسى ضَبْط الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بِحَيُّون ، ثم لم يجسر على ذلك الجَسْر التام ، وتحيَّر وتردّد .

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن علىّ إلى نجا الخادم الصَّقْلبي ، وكان بسبتة ، استخلف عليها من وثق به من الصقالبة ، وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة ، ليرتّب الأمر له ؛ فلما وصلا إلى مرسى مالقة ، خارت قوى ابن بَقَنَّة وهرب إلى حصن كمارش ، على ثمانية عشر ميلا من مالقة .

ودخل حسن ونجا مالقة ، واجتمع إليهما من بها من البربر ، فبايعوا حسن ابن يحيى بالخلافة ، وتَسَمَّى المستعلِى ، ثم خاطب ابن بقنّة وأمّنه ، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس .

---

(١) رواية المقرى : « وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة ٤١٤ فر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها وتلقب بالمعتصم ، إلى أن هلك سنة ٤٤٠ ، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة ٤٥٠ »
ولم يذكر المقرى شيئاً عن تنسك محمد بن القاسم ولبسه الصوف .

ورجع نجا إلى سبتة وطنجة ، وترك مع الحسن رجلا كان من التجار يعرف بالسطيفى ، كان نجا كثيرَ الثقة به ، فبقى الأمر كذلك نحواً من عامين .

وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة عمه إدريس ، فقيل إنها سمَّته أسفاً على أخيها ، فلما مات احتاط السطيفى على الأمر ، واعتقل إدريس بن يحيى ، وكتب إلى نجا بالخبر .

وكان للحسن ابنٌ صغير عند نجا ، فقيل إنه اغتاله أيضاً فقتله ، فالله أعلم .

ولم يُعقب حسن بن يحيى ، فاستخلف نجا على سَبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه ، وركب البحر إلى مالقة ، فلما وصل إليها زاد فى الاحتياط على إدريس بن يحيى ، وأكّد اعتقاله ، وعزم على محو أمر الحسنيين جملة ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فدعا البربر الذين كانوا جندَ البلد ، وكشف الأمر إليهم علانية ، ووعدهم بالإحسان ، فلم يجدوا لمساعدته بدا ، فوافقوه فى الظاهر ، وعظم ذلك فى أنفسهم باطناً ؛ ثم جمع عسكره ، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم ، فحاربه أياما ، ثم أحسّ بفتور نيات الذين معه ، فرأى أن يرجع إلى مالقة ، فإذا حصل فيها نَفَى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم ، واستدعى الصقالبةَ من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم ؛ وأحسّ البربر بهذا منه ، فاغتالوه فى الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة ، فقُتل وهو على دابته فى مضيقٍ صارَ فيه ، وقد تقدَّمه إليه الذى أراد الفتك به ، وفرّ من كان معه من الصقالبة بأنفسهم ؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة ، فدخلا وهما يقولان : البشرى البشرى !

فلما وصلا إلى السطيفى ، وضعا سيفيهما عليه فقتلاه .

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيي من محبسه ، فقدموه وبايعوه بالخلافة ، وتسمَّى بالعالى ، فظهرت منه أمور متناقضة ، منها أنه كان أرحمَ الناس قلبا ، كثير الصدقات : يتصدق كل يوم بخمسمائة ، وردَّ كلَّ مطرود عن وطنه إليه ، وردّ عليهم ضياعهم وأملاكهم ، ولم يسمع بَغْياً فى أحد من الرعية ؛ وكان أديب اللقاء ، حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبياتَ الحسان (١) ؛ ومع

---

(١) مدحه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الفنداقى الأشبونى من شعراء الذخيرة ، بقصيدته المشهورة التى يقول فى أولها :

أَلبرقٍ لائحٍ من أندرين … ذرفت عيناك بالماء المعين

لعبت أسيافه عارية … كمخاريق بأيدى لاعبين

ولصوت الرعد زجر وحنين … ولقلبى زفرات وأنين

وأناجى فى الدجى عاذلتى : … ويك ! لا أسمع قول العاذلين

إلى أن يقول بعد وصف رائع لمجلس أنس وشراب :

وكأن الشمس لما أشرقت … فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيي بن علىٍّ … بن حمّود أمير المؤمنين

ويمضى فى مدحه حتى ينتهى إلى قوله :

يابنى أحمد ياخير الورى … لأبيكم كان وفد المسلمين .

نزل الوحى عليه فاحتبى … فى الدجى فوقهمو الروح الأمين

خُلقوا من ماء عدل وتقى … وجميع الناس من ماء وطين

انظرونا نقتبس من نوركم … إنه من نور رب العالمين !

قيل إنه أنشده إياها من وراء حجاب ، اقتفاء لطريقة خلفاء بنى العباس فى المشرق ، فلما بلغ قوله :

* انظرونا نقتبس من نوركم *

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ، وأمر له بإحسان جزيل .

هـذا فكان لا يَصحَبُ ولا يُؤثِر إلا كلَّ ساقطٍ رَذْل ، ولا يَحْجُبُ حُرَمَه عنهم ، وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بنى يَفْرَنَ أعطاه إياه ؛ وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبِّر أمره وصاحبَ أبيه وجدِّه : موسى بن عفان السبتى ، فلما أخبره بأن الصنهاجيَّ كتب إليه يطلبه منه وأنه لابد من تسليمه إليه ، قال له موسى بن عفان : افعـل ماتؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! فبعث به إلى الصنهاجى فقتله .

وكان قد اعتقل ابنى عمه محمداً وحسناً ابنى إدريس بن على فى حصن إيرُش ، فلما رأى ثقتُـه الذى فى الحصن اضطرابَ آرائه ، خالف عليه وقدَّم ابنَ عمه محمد بن إدريس ؛ فلما بلغ ذلك السودانَ المرتَّبين فى قصبة مالقة ، نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس ، وراسلوه بالمجىء إليهم وامتنعوا بالقصبة .

واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى ، واستأذنوه فى حرب القصبة والدفاع عنه ؛ ولو أذن لهم ماثبت السودان فُوَاقَ ناقة (١) ، فأبى ، فقال لهم : الزموا منازلكم و دَعُونى ؛ فتفرقوا عنه .

وجاء ابن عمه ، فسُلِّم عليه ، وبويع بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وولى أخاه عهدَه ، وسماه السامى ، واعتَقل ابن عمه إدريس بن يحيى فى الحصن الذى كان هو معتقلا فيه (٢) .

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامةٌ وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر

---

(١) كناية عن السرعة .

(٢) كان خلعه فى سنة ٤٣٨ ووفاته بين سنتى ٤٤٦ ــ ٤٤٧ .

وأشفقوا منه ، وراسلوا المرتَّب فى الحصن الذى فيه إدريس بن يحي هذا واستمالوه ، فأجابهم وقام بدعوة إدريس .

وقد كان إدريس أولَ ولايته بعد قتل نجا - كما تقدم - قد ولى سبتةَ وطنجة رجلين من بَرَغْواطة ، قبيلةٍ من قبائل البربر ، من عبيد أبيه ، اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سَكات ؛ فلما خُلع إدريس كما تقدم ، بقيا حافظين لمكانَيْهما .

فلما قام - كما ذكرنا - بدعوته صاحبُ حصن إيرُش ، لم يُظهر محمدٌ مبالاةً بذلك ، بل ثبت ثباتاً شديدا ، وكانت والدته تشجعه وتقوِّى مَتْنَه وتُشرِف على الحرب بنفسها فتُحسن إلى من أَبْلى ؛ فلما رأى البربر شدةَ عزمه وثباته ، فَتَّ ذلك فى أعضادهم وتخلَّوا عن إدريس بن يحي ، ورأوا أن يبعثوا به إلى سَبتة وطنجة ، إلى البَرَغْواطيَّيْن اللذين ذكرنا ، وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما فى حضانتهما ؛ فلما وصل إليهما أظهرا تعظيمه ومخاطبَتَه بالخلافة ، إلا أنهما حَجَباه حجابا شديداً ولم يَدَعا أحداً من الناس يصل اليه ؛ فتلطَّف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه ، وقالوا له : إن هذين العبدين قد غَلَبا عليك ، وحالا بينك وبين أمرك ؛ فأْذن لنا نَكفِيكهُما ؛ فأبى ؛ ثم أخبرهما بذلك ، فنفيا أولئك القوم ، وأخرجا إدريس بن يحي وبَعثَا به إلى الأندلس ، وتمسَّكا بولده لصغره ؛ إلا أنهما فى كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة .

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بالسامى أمراً ، فنفاه إلى العُدوة ، فصار فى جبال غمارة ، وهى بلاد تنقاد لهؤلاء الحسنيين ، وأهلُها

يعظّمونهم تعظيما مفرطاً .

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم (١) الكائن بالجزيرة الخضراء ، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر ؛ فاستفزّه الطمع وخرج إليهم ، فبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ؛ وصار الأمر فى غاية الأُخلوقة (٢) والفضيحة : أربعةٌ كلُّهم يتسمَّى بأمير المؤمنين ، فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً فى مثلها .

فأقاموا معه أياما ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ، ورجع محمد (٣) خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام ؛ فقيل إنه مات غما ؛ وترك نحواً من ثمانية ذكور .

فتولى أمر الجزيرة بعده ابنُه القاسم بن محمد بن القاسم ، إلا أنه لم يتسمّ بالخلافة .

وبقى محمد بن إدريس [المهدى] بمالقة إلى أن مات سنة ٤٤٥ (٤) .

وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى (٥) عند بنى يَفْرَن بتاكرونة ؛ فلما تُوفى محمد بن إدريس بن يحيى [المهدى] ردت ، العامةُ إدريس العالى إلى مالقة واستولى عليها ، وهو آخر من ملكها من الحسنيين (٦) ؛

(١) أبوه القاسم بن حمود الذى ولى الخلافة قبل ابن أخيه يحيى المعتلى وتلقب بالمأمون ؛ وكان محمد هذا مقيما بالجزيرة منذ خروجه من أشبيلية ودورة الدائرة على أبيه . انظر ص ٥٠ ـ ٥٢

(٢) كذا بالأصل ، ويظن دوزى أنها محرفة عن « الأضحوكة » ، ولا داعى لهذا الظن

(٣) يعنى محمد بن القاسم .

(٤) فى نفح الطيب أن وفاته كانت سنة ٤٤٤ .

(٥) هو ممدوح أبى زيد الأشبونى السابق ذكره .

(٦) يروى المقرى أن إدريس بن يحيى العالى لم يكن آخر أمرائهم ، فقد بويع من بعده ولده محمد بن إدريس ولقب بالمستعلى ، ثم سار إليه باديس بن حبوس سنة ٤٤٩ فتغلب على مالقة ، وسار محمد المستعلى هذا إلى المرية مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مليلة وبايعوه سنة ٤٥٦ فظل إلى أن مات سنة ٤٦٠ ...

فلما مات [1] أجمع البربر رأيهم على نفى الحسنيين عن الأندلس إلى العُدوة والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ، ففعلوا ذلك وتم لهم ماأرادوا منه .

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكرونة ، ومالقة وما والاها أيضاً إلى حصن منكـَب وغَرناطة وأعمالها ، فى ملك البربر ؛ وملكوا مع ذلك بعض أعمال أشبيلية ، كحصن أشونة ، وقرمونة ، وشَذّبَر : ولم يزالوا كذلك إلى أن أخرجَ من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال أشبيلية المعتضدُ بالله أبو عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عبّاد اللخمى ، ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك .

وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بها ، حسبما أورده أبو عبد الله محمد ابن أبى نصر الحميدى ، عليه عوّلت فى أكثر ذلك ، ومن كتابه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطَه فيها أصلحتُها جهد ما أقدر .

وعلى الله قَصْدُ السبيل وهو المسؤل فى الهداية قولا وعملا .

= وقد سبق فى هامش ص ٦٣ مانقلناه عن المقرى من حديث عن الواثق بن المعتصم بن القاسم ابن حمود ، وأنه ظل أميراً على الجزيرة الخضراء إلى سنة ٤٥٠

فإن صح مارواه المقرى من هذا لم يكن إدريس بن يحي المهدى آخر ملوك بنى حمود فى الأندلس ؛ إلا أن يكون المراكشى قد أراد ــ فيما نقله من ذلك عن الحميدى ــ أنه آخرهم فى مالقة . وقد كانت مالقة دار ملكهم منذ ضعف شأن البربر فى قرطبة .

(١) كانت وفاته بين سنتى ٤٤٦ ــ ٤٤٧

فصل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية ، فإنّ أهلها تفرّقوا فِرقا ، وتغلّب فى كل جهة منها متغلّب ، وضبط كلّ متغلّب منهم ما تغلب عليه ، وتقسّموا ألقاب الخلافة ؛ فمنهم من تسمى بالمعتضِد ، وبعضهم تسمّى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل ؛ إلى غير ذلك من الألقاب الخِلافية ؛ وفى ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق .

مما يزهّدُنى فى أرض أندلسٍ * سَماعُ مُقْتَدِرٍ فيها ومعتضِدِ
ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها * كالهرّ يحكى انتفاخا صولة الأسد !

وأنا ذاكرٌ إن شاء الله فى هذا الفصل أسماءهم والجهات التى تغلّبوا عليها ، على نحو ما شرطتُ من الإجمال ؛ إذ لكل منهم أخبار وسِيَر ووقائعُ لو بسطتُ القولَ فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى حيز الإسهاب ، وأيضاً فالذى منعنى عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم ، قلةُ ما صحِبنى من الكتب ، واختلالُ معظم محفوظاتى .

[ملوك الطوائف]

فأولهم فى الربع الشرقى ، (١) رجل اسمه سليمان بن هود ، تلقّب بالمؤتمن ،

(١) فى الأصل : الجنوبى ؛ وإنما تقع البلاد الآتى ذكرها فى الشرق الشمالى لا فى الجنوب .

وتلقب ابنه بالمقتدر، وتلقب ابنه بالمستعين [١].

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية [٢] : طُرْطُوشة [٣] وأعمالها، وسَرَقُسْطَة [٤] وأعمالها؛ وأفراغة، و لاردة، وقلعة أيوب [٥]. هذه

(١) كذا بالأصل، وفي غيره من المراجع أن سليمان بن هود هذا تلقب بالمستعين، وابنه بالمقتدر، وابنه بالمؤتمن. وهو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى، مولى أبي حذيفة الجذامي، وجدهم هود هو الداخل إلى الأندلس.

(٢) في الأصل : الجنوبية.

(٣) مدينة جليلة على نهر أبره، اسمها الروماني درتوزه (Dertosa) استولى عليها العرب في بداية الفتح، ثم عاد الأسبان فملكوها، فاسترجعها عبد الرحمن بن الحكم في عهد أبيه الحكم بن هشام الربضي؛ ولوجودها في طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يرون إبعاده من أهل الفتنة؛ ولما انحلت وحدة الدولة ونجم ملوك الطوائف، صارت طرطوشة إمارة مستقلة يحكمها مولى من موالي بني عامر اسمه نبيل الصقلبي، ويحكم معها بلنسية؛ وفي سنة ٤٥٢ ثارت طرطوشة بأميرها هذا الصقلبي، فلجأ إلى المقتدر بن هود صاحب سرقسطة؛ ودخلت طرطوشة منذ ذلك اليوم في طاعة بني هود.

ثم كان استيلاء النصارى عليها في منتصف شعبان سنة ٥٤٣، وكان الذي استولى عليها هو ريموند بيرانجه صاحب برشلونة، بمساعدة فرسان الهيكل الصليبيين وأساطيل بيزة وجنوة؛ كما استولى في السنة نفسها على أفراغة ولاردة؛ وتقع أفراغة ولاردة مما يلي طرطوشة نحو الشمال على ساحل بحر الروم.

(٤) مدينة كبيرة على نهر أبره، ترتفع عن البحر ١٨٤ مترا، تحدق بها البساتين، فتحها العرب سنة ٩٤ واتخذوها قاعدة من قواعدهم في الأندلس؛ وكان صاحب الأمر فيها لعهد بني مروان أمير من بني قصي، وهي أسرة أسبانية دانت بالإسلام وكان منها أمراء وقواد في جيش الدولة.

ثم توارثها بعد محمد بن لب آخر أمراء بني قصي الأسباني الأصل، أمراء من بني تجيب، وبنو تجيب : أسرة عربية كانت تقيم بسرقسطة منذ أول الفتح.

فلما كانت أيام الفتنة، وثب أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود عامل لاردة على سرقسطة، فاستخلصها لنفسه من بني تجيب، وجعلها حاضرة ملكه، وتسمى أبو أيوب هذا بالمستعين؛ وهذا مبدأ دولة بني هود؛ وتوفي المستعين في سنة ٤٣٨، فخلفه ابنه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤، وتسلسل الملك في بني هود إلى أن استولى النصارى على سرقسطة سنة ٥١٢

(٥) مدينة من أعمال سرقسطة، بالقرب من مدينة لبلة، بنى قلعتها أيوب بن حبيب اللخمي بن أخت موسى بن نصير الفاتح، وإليه تنسب؛ وكان سقوطها في يد الأسبان أوائل القرن السادس.

اليوم كلُّها بأيدى الأفرنج ، يملكها صاحب برشنونة لعنه الله ؛ وهى البلاد التى تسمى أرْغُن ، حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنونى مما يلى بلاد إفرنسة .

* * *

[(١) ويجاور بنى هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان ، قديم الرياسة ، هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته ، ولا أعلم له لقبا ، كان يملك بلنسية وأعمالها (١)] .

* * *

وكان يلى الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان بن رزين ، كان يملك إلى أول أعمال طليطلة .

* * *

وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها : الأمير أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون .

وأبو الحسن هـذا أقدمُ ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدُّم ، تلقَّب بالمأمون ؛ كان أبوه إسماعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبلُ واستبد بملْكها أولَ الفتنة .

---

(١) أثبت العلامة دوزى هـذه الزيادة فى طبعته نقلا عن هامش المخطوط ، وقد أثبتناها حذوه ، ونظنه يعنى بأبى مروان هذا المذكور : عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، ولقبه المظفر ، وقد ولى أمر بلنسية منذ مات أبوه المؤتمن سنة ٤٥٢ إلى أن استولى عليها المأمون بن ذى النون سنة ٤٥٧ ...

وكان عبد الملك بن عبد العزيز هذا صهراً لمجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية . انظر « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » لابن عذارى .

ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا ، إلى أن أخرجه عنها الأدفنش لعنه الله (١) ، واستولى عليها النصارى فى شهور سنة ٤٧٨ (٢) ، فهى قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا .

* * *

وكان يملك قُرطبة وأعمالها إلى أول الثغر : جَهْوَر بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه (٣) إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذى النون والد أبى الحسن المذكور آنفا .

* * *

وكان يملك أشبيلية وأعمالها القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبَّاد اللخمى (٤) ، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حُمود وابنيه محمداً والحسن على ماسيأتى الإيماء إليه إن شاء الله عز وجل .

* * *

وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما والى ذلك : البربر بنو بَرْزَال

---

(١) هو ألفونس السادس ملك قشتالة .

(٢) فى الأصل : سنة ٣٧٦ ، وهو خطأ صوابه ما أثبتناه ؛ وطليطلة من أول مااسترد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة ، وفى ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبى :

يا أهل أندلس حثُّوا مطيّكمو ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سَفط ؟

(٣) انظر ص ٥٧ ، ٥٩ ــ ٦٠

(٤) انظر ص ٥١

الصَّنْهاجيُّون على ماقدمناه .

* * *

وتغلب على المَرِيَّة وأعمالها زهير العامرى الخادم ، ثم ملكها بعده خيران العامرى أيضا الخادم ، ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيي محمد بن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم ؛ فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتونى فى شهور سنة ٤٨٤ .

* * *

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهدٌ العامرى ، أصله رومى مولى لأبى عامر محمد بن أبى عامر ، ثم ملكها بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفّق ، لاأعلم فى المتغلّبين على جهات الأندلس أصْوَنَ منه نفسا ولا أطهر عرضا ولا أنقى ساحة ، كان لايشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثِراً للعلوم الشرعية مكرما لأهلها ، توفى قبل فتنة المرابطين بيسير ، لاأتحقق تاريخ وفاته [١] .

* * *

وكان يملك الثغر الذى من الجهة المغربية [٢] من الأندلس وبعضَ المدن المجاورة للبحر الأعظم : ابنُ الأفطس المتلقب بالمظفر ، ذهب عنى اسمه [٣] ، ثم كان له ابنٌ اسمه عمر ، يكنى أبا محمد ، تلقب بالمتوكل على الله ، كان يملك

---

(١) ظل على بن مجاهد يلى أمر دانية حتى غلبه عليها المقتدر أحمد بن سليمان بن هود ، صاحب سرقسطة ، سنة ٤٦٨ ، فخرج عنها وكان آخر العهد به .

(٢) فى الأصل : الشمالية .

(٣) هو محمد بن عبد الله .

بَطَلْيوس وأعمالها ، ويابرة ، وشنترين ، والأشبونة .

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه ، على نحو الاختيارات للروحى ، وعيون الأخبار لأبى محمد ابن قتيبة ؛ جاء هذا الكتاب فى نحو من عشرة أجزاء ضخمة [١] وقفت على أكثره ، ترجمته « المظفَّرىّ » .

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لا يُغِبُّ الغزو ولا يشغله عنه شىء ، واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً : ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ .

وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم ؛ وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، من أهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ، لابل عقيلته العذراء ، التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلَّت

(١) قال ابن بسام : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة ، والمشتهر أيضا اسمه بالكتاب المظفرى ، فى خمسين مجلداً ، يشتمل على فنون وعلوم ، من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع مايختص به علم الأدب .
ويقول ابن الأبار إنه كان كثير الأدب جم المعرفة محبا لأهل العلم جماعة للكتب ذا خزانة عظيمة .
وحكى الشقندى أن كتاب « المظفرى » فى نحو مائة مجلدة !
توفى المظفر سنة ٤٦٠

عن أن تُسامى، وأنفت من أن تُضاهى: فقل لها النظير، وكثر إليها المشير، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقلٌ وجرير؛ فلله هى من عقيلة خدرٍ قَرُبت بسهولتها حتى أطمعت؛ وبَعُدَت حتى عَزَّت فامتنعت؛ أوردتها فى هذا المصنف وإن كان فيها طولٌ مخرج عن الحد الذى رسمته؛ مُخِلٌّ بالتلخيص الذى شرطته؛ لصحة مبانيها؛ ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها؛ سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يُسبَق إليها؛ وورد شِرْعةً لم يُزاحم عليها؛ فلذلك قل مثلها لا بل عُدِم، وعز نظيرها فما تُوُهِّم ولا عُلِم، وهى (١):

الدهر يُفجع بعد العين بالأثر * فما البكاء على الأشباح والصور؟

أنهاكَ أنهاك لا آلوك موعظةً * عن نَوْمةٍ بين ناب الليث والظُّفُرِ

فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مُسالمةً

والبيضُ والسُّودُ مثلُ البيض والسُّمُر

ولا هوادةَ بين الرأس تأخذه * يدُ الضِّرابِ وبين الصارمِ الذَّكَرِ

فلا تغُرَّنْكَ من دنياك نَوْمَتُها * فما صِناعةُ عينيها سوى السَّهَرِ

ما لليالى ـ أقالَ اللهُ عثرتَنا * من الليالى وخانتها يدُ الغِيَرِ

فى كلِّ حينٍ لها فى كلِّ جارحةٍ * مِنّا جراحٌ وإن زاغتْ عن النَّظَرِ

تَسُرُّ بالشىء لكِنْ كىْ تُغَرَّ بهِ * كالأيمِ ثارَ إلى الجانى من الزَّهَرِ

---

(١) اقتصرنا فيما سبق من الكتاب على إيراد النصوص الأدبية التى ذكرها المؤلف دون شرح لها أو تعليق عليها؛ إذ كان فى معاجم اللغة ما يغنى عن ذلك؛ ولكننا فى هذه القصيدة ـ دون غيرها ـ قد آثرنا أن نخرج عن هذا النطاق إلى حد ما؛ لتوضيح الرموز التاريخية التى أشار إليها ابن عبدون فى تضاعيف قصيدته.

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنصرِ خدمتَها ✿ لم تُبْقِ منها ـ وسَلْ ذكراكـ ـ من خبر (١)

هوتْ بدَارا وفلَّتْ غَرْبَ قاتلهِ ✿ وكان عَضْباً على الأملاكِ ذا أُثرِ (٢)

واسترجَعتْ من بنى ساسانَ ما وهَبتْ ✿ ولم تَدَعْ لبنى يُونانَ من أثرِ (٣)

وألحقتْ أختَها طَسْماً ، وعادَ على ✿ عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقِضُ المِرَرِ (٤)

وما أقالت ذوى الهيئات من يَمَنٍ ✿ ولا أجارت ذوى الغايات من مُضَرِ (٥)

---

(١) الضمير هنا أيضا يعود على الليالى . والمعنى : كم دولة هيأت لها الليالى أسباب النصر والتأييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل ما منحت ولم تبق لها خبرا .

(٢) دارا : ملك من ملوك الفرس ، قالوا إنه لبث فى الملك ثلاثين سنة ، ثم قتله الإسكندر ؛ والفل : الكسر ؛ والغرب : الحد ؛ والعضب: السيف ؛ والأملاك : جمع ملك ؛ والأثر بضم الهمزة والثاء : فرند السيف ؛ والمعنى : أن الليالى سقطت بدارا عن عرشه ، وكان على أعدائه من الملوك سيفاً قاطعا ؛ ثم لم تبق على قاتله فحطمت سيفه وجرعته منيته . وقد تغلب الإسكندر على سائر ملوك عهده ، وبسط سلطانه على أكثر المعمور ، ومات وله من العمر بضع وثلاثون سنة !

(٣) بنو ساسان : الأكاسرة من ملوك فارس ، حكموها بعد ملوك الطوائف إلى عهد الفتح العربى ، وكانت مدة حكمهم أربعة قرون ونصف قرن .

(٤) طسم ، وأختها جديس : من قبائل العرب البائدة ، كان موطنهما باليمامة ، ولهما خبر مشهور فى تاريخ الجاهلية ؛ فقد كان ملك القبيلتين رجلا من طسم اسمه عملوق ، وكان غشوماً ظالما منقاداً لشهواته ، مجترئاً على حرمات الناس ، وكانت جديس تلقى من شره مالا طاقة لأحد به ، فأجمعت أمرها ـ بتدبير امرأة منها اسمها عفيرة ـ على الفتك به ؛ فكان من ذلك إبادة طسم وجديس . و « عاد » التى ورد ذكرها فى البيت : هى التى عناها الله سبحانه بقوله : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . « وأما جرهم » فقبيلة من بنى يعرب بن قحطان ، هاجرت من اليمن إلى الحجاز انتجاعاً للرزق ، وأصهر إليهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد كثر عديدهم فى الحجاز حتى صاروا ذوى قوة وسلطان ، ثم بغوا وضلوا فأبادهم الله وأذهب ريحهم . والمرر بكسر الميم : جمع مرة ، وهى القوة وشدة الخلق ، وناقض المرر : هو الدهر ، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته !

(٥) كانت الرياسة والملك وترف الحضارة فى اليمن ، وكان المضريون من أهل الشمال أصحاب مثل وغايات وأهداف بعيدة ؛ ولأمر ما كان محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ مضريا ؛ ولكن الليالى لم تبق على أحد من هؤلاء ولا من أولئك !

ومزقت سَبَأً فى كلِّ قاصيـةٍ * فما الْتَـقَى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ (١)

وأنفذتْ فى كُلَيْبٍ حُكمَها، ورمتْ * مُهلهِلا بين سمْعِ الأرضِ والبصرِ (٢)

ولم تَرُدَّ على الضِّلِّيلِ صحتَهُ * ولا ثَنَتْ أسداً عن ربِّها حُجُرِ (٣)

ودوَّخَت آلَ ذُبْيانٍ وإخوتَهُمْ * عَبْساً، وغَصَّت بنى بدرٍ على النَهَرِ (٤)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال: كلوا من رزق ربكم واشكروا له؛ بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ... » الآيات إلى قوله تعالى: « وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ... » وكانت أرضهم « مأرب » من بلاد اليمن. والابتكار، والبكور: ضد الرواح؛ والمعنى أنهم تفرقوا فى أقاصى البادية فلم يلتق رائح منهم بغاد!

(٢) كليب: هو كليب بن ربيعة الذى يقال فيه « أعز من كليب وائل » وبلغ من عزه أنه كان لا يوقد أحد ناراً مع ناره، ولا يورد أحد إبلا مع إبله؛ وكانت أخته زوجاً لابن عمهما جساس بن مرة، الذى يقال له حامى الجار ومانع الذمار، وكان لجساس جارة اسمها البسوس تدل بجواره وحمايته، وكان لها ناقة اسمها السراب؛ فبينما إبل كليب ذات يوم على الحوض ترتوى، إذ لمح كليب بينها هذه الناقة، ففوق إليها سهمه فأصاب ضرعها؛ فرأى جساس فى ذلك انتهاكا لحرمته، فخرج إلى كليب معتقلا رمحه فصرعه، فشبت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل، ودامت فيما يقال أربعين سنة، وتشتهر فى تاريخ الجاهلية باسم حرب البسوس؛ وكان الساعى لثأر كليب أخاه الحارث، ولقبه مهلهل — وإنما لقب كذلك لأنه أول من هلهل الشعر، أى رققه، وهو خال امرئ القيس — فلما وضعت الحرب أوزارها، ذهب المهلهل فى الأرض حتى نزل بقوم من مذحج، فأقام بين أظهرهم، وأصهر إليهم، واطمأنت به الدار؛ ولكن القدر كان يتربص به؛ فبينما هو ذات يوم فى بعض القفار ومعه عبدان من عبيده، إذ بدا لعبديه أن يقتلاه لسبب ما، فأنفذا ما اعتزما؛ ومات سيد ربيعة فى بلد قفر لم يدر به أحد؛ فذلك قول ابن عبدون: وأنفذت فى كليب ... البيت.

(٣) الضليل: هو امرؤ القيس بن حجر ملك كندة، وكانت أسد قد قتلت أباه حجرا، فحمل امرؤ القيس عبء الثأر له، ومضى على وجهه يتنقل بين البلاد مستعديا على بنى أسد، حتى بلغ بلاط قيصر، ثم اعتل علة لا برء منها، وأدركه أجله — فيما يقال — بأنقرة من بلاد الروم.

(٤) ذبيان، وعبس: أخوان من بنى بغيض بن ريث بن غطفان؛ وبنو بدر: بطن من ذبيان؛ وكانت بين عبس وذبيان فى الجاهلية حرب كحرب البسوس، تشتهر باسم حرب داحس والغبراء؛ وداحس والغبراء: فرسان ذكر وأنثى لقيس بن زهير العبسى، وحمل بن بدر الذبيانى؛ فأجرياها ذات مرة فى السباق على رهان؛ ثم تلاحيا ووقع بينهما دم، فنشبت تلك الحرب؛

وألحقت بعدىّ بالعراق على ٭ يد ابنه أحمر العينين والشعر (١)

واهلكت إبروبزاً بابنه ورمت ٭ بيزدجرد إلى مرو فلم يحر (٢)

وبلغت يزدجرد الصين واختزلت

عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر

= وكان من قتلاها حمل بن بدر ، وأخوه حذيفة ، وكانا عند ما دهمتهما خيل عبس يستنقعان فى ماء بموضع اسمه جفر الهباءة ؛ وظلت الحرب ناشبة زماناً بين عبس وذبيان ، وفيها اشتهر عنترة ابن شداد العبسى .

(١) هو عدى بن زيد الشاعر ، وكان نصرانيا فى الجاهلية ، ومقامه بالحيرة من أرض العراق ، وقد حبسه النعمان بن المنذر ملك الحيرة ثم قتله ؛ وكان له ولد اسمه زيد بن عدى ، قد أحفظه مصرع أبيه على النعمان ، فلم يزل يلتمس الأسباب إلى كسرى إبرويز ملك فارس حتى صار له فى بلاطه شأن ، فانتهز فرصة أمكنته وأوغر صدر كسرى على النعمان ، فتوعده بالشر ؛ وعلم النعمان بذلك ففر عن عرشه وقاعدة ملكه يتنقل بين القبائل فى بادية الجزيرة ... ثم مشى إلى كسرى ، يأمل أن يحمله على الصفح ؛ فلقيه ثمة زيد بن عدى شامتا ؛ وانتهى أمره إلى القتل ؛ أمر به كسرى فرمى بين أرجل الفيلة فوطئته حتى مات ؛ وكان بالنعمان برص ؛ فهذا معنى قول ابن عبدون «أحمر العينين والشعر» .

(٢) إبرويز : هو كسرى إبرويز بن هرمز ، من أشد ملوك الفرس وأنفذهم رأيا ، غدر أباه وولى العرش بعده ، ثم خشى أن يفعل به ولده ما فعل هو بأبيه ، فنفاهم ؛ وثقل على الرعية أمره فأرادوا الخلاص منه ؛ فقصدوا ابنه شيرويه فى بابل ، فبايعوه بالملك ؛ ولقى إبرويز على يدى ولده شيرويه مثل ما لقى أبوه هرمز على يديه .

أما يزدجرد : فهو يزدجرد بن شهريار إبرويز ، آخر ملوكهم ، وقد فر عن عرشه وقاعدة ملكه حين وطىء جيش سعد بن أبي وقاص أرض بلاده ، وأمر أن تنقل أمواله إلى الصين ؛ وقد ظل الأمل يداعبه فى العودة إلى عرشه سنين ؛ فلما كانت أيام عثمان بن عفان وخرج الأحنف ابن قيس إلى الصين غازيا ، بدا ليزدجرد أن يقاوم ، فعقد مع الترك والصغد والخزر حلفا ، وكان مقام كسرى فى ذلك الوقت بمرو الروذ ، قد عاد إليها من الصين على أمل ؛ فلما التقت جيوش المسلمين بجيوش كسرى وحلفائه من الترك والصغد والخزر ، انخزل حلفاء كسرى وخلفوه ؛ ففر على وجهه فلم ير بعدها إلا قتيلا .

فهذا ما عناه ابن عبدون فى هذا البيت والبيت الذى يليه . ولم يحر : لم يرجع ؛ فعله حار ، يحور .

ولم تردَّ مواضي رُسْتمٍ وقنا * ذي حاجبٍ عنه سعداً في ابنة الغِيَرِ[١]

يومَ القليبِ بنو بدرٍ فنوا وسعى * قليبُ بدرٍ بمن فيه إلى سقرِ[٢]

ومزَّقتْ جعفراً بالبيض واختلستْ * من غيله حمزةَ الظلامِ للجُزُرِ[٣]

وأشرفتْ بخُبيبٍ فوق فارعةٍ * وألصقتْ طلحةَ الفيّاضَ بالعفرِ[٤]

وخضّبتْ شيبَ عثمانٍ دماً وخطتْ * إلى الزُّبيرِ ولم تستحيِ من عُمرِ[٥]

ولا رعتْ لأبي اليقظانِ صحبتَه * ولم تزوّده إلا الضيحَ في الغُمَرِ[٦]

---

(١) رستم : هو رستم الأرمني قائد جيش الفرس يوم القادسية ؛ وذو حاجب : هو خرزاد حامل رايتهم ؛ وسعد : هو ابن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في فارس ؛ وابنة الغير : الداهية .

(٢) يشير إلى غزوة بدر وما أصاب المشركين فيها من انكسار وذلة .

(٣) يعني جعفر بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ؛ وقد استشهد أولهما يوم مؤتة ، واستشهد حمزة يوم أحد . والجزر : جمع جزور ، وهو الجمل ؛ وظلام الجزر : الكريم .

(٤) يشير إلى مصرع خبيب بن عدي الأنصاري ، وطلحة بن عبيد الله التيمي ؛ أما خبيب فكان من خبره أنه أسر يوم الرجيع — في السنة الثالثة بعد الهجرة — فذهب به إلى مكة حيث اشتراه بعض موالي عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ؛ وكان خبيب قد قتل أباه الحارث يوم بدر فأراد أن يقتص منه ؛ وقد صلبه المشركون على خشبة في التنعيم من أرض مكة ؛ والفارعة : الطويلة ؛ والمقصود خشبة الصلب .

وأما طلحة فقتل يوم الجمل ، قتله مروان بن الحكم ؛ وهو أحد العشرة الذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكان من أجواد قريش ؛ ويقال له طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات أيضا .

(٥) يعني عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب ؛ وكان مصرع عثمان في الفتنة يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، ولم يعرف قاتله على التحقيق ؛ وأما الزبير فقتله ابن جرموز في غير حرب يوم الجمل ؛ وذلك أن الزبير يومئذ كان من حزب عائشة ؛ فلما تراءى الجمعان دعاه علي إليه فتقاولا ؛ فكأنما بدا للزبير بعد حديثه مع علي أن الاستمرار في الحرب خطيئة ؛ فأزمع اعتزال الحرب ، وحينئذ اعترضه ابن جرموز يلحاه ؛ ثم انتهز منه غرة فقتله ؛ وأما عمر فقتله أبو لؤلؤة النصراني غلام المغيرة بن شعبة ، وخبره مشهور .

(٦) أبو اليقظان : عمار بن ياسر ، وقد قتل بأيدي أصحاب معاوية يوم صفين سنة ست وثلاثين ؛ والضيح : اللبن ؛ وكان قد عطش ودعا بشربة ماء ؛ فأتي بضيحة فشربها ، ثم قال : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخر شربة أشربها في الدنيا !

وأجزرت سيفَ أشقاها أبا حسنٍ ❊ وأمكنت من حسينٍ راحتى شمرِ (١)

وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ ❊ فدت علياً بمن شاءت من البشرِ (٢)

وفى ابن هندٍ وفى ابن المصطفى حسنٍ ❊ أتت بمعضلةِ الألباب والفكرِ (٣)

فبعضنا قائلٌ ما اغتاله أحدٌ

وبعضنا ساكتٌ لم يؤتَ من حصرِ (٤)

وأردت ابنَ زيادٍ بالحسينِ فلم ❊ يبؤْ بشسعٍ له قد طاح أو ظفرِ (٥)

---

(١) أبو حسن : على بن أبى طالب ؛ وأشقاها : عبد الرحمن بن ملجم التجيبى ، قاتل على ؛ فقد ورد فى بعض الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يا على ، أشقاها الذى يخضب هذه من هذه» وأشار إلى لحية على ورأسه . وحسين : هو ابن على بن أبى طالب ؛ وشمر : هو ابن الجوشن ، وكان ممن أعان على قتل الحسين بكربلاء على شاطىء الفرات .

والمعنى : أتاحت الليالى لسيف ابن ملجم أن يقتل عليا ، وأمكنت شمر بن الجوشن من قتل الحسين .

(٢) عمرو : هو عمرو بن العاص حليف معاوية وصاحب مصر ؛ وخارجة : رجل من رهط عمرو بن العاص فى مصر . والبيت يشير إلى قصة ومثل ؛ وتفصيل الأمر أن الخوارج فى أيام الفتنة قالوا : إن عليا ومعاوية وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناهم لعاد الأمر إلى حقه ؛ فوكل إلى عبد الرحمن بن ملجم أن يقتل عليا ؛ وإلى الحجاج بن عبد الله الصريمى المعروف بالبرك ، أن يقتل معاوية ؛ وإلى زادويه الفارسى أن يقتل عمراً ؛ على أن يكون قتل الثلاثة فى موعد واحد ؛ أما على فقتله ابن ملجم اغتيالا ، وأما معاوية فأصاب الحجاج أليته ونجا ؛ وأما عمرو بن العاص فقد اشتكى وجعاً فى الليلة الموعودة لقتله ، لأمر أراده الله ؛ فخرج خارجة ليصلى بالناس بدله ، فحين رآه زادويه علاه بسيفه فصرعه ، وسيق إلى مجلس عمرو ، فلما رأى الناس يخاطبونه بالإمرة قال : أو ما قتلت عمراً ؟ قال : لا ، إنما قتلت خارجة . فقال : «أردت عمراً وأراد الله خارجة» فذهبت مثلا . وقيل هو خارجة بن غانم ، قرشى من بنى عدى ، شهد فتح مصر ، وكان على شرطة عمرو بن العاص ، أو قاضياً له .

(٣) ابن هند : معاوية بن أبى سفيان ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة ؛ وحسن : هو الحسن بن على .

(٤) الحصر : العى ، وهو يشير إلى ارتياب بعض المسلمين فى ميتة الحسن بن على وزعمهم أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى سقته سما بدسيسة معاوية ، ليخلص العرش لولده يزيد !

(٥) ابن زياد : هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ؛ وكان أميراً على الكوفة من قبل الأمويين حين وفد إليها الحسين يستنصر شيعته للمطالبة بالخلافة ؛ فدبر عبيد الله مقتله فى كربلاء ؛ ثم لم يلبث ابن زياد أن لقى مثل مصرع الحسين على يد إبراهيم بن الأشتر النخعى ، وكان على جيش =

وعممتْ بالظُّبي فَوْدَىْ أَبي أَنَسٍ ٭ ولم تردَّ الرَّدَى عنه قنا زُفَرِ (١)
وأنزلتْ مُصعَباً من رأس شاهقةٍ ٭ كانت بها مهجة المختارِ في وَزَرِ (٢)
ولم تراقِبْ مكانَ ابنَ الزُّبير ولا ٭ راعتْ عياذته بالبيتِ والحجرِ (٣)
وأعملتْ في لطيم الجنِّ حيلتها
واستوسقتْ لأبي الذبانِ ذي البخرِ (٤)

= المختار بن عبيد الثقفي، وابن زياد على جيش لعبد الملك ابن مروان .
ويبوء : يرجع ؛ والشسع : رباط النعل ؛ والمعنى : أن الليالي اقتصت للحسين من ابن زياد ، وإن لم يساو شسع نعله أو قلامة ظفره !

(١) أبو أنس : هو الضحاك بن قيس الفهري ، وكان يدعو لعبد الله بن الزبير ، ومعه صاحبه زفر بن الحارث الكلابي ، فخرج للقائهما عبد الملك بن مروان ، فالتقى جيشاهما بمرج راهط من أرض الشام سنة ٦٤ ؛ فدارت الدائرة على الضحاك ، قتله دحية بن عبد الله الكلبي ، وفر عنه زفر بن الحارث .

(٢) يعني مصعب بن الزبير ، وكان على الكوفة من قبل أخيه عبد الله ؛ فخرج عبد الملك ابن مروان لقتاله ، فالتقيا في موضع يعرف بالجاثليق ؛ فخذل مصعباً أصحابه ولم يناصره إلا قلة ، ثم قتل وحمل رأسه إلى عبد الملك ، فخر عبد الملك لله ساجدا .
وأما المختار : فهو المختار بن عبيد الثقفي ، رجل من أهل الفتنة ؛ كان يدعو تارة لمحمد ابن الحنفية ، وطوراً لعبد الله بن الزبير ، وحيناً لنفسه ؛ فلما انكشف سوء قصده ، خرج لحربه مصعب بن الزبير ، فتحصن المختار بقلعة الكوفة ، وحاصره مصعب في القلعة حتى أوشك أن يموت هو وأصحابه ظمأ وجوعا ؛ فخرج يقاتل حتى قتل .
وقلعة الكوفة هذه ، هي الشاهقة التي كانت وزراً وملجأ للمختار ، والتي نزل منها مصعب فيما بعد ليلقى حتفه بالجاثليق ، وقد كان منها في منعة لو أنه بقي !

(٣) يريد عبد الله بن الزبير ، وكان يسمى العائذ ، لأنه كان يقول : أنا العائذ بالبيت ؛ ولكن عياذته بالبيت لم تمنع الحجاج بن يوسف الثقفي من نصب المجانيق لرمي الكعبة وهو عائذ بها ، ثم من احتزاز رأسه وصلبه منكساً على خشبة قد أمسكت رجليه وتدلى منها جسده !

(٤) لطيم الجن : عمرو بن سعيد الأموي ، نبز بهذا لميل كان في فمه ، وبه أيضاً سمي الأشدق ، وقيل سمي الأشدق ، لتشادقه في الكلام ، وكان من فصحاء قريش وأهل الخطابة ؛ وقد استدرجه عبد الملك بن مروان بحيلته حتى خلا به في داره ، فذبحه بيده وهو يقول كالمسوغ لفعلته : «لو علمت يا أبا أمية أنك تبقى ويسلم لي ملكي لفديتك بدم النواظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان =

ولم تدع لأبى الذّبّان قاضِبَــــه ☆ ليس اللطيمُ لها عمرٌو بمنتصر (١)
وأحرقتْ شِلوَ زيدٍ بعدما احترقتْ ☆ عليه وجداً قلوبُ الآى والسُّوَر (٢)
وأظفرتْ بالوليـد بن اليزيد ولم ☆ تُبقِ الخلافةَ بين الكأس والوتر (٣)
حَبابةٌ حَبُّ رُمّانٍ أُتيحَ لها ☆ وأحمرٌ قطرته نفحة القطر (٤)
ولم تعــدْ قضب السفاح نائيــةً
عن رأسِ مَرْوانَ أو أشياعِه الفُجُر (٥)

= فى ذود إلا عدا أحدهما على الآخر ! » ثم رمى برأسه إلى أصحابه المحتشدين على الباب ونثر على رءوسهم الدنانير ؛ فبردت حميتهم ؛ واستوسق الملك بمقتل عمر لعبد الملك ، وكان عبد الملك أبخر ، وينبز بأبى الذبان !

(١) قاضبه : سيفه ؛ والمعنى : لم تدع الليالى لعبد الملك سيفه الذى طالما قضب الأعناق واحتز الرءوس .

(٢) الشلو : العضو ؛ وزيد : هو زيد بن على بن الحسين ، خرج إلى الكوفة فى سنة ١٢٢ فى عهد هشام بن عبدالملك ، وبايعه أهلها بالخلافة ؛ ونشبت الحرب بينه وبين عمال بنى أمية ، فانفض عنه من كانوا معه ، فقال لصاحبه نصر بن خزيمة : « يا نصر بن خزيمة ، أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ! » يعنى أن أهل الكوفة قد خدعوه ، ودعوه ثم أسلموه ، كما فعلوا مع الحسين من قبل ؛ وكذلك كان ؛ ولقى زيد مصير جده ، ودفن بمجرى ماء ؛ ثم دل عليه عامل بنى أمية ، فنبشه ، واحتز رأسه فبعث به إلى دمشق حيث صلب على باب المدينة ، وصلب جسده بالكوفة ، وظل على خشبته ثلاث سنين ، ثم أنزل فأحرق !

(٣) يشير إلى مصرع الوليد بن يزيد ؛ وكان صاحب كأس ووتر ، مسرفا فى شهواته ، متهما فى دينه !

(٤) حبابة : قينة كانت ليزيد بن عبد الملك ـ وكان كذلك صاحب كأس ووتر ـ وقد عشقها عشقا ملك عليه نفسه ؛ فبينما هو ذات يوم فى خلوة بها وقد صفت لهما الدنيا وطاب المكان ، إذ تناولت رمانة فشرقت ببعض حباتها فماتت ؛ فحزن عليها يزيد حزنا هلك به بعد أسابيع ؛ ويعنى بالأحمر الذى قطرته نفحة القطر : الخمر ؛ وقد جاء هذا البيت هنا موهما أن حبابة كانت صاحبة الوليد المذكور فى البيت الذى سبقه ، وإنما هى صاحبة أبيه يزيد بن عبد الملك ؛ وكان بينهما فى الخلافة ، هشام بن عبد الملك ، وقد لبث على عرش أمية عشرين سنة !

ولحبابة هذه أخبار مشهورة بين الجوارى المغنيات ، هى وسلامة القس ؛ وكانت مثلها من جوارى يزيد .

(٥) السفاح : هو عبدالله بن محمد بن على ، أول خلفاء الدولة العباسية ؛ وسمى السفاح ، =

وأسبلت دمعة الروح الأمين على * دم بفخٍّ لآلِ المصطفى هَدَرِ (١)
وأشرقتْ جعفراً والفضلُ يَنظرُه * والشيخُ يحيى بريقَ الصارم الذَّكَرِ (٢)
وأخفرتْ فى الأمين العهدَ، وانتدبتْ * لجعفر بابنهِ والأعبُدِ الغُدَرِ (٣)
وما وَفَتْ بِعُهودِ المُستَعينِ ولا * بما تأكَّدَ للمعتزِّ من مِرَرِ (٤)

= لما سفح من دم بنى أمية ، أولكرمه وما سفح من المال ؛ والقضب : السيوف ؛ ومروان المذكور فى البيت : هو مروان بن محمد ، آخر خلفاء الدولة الأموية ، وقد فر إلى مصر بعد ذهاب ريحه ، وكان مصرعه بقرية من قرى الفيوم يقال لها «بوصير» ثم احتز رأسه وبعث به إلى السفاح ، فخر السفاح ساجداً لله وتمثل بشعر العدوانى :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني !

وبمقتل مروان استتب الملك لبنى العباس .

(١) فخ : موضع على فرسخ من مكة ، قتل به من بنى الحسن بن على : الحسين بن على بن الحسن ، والحسن بن محمد بن الحسن ، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن ؛ وكان مقتلهم فى أيام المهدى العباسى ؛ وذهب دمهم هدرا ..

(٢) جعفر ، والفضل : ابنا يحيى بن خالد البرمكى ؛ وأشرقت : أغصت ؛ يعنى : سقت الليالى جعفرا بريق السيف ، وجاءته النكبة بغتة ، وأخوه وأبوه ينظرانه ؛ يعنى تعلقت آمالهما به وهو فى عنفوان عزه وسلطانه ؛ ونكبة البرامكة مشهورة فى التاريخ، فلا حاجة بنا إلى الحديث عنها .

(٣) الأمين : هو محمد بن هرون الرشيد ، وكان الرشيد قد ولاه العهد من بعده ، وجعل العهد من بعده لأخيه المأمون ، وأخذ عليهما المواثيق ألا يغدر أحدهما بصاحبه ؛ فلما ولى الأمين الخلافة ، بدا له أن يخلع أخاه من ولاية العهد ليجعلها من بعده لابنه موسى ؛ فكان ذلك أول الشر بين الأخوين ، واستشرت الفتنة حتى انتهت بمقتل الأمين وتولى أخيه العرش . أما جعفر المذكور بعده فهو جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل ، عاشر خلفائهم ، أعان على قتله ابنه المنتصر ، وكان قتلته من عبيده ؛ والأعبد : العبيد ؛ والغدر : جمع غادر ؛ وكان سبب مقتله أنه أراد أن تكون الخلافة من بعده لولده المعتز ، دون أخيه المنتصر ؛ فحفظها له ؛ وكان مقتل المتوكل أول ما ظهر من تسلط الموالى والعبيد فى الدولة العباسية .

(٤) المستعين : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ، ولى الخلافة بعد المنتصر بن المتوكل ، سنة ٢٤٨ ثم نشبت الفتنة بينه وبين المعتز بن المتوكل فخلع فى سنة ٢٥٢ ثم قتل بعد خلعه بأشهر ، وتولى المعتز بعد خلعه ، فاجتمعت له الكلمة وبايعه الناس ، ولكنه لم يلبث فى الخلافة إلا ثلاث سنين وأشهراً ثم قتل .

وأَوْثقتْ في عُراها كل مُعتمدٍ * وأَشْرقتْ بِقذاها كلّ مُقتدِرِ
وروّعتْ كلّ مأمونٍ ومُؤْتمنٍ * وأَسلمتْ كلّ منصورٍ ومُنتصِر[1]
وأعثرت آلَ عبّادٍ لعاً لهُمُ * بذيلِ [زَبّاءَ] لم تنفِرْ من الذُّعر[2]

* * *

بني المظفّر والأيامُ - لا نُزلتْ - * مَراحِلٌ، والورى منها على سَفر[3]
سُحقاً ليومكمُ يوماً ولا حملتْ * بمثلهِ ليلةٌ في غابرِ العُمُر
مَن للأسِرّةِ، أو مَن للأعِنّةِ، أو * من للأسِنّةِ يُهديها إلى الثُّغر
من للظُّبي وعوالي الخط قد عُقدتْ * أَطرافُ أَلسُنِها بالعيِّ والحصر
وطُوّقت بالمنايا السودِ بِيْضُهُمُ * فاعجب لذاك وما منها سوى الذكر
من لليراعة أو من للبراعة أو * من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثةٍ أو ردع آزفةٍ * أو قمْع حادثةٍ تعْيا على القُدَرِ

---

(١) المعتمد، والمقتدر، والمأمون، والمؤتمن، والمنصور، والمنتصر: ألقاب خلافية، لا يعنى بها الشاعر - فيما أرى - أحداً بعينه، وأحسبه أراد أن يقول: إن الأيام لا تفى بعهد لخليفة ولا تبقى على نعمة لملك!

(٢) «لعاً»: كلمة توجع تقال للعاثر؛ والزباء: الداهية الشديدة، أو الناقة قد كثر الشعر فى وجهها وتخايلت ظلاله أمام عينيها أشباحا فتذعر وتنفر؛ وموضع هذه الكلمة بياض بالأصل؛ وقوله «لم تنفر من الذعر» إشارة إلى المثل المشهور «كل أزب نفور»؛ ويروى البيت على وجه آخر، وهو:

وأعثرت آل عباس - لعاً لهم - * بذيل رياء من بيض ومن سمر

وقال ابن بدرون فى تفسيرها: «قوله بذيل رياء من بيض ومن سمر. تنبيها على كثرة عدد عبيدهم - يعنى العباسيين - وقدرتهم على السلاح» قلت: وتنبيها على تعدد ألوان هؤلاء العبيد؛ فنهم الترك والعجم والروم والزنج، والبيض والسمر.

(٣) يبدأ الشاعر من هذا البيت حديثه فى رثاء بنى الأفطس؛ إذ كانوا أول القصد ومدار القول وسبب الادكار ومبعث الاعتبار.

وَيْبَ السَّماحِ ووَيْبَ البأسِ لو سَلِما ✡ وحسرةُ الدين والدنيا على عُمرِ (١)

سَقَتْ ثَرَى الفضلِ والعباسِ هاميةٌ ✡ تُعْزَى إليهم سَماحاً لا إلى المطرِ (٢)

ثلاثةٌ ما رأى السعدان مثلَهمُ ✡ وأُخبر ولو عززا فى الحوت بالقمرِ (٣)

ثلاثةٌ ما ارتقى النَّسْران حيث رَقُوا ✡ وكلُّ ما طار من نَسْرٍ ولم يَطِرِ

ثلاثةٌ كذوات الدهر منذ نأوا ✡ عنى ، مضى الدهرُ لم يَرْبَعْ ولم يحُرِ (٤)

ومرَّ من كلِّ شىءٍ فيه أطيبُهُ ✡ حتى التمتُّعُ بالآصالِ والبُكَرِ

أين الجلالُ الذى غضَّت مهابتَهُ ✡ قلوبُنا وعيونُ الأنجمِ الزُّهُرِ (٥)

أين الإباءُ الذى أَرْسَوْا قواعدَه ✡ على دعائم من عِزٍ ومن ظَفرِ

أين الوفاءُ الذى أَصْفَوا شرائعَه ✡ فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كَدَرِ

كانوا رواسىَ أرضِ الله ، منذ مَضَوْا ✡ عنها اسْتطارتْ بمن فيها ولم تَقِرِ

كانوا مصابيحَها فمذْ خَبَوا عَثَرتْ ✡ هذى الخليقةُ يا للهِ فى سَدَرِ (٦)

كانوا شَجى الدهرِ فاستهوتْهمُ خُدَعٌ ✡ منه بأحلام عاد فى خطى الحضرِ (٧)

وَيْلُمِّهِ مِن طَلوبِ الثأرِ مُدْرِكِهِ ✡ منهم بأُسْدٍ سُراةٍ فى الوغى صُبُرِ (٨)

---

(١) هو أبو محمد عمر المتوكل بن المظفر .

(٢) الفضل والعباس : ابنا المتوكل ، وقد قتلهما المرابطون حين اجتاحوا أرض بطليوس .

(٣) كذا بالأصل ، وفى غيره :

ثلاثة ما رأى العصران مثلَهمو ✡ فضلا ولو عُزِّزوا بالشمس والقمر

(٤) لم يربع بفتح الباء : لم يقف .

(٥) مهابته : منصوب على السببية ؛ يعنى : غضت لمهابته قلوبنا .

(٦) السدر : الحيرة .

(٧) فى رواية أخرى : « فى خطى الخطر » .

(٨) ويروى عجز البيت « لو كان دينا على الأيام ذى عسر » .

مَنْ لى ولا مَنْ بهمْ إنْ أَظلمتْ نُوبٌ ✿ ولم يكن ليلُها يُفضِى إلى سَحَرِ (١)

مَنْ لى ولا مَنْ بهمْ إنْ عُطِّلتْ سُننٌ ✿ وأُخفيتْ أَلسُنُ الآثارِ والسِّيَرِ

مَنْ لى ولا مَنْ بهمْ إنْ أطبقتْ مِحَنٌ ✿ ولم يكن وِرْدُها يدعو إلى صَدَرِ

على الفضائلِ إلا الصبرَ بَعدَهمُ ✿ سلامُ مُرتَقِبٍ للأجرِ منتظِرِ

يرجو عسى وله فى أُختها أَمَلٌ ✿ والدهرُ ذو عُقَبٍ شَتَّى وذو غِيَرِ

قَرَّطتُ آذانَ مَن فيها بفاضحةٍ

على الحسانِ حَصَى الياقوتِ والدُّرَرِ

سَيَّارةٍ فى أقاصى الأرضِ قاطعةٍ

شَقَاشِقاً هدَرَتْ فى البدْوِ والحَضَرِ

مُطاعةِ الأمرِ فى الألبابِ قاضيةٍ ✿ من المسامع مالم يُقضَ من وَطَرِ

وكان أبو محمد هذا (٢) يكتب للمتوكل على الله ، ونمَتْ حاله معه ؛ وهو أحد كُتَّاب المغرب ، وممن جمع منهم فضيلتَى الكتابة والشعر ، على أنه مُقِلٌّ من النظم ، لم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره ؛ وسيمر من مختار رسائله فى موضعه من هذا الكتاب مايدل على ماوصفناه به .

حكى عن نفسه رحمه الله أنه كان بين يدى مؤدِّبه ، وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، فعنّ للمؤدِّب أن قال :

✿ الشِّعرُ خُطَّةُ خَسْفِ ✿

وجعل يردد هذا القول . قال الوزير أبو محمد رحمه الله : فكتبت فى

(١) ويروى صدر البيت « من لى ومن لهمو إن أظلمت نوب » .

(٢) يعنى ابن عبدون ناظم هذا الشعر .

لوحى مجيزاً له :

* لـكل طالبٍ عُرْفِ *

ثم خطر لى بيت ثان ، وهو :

للشيخ عَيْبَةُ عَيْبِ * وللفتى ظَرْفُ ظَرْفِ

قال : فنظر إلىّ المؤدب وقال : ياعبدالمجيد ، ماالذى تكتب ؟ فأريته اللوح ؛ فلما رآه لطمنى وعَرَكَ أذنى وقال : لاتشتغل بهذا ! وكتب البيتين عنده [١] .

ومن غزارة حفظه رحمه الله ماحدّث الوزير الأجلّ أبو بكر محمد ابن الوزير أبى مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر ـ وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية ، نيَّف على الثمانين [٢] ـ قال :

---

(١) مؤدبه هذا ـ كما جاء فى نفح الطيب ـ هو أبو الوليد بن ضابط النحوى المالقى ؛ وكان فى ذلك الوقت شيخاً يستجدى بالشعر ؛ فكأنما أراد ابن عبدون ـ وهو لم يزل صبيا بعد ـ التعريض به لاتخاذه الشعر سببا إلى طلب العرف .

وروى ابن خاقان فى القلائد ، أن الذى نظم صدر البيت « الشعر خطة خسف » هو المتوكل ابن الأفطس ، ثم أرتج عليه ، فأجازه ابن عبدون .

أما ابن بسام فى الذخيرة فيروى الخبر على نحو ما رواه المراكشى .

والعيبة : الظرف والوعاء .

(٢) كان مولده ـ فيما يروى ـ سنة ٥٠٧ وتوفى سنة ٥٩٥ وهى السنة التى لقيه فيها المراكشى بمراكش كما سيأتى بعد .

وقد ذكره ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار المغرب » فقال : كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زهر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطب عذب معين ، وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب ، مع سمو النسب ، وكثرة الأموال والنشب . ومن شعره الذائع قوله :

ومُوَسّدين على الأكفّ خدودَهم   قد غالهم نومُ الصباح وغالنى

مازلت أسقيهـم وأشرب فضلَهم   حتى سكرتُ ونالهم مانالنى =

« بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها ؛ فقلت له : أين الأصل الذى كتبتَ منه لأقابل معك به قال : ماأتيت به معى ؛ فبينا أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليزَ علينا رجلٌ بذُّ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرُها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثَها من غير إتقان لها ؛ فحسبتُه لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلّم وقعد وقال لى : يابنىّ ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ؛ فقلت له : هو نائم ؛ هذا بعد أن تكلفتُ جوابَه غايةَ التكلف ؛ حملنى على ذلك نزوةُ الصِّبا وما رأيتُ من خشونة هيئة الرجل ؛ ثم سكت عنى ساعة ، وقال : ماهذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ماسؤالك عنه ؟ فقال : أحب أن

= والخمر تعلم كيف تأخذ ثأرها إنى أَمَلْتُ إناءَها فأمالنى !

وروى أنه كان بمراكش فى أواخر القرن السادس ، وقد فارق بأشبيلية طفلا له ، فذكره وحن إليه ، فأنشأ يقول متشوقا :

ولى واحد مثلُ فرْخ القطا صغيرٌ تخلَّف قلبى لديْه
وأُفرِدْتُ عنه ، فياوَحشتا لذاك الشُّخيْص وذاك الوُجيْه !
تَشوَّقنى وتشوَّقتُه فيبكى علىَّ وأبكى عليه
وقد تعب الشوق مابيننا فمنه إلىَّ ومنى إليه !

فبلغت هذه الأبيات أبا يوسف المنصور سلطان المغرب ، فأخذته لذلك رقة ، وأراد أن يفاجئ أبا بكر بما يسره ، من غير أن يفارق حضرته بمراكش ، فأرسل مهندسين إلى أشبيلية ، وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته ، ثم يبنوا مثلها فى مراكش ؛ ففعلوا ما أمرهم فى أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلته ؛ ثم أمر أن ينقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ؛ ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع ، فرآه أشبه شىء ببيته وحارته ؛ فتحير لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقيل له ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله ، فإذا ولده الذى تشوق إليه يلعب فى البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه !

أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! فقلت : هو كتاب الأغانى ؛ فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا ، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه ، فقال : ومالِكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طلبتُ منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق ، فقال لم أجئ به معى ؛ فقال : يابنىّ ، خُذ كراريسك وعارِض ؛ قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ؛ قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسُّمى قال : يابنى أمسِك علىَّ ؛ قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء ؛ قرأ هكذا نحواً من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السِّفر وآخره ، فرأيت حِفظَه فى ذلك كلِّه سواء .

« فاشتد عجبى ، وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ؛ فقام كما هو من فَوْره ، وكان ملتفًّا برداءٍ ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يَرْفُقُ على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يُوسعنى لوماً ، حتى ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبِّل رأسه ويديه ويقول : يامولاى اعذرنى ، فوالله ما أَعْلَمَنى هذا الجِلْفُ إلا الساعة ؛ وجعل يسبُّنى ، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول : ماعَرَفنى ؛ وأَبِى يقول : هَبْهُ ماعَرَفك ، فما عُذرُه فى حُسن الأدب .

« ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلا ؛ ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأُسرِجت ، وحلف عليه ليركبنّها ثم لاترجع إليه أبدا .

«فلما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل الذي عظّمته هذا التعظيم؟ قال لي: اسكت ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيّدُها في علم الآداب، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسرُ محفوظاته كتابُ الأغاني؛ وما حِفْظُهُ في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟»

سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهور سنة ٥٩٥.

وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور في هذا التاريخ لنفسه - بعد أن سألني عن اسمي وعن نسبي فتسمَّيْت وانتسبت، وتسمَّى لي هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاءٍ، تواضعاً منه وشَرَفَ نفس وتهذيبَ خُلق، قدس الله روحه وسامحه -:

لاحَ المَشيبُ على رأسي فقلت له: * الشَّيبُ والعَيبُ لا والله ما اجْتمعا

يا ساقي الكأس لا تعدِل إليَّ بها * فقد هجرتُ الحُمَيَّا والحميمَ معا!

وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني:

إني نظرتُ إلى المرآة إذ جُليت * فأنكرَتْ مُقلتايَ كلَّ ما رأتا

رأيت فيها شُيَيْخاً لست أعرفه * وكنت أعرفُ فيها قبل ذاك فتى (١)

---

(١) أورد نفح الطيب بعد هذين البيتين:

فقلت أين الذي بالأمس كان هنا * متى ترحَّلَ من هذا المكان متى؟

فاستضحكتْ ثم قالت وهي معجبةٌ * إن الذي أنكرْته مقلتاك أتى

كانت سُليمى تنادِي: يا أُخيَّ! وقد * صارت سُليمى تنادِي اليوم: يا أبتا!

هذا ما أنشدنى لنفسه بلفظه ، رحمه الله ؛ وله شعر كثير أجاد فى أكثره ؛ وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدَّم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كلٌّ من بعده إليها : هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة [١] لأوردتُ له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك .

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس ؛ فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها ؛ واستبدّ كلٌّ رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة للخلافة وذِكر اسمها على المنابر ؛ فلم يُذكر خليفة أموى ولا هاشمى بقطر من أقطار الأندلس ، خلا أيام يسيرة دُعى فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة أشبيلية وأعمالها ، حسبما اقتضته الحيلة واضطر إليه التدبير ، ثم انقطع ذلك حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى [٢] فأشبهت حالُ ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك

---

(١) قلت : يظهر أن الموشحات إلى ذلك العهد — سنة ٦٢١ — لم تكن عندهم من الأدب الرفيع الذى يستحق التدوين والتخليد ، وإنما كانت فنا شعبيا لا يبلغ مقام الشعر ؛ هذا إلى أن موازين الأدب فى الأندلس كانت تجعل الأدب المشرقى هو القدوة وعلم المشارقة هو العلم ، كما ينظر بعضنا اليوم إلى الثقافة الأوربية ، جهلا بمقدار نفسه ؛ وقد أشرت إلى بعض هذا فيما كتبت عن ابن عبد ربه فى مقدمة طبعة كتاب العقد التى أخرجتها المكتبة التجارية سنة ١٩٤١ — وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون إلى الموشحات ؛ إذ كانت فنا أندلسيا خاصا ليس من فنون المشارقة !
انظر نماذج من موشحات ابن زهر فى الجزء الأول من نفح الطيب .

(٢) انظر ص ٩٦

الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا [١] .

ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختلّ ، ومُجاوِروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوّفهم ؛ إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأبَ الصَّدع ، ونَظم الشّمل ، وحَسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو ؛ بيُمن نَقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ؛ ثم استمر على ذلك ابنُه علىّ ، وأعادا إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها ؛ فكانت الأندلس فى أيامهما حرما آمنا ؛ وأولُ دعاءٍ دُعى للخلافة العباسية - أبقاها الله - على منابر الأندلس فى أيامهما ؛ ولم تزل الدعوة العباسية وذِكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب ؛ إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس [٢] ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله عز وجل .

فصل

[فى ملك بنى عباد بأشبيلية]

وإذ ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلّبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال ، فلنرجع إلى ذكر مملكة أشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس ، وذِكرِ من مَلكها ؛ فبذلك يتصل نَسَقُ الأخبار عما نريده ، ويتطرق لنا القول فيما نقصده ؛ لأن مَلك أشبيلية هو كان السببَ فى دخول يوسف بن

(١) قتله الإسكندر الأكبر . انظر الهامش رقم ٢ ص ٧٧ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ما كتبناه فى المقدمة عن البلد الذى ألف فيه المراكشى كتابه .

تاشفين مع المرابطين الأندلس ، على ماسيُذكر إن شاء الله تعالى ، فنقول :

أما أحوال أشبيلية فإنها كانت فى طاعة الفاطميين ، أعنى : على بن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيي بن على بن حمود : أيام كان الأمر دائراً بينهم على ماتقدم ذكره (١) ؛ فلما زحف يحيي بن على بالبرابر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمود منها وقصد أشبيلية - وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين (٢) بها - اجتمع أمر أهل أشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما ؛ فأخرجوهما ؛ وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم ؛ فتوارد اختيارهم بعد مَخْض الرأى وتنقيح التدبير ، على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى (٣) ؛ لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلوّ همته ، وحسن تدبيره ؛ فعرضوا عليه مارأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولا ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم ، لكى يكونوا له أعوانا ووزراء وشركاء ؛ لايقطع أمراً دونهم ، ولا يُحدث حدثا إلا بمشورتهم - وهؤلاء المسمَّون هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يريم الألهانى ، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج

(١) انظر ص ٤٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) يعنى : ابنى القاسم .

(٣) كان قاضياً لمدينة أشبيلية . أصله من لخم ؛ من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وفد جده السابع ، واسمه نعيم ، إلى الأندلس ؛ وكان قبل ذلك مصريا من أهل العريش ؛ فأقام بقرية بقرب تومين من إقليم طشانة من أرض أشبيلية . ومحمد بن إسماعيل هذا أول من نبغ من ولده ؛ فلما ولى قضاء أشبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم ، فرمقته القلوب ؛ فلما كانت الفتنة وانقضى أمر يحيي بن على المستعلى ، ولاه أهل أشبيلية أمرهم .

الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى ، فى رجال آخرين ذهبت عنى أسماؤهم إلا أنى أعرف قبائلهم وبيوتهم - ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ؛ ولم يزل يدبر أمر أشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

وكان له من الولد إسماعيل ، وهو الأكبر ، يكنى أبا الوليد ؛ وعباد ، يكنى أبا عمرو ؛ فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من أشبيلية ، بعسكر من جند أشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ؛ فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة ، إلى إدريس بن على الفاطمى كما تقدم[1] .

وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبّر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا ، إلى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩ .

ولاية المعتضد بالله العبادى

ثم ولى ما كان يليه بعده من أمور أشبيلية وأعمالها ، ابنه أبو عمرو عبّاد ابن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ فجرى على سَنن أبيه فى إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل ، مدة يسيرة ؛ ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده ؛ وكان شهما صارما حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواتته مع هذا المقادير ؛ فلم يزل يعمل فى قطع هؤلاء الوزراء واحدا واحدا ، فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقرا ؛ إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر ، وتلقب بالمعتضد بالله .

---

(١) انظر ص ٦١ - ٦٢

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ، ابن الحكم المستنصر بالله ؛ وكان الذى حمله على تدبير هذه الحيلة مارآه من اضطراب أهل أشبيلية ، وخاف قيام العامة عليه ، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أمية بقرطبة : كالمستظهر ، والمستكفى ، والمعتد ؛ فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بنى أمية من يقيمونه : فادعى ما ادعاه من ذلك ؛ وذكر أن هشاما عنده بقصره ، وشهد له خواصٌ من حشمه ، وأنه فى صورة الحاجب له المنفذ لأموره ؛ وأمر بالدعاء له على المنابر ؛ فاستمر ذلك من أمره سنين ، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته فى سنة ٤٥٥ واستظهر بعهدٍ عهِده له هشام المذكور فيما زعم ، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس (١) .

ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس ، وكان قد اتخذ خُشبا فى ساحة قصره جللها برؤس الملوك والرؤساء

---

(١) ينسب أبو محمد بن حزم الظاهرى فى كتاب « نقط العروس » هذه الواقعة إلى أبيه القاضى محمد بن عباد ، ويرويها على الوجه الآتى :

« أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها ، فإنه ظهر رجل يقال له خلف الحصرى ، بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المنعوت بالمؤيد ، وادعى أنه هشام ؛ فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفكت الدماء وتصادمت الجيوش فى أمره ، وأقام المدعى أنه هشام نيفاً وعشرين سنة ، والقاضى محمد بن إسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه . . . » .

ونسبة هذه الواقعة إلى القاضى أبى القاسم تحتاج إلى تحقيق ، فقد ذكر ابن حزم أن ذلك المدعى قد ظهر بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام ، وأنه أقام بعد ذلك نيفاً وعشرين سنة أخرى والقاضى فى رتبة الوزير بين يديه ؛ وقد علمنا أن موت هشام كان فى سنة ٤٠٣ ؛ وكانت وفاة القاضى سنة ٤٣٩ ، وما بين التاريخين لا يزيد على بضع وثلاثين سنة ، وهى أقل من مجموع نيف وعشرين ونيف وعشرين !

وانظر ص ٤٤ فثمة حادثة مماثلة !

عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور ؛ وكان يقول : فى مثل هذا البستان فليُتنزَّه .

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعةَ قلب وحِدّةَ نفس ؛ كانوا يشبّهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس ؛ كان قد استوى فى مخافته ومهابته القريبُ والبعيد ، لاسيما منذ قَتَل ابنه وأكبر ولده المرشحَ لولاية عهده صبراً ؛ وكان سبب ذلك أن ولده المذكور - وكان اسمه إسماعيل - كان يبلغه عنه أخبارٌ مضمونُها استطالةُ حياته وتمنّى وفاته ، فيتغاضى المعتضد ويتغافلُ تغافلَ الوالد ، إلى أن أدّى ذلك التغافلُ إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلةً وتسور سورَ القصر الذى فيه أبوه ، فى عُبْدانٍ وأراذلَ معه ، ورام الفتك بأبيه ؛ فانتبه البوابون والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأُخذ بعضُهم فأقرّ وأخبر بالكائنة على وجهها ؛ وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قَتل أباه المعتضد جُعْلاً سنيًّا ، فالله أعلم ؛ فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه ؛ فلم يبقَ أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ .

وبلغنى أنه قتل رجلا أعمى بمكة كان يدعو عليه بها : كان هذا الرجل من بادية أشبيلية ؛ كان المعتضد قد وضع يده على بعض مالٍ لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى مالِه حتى افتقر ؛ ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعضَ من يريد الحج وناوله حُقًّا فيه دنانير مطليّة بالسم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ؛ وسلم عليه عنّا ! فاتفق أن سَلِمَ الرجلُ ومعه الحق ، فحين وصل مكة لقى الأعمى

ودفع إليه الحُق ، وقال : هذا من عند المعتضد ؛ فأنكر ذلك الأعمى ، وقال : كيف يظلمُنى بأشبيلية ويتصدق علىّ بالحجاز ؟ فلم يزل الرجلُ يخفّضه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أولَ شىء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلّب سائرها بيده ، إلى أن تمكّن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات : فاْعجبْ لرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز !

وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل أشبيلية : فرّ منه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها فى الأسحار ، مقدِّراً أنه قد أمن غائلته إذ صار فى مملكة غيره (١) ؛ فلم يزل يُعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه .

وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدّهم عليه ، البربر : صُنهاجة وبنو بَرْزَال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحى أشبيلية ؛ فلم يزل يصرّف الحيلة تارة ويجهّز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم ؛ ففرّق كلمتهم وشتّت منتظِم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفتْ له أموره .

كان له عَيْنٌ بقرمونة يكتب له بأخبار البربر ؛ بَلَغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذى جعله عيناً له بقرمونة كتاباً فى بعض أمره ، أن استدعى رجلا من بادية أشبيلية شديدَ البَله كثير الغفلة ، وقال له : اخلع ثيابك ؛ وألبسه جُبة جعل فى جيبها كتاباً وخاط عليه ، وقال له : اخرج إلى قرمونة ، فإذا وصلت بقربها فاجمع حُزمة حطب وادخل بها البلد وقِفْ حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تَبِعْها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم ؛ وكان قد قرر هذا كلّه مع صاحبه الذى بقرمونة ؛ فخرج البدوى كما أمره المعتضد ، فلما

---

(١) كان على طليطلة فى ذلك الوقت بنو ذى النون .

قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ؛ فجمع حُزمة صغيرة ودخل بها البلد ، ووقف فى موقف الحطابين ، فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حُزمته ، فإذا قال لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ، ضحك من يسمع هـذا القول منه ومرّ عنه : فـلم يزل كذلك إلى أن أجنّـه الليل والناس يسخرون منه ، فبعضهم يقول : هذا آبْنُـوس ! ويقول الآخر : لا بل هو عُودٌ هندى ! وما أشبه هذا ؛ حتى مرّ به صاحب المعتضد ، فقال له : بكم تبيع حزمتك هذه ؟ فقال : بخمسة دراهم ! فقال : قد اشتريتها فاحملها إلى البيت ؛ فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته ، فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم ؛ فلما أخذها وهمّ بالانصراف قال له : أين تريد فى هـذا الوقت وقد علمتَ خوف الطريق ؟ فبِت الليـلة عندى ، فإذا أصبحتَ رجعت إلى منزلك ؛ فأجابه ؛ فأدخله إلى بيت وقدّم له طعاما ، وسأله كأنه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقال : أنا من بادية أشبيلية ؛ قال : ياأخِى ، ما الذى جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمتَ نـكد البربر وشؤمهم وهوانَ الدماء عليهم ؟ فقال : حملتْنى على هـذا الحاجة ! ولم يُظهر له أن المعتضد أرسله ؛ فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبةَ النوم عليه قال له : تجرَّدْ من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأرْوَحُ لجسمك ! فتجرَّد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبةَ ففتق جيبها ، واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه ، وجعله فى جيب الجبة وخاط عليه كما كان ؛ فلما أصبح الرجل لبس جبته ، ورجع إلى أشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن ، فأُدخل على المعتضد ، فقال له : اخلع تلك الجبة ؛ وكساه ثيابا حسانا فرح بها البدوى ، وخرج من عنده فرحا يَرَى أنه قد خلع عليه ؛ ولم

يعلم فيمَ ذهب ولا بم جاء ! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ما أراد من أمره .

وله فى تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يُسبق إلى أكثرها ، يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها .

ولما قُتل ابنه اسماعيل - كما تقدم - وكان قد لقّبه المؤيد ، عهد بعده إلى ابنه أبى القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولقّبه بالمعتمد على الله ؛ فحسنتْ سيرةُ أبى القاسم هذا فى حياة أبيه وبعد وفاته .

[أولية المرابطين فى مراكش]

وفى إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونةُ ومسوفةُ - قبيلتان عظيمتان من البربر - رحبةَ مراكش ؛ فتخيروها دار ملكهم لتوسُّطها البلاد ؛ وكانت إذ نزلوها غيضةً لا عُمران بها ، وإنما سُميت بعبدٍ أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش (١) ؛ فاستوطنها البربر كما ذكرنا ، وقدّموا عليهم رجلا منهم اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العُدوة : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمةٍ كانت عنده أن هؤلاء القوم خالِعُوه أو خالعو ولدِه ومُخرجوه من ملكه ؛ فلما بلغه نزولهم جمَع ولده وجعل ينظر إليهم مصعِّدا ومصوِّبا ويقول : ياليت شعرى مَن تناله معرةُ هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم : جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه

---

(١) ويروى ابن خلكان أن « مراكش » معناها « امش مسرعا » بلغة المصامدة ؛ وكان موضعها مأوى للصوص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع بها !

يريد أن يُنزله بك ! فكانت دعوةً وافقت المقدار .

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتى المرابطين رحبةَ مراكش ، فى صدر سنة ٤٦٣ ، وانفصالهم عنها جملةً واحدة فى وسط سنة ٥٤٠ ؛ فكانت مدة إقامتهم فى الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة ، نحواً من ست وسبعين سنة .

ثم توفى المعتضد بالله فى شهر رجب من سنة ٤٦٤ ، واختُلف فى سبب وفاته ، فقيل إن ملك الروم سمَّه فى ثياب أرسل بها إليه ؛ وقيل إنه مات حتْفَ أنفه ، فالله أعلم .

ولاية أبى القاسم بن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ، ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ وزاد إلى المعتمد على الله : الظافر بحول الله ؛ وكان المعتمد هذا يشبَّه بهارون الواثق بالله من ملوك بنى العباس ، ذكاءَ نفس وغزارةَ أدب ؛ وكان شعره كأنه الحلل المنشَّرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ؛ وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضمُّ إليه ؛ وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية مالايحصى ، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة ، إلى مايناسب هذه الأخلاق الشريفة ؛ وفى الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى سهم ؛ وإذا عُدّتْ حسناتُ الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدُها ، بل أكبرها .

ولِى أمرَ أشبيلية بعد أبيه، وله سبع وثلاثون سنة (١)؛ واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه فى شهر رجب الكائن فى سنة ٤٨٤؛ فكانت مدة ولايته إلى أن خُلع وأُسر: عشرين سنة؛ كانت له فى أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها فى مائة سنة أو أكثر منها؛ كانت له رحمه الله همة فى تخليد الثناء وإبقاء الحمد.

[عبد الجليل بن وهبون الشاعر]

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرْسِية اسمه عبد الجليل بن وهبون، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسنَ التوصُّل إلى دقيق المعانى؛ أنشد يوما بين يدى المعتمد رحمه الله بعضُ الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد، وهما:

قلَّ الوفاءُ فما تلقاه فى أحدٍ * ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالِ
وصار عندهم عنقاءَ مُغْرِبةً * أو مِثلَ ماحدَّثوا عن ألفِ مثقالِ!

فاعجب المعتمد بهما وقال: لمن هذان البيتان؟ فقالوا: هما لعبد الجليل بن وهبون أحد خدم مولانا! فقال المعتمد عند ذلك: هذا والله اللؤم البَحت؛ رجلٌ من خُدامنا والمنقطعين إلينا يقول: «أو مثلَ ماحدّثوا عن ألف مثقال»! وهل يتحدث أحدٌ عنا بأسوأَ من هذه الأحدوثة؟ وأمر له بألف مثقال؛ فلما دخل عليه يتشكر له قال له: ياأبا محمد، هل عاد الخبرُ عِياناً؟ قال: إى والله يامولاى؛ ودعا له بطول البقاء؛ فلما همّ بالانصراف قال له: ياعبد الجليل،

(١) لعل صوابها: سبع وعشرون سنة.

الآن حدّث بها لاعنها ، يعنى ألف مثقال (١) .

* * *

وله رحمه الله (٢) شعر كثير برّز فى أكثره وأجاد ماأراد ، وسيمر منه فى أضعاف أخباره مايشهد له بالتبريز ، عند ذوى التمييز ؛ فمما أختاره من شعره قوله :

عَلِّل فؤادَك قد أَبلَّ عليلُ ٭ واَغنَمْ حياتَك فالبقاءُ قليلُ

لوأنّ عُمرَك ألفُ عامٍ كاملٍ ٭ ماكان حقًّا أن يقالَ طويلُ

أكذا يقودُ بك الأسى نحو الرّدَى ٭ والعُود عُودٌ والشّمول شَمول

لا يَستَبيكَ الهمُّ نفسَكَ عَنْوَةً ٭ والكأسُ سيفٌ فى يديك صقيل

بالعقل تزدحمُ الهمومُ على الحَشا ٭ فالعقلُ عِندى أن تزولَ عُقولُ !

ومن شعره السيار ، لا بل الطيار ، قوله فى مملوكٍ له صغيرٍ كان يتصرف بين يديه ، أهداه له صاحب طليطلة ؛ اسم المملوك سيف :

سَمّوه سيفاً وفى عينيه سيفانِ ٭ هذا لقتلى مسلولٌ وهذانِ

أما كفَتْ قتلةٌ بالسيف واحدةٌ ٭ حتى اتيحَ من الأجفان ثنتانِ

(١) كان ابن وهبون صديقاً لابن عمار ؛ فلعله هو الذى أنشد المعتمد من شعره ووصل به حبله حتى صار من جلسائه . وقد حكى المقرى أن ابن وهبون كان يوما فى مجلس المعتمد وهو ينشد قول المتنبي فى سيف الدولة مستحسنا :

إذا ظفرتْ منك العيون بنظرة ٭ أثاب بها مُعيي المطىّ ورازمه

فقال ابن وهبون مرتجلا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما ٭ تُجيد العطايا ، واللُّها تفتح اللّها

تنبّأ مُعجَباً بالقريض ، ولو درى ٭ بأنك تروِى شعرَه لتألّها !

(٢) يعنى المعتمد بن عباد .

أَسَرْتُهُ وَثَنَانى غُنْجُ مُقلتِهِ ❊ أسيرَه، فكلانا آسرٌ عانى

ياسيفُ أَمْسِكْ بمعروفٍ أسيرَ هوًى

لا يبتغى منك تسريحاً بإحسان !

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح، الذى حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة، قوله فى هذا المملوك وقد عذّر :

تَمَّ له الحسنُ بالعِذارِ ❊ واقترن الليلُ بالنهارِ

أَخضرُ فى أبيضٍ تبدَّى ❊ ذلك آسِى وذا بَهارِى

فقد حوى مجلسى تماماً ❊ إنْ كان من ريقِهِ عُقارِى

وبينا هو يوما فى قُبة له يكتب شيئاً، أو يطالع، وعنده بعض كرائمه، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوَى الكائنةِ فيها، فقامت دونه تستره من الشمس، فقال رحمه الله بديهاً :

قامت لتحجبَ ضوءَ الشمس قامتُها

عن ناظرِى، حُجبتْ عن ناظرِ الغِيَرِ

علماً لعمرك منها أنها قمرٌ

هل تكسفُ الشمسَ إلا صورةُ القمرِ !

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس فى يدها، إذ لمع البرق فارتاعت؛ فقال رحمه الله بديهاً :

رِيعَتْ من البرقِ وفى كفِّها ❊ بَرْقٌ من القهوةِ لمَّاعُ

عجبتُ منها وهى شمسُ الضُّحَا ❊ كيف من الأنوارِ ترتاعُ !

وله مع هذا مَقَاطع حسانٌ كان يرتجلها فى مجالس أُنسه ولاستدعاء خاصة جلسائه ، منعنى من استيفائها قلةُ ماعلى خاطرى منها (١) .

وسيمرّ من شعره الذى قاله فى أيام محنته مايفجر الصم ، ويزعزع الشُّم ؛ وكان لايستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعراً حسَنَ الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء مالم يجتمع لأحد قبله .

[أبو الوليد بن زيدون]

فمن جملة وزرائه الوزير الأجلّ ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن زيدون (٢) ، ذو الأدب البارع والشعر الرائع ، أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرّزين ، كان إذا نسب أنساك كُثيّراً ، وإذا مدح

---

(١) كتب إلى الطبيب أبى محمد المصرى يستدعيه :

أيها الصاحبُ الذى فارقتْ عينى ونفسى منه السنا والسناءَ
نحن فى المجلس الذى يَهَبُ الرا حةَ والسمعَ والغنى والغناءَ
نتعاطى التى تُسمَّى من اللذّ ةِ والرقةِ الهوى والهواءَ
فأْتِهِ تُلْفِ راحةً ومُحَيًّا قد أعدّا لك الحيا والحياءَ

وعلم أن طائفة من كتابه ووزرائه مجتمعون بالزهراء فى مجلس أنس ومسرة ، فكتب إليهم :

حَسَدَ القصرُ فيكمو الزهراءَ ولعمرى وعمْرِكم ما أساءَ
قد طلعتُم بها شموساً صباحاً فاطلعوا عندنا بدوراً مساءَ !

(٢) كان ابن زيدون من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ، وزر لابن جهور ، ثم فسد ما بينهما فحبسه ابن جهور ؛ واحتال ابن زيدون فى طلب صفحه فلم يظفر بطائل ؛ ففر من محبسه إلى أشبيلية ، فاستخلصه ابن عباد لنفسه ؛ وله تاريخ مع ولادة بنت المستكفى تزخر به كتب الأدب . وقد توفى سنة ٤٦٣ بأشبيلية ؛ وكان له ولد يكنى أبا بكر ، ولى الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه ، وقتل يوم سقوط قرطبة فى يد المرابطين .

أزرى بِزُهير، وإذا فخر أناف على امرئ القيس؛ فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله:

بينى وبينكَ مالو شئتَ لم يَضِعِ * سِر إذا ذاعت الأسرارُ لم يَذِعِ

يابائعاً حظَّه منى ولو بُذِلتْ * لِيَ الحياةُ بحظِّى منه لم أَبِعِ

يكفيكَ أنك إنْ حمَّلتَ قلبىَ ما * لاتستطيعُ قلوبُ الناسِ يَستطِعِ

تِهْ أَحتمِلْ، وآستَطِلْ أَصبِرْ، وعِزَّ أَهُنْ

ووَلِّ أُقبِل، وقُل أَسمع، ومُر أُطعِ!

وهو القائل - رحمه الله - يخاطب بنى جهور، وكان قد وَزَرَ لهم قبل وزارته للمعتمد؛ لأن أصله من مدينة قُرطبة، فنالته منهم محنة، فخرج عن قرطبة إلى أشبيلية وافداً على المعتمد، فعلتْ رُتبته عنده؛ فكان يبلغه عن بنى جهور مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة، فقال يخاطبهم:

بَنى جَهوَرٍ أَحرقتُمُو بجفائكم * فؤادى، فما بالُ المدائح تَعبَقُ

تَعُدُّونَنى كالعنبرِ الوردِ، إنما * تَفوحُ لكم أنفاسه حينَ يُحرَقُ

ومن نسيبه الذى يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة، قصيدته التى قالها يتشوق ابنة المهدى «ولاّدة»(١)، وهى بقرطبة وهو بأشبيلية(٢):

[أضحى التنائى بَديلاً من تَدانينا * وناب عن طِيبِ لُقيانا تجافينا]

بِنتم وبِنّا فما ٱبتَلّتْ جوانحُنا * شوقاً إليكم ولا جفّتْ مآقينا

(١) كذا بالأصل، وإنما هى ولادة بنت المستكفى محمد بن عبد الرحمن الأموى. انظر ص ٥٥ - ٥٧

(٢) أثبت المؤلف من القصيدة مختارات؛ فآثرنا إثبات ما أغفله بين علامتى الزيادة [ ] عرفاناً بقدر القصيدة.

نَكادُ حينَ تُناجيكُم ضمائرُنا * يَقْضِى علينا الأسَى لولا تأسِّينا

حالتْ لِفقدِكمُ أيّامُنا فغدَتْ * سُوداً وكانت بِكم بِيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا * ومَورِدُ اللَّهْوِ صافٍ من تَصافِينا

وإذ هَصَرْنا غُصونَ الأُنسِ دانيةً * قُطوفُها فجَنَيْنا منهُ ما شِينا

لِيُسْقَ عهدُكمُ عهدُ السرورِ فما * كُنتم لأرواحِنا إلا رياحينا

مَنْ مُبْلِغٌ مُلْبِسينا بانتزاحِهمُ * حُزناً مع الدهرِ لا يَبْلَى ويُبْلينا :

أنَّ الزمانَ الذى مازال يُضحِكُنا * أُنْساً بِقُربِهِمُ قد عاد يُبكينا !

غِيظَ العِدَى من تَساقِينا الهوَى فدَعَوْا

بأنْ نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

فانْحَلَّ ماكان معقوداً بأنفسِنا * وانْبَتَّ ماكان موصولاً بأيدينا

وقد نكونُ وما يُخشَى تفرُّقُنا * فاليومَ نحنُ وما يُرْجَى تلاقينا

[ماحقُّنا أن تُقِرُّوا عينَ ذى حسدٍ * بنا ، ولا أن تَسُرُّوا كاشحاً فينا

ياليت شعرى ولم نُعتِبْ أعادِيَكم * هل نال حظًّا من العُتْبَى أعادِينا

لم نعتقِد بَعدكم إلا الوفاءَ لكم * رأْياً ولم نتقلَّدْ غيرَه دينَا

كنّا نرَى اليأسَ تُسلِيناعوارضُه * وقد يئسنا فما لليأسِ يُغْرِينا]

ياساريَ البرقِ غادِ القَصرَ فاسقِ بهِ

من كان صِرفَ الهوَى والوُدِّ يسقِينا

[واسأل هنالك هل عَنَّى تذكُّرُنى * إلفاً تذكُّرُه أمسَى يُعنِّينا]

ويا نسيمَ الصَّبا بلِّغْ تحيتَنا * مَنْ لوْ على البُعدِ حيا كان يُحيينا

[مَن لايرى الدهر يقضينا مساعفة * فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا]

* * *

[وربيتِ مُلكٍ كأن الله أنشأه * مِسكا وقد أنشأ اللهُ الورى طينا
أو صاغه ورِقاً محضاً وتوّجه * من ناصع التِّبر إبداعاً وتحسينا
إذا تأوّدَ آدته رفاهيةً * تُدمِي العقولَ وأدمَتْهُ البُرى لينا
كأنما نبتت فى صحن وجنته * زُهرُ الكواكب تعويذاً وتزيينا
ماضرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً * وفى المودة كافٍ من تكافينا]

* * *

لاتحسبوا نأيكم عنا يُغيِّرُنا * إذ طالَ ماغيَّرَ النأىُ المحبِّينا
والله ما طلبتْ أهواؤنا بدلاً * منكم ولا انصرفتْ عنكم أمانينا
[ولا استفدنا خليلاً عنك يَشغلُنا * ولا اتخذنا بديلا منك يُسلينا]
ياروْضةً طالَ ماأجنتْ لواحظنا * وَرْداً جَناه الصِّبا غضًّا ونَسرِينا
ويا حياةً تملَّأنا بزهرتها * مُنًى ضُروباً ولذَّاتٍ أفانينا
[ويا نعيما خطرْنا من غضارته * فى وَشْىِ نُعمَى سحبْنا ذيلَها حينا]
لسْنا نُسمِّيكِ إجلالاً وتكرِمةً * فقدرُكِ المعتلِى عن ذاكِ يُغنينا
إذِ انفردْتِ فما شُورِكْتِ فى صِفةٍ * فحسبكِ الوصفُ إيضاحا وتبيينا
يا جنةَ الخُلدِ أُبدِلْنا بسلْسلِها * والكوثرِ العذبِ زُقُّوماً وغِسْلينا(١)
كأننا لم نبت والوصلُ ثالثنا * والسَّعدُ قد غضَّ من أجفانِ واشِينا

---

(١) موضع هذا البيت من الأصل بعد البيتين التاليين .

سِرَّانِ فى خاطرِ الظَّلماء يَكتُمُنا * حتى يكادَ لسانُ الصُّبحِ يُفشينا

[لا غَرْوَ فى أنْ ذكَرْنا الحزنَ حين نهتْ
عنه النهى ، وتركنا الصبر ناسينا]

إنَّا قرأْنا الأسَى يوم النَّوَى سُوَراً * مَكتوبةً وأخذْنا الصبرَ تلقينا

[إن كان قد عزَّ فى الدنيا اللقاءُ ففى * مواقفِ الحشر نلقاكم ، ويكفينا

أما هواكِ فلم نعدِلْ بمَنهَلهِ * شرْباً وإن كان يُرْوِينا فيُظْمِينا

لم يَجْفُ أُفقُ جمالٍ أنتِ كَوكبُه * سالينَ عنهُ ، ولم نهجُرْهُ قالينا

ولا اختياراً تجنَّبناكِ عن كَثَبٍ * لكن عَدَتْنا على كُرْهٍ عَوادينا

نأسَى عليكِ إذا حثت مشعشعة * فيها الشَّمول وغنَّانا مغنِّينا

لا أكؤُس الراحِ تُبْدِى من شمائلنا * سِيمَا ارْتياحٍ ولا الأوتارُ تُلهينا

دُومى على العهدِ ، مادُمنا ، مُحافِظةً * فالحرُّ من دانَ إنصافاً كما دِينا

فما ابْتغيْنا خليلاً مِنكِ يَحبِسُنا * ولا اسْتفدْنا حبيباً عنكِ يُغنينا

ولو صَبا نحونا من عُلوِ مَطلعهِ * بدرُ الدُّجا لم يكن حاشاكِ يُصبينا

أوْلِى وفاءً وإن لم تبذلى صِلةً * فالذِّكرُ يُقنِعُنا والطيفُ يكفينا

وفى الجوابِ قناعٌ لو شَفعْتِ بهِ * بيضَ الأيادى التى ما زِلتِ تُولينا

عليكِ منى سلامُ اللهِ ما بقيَتْ * صبابة منك تخفيها فتخفينا]

أوردتها على الاختيار لا على النسق ، ولعل فى كثير مما تركتُ منها أحسن مما أوردْت ، وإنما منعنى من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص (١) .

---

(٢) انظر التعليق رقم ٢ ص ١٠٦

ومن شعره رحمه الله، مما قاله فى مدة صباه :

أَخذت ُثلثَ الهوى غَصباً ولى ثلثُ ۞ وللمحبّين فيما بينهم ُثلثُ

تالله لو حلف العشاقُ أنهمو ۞ مَوتَى من الوجد يوم البين ما حَنِثوا

قومٌ إذا ُهجروا من بعد ما ُوصلوا ۞ ماتوا، فإن عاد من يهوونه ُبعثوا

ترى المحبّين صرعَى فى ديارِهِمُ ۞ كفتيةِ الكهفِ ما يدرُون ما لبثوا

ومما قال رحمه الله يتشوق ابنةَ المهدى المذكورة (١) ومعاهدَه بقرطبة، وضمّنها بيتَ أبى الطيب فى أوّل قصيدته الكافورية :

« بِمَ التعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ ۞ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ » !

قصيدة أوّلها :

هل تذكرون غريباً عادَهُ شجَنُ ۞ مِن ذِكركم وجفا أجفانَه الوسَنُ

ُيخفى لواعجَه والشوقُ يفضحُه ۞ فقد تساوى لديه السرُّ والعلنُ

يا ويلتاهُ ! أيبقَى فى جوانحهِ ۞ فؤادُه وهو بالأطلالِ مرتهَنُ

وأرّقَ العينَ والظلماءُ عاكفةٌ ۞ ورقاءُ قد شفَّها، أو شفَّنى، حزَنُ

فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها ۞ وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغُصُن

يا هلْ أُجالسُ أقواماً احبهمُ ۞ كُنّا وكانوا على عهدٍ فقد ضَغِنوا

أو تحفظون عُهوداً لا أُضيّعُها ۞ إن الكرامَ بحفظِ العهدِ ُتمتحَنُ

ومنها :

إن كان عادَكمُ عيدٌ فربَّ فتًى ۞ بالشوق قد عادَه من ذِكركم حزَنُ

وأفردتهُ الليالى من أحِبَّتِهِ ۞ فبات ُينشِدُها مما جنَى الزمَنُ :

(١) انظر التعليق رقم ١ ص ١٠٦

«بِمَ التعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ ٭ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ»

[أبو بكر بن عمار]

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار، ذو النفس العصامية، والآداب الأهتمية؛ كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم محمد بن هانئ الأندلسى (١)، وربما كان أحلى منزعاً منه فى كثير من شعره؛ ولشعره ديوان يدور بين أيدى أهل الأندلس، ولم أُلفِ أحداً ممن أدركته سِنّى من أهل الآداب الذين أخذتُ عنهم إلا رأيته مقدِّما له مؤْثراً لشعره، وربما تغالى بعضهم فشبَّهه بأبى الطيب، وهيهات!

فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ما أراد: قصيدته التى كتب بها من سَرَقُسْطة حين فرّق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد ـ لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه ـ وهى:

عَلىَّ، وإلا ما بكاءُ الغمائمِ ٭ وفىَّ، وإلا ما نِيَاحُ الحمائمِ
وعنّى أثار الرعدُ صرخةَ طالبٍ ٭ لثأرٍ وهزَّ البرقُ صفحةَ صارمِ
وما لبستْ زُهر النجوم حدادَها ٭ لغيرِى ولا قامت له فى مآتمِ

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدى، من ولد المهلب بن أبى صفرة؛ كان أبوه يقيم فى المهدية بالمغرب، ثم نزح إلى الأندلس فى أيام الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر؛ فولد له محمد هذا فى أشبيلية؛ وحصل له حظ وافر من الأدب، ومهر فى الشعر؛ وكانوا يعدونه فى المغرب كالمتنبي فى المشرق، وكانا متعاصرين . . .

وكان ابن هانئ غالياً فى مدائحه، فاتهم بالكفر وساء فيه رأى الناس، حتى اضطر إلى الهجرة، واتصل بالمعز لدين الله العبيدى؛ ومات فى ظروف غامضة سنة ٣٦٢ ولم يزل شابا فى عنفوانه!

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله (١) :

[إذا ركبوا فانظره أول طاعن ... وإن نزلوا فارصده آخر طاعم]

أبى أن يراه الله إلا مقلداً ... حميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

جاهُ الهوى ـ فاستشعروه ـ عارُهُ ... ونعيمه ـ فاستعذبوه ـ اوارُه !

لا تطلبوا فى الحبّ عِزًّا إنما ... عُبْدانه فى حكمه أحرارُه

قالوا أضرّ بك الهوى فأجبتهم ... يا حبّذاه وحبّذا إضرارُه

قلبى هو اختار السّقام لجسمه ... زيا ، فخلوه وما يختاره

عيّرتمونى بالنّحول وإنما ... شرفُ المهنّدِ أن ترقّ شِفارُه

وشمتّمُ لفراقِ من آلفتُه ... ولربما حجب الهلالَ سِرارُه

أحسبتمُ السُّلوانَ هبّ نسيمُه ... أو أن ذاك النومَ عادَ غِرارُه

إن كان أعيا القلبُ من حربِ الجوى ... خذلته من دمعى إذن أنصارُه

من قدّ قلبى إذ تثنّى قدُّه ... وأقام عُذرى إذ أطلّ عِذارُه

---

(١) ومنها فى مدح بنى عباد :

ملوكٌ أناخ العِزّ فى عرصاتهم ... ومثوى المعالى بين تلك المعالم

هُمُ البيتُ ماغيرُ الظّبا لبناته ... بأسٍّ ، ولا غيرُ القنا بدعائم

إذا قصّر الرّوعُ الخطا نهضتْ بهم ... طِوالُ العوالى فى طوال المعاصم

وأيدٍ أبت من أن تئوب ولم تفز ... بجزّ النواصى أو بجزّ الغلاصم

ندامى الوغى ، يُجرُون بالموت كأسها ... إذا رجعت أسيافُهم بالجماجم

هناك القنا مجرورة من حمائلٍ ... وثمّ الظّبا مهزوزة من عزائم

أم مَن طوى الصبحَ المنيرَ نِقابُه | وأحاط بالليل البهيم خِمارُه
غُصنٌ ولكن النفوسَ رياضُهُ | رَشَأ ولكن القلوبَ عرارُهُ
سَحَرتْ ببدرِ التِّمِّ غُرَّتهُ كما | أَزْرَتْ على آفاقه أزرارُه
مازال ليلُ الوصلِ من فَتكاته | تسرِى إلىَّ بعَرفِهِ أسحاره
ويجودُ رَوْضَ الحسن من وجناته | دمعى فيندَى رَنْدُه وبَهارُه
حتى سقانى الدهرُ كأس فراقِه | فسكِرتُ سُكراً لا يُفيق خُماره
ووقفت فى مثلِ المحصَّب موقفا | للبين من حبِّ القلوب جِمارُه
حيرانَ أعمى الطرفَ وهو سماؤه | وأذاب فيه القلبَ وهو قرارُه
ولئن يُذِبْهُ وهو مثواه فكم | قد أحرقتْ عودَ العفارة نارُه
إنْ يَهْنِهِ أنى أضعْتُ لحُبِّه | قلبى وذاعت عِنده أسراره ...
... فليَهْنِ قلبى أنْ شكاه وشاحُه | لسوارِه فاقتصَّ منه سوارُه !
فوَحُسنِهِ لقد انتدَبتُ لوصفه | بالبُخلِ لولا أنّ حِمْصاً دارُه [(١)]
بَلد رمتْنى بالمُنَى أغصانُه | وتفجرتْ لى بالندى أنهارُه

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عُنى بجمعها أهلُ الأندلس ، وأنا إن شاء الله موردٌ منها مالا يُخلّ بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على خاطرى من ذلك ؛ لأنى كنت فى حداثة سنى قد صرفتُ عنايتى إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد ، لما تضمنتْه من الآداب ؛ وقد فتشتُ خِزانة حفظى فلم أُلْفِ فيها إلا نبذة يسيرة ، وأنا مُوردُها

(١) يعنى أشبيلية ، وكانوا يسمونها حمص ، تشبيها لها بحمص الشام .

إن شاء الله عز وجل .

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار ، يكنى أبا بكر ، أصله من شِلْب ، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس ، مولده ومولد آبائه بها . كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولا حديثه حَظّ ولا ذُكر منهم بها أحد ؛ ورَدَ مدينة شِلب طفلا فنشأ بها ؛ وتعلم علم الأدب على جماعة ، منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ؛ ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ، ومهر فى صناعة الشعر ، فكان قصاراه التكسب به ، فلم يزل يجول فى الأندلس مسترفِداً لايخصّ بمدحه الملوكَ دون غيرهم ، بل لايبالى ممن أخذ ولا من استعطف من مَلكٍ أو سُوقة ، وله فى ذلك خبر ظريف :

وذلك أنه ورد فى بعض سَفراته شلب ، لايملك إلا دابة لايجد علفها ، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجّه بها إليه ؛ فرآها ابن عمار من أجلّ الصِّلات وأسنى الجوائز ؛ ثم اتفق أن عَلَتْ حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت ، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شِلب وأعمالها أول ماأفضى الأمر إليه ، فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وجملةِ عبيد وحشم ، وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ؛ فكان أولَ شيء سأل عنه ، الرجلُ صاحبُه صاحبُ الشعير ، فقال : ماصنع فلان ، أهو حىّ ؟ قالوا : نعم ؛ فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم ، وقال لرسوله : قل له : لوملأتَها بُرًّا لملأناها تبرا .

ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها ، من التقلّب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف ، إلى أن ورد على المعتضد بالله أبى عمرو ، فامتدحه بقصيدته المشهورة التى أولها :

أدِرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى ... والنجمُ قد صرف العِنانَ عن السُّرَى
والصبحُ قد أهدى لنا كافورَه ... لما استرد الليل منا العنبرا (١)

وفيها يقول يمدح المعتضد :

عَبَّادٌ المخضرُّ نائلُ كَفِّهِ ... والجوُّ قد لبس الرداءَ الأغبرا
قَدَّاحُ زَنْدِ المجدِ لا ينفكُّ من ... نارِ الوغى إلا إلى نار القِرَى
يختارُ أن يَهَبَ الخريدةَ كاعبا
والطِّرْفَ أجردَ والحسامَ مُجَوْهَرا

(١) بعده :

والرَّوْضُ كالحسْنا كَساهُ زَهرُه ... وَشْياً ، وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زَهَا بوردِ رياضه ... خجِلا ، وتاه بآسِهن مُعَذَّرا
رَوْضٌ كأنّ النهر فيه مِعصمٌ ... صافٍ أطلّ على رداء أخضرا
وتهُزُّه ريحُ الصبا فتخاله ... سيفَ ابنَ عباد يبدّدُ عسكرا
عبَّادٌ المخضرُّ . . . .
ملكٌ إذا ازدحم الملوك بموردٍ ... ونحاه لا يَرِدُون حتى يصدرا
أَنْدَى على الأكبادِ من قطر الندى ... وألذّ فى الأجفان من سِنة الكرى
لا خَلقَ أقرَى من شفارِ حسامه ... إن كنت شبَّهتَ المواكب أسطرا
أيقنتُ أنى من ذُراه بجنةٍ ... لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقا أنّ ربعى مُخْصِبٌ ... لما سألتُ به الغمامَ الممطرا =

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيَتْ بسيفِك أُمَّةٌ لم تعتقدْ إلا اليهودَ وإن تَسَمَّوْا بَرْبَرا
أثمرتَ رُمْحَك من رءوس كُماتِهِم لما رأيتَ الغصنَ يُعشَقُ مُثمرا

= من لا تُوازنه الجبالُ إذا احتبى من لا تُسابقه الرياح إذا جرى
ماضٍ وصدر الرمح يُكْهِمُ والظُّبا تنبو وأيدى الخيل تعثرُ فى البُرَى
قاد الكتائب كالكواكبِ فوقهم مِن لأمِهم مثلُ السحاب كَنَهْوَرا
من كلِّ أبيضَ قد تقلد أبيضا عَضْباً وأسمرَ قد تأبط أسمرا
ملكٌ يرُوقك خَلْقُه أو خُلْقه كالروض يَحْسُنُ منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شِمْتُه فرأيتُه فى بردتَيْه مصوّرا
وجهلت معنى الجود حتى زُرْتُه فقرأته فى راحتيه مفسَّرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه حتى حسبنا كل تُرْبٍ عنبرا
وتتوجتْ بالزهر صُلعُ هضابه حتى ظننا كل هضْبٍ قيْصرا
هصرتْ يدى غصنَ الندى من كفه وجنت به روضَ السرور منوّرا
حسبى على الصُّنع الذى أولاه أن أسعى بجِدٍ أو أموتَ فأعذرا
السيف أفصح . . . .
ما زلت تُغنى مَن عنَا لك راجيا نَيلاً ، وتُفنى من عَتا وتجبّرا
حتى حللتَ من الرياسةِ محجرا رَحْباً وضمتْ منك طرفاً أحورا
شَقِيَتْ بسيفكَ . . . .
نمَّقْتُها وشْياً بذِكرك مُذْهبا وفتَقْتُها مِسكا بحمدِك أذْفَرا
مَن ذا ينافحُنى وذِكرُك صندلٌ أورِدْتُه من نار فِكرى مَجْمرا
فلئن وجدتَ نسيمَ حمدى عاطرا فلقد وجدتُ نسيم بِرِّك أعطرا
وإليْكَها كالروْضِ زارتْه الصّبا وحنا عليه الطلُّ حتى نوّرا .

وخَضبْتَ سيفَك من دماء نُحورهم لما عَهِدْتَ الحسنَ يُلبَسُ أحمرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله، وهو قوله:

السيفُ أفصحُ من زِيادٍ[1] خُطبةً في الحرب إن كانتْ يمينُك مِنبرا

ولما أنشد المعتضدَ هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومَركَب، وأمر أن يُكتب في ديوان الشعراء؛ فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب، فلم تزل حالُه معه تتزيّد، ومَوَاتُّ خدمتِه له تقوى وتتأكد، إلى أن صار ابنُ عمار ألزقَ بالمعتمد من شعرات قَصِّه، وأدنى إليه من حبل وريدِه؛ كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعةً من ليل ولا نهار.

ثم اتفق أن وَلِيَ المعتمدُ على الله شِلْبَ من قِبل أبيه، فاستوزر ابنَ عمارٍ هذا في تلك الولاية، وسلّم إليه جميع أموره، فغلَب عليه ابنُ عمار غلبة شديدة، وساءت السمعة عنهما ... فاقتضى نظر المعتضد التفريقَ بينهما، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدّم الإيماء إليه[2]؛ فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس، إلى أن تُوفي المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد، وقرّبه أشدّ تقريب، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه.

وله معه أيام كونهما بشِلْب خبر عجيب؛ وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أُنسه، على ما كانت العادة جارية به، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفّي به والبر له على المعتاد، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه: لتضعَنّ رأسك معي على وسادٍ واحد! فكان ذلك. قال ابن عمار: فهتف بي هاتف

(١) يعني زياد ابن أبيه.

(٢) انظر ص ١١١

فى النوم يقول : « لا تغترّ أيها المسكين ؛ إنه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومى فزِعا ، وتعوّذت ، ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حالته الأولى ؛ فانتبهت ، ثم عدت ، فسمعته ثالثة ؛ فانتبهت فتجردت من أثوابى والتففت فى بعض الحصُر ، وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ؛ فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى ، فأمر بطلبى ، فطلبت له فى نواحى القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ؛ فكان هو الذى وقع علىّ ؛ وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فُتح ؛ فوقف بإزاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت منى حركةٌ فأحسّ بى ، وقال : ما هذا يتحرك فى هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض ، فخرجت عُريانا ليس علىّ إلا السراويل ! فلما رآنى فاضت عيناه دموعا وقال : يا أبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أر بُدًّا من أن صدقتُه ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : يا أبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخُمار ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالى ، إلى أن كان من أمره ما سيأتى الإيماء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال !

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرنا ، سأله ابن عمار ولاية شِلب ، وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم ؛ فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أَنْبهَ ولاية ؛

جعل إليه جميع أمورها، خارجها وداخلها؛ فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه، وضعُف عن احتمال الصبر عنه؛ فاستدعاه وعزله عنها واستوزره؛ فكانت حاله معه شبيهةً بحال جعفر بن يحيي مع الرشيد.

ولم يزل المعتمد يُعدُّه لكل أمر جليل، ويؤهّله لكل رتبة عالية؛ وكان ابن عمار مع هذا لا يُناط به أمرٌ إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة؛ واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذُكر عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة! وكان ابن عمار هو الذى ردّه عن قصد أشبيلية وقرطبة وأعمالها؛ وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعا فيها، نخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبا منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه؛ فتولى ابن عمار ردّه بألطف حيلة وأيسر تدبير؛ وذلك أنه أقام سُفرة شطرنج فى غاية الإتقان والإبداع، لم يكن عند ملك مثلُها، جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل، وحلاها بالذهب، وجعل أرضها فى غاية الإتقان؛ نخرج من عند المعتمد رسولا إلى الأدفنش، فلقيه فى أول بلاد المسلمين، فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ فى إكرامه، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه؛ فأظهر ابن عمار تلك السفرة، فرآها بعض خواصّ الأدفنش، فنقل خبرها إليه؛ وكان العلج - أعنى الأدفنش - مولعا بالشطرنج، فلما لقى ابن عمار سأله: كيف أنت فى الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقةً عالية، فأخبره بمكانه منه، فقال له: بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الإتقان! قال ابن عمار: نعم؛ فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار

لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتنى فهى لك ، وإن غلبتك فلى حُكمى ! فقال له الأدفنش : هلمها لننظر إليها ؛ فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وُضعت بين يدى العلج صلَّب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأدفنش : لا ألعب معك على حكمٍ مجهولٍ لا أدرى ما هو ، ولعله شىء لا يمكننى ! فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت ؛ وكشف ابن عمار سرَّ ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش ، وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، ففعلوا ؛ فتعلقت نفس العلج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه وقالوا له : إن غلبتَه كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلُها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شىء يُطلب منه ، وقالوا له : إن طلب ابنُ عمار مالا يمكن فنحن لك بردّه عن ذلك ؛ ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة ، فقال له : قد قبلتُ ما رسمتَه ! فقال له ابن عمار : فاجعل بينى وبينك شهوداً أسماهم له ؛ فأمر الأدفنش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان ؛ وكان ابن عمار ـ كما ذكرنا ـ طبقةً بالأندلس ؛ لا يقوم له أحد فيها ؛ فغلب الأدفنش غلبةً ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكن للعلج فيها مطعن ؛ فلما حقَّت الغلبة قال له ابن عمار : هل صحَّ أن لى حكمى ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ قال : أن ترجع من ههنا إلى بلادك ! فاسودّ وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ !

في أمثال لهذا القول ؛ وهم بالنَّكث والتمادي لوجهه ، فقبَّحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يَحمُلُ بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارى في وقتك ! فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال : لاأرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك ! وجاءه بما أراد ، فرجع وكفَّ الله بأسه ، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين ؛ ورجع ابن عمار إلى أشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به .

ثم إن المعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرْسِيَة وأعمالها ، وهي التي تُعرف بِتُدْمِير (١) ؛ وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد ابن طاهر ، كان هو

(١) تدمير : كورة في شرق الأندلس قاعدتها مرسية ، وكان يحكمها قبل الفتح العربي أمير قوطي من قرابة لذريق اسمه تيودمير (Thiodmir) وكان له مع العرب إبان الفتح قصة من أطرف قصص المقاومة ؛ وباسم هذا الأمير سمى العرب هذه الكورة ، وقيل بل سموها تدمير تشبيهاً لها بتدمر من بلاد الشام . أما مرسية فمدينة مستحدثة بعد الفتح العربي ، بناها العرب في زمن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٩ للهجرة ، ثم ازدادت عمرانا وأصبحت من حواضر الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (سنة ٣٠٠ إلى ٣٦٦) .

ولما نشبت الفتنة وتمزقت وحدة الأندلس ، استقل بمرسية فتى من موالي المنصور بن أبي عامر اسمه خيران الصقلبي ، وخلفه عليها بعد موته زهير الصقلبي العامري أيضاً ، فظل يحكمها بضع سنين ، ثم نشبت معركة بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، حقت فيها الهزيمة على زهير ، ففر من وجه خصمه إلى حيث لا يعلم أحد ! وقام في الأمر من بعده في مرسية جماعة من أبناء البيوتات بها ، منهم الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق ، وأبو بكر أحمد بن طاهر ، وغيرهما ، ثم صارت إمرتها لأحمد بن طاهر ، ثم من بعده لولده أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر ؛ وفي عهده بدا للمعتمد بن عباد صاحب أشبيلية أن يستولى عليها ويضمها إلى ملكه ؛ وكان شاعره ابن عمار على رأس الحملة ، ويقود جنده الأمير عبد الله بن رشيق ؛ فتغلب ابن عمار على المدينة ، وخلع أميرها ابن طاهر ؛ ثم بدا له أن يستولى عليها لنفسه ؛ وكان ابن عمار على ولاء مع الأدفونش السادس ملك قشتالة ، ولعله كان ينتظر منه معونة على ذلك ، ولكن . . . ولكن الأمور سارت على غير ما أراد !

المتغلّـبَ عليها والمدبِّر لأمرها ؛ فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها ؛ فولاه ماتولى من ذلك ؛ وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية ، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها [١] ؛ فلحق ابن طاهر حين خرج من مُرسية ببنى عبدالعزيز ببلنسية [٢] ؛ فكان بها إلى أن مات رحمه الله .

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا ، حدثته نفسه وسوَّل له سوءُ رأيه أن يستبد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ؛ فلم يزل يصرِّف الحيلة فى ذلك إلى أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها ، وطمع فى ملك بلنسية ؛ إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق ، كان أبوه من عُرَفاء الجند بها [٣] ؛ وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره ، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فسمع ابن عمار بذلك ، فجاء يركض حتى أتى المدينةَ وقد غلّقت أبوابها دونه ؛ فحاصرها بمن معه أياما ، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها ؛ فبقى حائراً لا يدرى

(١) يذكر بعض المؤرخين أن ابن عمار اعتقله فى قلعة مونت قوط ، ثم عاد فقتله ؛ ولكن الفتح بن خاقان يذكر فى القلائد أنه شهد وفاته سنة ٥٠٧ فى بلنسية وقد جاوز التسعين ، ويذكر إلى ذلك ما يفيد أنه كان فى وقت ما معتقلا فى مونت قوط .

(٢) بلنسية : حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ، متصلة بالبحر والجبل ؛ وكانت قاعدة الحكم فى شرق الأندلس أيام بنى أمية ؛ فلما كانت الفتنة استقل بها صقلبيان من موالى المنصور ابن أبى عامر ، هما : مبارك ومظفر ، فتقاسما سلطتها ، مات أولهما ، وثار الأهالى بالآخر فطردوه ، وبايعوا صقلبيا آخر من العامريين اسمه لبيب ، ثم آل أمر بلنسية إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، من أحفاد المنصور بن أبى عامر ، فطالت مدته بها ، (انظر ص ٧٢) ثم خلفه المظفر بن عبد العزيز ، وهو الذى لجأ إليه ابن طاهر حين أخرجه ابن عمار عن بلنسية .

(٣) هو عبد الله بن رشيق المار ذكره فى التعليق رقم ١ ص ١٢٢

مايصنع ولا أين يتوجه ؛ وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ ، فهرب حتى لحق ببنى هود بسرَقُسْطة (١) ، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ؛ وبغّضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولىّ نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم .

ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملوكها تشْنأه ، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى غاية المنعة يدعى شَقورة (٢) ، كان المتغلبَ عليه رجلٌ يقال له ابن مبارك ، فأكرم وفادته وأحسن نزله (٣) ، ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيّده وجعله فى سجنه ؛ فلما رأى ابنُ عمار ذلك منه قال له : لاعليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عندك وتعرضنى عليهم ، فمانهم إلا من يرغب فى ؛ فمن كان أشدَّهم رغبة جعل لك مالا ووجهتَ بى إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك ، فما عرضه على أحدٍ من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ؛ وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ...

وفى ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت فى السوقِ يُنادَى علىّ رأسى بأنواعٍ من المالِ

---

(١) كان أميرها وقتئذ هو المؤتمن .

(٢) شقورة : حصن كالمدينة ، عامر بأهله ، شمالى مرسية ، وهو رأس جبل عظيم متصل منيع الجهة ، ويخرج من أسفله نهران ، أحدهما النهر الكبير الذى يمر بقرطبة ، والثانى هو النهر الأبيض الذى يمر ببلنسية . قال ياقوت : وكان بها دار إمارة همشك .

(٣) رواية ابن خاقان فى القلائد ، أن ابن عمار لما لجأ إلى المؤتمن بن هود ، زودوه بمال ، وأرسله على رأس طائفة من الجند إلى شقورة ليفتحها ؛ فقصد إليها وهو يظن أن سيملكها ، فلما بلغها احتال عليه صاحبها وأظهر له المودة ودعاه إلى النزول عنده ؛ فلما صار فى يده وقد تفرق عنه أصحابه ، أثقله بالحديد !

والله ما جارَ علىٰ مالهِ من ضَمَّنى بالثمنِ الغالى !

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرتْ عليه ، فاستدعى مُوسى فاتى بها ؛ فقال فى ذلك :

بُؤْسَى شَقُورةَ عِندى أَرْبَى على كل بُوسَى
فقدتُ « هارونَ » [1] فيها فظَلْتُ أطلبُ « مُوسَى » !

وبعث المعتمدُ على الله من رجاله من تسلَّم ابن عمار من يد ابن مبارك ، بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمدُ الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ؛ فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عِدْلَى تِبْن ، وقيودُه ظاهرة للناس ؛ وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصةً وعامةً حتى ينظروا إليه على تلك الحال ؛ وقد كان قبل هذا إذا دخل قُرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يردُّ عليه ابنُ عمار السلام ، وغيرُهم لا يصل إلا إلى تقبيل رِكابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ؛ فسبحان مُحيل الأحوال ومُديل الدول !

فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزة القعساء والمُلك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلا خائفا فقيرا لا يملك إلا ثوبه الذى عليه ؛ فسبحان من سلبه ماوهبه ، ومنعه ما كان به أمتعه .

---

(١) يعنى بهارون : أخا يؤزاره !

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته ، قال : لما قَرُبنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارسٌ من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار – وكان معتمًّا – أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذى جئتُ فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ! فعلمنا أنه ارسل ليزيل عمامته .

فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت ، يرسف فى قيوده ؛ فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرقٌ لا ينبس ، إلى أن انقضى كلام المعتمد ؛ فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أُنكر شيئًا مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجمادات فضلا عمن ينطق ؛ ولكنى عثرتُ فأقِلْ ، وزللتُ فاصفح ! فقال المعتمد : هيهات ؛ إنها عثرة لا تقال ! وأمر به فاحدر فى النهر إلى أشبيلية ، فدُخل به أشبيلية على الحال التى دخل عليها قرطبة ، وجُعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك – وهو باق إلى وقتنا هذا – فطال سجنه هناك .

كُتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسَّل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفَلك لكفَّ عن دوْره ؛ فكانت رُقًى لم تنجع ، ودعَواتٍ لم تُسمع ، وتمائم لم تنفع : فمنها قوله :

سجاياك إن عافيتَ أندَى وأسجح ❊ وعذرك إن عاقبتَ أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزيةٌ ❊ فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك فى أخذى برأيك ، لا تُطع * عِداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

فإن رجائى أنّ عِندك غير ما * يخوض عدوّى اليوم فيه ويمرح

ولِمْ لا وقد أسلفتُ ودا وخدمة * يكرّان فى ليل الخطايا فيصبح

وهبْنى وقد أعقبْتُ أعمال مُفسدٍ * أما تفسُدُ الأعمال ثُمّتَ تصلُح

أقِلْنى بما بينى وبينك من رضًى * له نحو روح الله بابٌ مفتّح

وعفٍّ على آثار جُرمٍ سلكتُها * بهبَّة رحمى منك تمحو وتمصح

ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيهم * فكلُّ إناء بالذى فيه يرشح

سيأتيك فى أمرى حديثٌ وقد أتى * بزُور بنى عبد العزيز موشّح (١)

وما ذاك إلا ما علمتَ فإننى * إذا ثُبت لا أنفكّ آسو وأجرح

كأنى بهم لا در لله درُّهم * أشاروا تجاهى بالشمات وصرّحوا

وقالوا سيجزيه فلانٌ بفعله * فقلت وقد يعفو فلانٌ ويصفح !

ألا إن بطشاً للمؤيَّد يرتمى * ولكن حلماً للمؤيَّد يرجح

وماذا عسى الواشون أن يتزيّدوا * سوى أن ذنبى واضحٌ متصحّح

نعم لىَ ذنبٌ غير أن لحلمه * صفاةً يزلُّ الذنب عنها فيسفح

عليه سلامٌ كيف دار به الهوى * إلىّ فيدنو أو علىَّ فينزح

ويهنيه إن مُتُّ السلوُّ فإننى * أموت ولى شوقٌ إليه مُبرّح

وبين ضُلوعى من هواه تميمةٌ * ستنفع لو أن الحمامَ يجلّح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وانشدت بين يديه ، كان بحضرته رجل

(١) يعنى أصحاب بلنسية . انظر التعليق رقم ٢ ص ١٢٢

من البغداديين ، فجعل يُزْرِى على هـذا البيت « وبين ضلوعى ... » ويقول : ما أراد بهذا المعنى ؟ فكان من جواب المعتمد ـ رحمه الله ـ أن قال : أما لئن سلَبه الله المروءةَ والوفاء ، لما أَعدمه الفطنة والذكاء ؛ إنما نظر إلى بيت الهذَلىّ من طرف خفى ، وهو :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها   أَلفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع !

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد ، إلى أن قتله صبراً فى شهور سنة ٤٧٩ .

وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمدَ بعضُ الرقة ، فوجّه إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه ، فأُتى به يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قِبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترقّق للمعتمد ويمسح عِطفيه ويستجلب من الألفاظ كلّ مايقدّر إنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد ؛ فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطفت المعتمدَ عليه سابقتُه وقديمُ حرمته ؛ فقال له قولا يتضمن العفو عنه تعريضاً لا صريحا ؛ وأمر بردّه إلى محبسه ؛ فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمار إحَنٌ قديمة ؛ فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : ماأرى ابن عمار إلا سيتخلص ؛ فقالوا له : ومن أين علم مولانا ذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن عمار يُخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ؛ فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ؛ فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبحَ نشر ، وزادوا فيه زياداتٍ

قبيحةً صُنت هذا الكتاب عن ذكرها ، فبلغ المعتمدَ ذلك ، فأرسل إلى ابن عمار وقال له : هل أخبرتَ أحداً بما كان بيني وبينك البارحة ؟ فأنكر ابن عمار كلَّ الإنكار ، فقال المعتمد للرسول : قل له : الورقتان اللتان استدعيتَهما ، كتبتَ في إحداهما القصيدة ، فما فعلتَ بالأخرى (١) ؟ فادعى أنه بَيَّض فيها القصيدة ؛ فقال المعتمد : هلمَّ المسوّدة ! فلم يجد جوابا ، فخرج المعتمد حَنِقاً وبيده الطّبرزينُ حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ،

(١) يلاحظ أن السجناء في ذلك الوقت كان يؤذن لهم في الكتابة وتهيأ لهم أسبابها ؛ فهل يحدث مثل هذا اليوم في بلاد كثيرة !

وقد ذكر ابن خاقان في القلائد ، أن صاحب شقورة لما كان ابن عمار معتقلا عنده ، كان يأذن له في الكتابة إلى أصحابه ويأذن لهم في زيارته ومسامرته ؛ وأثبت لنا من هذا الباب قصيدة ممتعة كتب بها ابن عمار إلى صديقه أبي الفضل بن حسداى الشاعر ، يستزيره في معتقله من حصن شقورة ويصف له بعض ما هو فيه !

وفيها يقول :

أَدرِكْ أخاكَ ولو بتمافيةٍ كالطّلِّ يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به في غير مَوْماة ولا بحر !

ومنها في وصف الحصن :

عالٍ كأن الجن إذ مردتْ جعلته مرقاةً إلى النَّسرِ
وَحْشٌ تناكرت الوجوهُ به حتى استربْتُ بصفحةِ البدر
قصر تمهَّدَ بين خافقتَيْ نَسْرَين من فلك ومن وَكر
متجبر سال الوقار على عِطفيه من كِبَرٍ ومن كِبْر
ملكت عنانَ الريح راحتُه فجيادها من تحته تجرى

ثم يقول له داعيا إلى مواصلته ، أو مراسلته :

دع ذا وصِلْنا غير مؤتمرٍ مستأثراً بالحمد والشكر
واكتب إلينا إنها يدٌ تمحو الذى كتبتْ يُدُ الدهر !

فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله ، حتى انكبّ على قدمَى المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء ؛ فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ، ولم يزل يضربه به حتى بَرَد .

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ؛ فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقى على خاطرى .

[رجع الحديث عن بنى عباد]

ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته والأيام تساعده ، والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله ، أعنى من المتغلّبين ، ودخلت فى طاعته مدنٌ من مدائنها أعيتْ الملوكَ وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية ، وهى التى تُعرف بتدمير ، بينها وبين أشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة ، وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة .

وكان تغلّبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١ (١) ، ثم رجع إلى أشبيلية

(١) كانت قرطبة بعد زوال الخلافة عنها لبنى جهور ؛ فطمع المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة فى استخلاصها لنفسه ؛ فسير إليها جيشه ، ولم يكن ذلك بعيداً من تدبير ابن عباد ؛ فلما رأى عبد الملك بن جهور تهديد ملكه ، طلب إلى المعتمد بن عباد أن يعينه ؛ فوافى جيشه قرطبة ، ونزل بربضها الشرقى . ولم يتم للمأمون ما أراد ، فنزح عن قرطبة ؛ وخلا الجو بذلك لابن عباد ، فأحدق جيشه بقصر ابن جهور ، وقبض عليه وعلى إخوته ، وأخرجوا عن قرطبة ، ودخلت حاضرة الأندلس منذ ذلك اليوم فى ملك ابن عباد ، وصارت تابعة لأشبيلية ، وتولى أمرها الظافر بن المعتمد ؛ ولكن إمارتها لم تخلص له طويلا ؛ فقد كان أهلها مستمسكين بدعوة الخلفاء ، يأملون أن تعود مدينتهم حاضرة لخليفة من بنى مروان ؛ فلم تلبث أن ثارت على الظافر ، وكان ابن عكاشة على رأس الثائرين ، فبرز له الظافر ليلا ، منفرداً عن جنده ، فلم يزل يدافع =

واستخلف عليها (١) ولده عبّاداً ولقّبه بالمأمون ، وهو أكبر ولده ، وُلد له في حياة أبيه المعتضد ، وسماه عبّادا ، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول : ياعباد ، ياليت شعرى مَن المقتولُ بقرطبة ، أنا أو أنت ؟ فكان المقتولَ بها عبادٌ هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها .

[أول أمر المرابطين بالأندلس]

ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ، مستنصراً به على الروم (٢) ؛ فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء ، وأنزله أكرم نُزُل ، وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم ، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيلٍ ورَجل ليستعين بهم في حربه ؛ فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه ؛ وقال له : أنا أول

= الثائرين ويدافعونه ، حتى سقط صريعاً ، وظل جسده ملقى على الأرض حيث سقط حتى مر بجثته قبيل الصبح أحد الأئمة المغلسين ، فخلع رداءه عن منكبيه وستره به ، وأذاع نبأ مصرعه ... وبلغ النبأ المعتمد في أشبيلية فأوجعه ، ولكن فجيعته في ولده لم تلهه عن التدبير لملكه ؛ فلم يزل يسعى حتى استأصل دعاة الفتنة ، وأخرج ابن عائشة عن قرطبة ، وجعل ولايتها إلى ولده المأمون خالفاً للظافر ؛ فلم يزل والياً عليها حتى قتله المرابطون يوم دخولهم قرطبة !

(١) يعني على قرطبة .

(٢) كان سبب ذلك أنه لما استولى الأذفونس سنة ٤٧٨ على طليطلة من يد القادر بن ذي النون ، قوى سلطانه وعظم أمله في الاستيلاء على أشبيلية وقرطبة وغيرهما من قواعد الأندلس ؛ فأجمع ملوك الطوائف — وكبيرهم ابن عباد — أن يستعينوا بيوسف بن تاشفين ملك المغرب ؛ فدعوه لنصرتهم ، على ما يراود نفوسهم من خوفه وما يتوقعونه من طمعه في الاستئثار بملك الأندلس دونهم ؛ وقد كان ماتوقعوا وتوقع ابن عباد معهم ؛ وكانت نكبة المعتمد على يدى نصيره الذى استجار به ، يوسف بن تاشفين .

وكما فعل ابن عباد ببني جهور حين استعانوه لدفع المأمون بن ذى النون عن قرطبة فنكبهم واستخلصها لنفسه ، فعل يوسف بن تاشفين ببني عباد .

منتدِب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى !

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه فى طَلبته ، ولم يدر أنّ تدميره فى تدبيره ؛ وسلّ سيفاً يحسبه له ولم يدرِ أنه عليه ؛ فكان كما قال أبو فراس :

إذا كان غيرُ الله للمرءِ عُدّةً أتته الرزايا من وجوه الفوائد

كما جرّتْ الحنفاءُ حتفَ حُذيفةٍ وكان يراها عُدّةً للشدائد ! (١)

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى أُهبة العبور إلى جزيرة الأندلس ؛ وذلك فى شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فاستنفر مَن قدر على استنفاره من القُوّاد وأعيان الجند ووجوهِ قبائل البربر ؛ فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس فى عدد كثير من الرَّجل ؛ فعبر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة سَبْتة ، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد فى وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أميرُ المسلمين ، وقدّم إليه من الهدايا والتحف والذخائرُ الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ؛ فكان هذا أول ما أوقع فى نفس يوسف التشوّفَ إلى مملكة جزيرة الأندلس .

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقىّ الأندلس ، وسأله المعتمد دخولَ أشبيلية دارَ ملكه ليستريح فيها أياما حتى تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصد قصده ، فأبى عليه وقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان

(١) الحنفاء : فرس حذيفة بن بدر الفزارى ، وكانت مباراته بها سبباً إلى شر كثير بين عبس وذبيان ، وحروب استمرت سنين ، وكان فيها مقتل حذيفة يوم الهباءة . انظر التعليق رقم ٤ ص ٧٨

العدوُّ توجهت وَجهه .

وكان الأدفنش (١) ـ لعنه الله ـ محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ؛ فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر .

وتوجه يوسف المذكور إلى شرقى الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والإصلاحَ بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلَّب على مُرسية يقال له ابن رشيق ، قد تقدّم ذكره فى أخبار ابن عمار (٢) ؛ فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين ، على أن يخرج له ابنُ رشيق عن مُرسية ، ويعوّضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له ، ويوليه فى جهة أشبيلية ولاية ؛ فأجابه ابن رشيق إلى ذلك ؛ وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها .

ولقى يوسف أمير المسلمين ملوكَ الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب غرناطة (٣) ، والمعتصم بن صمادح صاحب المَرِيَّة ، وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية .

[وقعة الزَّلاَّقة]

ثم إنّ يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة ؛ فرأى منهم ما يسرُّه ، فقال للمعتمد على الله : هلمّ ما جئنا له من الجهاد وقصدِ العدو ؛ وجعل يُظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوق إلى مراكش ،

---

(١) هو ألفونس السادس ملك قشتالة .

(٢) لم تخلص إمرة مرسية لواحد بعد خروج ابن عمار عنها ، بل كانت دولة بين أمراء عدة . و نظر ص ١٢٢

(٣) هو ابن باديس عبد الله بن بلكين الصنهاجي .

ويُصغِّر قدر الأندلس ، ويقول فى أكثر أوقاته : «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعتْ دون الوصف ! » وهو فى ذلك كله « يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغاء ! (١) » فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة ، واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس .

وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمدّ ملوكُ الجزيرة يوسفَ والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زُهاء عشرين ألفا ؛ والتقوا هم والعدوُّ بأول بلاد الروم .

وكان الأدفنش - لعنه الله - قد استنفر الصغير والكبير ، ولم يدَعْ فى أقاصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه ، وجاء يجرُّ الشوك والشجر ؛ وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوُّفِ البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيُّب عليهم ؛ فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحدٌ إلا يؤدّى إليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقرَ فى عينه وأقلَّ من أن يحتفل لهم !

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيما هالهم ؛ من كثرة عددٍ ، وجودة سلاحٍ وخيلٍ ، وظهورِ قوة ؛ فقال للمعتمد : ما كنت أظن هذا الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد !

وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يَعظهم ويُذكرهم ؛ فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سُرَّ به يوسف والمسلمون .

---

(١) « يسر حسواً فى ارتغاء » : مثل يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو إنما يقصد النفع لنفسه ؛ كشأن من يؤتى بوعاء من اللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة لايريد غيرها ؛ وهو فى أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة !

وكان ترائيهم يوم الخميس ، وهو الثانى عشر من شهر رمضان ؛ فاختلفت الرسلُ بينهم فى تقرير يوم الزحف ليستعدّ الفريقان : فكان من قول الأدفنش لعنه الله : الجمعة لكم ، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكُتابنا وأكثرُ خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ؛ فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف . وقصد ـ لعنه الله ـ مخادعةَ المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ماقصد ...

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال ، وبنى يوسفُ بن تاشفين الأمرَ على أن الملوك لا تغْدِر ؛ فخرج هو وأصحابه فى ثياب الزينة للصلاة : فأما المعتمد فإنه أَخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكى السلاح ، وقال لأمير المسلمين : صَلِّ فى أصحابك ؛ فهذا يومٌ ما تطيب نفسى فيه ، وها أنا من ورائكم ؛ وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين . فأخذ يوسف وأصحابه فى الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت فى وجوههم الخيل من جهة النصارى ، وحمل الأدفنش ـ لعنه الله ـ فى أصحابه ؛ يظن أنه قد انتهز الفرصة ؛ وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غَناء لم يُشْهَدْ لأحد من قبله ؛ وأخذ المرابطون سلاحهم فاستوَوْا على متون الخيل ، واختلط الفريقان ؛ فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات مالم يكن يحسبه المعتمد ؛ وهزم الله العدوّ ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم فى كل وجه ، ونجا الأدفنش ـ لعنه الله ـ فى تسعة من أصحابه (١) ؛ فكان هذا

---

(١) لم يتفق مؤرخو هذه الوقعة فى تحديد عدد الناجين مع الأدفونش من عسكره ، وإن كانوا مجمعين على أن جيشه قد باد كله ، قادة وجنوداً ، إلا قلة لايكاد يخطئها الإحصاء ؛ وأصيب الأدفونش نفسه فى إحدى ركبتيه إصابة لزمه أثرها مابقى من حياته !

أحد الفتوح المشهورة بالأندلس، أعزّ الله فيه دينه وأعلى كلمته، وقَطَع طمعَ الأدفنش - لعنه الله - عن الجزيرة، بعد أن كان يقدّر أنها فى مِلكه، وأن رءوسها خدم له؛ وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين.

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزّلاقة؛ وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠ (١) ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبهم (٢)؛ فسُرّ بهم أهل الأندلس، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس مازاده طمعا فيها؛ وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التّلاف، من استيلاء النصارى عليها وأخْذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة؛ فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين، أظهر الناسُ إعظامه، ونشأ له الود فى الصدور.

ثم إنه أحب أن يجول فى الأندلس على طريق التفرّج والتنزه، وهو يريد غير ذلك؛ فجال فيها ونال من ذلك ماأَحب، وفى خلال ذلك كله يُظهر إعظام المعتمد وإجلاله، ويقول مصرّحا: إنما نحن فى ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند مايَحدّه.

[بين المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحَظِى عنده واشتد

(١) كذا بالأصل، والمؤرخون جميعا على أن وقعة الزلاقة كانت سنة ٤٧٩، فى منتصف رجب، أو فى أوائل رمضان.

(٢) قالوا: وقد عف يوسف بن تاشفين عن الغنائم فلم يأخذ شيئاً منها يومئذ، وآثر بها ملوك الأندلس!

تقريبُ أمير المسلمين له : أبو يحيي محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المَرِيَّة (١) ؛ وكان المعتصم هذا قديمَ الحسد للمعتمد ، كثير النفاسة عليه ؛ لم يكن فى ملوك الجزيرة من يناويه غيره ، وربما كانت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات قبيحة ، وكان المعتصم يَعيبه فى مجالسه وينال منه ؛ ويمنع المعتمدَ من فعل مثل ذلك مروءُته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته ؛ وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير ، توَّجه إلى شرقى الأندلس يتطوَّف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته ؛ فلما دانى أولَ بلاد المعتصم ، خرج إليه فى وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاء نبيلا ، وعزم عليه ليدخُلَنّ بلاده ؛ فأبى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مُراودة على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد المعتصم وآخرِ حدود بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصْطلحا فى الظاهر ؛ واحتفل المعتصم فى إكرامه ، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعَدّة لمجالس الأنس ما ظنّه مُكْمِداً للمعتمد مُثيراً لغمِّه ؛ وقد أعاذ الله المعتمدَ من ذلك وصان خُلقه الكريم عنه وعَصَمه بفضله منه ؛ ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده فى ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع المعتمد إلى بلاده ؛ وبأثر ذلك عبر إلى مراكش ؛ ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتُحف جليلة ، وتلطَّف فى خدمته حتى قرّبه أمير المسلمين أشدَّ تقريب ؛ وكان يقول لأصحابه : هذان رَجُلا هذه

---

(١) المرية : مدينة على ساحل البحر الرومى ، كانت قاعدة الأسطول الإسلامى ، وكان بها خيران العامرى من ملوك الطوائف ، ثم زهير من بعده ؛ فلما هلك زهير آلت إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ؛ وغلبه عليها غدراً صهره ووزيره معن بن صمادح والد المعتصم المذكور ؛ فاستتب له الأمر بها وأورثها خلفه المعتصم ...

الجزيرة ! يعنى المعتصم والمعتمد ؛ وكان أكبرَ أسباب تقريبِ أمير المسلمين إياه ، ثناءُ المعتمد عليه عند أمير المسلمين ، ووصْفُه إياه عنده بكل فضل ؛ ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وَصفه به .

ولما اشتدّ تمكُّنُ المعتصم من أمير المسلمين ، بدا له أن يسعى فى تغيير قلبه على المعتمد وإفسادِ ما بينهما ـ حسَّن له ذلك سوءُ رأيه ودَنَسُ سريرته وضعف بصره بعواقب الأمور ، وليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وليبلغ القَدَر ميقاته ؛ وإذا أراد الله تمامَ أمرٍ هيَّأ له أسبابا ـ فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ؛ ولم يدر أنه ساقط فى البئر التى حفَر ، وقتيل بالسلاح الذى شهَر [١] ، فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين ، أنْ جعل يُقرر عنده عُجب المعتمد بنفسه ، وفَرْط كِبره ، وأنه لا يرى أحداً كفؤاً له ؛ وزعم أنه قال له فى بعض الأيام ـ وقد قال له المعتصم : طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة ، يعنى أمير المسلمين ـ : « لو عوَجْتُ له إصبعى ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابُه ؛

---

(١) آل أمر المعتصم هذا مع يوسف بن تاشفين إلى مثل ما آل إليه أمر ملوك الطوائف جميعا ؛ فقد اقتحمت عساكر المرابطين بلاده سنة ٤٨٤ ؛ وكان فى الاحتضار ، فتنغصت عليه ساعاته الأخيرة ، إذ كان أكثر القتال تحت مجلسه الذى كان به مضجعه ؛ قالت أروى حظيته : « إنى لعنده وهو يوصى ، وقد غلب على أكثر يده وسلطانه ، ومعسكر أمير المسلمين يومئذ بحيث نعد خيامهم ونسمع اختلاط أصواتهم ، إذ سمع وجبة من وجباتهم ، فقال : لا إله إلا الله ! نغص علينا كل شىء حتى الموت ! ... قالت أروى : فلا أنسى طرفاً إلى يرفعه ، وإنشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه :

ترَفَّقْ بدمعِكَ لا تُفْنه فبين يديكَ بكاءٌ طويل !

وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٨٤ قبل إنزال المعتمد عن عرش أشبيلية ببضعة أشهر ! وكذلك كانت آخرة غيره من ملوك الطوائف : بنى هود بروطة ، وبنى طاهر بمرسية ، وبنى الأفطس بسرقسطة ... ثم كانت آخرة بنى عباد كما سيأتى !

وكأنك تخافُ غائلته ؛ وأيُّ شيءٍ هذا المسكينُ وأصحابه ؟ إنما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السِّعر ، جئنا بهم إلى هذه البلاد نُطعمهم حِسبَةً وائتجارا ، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم ! » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ؛ وأعانه على ذلك قومٌ من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا ماأرادوه من تغيُّر قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد .

وقد كان أمير المسلمين ضرَب لنفسه ولأصحابه أجلا وَحدَّ له ولهم مدةً يقيمونها فى الجزيرة لايزيدون عليها ؛ وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكينا لخاطره ؛ فلما انقضت تلك المدة أو قاربت ، عَبَر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وَغِرَ صدرُه وتغيّرت نفسه .

وما النفس إلا نطفةٌ فى قرارة إذا لم تكدَّر كان صفواً غديرُها

هذا مع ماذكرنا من طمعه فى الجزيرة وتشوُّفِه إلى مملكتها ؛ وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياءُ عَرف بها أنه غُيِّر عليه !

[نكبة بنى عباد]

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيمُ المُقعِد ؛ فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد ، صَغُرت فى عينى مملكتى ؛ فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟ فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجالٍ من صُلَحاء أصحابهم رغِبوا فى الرِّباط بالأندلس ومُجاهدة العدوّ والكَوْنِ ببعض الحصون المصاقِبة للروم إلى أن يموتوا ؛ ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد

بذلك ، فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابنُ الأفطس المتوكل صاحبُ الثغور ؛ وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قومٌ من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمرٌ من قيامٍ بدعوتهم أو إظهارٍ لملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعوانا [١] .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس - كما ذكرنا - قد أُشْرِبَتْ حبَّ يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمَّر عليهم رجلا من قرابته يسمى بُلُجِّين ، وأَسَرَّ إليه ما أراده ، فجاز بُلُجِّينُ المذكور ، وقصد المعتمدَ من ملوك الجزيرة فقال له : أين تأمرني بالكَوْن ؟ فوَّجه معه المعتمد من أصحابه من يُنزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه . وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العُدوة ، دون مقدّمةٍ ظاهرة توجب ذلك ، فتشعّبت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلادُه وقلوبُ أهلها على محبته منتظمة .

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم ، الكائنون في الحصون ، إلى قرطبة ؛ فحاصروها وفيها عبّادُ بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدّم ذكره [٢] ، وهو من أكبر وِلده ؛ فدخلوا البلد ، وقُتل عبادٌ هذا

(١) « الطابور الخامس » في أسبانيا منذ تسعة قرون !

(٢) انظر ص ١٣٠

بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جلداً وصبرا ؛ وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ ؛ فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرّت فى غُلوائها الفتنة .

وأجمعت على الثورة بحضرة أشبيلية طائفة ، فاعلم المعتمدُ بما اعتقدته الطائفة المذكورة ، وكُشف له عن مرادها ، وأُثبت عنده سوء اعتقادها ، وأُغرِى بتمزيق أديمها وسفك دمها ، وحُضّ على هتك حريمها وكشف حُرمها ؛ فأبى له ذلك مجدُه الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله به من حسن اليقين ، وصحةِ العقل والدين ؛ إلى أن أمكنتهم الغرّة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنسروا بُغاثا غير مستنسر ؛ فبرز هو من قصره ، سيفه بيده [1] ، وغلالته ترفّ على جسده ، لا دَرَقة له ولا دِرع عليه ؛ فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى بابَ الفرج ، فارساً من الداخلين مشهورَ النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصيرِ أنابيبِ القناة ، طويلِ شفرة السنان ؛ فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعَصمه الله منه ، ودَفعه بفضله عنه ؛ وصبّ هو سيفه على عاتق الفارس فشقّه إلى أضلاعه فخرّ صريعا ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنّمون للأسوار عنها ؛ وظنّ أهل أشبيلية أنّ الخناق قد تنفّس .

فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظُهر على البلد من واديه ، ويُئس من سُكنى ناديه ، وبلغ فيه الأملَ حاسده وشانيه ، وشَبّت النار فى

---

(١) قالوا : كان فى الحمام حين بلغه النبأ ؛ فخرج للغارة فى قميصه ! ...

شوانيه ، فانقطع عندها الأمل والقول ، وذهبت القوة من أيدى أهلها والحول ؛ وكان الذى ظهر عليها من جهة البر ، رجلٌ من أصحاب يوسف أمير المسلمين يُعرف بجُدَيْر بن واسْنُو ؛ ومن الوادى رجلٌ يعرف بالقائد أبى حمامة مولى بنى سُجُّوت ؛ والتوت الحال أياما يسيرة ، إلى أن ورد الأمير سِيرُ بن أبى بكر بن تاشفين - وهو ابن أخى أمير المسلمين - بعساكر متظاهرة ، وحشودٍ من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبَهم الهلع ، يقطعون السبلَ سباحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتولَّجون مجارىَ الأقذار ، ويترامون من شرفات الأسوار ، حرصا على الحياة ؛ والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الودّ ، ثابتون ؛ إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطامّة الكبرى ، فيه حُمَّ الأمر الواقع ، واتسع الخُرق على الراقع ، ودُخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباديه ، بعد أن جدّ الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا تناهٍ لخلق إليه ؛ وفى ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيرا :

لما تماسكت الدُّموعْ ❊ وتَنَهْنَهَ القلبُ الصَّديعْ

قالوا الخضوعُ سياسةٌ ❊ فلْيَبْدُ منك لهم خُضوع

وألذ من طعم الخضو ❊ ع على فمى السمُّ النَّقيع

إن تستَلِبْ عنى الدُّنَا * مُلكى وُتسْلِمنى الجموع (١)

فالقلبُ بين ضلوعه * لم ُتسلم القلبَ الضلوع

لم اسْتَلبْ شرفَ الطبا * ع أيُسْلبُ الشرفُ الرفيع

قد رُمْتُ يوم نزالهم * ألا ُتحصّنني الدُّروع

وبرزتُ ليس سوى القميـ * ـص عن الحشا شئٌ دفوع

وبذلتُ نفسى كى تَسيلَ * إذا يسيلُ بها النَّجيع

أَجلى تأخّر ، لم يكن * بِهواىَ ذُلى والخُشوع

ما سِرْتُ قطُّ إلى القتا * ل وكان من أملى الرجوع

شِيَمُ الألى أنا منهمو * والأصلُ تتبُعه الفروع !

فشُنَّت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبداً ولا لبداً ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحاً ، وأُخذ هو قبْضاً باليد (٢) وُجبر على مخاطبة ابنيه : المعتدّ بالله ، والراضى بالله ، وكانا بمَعْقِلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحدٌ إليهما ، أحد الحصنين يسمى رُندَة ، والآخر

---

(١) رواية أخرى لهذا البيت :

إن يسلب القوم العدا * ملكى وتسلمنى الجموع

(٢) لما صار المعتمد فى أيدى البربر من أصحاب ابن تاشفين ، وضعوا القيود فى يديه ورجليه . قال الفتح بن خاقان فى القلائد : « ثم جمع هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ماضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا بضفتى الوادى ، وبكوا بدموع كالغوادى ، فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لايعدوهم ... »
وفى ذلك نظم شاعرهم أبو بكر الدانى قصيدته التى أولها :

تبكى السماء بمزنٍ رائحٍ غادِ * على البهاليل من أبناء عبَّادِ

مارْتُلة ؛ فكتب [إليهما] رحمه الله ، وكتبت السيدةُ الكبرى أمهما ، مستعطفَين مسترحمَين ، مُعْلِمَين أن دم الكل منهم مُستركَنٌ بثبوتهما ؛ فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ؛ ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة ؛ فأما المعتدّ بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قُتل غِيلةً واخفى جسده(١).

---

(١) كان المعتد بمارتلة ، والراضى برندة ؛ وقد كان ثباتهما فى المقاومة سبباً للتضييق على أبيهما فى محبسه وإثقاله بالحديد وإعناته بألوان من المشقات لاطاقة له باحتمالها ، حتى اضطره سوء مايلقى إلى الكتابة لهما يدعوهما إلى الاستسلام برا به وعطفا عليه ؛ ويروى الفتح بن خاقان فى القلائد أن ولداً ثالثا للمعتمد – واسمه عبد الجبار – ثار بأركش : معقل كان مجاوراً لأشبيلية ، فسار نحوه الأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين ، فما زال يقاومه أشهراً وهو ممتنع بحصنه ، لايبلغ منه مبلغا . ثم قال صاحب القلائد يصف حال المعتمد حين بلغه ذلك النبأ : إنه « جزع جزعاً مفرطا ، وعلم أنه قد صار فى أنشوطة الشر متورطا ؛ وجعل يتشكى من فعله – يعنى ولده – ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول : عرض بى للمحن ، ورضى لى أن أمتحن ، ووالله ما أبكى إلا انكشاف من أتخلفه بعدى ، ويتحيفه بعدى ... الخ »

وقد لقى هذا الثائر بأركش مصرعه ، كما وجده أخواه المأمون والراضى ؛ ومن قبلهم الظافر فى فتنة ابن عكاشة بقرطبة .

وللمعتمد شعر كثير فى رثاء ولديه المأمون والراضى ، منه :

يقولون صبرٌ ، لا سبيل إلى الصبرِ سأبكى وأبكى ما تطاوَلَ من عمرى
هَوَى الكوكبان الفتح ثم شقيقُه يزيدُ ، فهل بعد الكواكب من صبر
أفتحُ لقد فتَّحتَ لى باب رحمةٍ كما بيزيدَ اللهُ قد زاد فى أجرى
هَوى بكما المقدارُ عنى ولم أَمُتْ وأُدْعى وفيًّا ! قد نكصتُ إلى الغدر=

ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كلّه بُلْغةَ زاد ؛ فركب السفين ، وحلّ بالعدوة محلّ الدفين ؛ فكان نزوله من العُدوة بطنجة ؛ فأقام بها أياما ، ولقيه بها الحصرى الشاعر [١] ، فجرى معه على سوء عادته من قُبح الكُدْية وإفراط الإلحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة قدكان مَدَحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدّها عند وصوله إليه [٢] ؛

= توليتما والسنُّ بعدُ صغيرةٌ ولم تلبث الأيامُ أن صغَّرت قدرى
فلو عُدتما لاخترتما العودَ فى الثرى إذا أنتما أبصرتمانىَ فى الأسر
يُعيد على سمعى الحديدُ نشيدَه ثقيلا ، فتبكى العين بالحِسِّ والنَّقر
معى الأخوات الهالكاتُ عليكما وأمُّكما الثكلَى المضرَّمةُ الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثله وتزجرُها التقوى فتُصغى إلى الزَّجْر
أبا خالدٍ ، أورثتَنى البثَّ خالداً أبا النصرِ ، مُذ ودَّعتَ ودَّعَنى نصرى
وقبلكما ماأودعَ القلبَ حسرةً تجدَّدُ طولَ الدهر ، ثُكْلُ أبى عمرو!

وأبو خالد هو يزيد الراضى ، وأبو النصر هو المأمون ؛ أما أبو عمرو فهو الظافر القتيل بقرطبة فى فتنة ابن عكاشة !

(١) هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الضرير ؛ وهو غير أبى إسحاق الحصرى صاحب زهر الآداب ؛ ولكنه ابن خالته .

(٢) يتعمد المؤلف ــ فيما يبدو ــ الغض من قدر أبى الحسن الحصرى ويسرف فى معابته ، فينسبه إلى الكدية وإفراط الإلحاف ؛ ويصف شعره الذى رفعه إلى المعتمد فى طنجة بالقدم ، للتدليل على جفاء طبعه وفساد ذوقه ؛ على أن صاحب نفح الطيب يروى هذا الخبر على وجه آخر ، فيقول إن الحصرى كان قد ألف للمعتمد كتاب « المستحسن من الأشعار » فلم يقض بوصوله إليه إلا وهو على تلك الحالة .

وقد كان مقام الحصرى فى طنجة ؛ فهو لم يفد على المعتمد ــ وهو فى طريقه إلى منفاه ــ مستجديا كما توهم عبارة المراكشى ؛ بل كان مستقبلا له ، وانتهز فرصة وصوله إلى طنجة ليقدم إليه كتابا ، يضم مدائحه ؛ مضيفا إلى ذلك قصيدة استجدها فى مدحه .

ولم يكن عندالمعتمد فى ذلك اليوم مما زُوِّدَ به فيما بلغنى أكثرُ من ستة وثلاثين مثقالا ، فطَبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلّتها ـ سقطتْ من حفظى ـ ووجّه بها إليه (١) ؛ فلم يجاوبه عن القطعة ، على سهولة الشعر على خاطره وخفّتِه عليه . كان هذا الرجل ـ أعنى الحصرى الأعمى ـ أسرع الناس فى الشعر خاطرا ، إلا أنه كان قليل الجيد منه ؛ فحرّكه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قُل لمن قد جَمَع العلم وما أحصى صَوابَهْ
كان فى الصُّرَّةِ شعرٌ ✲ فتنَظَرْنا جَوابَهْ
قد أَثبْناك فهَلّا ✲ جَلَبَ الشعرُ ثوابَهْ ؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ومُلْحِفى أهلِ الكدية ماصنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى ، تعرّضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ؛ فقال فى ذلك رحمه الله :

شُعراءُ طنجةَ كلُّهم والمغربِ ✲ ذهبوا من الإغراب أبعدَ مذهبِ
سألوا العسيرَ من الأسيرِ وإنه ✲ بسؤالهم لأحقُّ فاعجبْ واعجبِ
لولا الحياءُ وعِزّةٌ لَخْمِيّةٌ ✲ طىَّ الحَشا ساواهمُ فى المطلبِ
قد كان إن سُئل الندى يُجزِلْ وإن ✲ نادى الصريخُ ببابِه اركبْ يَرْكبِ

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

قُبِّحَ الدهرُ فماذا صنعا ✲ كلّما أَعطى نفيساً نَزَعا

(١) رواية المقرى : « فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصرى : ارفع ذلك البساط فخذ ماتحته ، فوالله ما أملك غيره ! فوجد تحته جملة مال فأخذه . »

قد هَوَى ظلما بمن عادَتُه ✲ أن ينادِى كلَّ من يهوى لَعَا !
مَن إذا الغيثُ هَمَى منهمِرا ✲ أخجلتْه كفُّه فانقطعا
مَن غمامُ الجودِ من راحتِه ✲ عصفتْ ريحٌ به فانقشعا
من إذا قيل الخَنَا صُمَّ وإن ✲ نَطق العافُون همساً سَمِعا
قل لمن يطمعُ فى نائِله ✲ قد أزال اليأسُ ذاك الطمَعا
راح لا يملك إلا دعوةً : ✲ جَبَر اللهُ العُفاةَ الضُّيَّعا !

وأقام المعتمد بطنجة ـ رحمه الله ـ أياما على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مِكناسة [١] ، فأقام بها أشهراً ، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات ؛ فأقاموا بها إلى أن توفى المعتمد رحمه الله ، ودفن بها فقبره معروف هناك [٢] وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨٨ فالله أعلم ، وسنُّه يوم تُوفى إحدى وخمسون سنة [٣] .

---

(١) مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، تقع إلى الغرب من فاس ، وبينهما نحو ٣٥ ميلا .

(٢) أغمات : مدينة وراء مراكش ، بينهما مسافة يوم ؛ ولم يزل قبر المعتمد معروفاً بها حتى القرن الحادى عشر الهجرى ؛ وقد زاره المقرى صاحب نفح الطيب سنة ١٠١٠ من الهجرة ؛ قال : فرأيته فى ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب . يعنى لسان الدين ؛ وقد كان زاره قبل ذلك بقرنين وثلث قرن ، ووصفه فقال : وهو بمقبرة أغمات ، فى نشز من الأرض ، قد حفت به سدرة ، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما . قال ابن الخطيب : فأنشدت فى الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ✲ رأيت ذلك من أولى المهمات
لِمْ لا أزورك يا أندى الملوك يداً ✲ ويا سراجَ الليالى المدلهمّات
وأنت من لو تخطّى الدهرُ مصرعَه ✲ إلى حياتى لجادت فيه أبياتى !

الخ ...

(٣) كذا يروى المراكشى ، وأهل التاريخ مختلفون فى تحديد سنه يوم وفاته ؛ بين الحادية

فمن أحسن ما مر بي مما رُثي به المعتمد على الله مقطوعةٌ من شعر ابن اللبانة (١) أولها :

لكلِّ شيءٍ من الأشياءِ ميقاتُ ❊ وللمُنى من مَنَاياهُنَّ غاياتُ
والدهرُ في صِبغة الحرباءِ منغمسٌ ❊ ألوانُ حالاته فيها استحالاتُ
ونحن من لُعَب الشَّطرنج في يدِهِ ❊ ورُبما قُمِرَتْ بالبَيْدقِ الشَّاةُ
فانفض يديكَ من الدنيا وساكنِها ❊ فالأرضُ قد أقفرتْ والناس قد ماتوا
وقُل لعالمِها الأرضيِّ قد كتمتْ ❊ سريرةَ العالم العُلويِّ أَغْماتُ
طَوَتْ مظلَّتَها ، لا بل مذلَّتَها ❊ مَن لم تَزَلْ فوقَه للعزِّ راياتُ
من كان بين النَّدَى والبأسِ ، أنصُله ❊ هِنْدِيَّةٌ وعَطَاياه هُنَيدَاتُ
أنكرْتُ إلا التواءً للقيودِ بهِ ❊ وكيف تُنكر في الرَّوضات حيَّاتُ
وقلتُ هنَّ ذؤاباتٌ فلِمْ عُكستْ ❊ من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثاً نخافوا منه عاديةً ❊ عذَرْتهم فلِعُدوَى الليثِ عاداتُ (٢)

= والخمسين والخامسة والخمسين . وقد ذكر المؤلف (ص ١٠٢) أن المعتمد تولى العرش وعمره ٣٧ سنة ، وأنه بقى على العرش عشرين سنة ؛ وكانت وفاته بعد خلعه بأربع سنوات ؛ فعلى هذا يبلغ عمره عند وفاته إحدى وستين سنة !

(١) هو أبو بكر الدانى محمد بن عيسى بن محمد اللخمى ، من مشاهير شعراء الأندلس فى المائة الخامسة ، وكان منقطعا إلى بنى عباد ، وفيهم أجود مدائحه ومراثيه ، ولهم أبدع مانظم من شعره فى مختلف الفنون ؛ وقد ألف كتابين فى أخبار بنى عباد ، أحدهما « السلوك فى وعظ الملوك » وقد ضمنه عدة مقطعات وقصائد فى البكاء على أيامهم وما انتثر من نظامهم ، والآخر « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » فصل فيه تاريخهم منذ كانوا حتى مضوا ... وله غير هذين كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » . توفى بميورقة سنة ٥٠٧ .

قال عنه ابن الأبار فى التكملة : « وابن اللبانة هذا هو الذى قال أحسن قصائده فى المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، وكتب عن آل عباد من النثر ماحفظه الناس حفظ النثر لنفاسته .

(٢) انظر سائر هذه القصيدة فى قلائد العقيان .

وله قصيدة يرثيهم (١) بها ، وهى كثيرة الجيد ، أولها :

تبكى السَّماءُ بدمعٍ رائحٍ غادى * على البهاليلِ من أبناءِ عبَّاد

على الجبالِ التى هُدَّتْ قواعدُها * وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتاد

والرابياتُ عليها اليانعاتُ ذوَتْ * أنوارُها فغدت فى خَفْضِ أوْهاد

عريسةٌ دخلتْها النائباتُ على * أساودٍ لهمُ فيها وآساد

وكعبةٌ كانت الآمالُ تَعْمُرُها * فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا باد

تلك الرماحُ رِماحُ الخطِّ ثقَّفها * خَطْبُ الزمانِ ثِقافاً غيرَ مُعتاد

والبِيضُ بيضُ الظُّبا فلَّت مَضاربها * أيدى الرَّدَى وثنتْها دونَ إغماد

لما دَنا الوقتُ لم تخْلَفْ له عِدَةٌ * وكلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعاد

كم مِن درارِىٍّ سعد قد هَوتْ ووهت * هُناكَ من دُرَرٍ للمجدِ أفراد

نُورٌ ونَوْرٌ فهذا بعد نعمته * ذَوَى وذاك خَبَا من بعد إيقاد

يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخُذْ * فى ضمِّ رَحْلِك واجمع فضلةَ الزاد

ويا مُؤمِّلَ واديهم ليسكُنَه * خفَّ القطينُ وجفَّ الزرع بالوادى

ضلتْ سبيلُ الندى بابنِ السبيل فسرْ * لغيرِ قصدٍ فما يهْديكَ مِن هادى

وفيها يقول :

نسِيتُ إلا غَداةَ النهرِ كوْنَهمُ * فى المنْشآتِ كأمواتٍ بألحاد

والناسُ قد ملأوا العبْرين واعتبروا * من لؤلؤٍ طافياتٍ فوق أزباد

حُطَّ القناعُ فلم تُسْتَرْ مُخدَّرَةٌ * ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيقَ أبرادِ

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ١٤٢

تفرّقوا جيرةً من بعدِ ما نشئوا * أهلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ
حانَ الوداعُ فضجّتْ كلُّ صارخةٍ * وصارخٍ من مُفدّاةٍ ومن فادى
سارت سفائنُهم والنّوحُ يتبعُها * كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سالَ فى الماءِ من دمعٍ وكم حملت * تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكباد
مَنْ لى بِبكم يا بَنى ماءِ السماءِ إذا * ماءُ السماء أَبَى سُقْياً حشا الصادى[1]

وهى طويلة جدا[2] ، هذا ما اخترت له منها .

[أبو بكر الدانى]

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى[3] ، من أهل مدينة دانية ، وهى على ساحل البحر الرومى ، كان يملكها مجاهد العامرى وابنه علىٌّ الموفق على ما تقدم[4] .

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز ، وكانا شاعرين ، إلا أن عبد العزيز منهما لم يرْضَ الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبا ، وإنما كان من جملة التجار ؛ وأما أبو بكرٍ فرَضِيَه بضاعةً وتخيَّره مكسبا وأكثرَ منه وقَصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ؛ وشعره نبيل المأخذ ، وهو فيه حسن المهْيَع ، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها ، وجودة المعانى ولطافتها ؛ كان منقطعا إلى المعتمد ، معدودا فى جملة شعرائه ؛ لم يَفِدْ عليه إلا آخرَ مدته ؛ فلهذا قل شعره الذى يمدحه به .

---

(١) يشير إلى اتصال نسبهم فى لخم إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، آخر ملوك الحيرة .
(٢) انظر قلائد العقيان ، ونفح الطيب .
(٣) انظر ص ١٤٧ (٤) انظر ص ٧٤

وكان ـ رحمه الله ـ مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه ، قليلَ المعرفة بعلله ، لم يُجِد الخوض فى علومه ، وإنما كان يعتمد فى أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته ؛ يدل على ذلك قوله فى قصيدة له سيرد ماأختاره منها فى موضعه(١) :

مَن كان يُنفِقُ من سَوادِ كتابِه ✻ فأنا الذى من نُورِ قلبى أُنفق

ولما خُلع المعتمد على الله وأُخرج من أشبيلية ، لم يزل أبو بكر هذا يتقلب فى البلاد ، إلى أن لحق بجزيرة مُيُرْقَة (٢) ، وبها مُبَشِّر العامرى المتلقب بالناصر : فحظى عنده وعلَت حالُه معه ، وله فيه قصائد أجاد فيها ماشاء ؛ فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر ، وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها ، صدْرُ البيت غزلٌ وعجزُه مدح ، وهذا لم أسمع به لأحد ؛ وأول القصيدة :

وَضَحَتْ وقد فضَحتْ ضِياءَ النيِّرِ ✻ فكأنما التحفَتْ بِبِشرِ مُبشِّرِ

وتبسمتْ عن جوهرٍ فحسبْتُه ✻ ما قلَّدَتْهُ محامدى من جوهرِ

وتكلمتْ فكأن طِيبَ حديثها ✻ مُتِّعتُ منه بطيب مسك أذفرِ

هزَّتْ بنغْمةِ لفْظها نفسى كما ✻ هُزَّت بذِكراه أعالى المِنبرِ

أذنبتُ واستغفرتُها فجرَتْ على ✻ عاداتِه فى المذنبِ المستغفِرِ

---

(١) ص١٥٢ .

(٢) ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة : هى أكبر جزائر الأندلس فى بحر الروم ، على ساحلها الشرقى ، مصاقبة لقطلونيا وبلنسية ؛ ويسميها الجغرافيون المحدثون : جزائر البليار .

وكان مقدم ابن اللبانة إلى ميورقة فى آخر شعبان سنة ٤٨٩ ـ بعد بضعة أشهر ، أو بضعة عشر شهرا من موت المعتمد بن عباد بأغمات ـ وكان عليها مبشر بن سليمان العامرى ، من موالى المنصور بن أبى عامر ، فمدحه ابن اللبانة بقصيدته التى مطلعها :

مَلِكٌ يَرُوعك فى حلى ريعانِه ✻ راقتْ بِرَوْنَقِهِ صفاتُ زمانه !

جادتْ علىَّ بوصلها فكأنه * جَدْوَى يديه على المُقِلِّ المُقْتِرِ
واثمتُ فاها فاعتقدتُ بأننى * من كفِّه سُوِّغْتُ لَثْمَ الخنصرِ
سمحتْ بتعنيق فقلتُ صنيعةٌ * سمحتْ عُلاه بها فلم تتعذَّر
نَهْدٌ كقسوةِ قلبِه فى مَعركٍ * وَحشاً كلِين طباعِه فى محضَرِ
ومعاطفٌ تحت الذوائب خِلتُها * تحتَ الخوافقِ ما لَه من سَمْهَرى
حَسُنتْ أمامى فى خِمارٍ مثلَ ما * حَسُنَ الكَمِىُّ أمامَه فى مِغفرِ
وتوشَّحتْ فكأنه فى جَوْشَنٍ * قد قام عنبرُه مقام العِثْيَرِ
غمزتْ ببعض قِسِيِّهِ من حاجبٍ * ورَنتْ ببعض سهامه من محجرِ
أَوْمَتْ بمصقولِ اللِّحاظ نخلتُه * يُومى بمصقول الصفيحةِ مُشْهَرِ
وَضعتْ حَشَاياها فُوَيقَ أرائكٍ * وَضْعَ السُّروجِ على الجياد الضُّمَّرِ
من رامةٍ أو رُومةٍ ، لا عِلْمَ لى * أأتتْ عن النُّعمانِ أم عن قَيْصَرِ
بنتُ الملوك فقلْ لِكسرى فارسٍ * تُعزَى وإلاَّ قُلْ لِتُبَّعِ حِميَرِ
عاديتُ فيها غُرَّ قومى فاغتدَوْا * لا أرضهم أرضى ولا هم مَعْشَرى
وكذلك الدنيا عهِدْنا أهلَها * يتعافرون على الشريد الأعفرِ
طافتْ علىَّ بجَمرةٍ من خَمرةٍ * فرأيت مرِّيخاً براحةِ مُشترى
فكأنَّ أُنمُلَها سيوفُ مُبشِّرٍ * وقد اكتستْ عَلقَ النَّجيع الأحمرِ
ملكٌ أزِرَّةُ بُرْدِهِ ضُمَّتْ على * بأسِ الوصىِّ وعزمةِ الإسكندرِ

هذا ما اخترت له منها .

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هَلَّا ثَنَاكَ علىَّ قلبٌ مُشفقُ ✿ فترى فَرَاشاً فى فِراشٍ يُحرَقُ
قد صِرتُ كالرَّمَقِ الذى لا يُرتَجَى ✿ ورَجعتُ كالنفَسِ الذى لا يُلحَقُ
وغَرِقتُ فى دمعى عليك وغَمَّنى ✿ طَرْفى فهل سببٌ به أتعلّقُ
هل خدعةٌ بتحيةٍ مَخفِيَّةٍ ✿ فى جَنْبِ موعدِك الذى لا يَصدُقُ
أنتَ المنيَّةُ والمُنى، فيكَ آستوَى ✿ ظِلُّ الغمامةِ والهجيرُ المُحرِقُ
لكَ قدٌّ ذابلةِ الوَشيجِ ولونُها ✿ لكنْ سِنانُكَ أكحلٌ لا أزرقُ
ويقالُ إنك أيكةٌ حتى إذا ✿ غَنَّيْتَ قيل هو الحمَامُ الأورَقُ
يامن رَشقتُ إلى السُّلوِّ فردَّنى ✿ سَبقتْ جفونُك كلَّ سهمٍ يُرْشَقُ
لوفى يدِى سحرٌ وعندى أخذةٌ ✿ لجعلت قلبَكَ بعضَ حينٍ يَعشَقُ
لِتذوقَ ماقد ذقتُ من ألم الجوى ✿ وترِقَّ لى مما تراه وتُشفِقُ
جَسدى من الأعداء فيك لأنه ✿ لا يستبين لِطرْفِ طَيفٍ يَرْمُقُ
لم يدرِ طيفُك موضعى من مضجعى ✿ فعذرْتُه فى أنه لا يَطرُقُ
جَفَّتْ عليك مَنابتى ومَنابعى ✿ فالدمعُ يَنشَغُ والصَّبابةُ تُورِقُ
وكأنَّ أعلامَ الأميرِ مُبَشِّرٍ ✿ نُشِرَتْ على قلبى فأصبحَ يَخفقُ[1]

---

(١) بعده :

الخيزُرانةُ تَلتظِى فى كفِّه ✿ والتاج فوق جبينه يتألَّقُ
وكأنَّ صَوبَ حَياً وصَعقةَ بارقٍ ✿ ماضمَّ منهُ نديُّهُ والمأزِقُ
متباعدُ الطرفين : جودٌ غافلٌ ✿ عما يحلُّ به، وعزمٌ مطرِقُ
بأسٌ كما جَمدَ الحديدُ وراءه ✿ كَرَمٌ يسيلُ كما يسيل الزِّئبقُ
لا تُعجِبِ الأملاكَ كثرةُ مالِهم ✿ النَّبعُ أصلبُ والأراكةُ أورَقُ
ضِدَّانِ فيه لمعتدٍ ولمعتفٍ ✿ السيف يجمع والعطاءُ يُفرِّقُ

وفيها يقول، يصف لعب الأسطول في يوم المهرجان :

بُشْرَى بيومِ المِهْرَجانِ فإنه ✻ يومٌ عليه من احتفائك رَوْنَقُ

طارت بناتُ الماء فيه وريشُها ✻ ريشُ الغرابِ وغيرُ ذلك شَوْذَقُ(١)

وعلى الخليج كَتيبةٌ جرَّارةٌ ✻ مثلُ الخليجِ كلاهما يَتَدَفَّق

وبنُو الحرُوبِ على الجواري التى ✻ تجري كما تجرى الجيادُ السُّبَّقُ

ملأ الكُماةُ ظهورَها وبُطونَها ✻ فأتت كما يأتى السَّحابُ المُغْدِقُ

خاضتْ غديرَ الماء سابحةً به ✻ فكأنما هى فى سَرابٍ أَيْنُقُ

عَجَباً لها ! ما خِلْتُ قبلَ عِيانِها

أن يَحْمِلَ الأُسْدَ الضَّوارِيَ زَوْرَقُ

هزَّتْ مَجاديفاً إليك كأنها ✻ أهدابُ عَينٍ للرقيب تُحدِّق

وكأنها أقلامُ كاتبِ دولةٍ ✻ فى عَرض قِرطاسٍ تَخُطُّ وتمشق

وله فيها إحسان كثير. وله من قصيدة يتغزل :

فؤادِى مُعَنًّى بالحسان مُعنَّتُ ✻ وكلٌّ مُوَقًّى فى التَّصابِى مُوَقَّتُ

ولى نَفَسٌ يَخْفَى ويَخْفُتُ رِقَّةً ✻ ولكن جسمى منه أخفى وأَخْفَتُ

وبى مَيِّتُ الأعضاء حَيٌّ دلالُه ✻ غرامى به حَيٌّ وصبرِىَ مَيِّتُ

جعلتُ فؤادى جفْنَ صارمِ جَفنِه ✻ فياحرَّ ما يَصْلَى به حِين يُصلَتُ

أَذِلٌّ له فى هجْرِهِ وهو يَنتمى ✻ وأسكُنُ بالشَّكوى له وهو يَسكتُ

وما أَنبَتَ حبلٌ منه إذ كان فى يدِى ✻ لريحانِ رَيعانِ الشبيبة مَنْبت

---

(١) الشوذق : الصقر ، أو الشاهين .

ومن جيد ماله من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أولها :

راق الرَّبيعُ ورَقَّ طبعُ هوائه ✡ فانظر نضارةَ أرضِه وسمائه
واجعل قرينَ الوَرْدِ فيه سلافةً ✡ يَحكى مُشَعْشَعُها مُصعَّدَ مائه
لولا ذُبولُ الوردِ قلتُ بأنه ✡ خدُّ الحبيب عليه صِبْغُ حيائه
هَيهاتَ أين الوردُ من خَدٍّ الذى ✡ لايستحيلُ عليك عَهْدُ وفائه
الوردُ ليس صِفاتُه كصفاتِه ✡ والطيرُ ليس غناؤها كغنائه
يتنفس الإصباحُ والرَّيحانُ من ✡ حركاتِ مَعطَفِهِ وحسنِ رُوَائه
ويجولُ فى الأرواح روْحٌ ماسَرَتْ ✡ رَيَّاهُ من تِلقائه بلقائه
صَرَفَ الهوى جسمى شَبيهَ خيالِه ✡ مِن فرطِ خِفَّته وفرطِ خَفَائه

ومن أحسن ماعلى خاطرى له بيتان يصف بها خالاً ، وهما :

بَدَا على خَدِّهِ خالٌ يُزَيِّنُهُ ✡ فزادنى شَغَفًا فيه إلى شَغفِ
كأنَّ حبَّةَ قلبى عند رؤيته ✡ طارتْ فقال لها : فى الخدِّ منهُ قِفِى !

ولابن اللبانة هذا إحسان كثير ، منعنى من استقصائه خوفُ الإطالة ، وأيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعا لهذا الباب ؛ وإنما يأتى منه فيه ماتدعو إليه ضرورةُ سياق الحديث .

[رجع الحديث إلى أخبار المعتمد]

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله .

وبلغنى أن رجلا رأى فى منامه قبل الكائنة العظمى على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة ، كأن رجلا أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس

بوجهه يُنشدهم رافعا صوته :

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عِيسَهُم * فى ذُرَى مجدِهِمُ حين بَسَقْ

سكت الدهرُ زماناً عنهُمُ * ثم أبكاهم دماً حين نَطَقْ !

فما كان إلا أشهرٌ يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال .

وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات ، أنّ آثرَ حظيّاته وأكرم بناته أُلجِئت إلى أن تستدعى غَزْلاً من الناس تسدُّ بأجرته بعض حالها ، وتُصلح به ماظهر من اختلالها ؛ فادخل عليها فيما أُدخل غزْلٌ لبنت عَريفِ شُرطة أبيها ؛ كان بين يديه يزَعُ الناس يوم بُروزه ، لم يكن يراه إلا ذلك اليوم ؛ واتفق أن السيدة الكبرى أمَّ بنيه اعتلَّت[1]، وكان الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر بمراكش ؛ قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه[2] ؛ فكتب إليه المعتمد راغباً فى علاج السيدة ومطالعةِ أحوالها بنفسه ؛ فكتب إليه الوزير مؤديا حقه ومجيبا له عن رسالته ومُسعفاً له فى طلبته ؛ واتفق أن دعا له فى أثناء الرسالة بطول البقاء ؛ فقال المعتمد فى ذلك :

دَعالى بالبقاء وكيف يَهْوَى * أسيرٌ أن يطول به البقاءُ

أليس الموتُ أرْوَحَ من حياةٍ * يطول على الشقىّ بها الشقاءُ

فمن يكُ مِن هواه لقاءُ حِبٍّ * فإن هوایَ من حتْفى اللقاءُ

---

(١) هى السيدة اعتماد الرميكية ، مولاة رميك .

(٢) هو جد أبي بكر بن زهر السابق ذكره وذكر أبيه فى ص ٨٨ وما بعدها من هذا الكتاب ؛ وقد كان أبو العلاء هذا كما يقول ابن دحية فى كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب — وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه . وقد توفى بقرطبة سنة ٥٢٥

أأرغب أن أعيش أرى بناتى * عوارِىَ قد أضرّ بها الحفاء
خوادمَ بنتِ مَن قد كان أعلى * مراتبه إذا أبدُو النِّداء
وطَرْدُ الناسِ بين يدىْ ممَرِّى * وكفُّهمو إذا غصّ الفِناء
وركْضٌ عن يمينٍ أو شِمالٍ * لنَظْمِ الجيش إن رُفع اللواء
يُعنِّيه أمامٌ أو وراءٌ * إذا اختلّ الأمام أو الوراء
ولكنّ الدعاء إذا دعاه * ضميرٌ خالصٌ نفع الدعاء
جُزِيتَ أبا العلاء جزاءَ بَرٍّ * نوَى بِرًّا وصاحبكَ العلاء
سيُسلِى النفسَ عما فات عِلْمى * بأن الكلَّ يُدرِكه الفناء

وورد عليه أغماتَ، أبو بكر بن اللبانة المتقدمُ الذكر، ملتزِماً عهد الوفاء، قاضياً مايجب عليه من شكر النُّعْمَى؛ فسُرّ المعتمدُ بوروده، فلما أزمع ابن اللبانة على السفر، استنفد المعتمد وُسْعَه ووجّه إليه بعشرين مثقالا وثوبين؛ وكتب إليه معها [١]:

إليكَ النزْرَ من كفِّ الأسيرِ * فإن تقبل تكنْ عينَ الشكُور
تقبَّلْ ما يذوبُ له حياءً * وإن عذرتْه حالاتُ الفقيرِ!
ولا تعْجَبْ لخطْبٍ غضّ منه * أليس الخسفُ مُلتزِمَ البدُور؟
ورَجِّ لجبْرِه عُقْبَى نداه * فكم جبَرتْ يداه مِن كسير
وكم أعلتْ عُلاه من حضيض * وكم حطّت ظُباه مِن أمير

(١) أرسل المعتمد عطيته هذه إلى ابن اللبانة مع ولده شرف الدولة، وهو — على مايصفه ابن اللبانة — أحسن الناس سمتا، وأكثرهم صمتا؛ تخجله اللفظة، وتجرحه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع فى اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين...

وكم من مِنبرٍ حَنَّتْ إليه * أعالى مُرْتقاه، ومِن سرير

زَمانَ تزاحفتْ عن جانبَيْه * جيادُ الخيلِ بالموت المُبير

فقد نظرتْ إليه عيونُ نحْسٍ * مَضَتْ منه بمعدوم النظير

نحوسٌ كُنّ فى عُقبَى سُعودٍ * كذاك تدور أقدارُ القدير

وكم أحْظى رضاه من حَظِيٍّ * وكم شَهَرتْ عُلاه مِن شَهير

زمانَ تنافستْ فى الحظِّ منه * مُلوكٌ قد تجُور على الدُّهور!

بحيث يطير بالأبطالِ ذُعْرٌ * ويُلفَى ثَمَّ أرْجحَ من ثَبير

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه، وصرفه بجملته إليه؛ وكتب مجيباً له عن شعره:

سَقطتَ من الوفاءِ على خبيرٍ * فذَرْنى والذى لك فى ضَميرِى

تركتُ هَواكَ وهو شقيقُ دِينى * لئن شُقَّتْ بُرُودى عن غَدُور

ولا كنتُ الطليقَ من الرَّزايا * لئن أصبحتُ اجحِفُ بالأسير

أَسِيرُ ولا أَصيرُ إلى اغتنامٍ * معاذَ الله مِن سوءِ المصير

إذا ما الشُّكرُ كان وإن تناهى * على نُعمَى فما فضلُ الشَّكور؟

جَذِيمةُ أنتَ والأيامُ خانَتْ * وما أنا مَنْ يقصِّرُ عن قَصير[1]

---

(١) ويروى هذا البيت:

* جذيمة أنت والزباء خانت *

وجذيمة: هو جذيمة بن الأبرش ملك العراق، وهو لخمى موصول النسب بالمعتمد؛ وقصير: هو قصير بن سعد اللخمى الذى يضرب به المثل فيقال: «لأمرما جدع قصير أنفه!».
ولجذيمة وقصير قصة مفصلة فى كتب الأمثال، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت جذيمة هذا ثأراً لأبيها؛ فجدع قصير أنفه وذهب إليها فى دار ملكها يوهمها أن قومه جدعوا أنفه لأن=

أنا أدْرَى بفضلِك مِنك إنى ✡ لبستُ الظِّلَّ منه فى الحَرُور
غنِىُّ النفسِ أنت وإن ألحَّتْ ✡ على كفَّيْكَ حالاتُ الفقيرِ
تُصرِّفُ فى الندَى حِيلَ المعالى ✡ فتَسْمحُ من قليلٍ بالكثير
أحَدِّثُ منك عن نَبْعٍ غريبٍ ✡ تفتّحَ عن جَنى زهرٍ نضير
وأَعْجَبُ منك أنك فى ظلامٍ ✡ وترفعُ للعُفاة مَنارَ نُور
رُوَيْدَكَ سوف توسِعُنى سُرورا ✡ إذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تُحلِّنى رُتَبَ المعالى ✡ غداةَ تحِلُّ فى تلك القصور
تزيد على ابنِ مَرْوانٍ عطاء ✡ بها وأنيفِ ثمَّ على جرير (١)
تأهَّبْ أن تعودَ إلى طُلوعٍ ✡ فليس الخسفُ مُلتزِمَ البُدورِ

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات :

رَدَّ بِرِّى بَغْياً على وبِرًّا ✡ وجفا فاستحقّ لوْماً وشُكرا !
حاط نزْرِى إذْ خافَ تأكيدَ ضُرِّى
فاستحقَّ الجفاءَ إذْ حاط نزرا
فإذا ما طويتُ فى البعضِ حمْداً ✡ عاد لومى فى البعضِ سرًّا وجهرا
يا أبا بكرٍ الغريبَ وفاءً ✡ لا عَدِمْناكَ فى المغاربِ ذُخْراً
أىَّ نفعٍ يُجدِى احتياطُ شفيقٍ ✡ مُتُّ ضرًّا فكيف أرهبُ ضُراً ؟

فأجابه ابن اللبانة رحمه الله :

= إليها ولاءه ؛ فصدقته الزباء ومنحته ثقتها ، فاحتال حتى أمكن قومه منها فقتلوها ثأراً لجذيمة ؛ فكان عمله هذا مثلا من أمثلة الوفاء لمليكه المنكوب ؛ وإلى هذه الصورة من صور الوفاء يشير ابن اللبانة فى هذا البيت . وابن اللبانة ينتسب إلى لخم كذلك !

(١) يعنى عبد الملك بن مروان ، وجريراً الشاعر .

أيها الماجد السَّمَيْدَعُ عُذْراً ☆ صرْ فِيَ البِرَّ إنما كان بِرا
حاشَ لله أن آجيحَ كريماً ☆ يَتَشَكى فقرا وكم سَدَّ فقرا
لا أزيدُ الجفاءَ فيه شُقوقا ☆ غدرَ الدهرُ بى لئن رمتُ غدرا
ليت لى قُوَّةً أوآوى لركن ☆ فترى للوفاء منى سِرا
أنتَ علمتنى السيادةَ حتَّى ☆ ناهضتْ هِمَّتى الكواكبَ قدراً
ربحتْ صفقةٌ أزيلُ بُرودا ☆ عن أديمى بها وألبسُ فخراً
وكفانى كلامُك الرَّطبُ نَيْلاً ☆ كيف أُلفى دُرًّا وأطلب تِبراً !
لم تمُتْ إنما المكارمُ ماتت ☆ لا سَقى الله بعدكَ الأرضَ قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يُكتب على قبره :

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائح الغادى ☆ حقًّا ظفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبَّادِ
بالحِلم بالعلم بالنُّعمَى إذا اتصلت ☆ بالخِصبِ إن أجدبوا بالرِّيِّ للصادى
بالطاعنِ الضارب الرامى إذا اقتتلوا ☆ بالموتِ أحمرَ بالضِّرغامةِ العادى
بالدهرِ فى نِقَمٍ بالبحرِ فى نِعَمٍ ☆ بالبدرِ فى ظُلَمٍ بالصدر فى النادى
نعمْ هو الحقُّ حابانى به قدَرٌ ☆ من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النَّعشِ أعلمُهُ ☆ أن الجبالَ تهادَى فوقَ أعواد
كفاكَ فارفُقْ بما استُودِعتَ من كرم ☆ رَوَّاكَ كلُّ قَطوبِ البرْقِ رَعَّاد
يَبكى أخاه الذى غيَّبْتَ وابِله ☆ تحت الصفيح بدمعٍ رائح غادى
حتى يجودَكَ دمع الطَّلِّ منهمِراً ☆ من أعين الزَّهر لم تبخل بإسعادِ
ولا تزَلْ صلوات اللهِ دائمةً ☆ على دَفينِكَ لا تُحصَى بِتَعداد !

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة ، رشّحه للملك من بعده ، وجعله ولىّ عهدِه ، ولقبه بالمؤيد بنصر الله ؛ فعاقته الفتنةُ عن مراده ، وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده ؛ فما برح بفخر الدولة هذا تغيُّر الأيام بعد الفتنة ، إلى أن أسلم نفسه فى السوق ، وتعلم من الصنائع صنْعة الصُّوّاغ ، فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعرُ أبيه ، فقال فى ذلك :

أَذْكى القلوبَ أَسًى ، أَبكى العيونَ دماً ✲ خطبٌ وجدناك فيه يُشبه العَدَما
أفرادُ عِقْدِ المنى مِنَّا قد انتثرتْ ✲ وعَقْدُ عُرْوتنا الوثقَى قد انفصما
شكاتُنا فيك يافخرَ الهدى عَظُمتْ ✲ والرُّزْءُ يَعظُم فيمن قدرُه عَظُما
طُوِّقتَ من نائباتِ الدهرِ مِخْنقةً ✲ ضاقتْ عليكَ ، وكم طَوَّقْتَنا نِعَما !
وعاد كونُكَ فى دُكّانٍ قارعة ✲ من بَعد ما كنت فى قصرٍ حكى إِرَما
صرَّفتَ فى آلة الصُّوّاغ أَنمُلَةً ✲ لم تدرِ إلا الندى والسيفَ والقلما
يدٌ عهدتُك للتقبيل تبسُطها ✲ فتستقلُّ الثُّريا أن تكون فما
ياصائغاً كانت العَلْيا تُصاغ له ✲ حَلْياً وكان عليه الحلى مُنتظِما
للنَّفخ فى الصُّور هولٌ ماحكاه سوى ✲ هَولٍ رأيناك فيه تنفُخ الفحما
وِددْتُ إذ نظرتْ عينى إليك به ✲ لو أن عينىَ تشكو قبل ذاك عَمَى
ماحَطّك الدهرُ لمَّا حطّ من شرفٍ ✲ ولا تحيَّفَ من أخلاقِك الكرما
لُحْ فى العُلا كوكبا إن لم تلُحْ قمرا ✲ وقُم بها رَبوةً إن لم تقُم عَلَما
واصبر فربَّتما أَحمدتَ عاقبةً ✲ من يلزمِ الصبر يحمَدْ غِبَّ مالزِما
والله لو أنصفتك الشُّهبُ لانكسفت ✲ ولو وفَى لك دمع المُزْنِ لانسجما

بكى حديثَكَ حتى الدرُّ حينَ غدَا ✿ يحكيك رَهطاً وألفاظاً ومبتسما
وروضةالحُسْنِ منأزهارِهاعرِيَت ✿ حُزْناً عليك لأنْ أشبهتها شِيَما
بعد النعيمِ ذَوَى الريحانُ حين رأى ✿ رَيحانَكَ الغضَّ يذْوِى بعد ما نعِما
لم يرحَمِ الدّهرُ فضلا أنت حامِلُهُ ✿ من ليس يرحَمُ ذاك الفضْل لا رُحِما
شقيقُكَ الصُّبحُ إن أضحَى بشارقةٍ ✿ وأنت فى ظُلمةٍ فالصبحُ قد ظلما

فصل

[رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس]

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله، مع ماتعلق بها، وإن كانت مُخرِجة عن الغرض؛ لنَدلَّ بها على ماقدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك؛ وأيضا فليتصل نسقُ الأخبار عن المملكة، أعنى مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين؛ ولوجه ثالث: وهو أن ماآلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة، والضَّعة بعد الرفعة، والقبض بعد البسط، من جملة العبر التى أرَتْناها الأيام، والمواعظ التى تصغِّر الدنيا فى عيون أولى الأفهام (١).

---

(١) أفاض المراكشى فى الفصل السابق ما وسعته الإفاضة فى الحديث عن ابن عباد منذ كان إلى أن طواه ريب الزمان، وفاء بحق الشاعر الملك الذى لم يدفع عنه عز الملك نحس أهل الأدب، فكانت آخرته ما كانت لأنه شاعر لا لأنه ملك!

وأورد المؤلف فيما أورد من أخبار الشاعر الذى لبس التاج فلم يرتفع به على الشعراء بقدر ما ارتفع بشعره على الملوك — أخبار شعراء دولته وسمار ندوته؛ فذكر ابن وهبون، وابن زيدون، وابن عمار، وابن اللبانة، والحصرى؛ ولكنه أغفل شاعراً من شعراء دولته يصفه =

ثم إن يوسف بن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد ؛ إذ كان هو كبشَ كتيبتها ، وعينَ أعيانها ، وواسطةَ نظمها ؛ فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة ، إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها ؛ فأظهروا فى أول إمرتهم من النكاية فى العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدَّق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ؛ فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ؛ ويوسُف بن تاشفين فى ذلك كله يمدّهم فى كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيل إثر الخيل ، ويقول فى كل مجلس من مجالسه : « إنما كان غرضنا فى مِلك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلةَ ملوكهم وإهمالَهم للغزو

= ابن خاقان بأنه « شاعره المتصل به ، المتوصل إلى المنى بسببه » وهو أبو بكر بن عبد الصمد ؛ وقد ظل أبو بكر هذا وفيا للمعتمد إلى آخر لحظة من حياته ، حفيا بذكراه بعد مماته ؛ فلما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد ، وفد أبو بحر بن عبد الصمد إلى أغمات يحج إلى قبره ، كعهده به منذ كان فى قصره ، وفى أسره . قال ابن خاقان : فطاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه ؛ ثم أنشد :

ملكَ الملوكِ أسامعٌ فأنادى أم قد عَدَتْكَ عن السماع عوادى

لما خلَتْ منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنتَ فى الأعياد ...

... أقبلتُ فى هذا الثَّرى لك خاضعاً وتخِذْتُ قبرَك موضعَ الإنشادِ !

قال صاحب القلائد :

« وهى قصيدة أطال إنشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس إليه وأحفلوا ، وبكوا لبكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين البكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقرحوا مآقيهم بفيض شجونهم ؛ وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ... ... »

قلت : وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بأخبار المعتمد ودولته وشعره ومأساته ، نابضة نبض القلب الواجف ، متتابعة تتابع الدمع الواكف ؛ فما هى — فيما يصف الواصف ويروى الراوى — مأساة ملك ، ولكنها مأساة أمة !

وتواكُلهم وتخاذُلهم وإيثارَهم الراحة ؛ وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقَينة تُسمِعه ، ولهو يقطع به أيامه ؛ ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنّها عليهم - يعنى الروم - خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدَّعة ، ولاعلم عندهم برخاء العيش ؛ إنما همُّ أحدهم فرس يَرُوضه ويَستفرِهه ، أوسلاحٌ يستجيده ، أوصريخٌ يُلبِّى دعوته ...» فى أمثال لهذا القول ؛ فبلغ ذلك ملوكَ النصارى ، فيزداد فرَقُهم ، ويقوَى - مما بأيدى المسلمين ، بل مما بأيديهم - بأسُهم .

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرةَ الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شىء منها ، عُدَّ من يومئذ فى جملة الملوك ، واستحق اسم السلطنة ، وتسمَّى هو وأصحابه بالمرابطين ؛ وصار هو وابنُه معدودين فى أكابر الملوك ؛ لأن جزيرة الأندلس هى حاضرة المغرب الأقصى ، وأُم قُراه ، ومعدن الفضائل منه : فعامة الفضلاء من أهل كلِّ شأن منسوبون إليها ، ومعدودون منها ؛ فهى مطلع شموس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقُطب مدارها : أعدل الأقاليم هواء ، وأصفاها جوا ، وأعذبها ماء ، وأعطرها نبتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بُكراً مستعذَبة وآصالا .

أرضٌ يطير فؤادى من قَرارته ❊ شوقاً لها ولمن فيها من الناس
قومٌ جنيت جَنَى وَرْدٍ بذِكرهمُ ❊ فهل بِلُقْياهُمُ أَجنِى جَنَى آسٍ ؟

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولُه ، حتى أشبهت حضرتُه حضرةَ بنى العباس فى صدر دولتهم .

[أعيان الكتاب فى دولة المرابطين]

واجتمع له ولابنه من أعيان الكُتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار ؛ فممن كتب لأمير المسلمين يوسف : كاتبُ المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة ، أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق فى البلاغة ؛ كان على طريقة قدماء الكتاب ، من إيثار جزْل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ماجاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء ؛ رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ماوصفتُه به ، ليس على خاطرى منها شىء [١] .

[وزارة ابن عبدون]

ثم كتب له ، أو لابنه ، بعد أبى بكر هذا ـ الوزيرُ الأجل أبو محمد عبدالمجيد ابن عبدون . قد تقدم من نعْته ما أغنانا عن تكراره هنا [٢] ؛ وكان يكتب قَبْل مَن كتب له منهما ، للأمير سيرِ بن أبى بكر بن تاشفين ، وهو الذى دخل على المعتمد على الله أشبيلية [٣] ؛ فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين ، باستدعاءٍ منه له .

* * *

فمن رسائله عنه إلى أمير المسلمين ، رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شَنْتَرين [٤]

---

(١) ذكره الفتح بن خاقان فى القلائد ، وأورد طائفة من رسائله .

(٢) انظر ص ٧٥ وما بعدها

(٣) انظر ص ١٤١

(٤) مدينة بالأندلس فى الشمال الشرقى من أشبونة ، على الشاطىء الأيمن من نهر تاجه .

أعادها الله ؛ وكان سِيرُ هذا هو الذى تولى فتحها ؛ فكتب عنه أبو محمد كتابا[1]

« أدام الله أمر أمير المسلمين ، وناصرِ الدين ، أبى الحسن على بن يوسف ابن تاشفين ، خافقةً بنُصرة الدين أعلامُه ، نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامُه ، مِن داخل مدينة شَنْتَرِين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ، ويُمنِ نَقيبتك على المسلمين .

« والحمد لله رب العالمين ، حمداً يستغرق الألفاظَ الشارحةَ معناه ، ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه ، لا يردُّ وجهَه نُكوص ، ولا يَحُدُّ كُنْهَه تخصيص ، ولا يَحزِرُه بقبضٍ ولا ببسطٍ مثالٌ ولا تخمين ، ولا تحصُره بخطٍّ ولا بعَقدٍ شِمالٌ ولا يمين ، ولا يسَعُه أمدٌ يحويه ، ولا يقطعه أبدٌ يستوفيه ، ولا يجمعه عددٌ يُحصيه ، إذا سبقتْ هوَاديه ، لحِقتْ تواليه .

« وعلى محمدٍ عبده وأمين وحيه ، الصادع بأمره ونهيه : نظام الأمة ، وإمام الأئمة ، سِر آدم من بنيه ، وفخر العالم ومن فيه - صلاةٌ تامة نقضيها ، وتحية عامة نؤديها ، ترفضُّ ارفضاض الزهر من كمامه ، وتنفضُّ انفضاص المسك من ختامه ؛ فلقد صدع بتوحيده ، وجمعَ على وعده ووعيدِه ، وأوضح الحقَّ وجلاه ، ونصح الخَلقَ وهداه ، إلا من حقت عليه كلمة العذاب ، وسبقت له الشقوةُ فى أم الكتاب .

« وأَظهر العزيزُ عزّت أسماؤه ، وجلّت كبرياؤه - دينَه على جميع الأديان ، على رَغْم من الصلبان ، ووَقمٍ من الأوثان ؛ وأنجز لنا تعالى وعده ،

(١) نقتصر فيما يلى من الرسائل على تحقيق عباراتها وضبط كلها ، دون شرح أو تفسير ، إذ كان فى معاجم اللغة مايغني عن ذلك .

ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده ، وجمع فى هذه الجزيرة شملَ الإسلام بعد انصرامه وانبتاته ، وقطع غِيلَ الإشراك بعد انتصابه وثباته ، وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صياصيهم ، نأخذ بأقدامهم ونواصيهم .

«وكانت قلعةُ شنترين ـ أدام الله أمرَ أميرَ المسلمين ـ من أحصن المعاقل للمشركين ، وأثبت المعاقل على المسلمين : فلم نزل بسعيك الذى اقتفيناه ، وهديك الذى اكتفيناه ، نخضد شوكتها ، وننحتُ أَثلتها ، ونتناولها علَلاً بعد نهل ، ونطاولها عجلا فى مهل ؛ نخرفُ الحينَ بعد الحينِ سراةَ رجالها ، ونتطرّفُ المرةَ بعدَ المرةِ حماةَ أبطالها ، ونخوض غِمار كِفاحهم ، وبحارَ صِفاحهم ، إلى بسط أشباحهم ، وقبْض أرواحهم ، ونُهدى للقنا وصدورِها رءوسهم ، وإلى لظى وسعيرِها نفوسهم ، وننقلهم من الشفار اليمانية ، إلى النار الحامية ، ونرفع بالجِد والتشمير حجابَ كيدهم الغامض ، ونُضعضع باستخارة القديم القديرِ هضابَ أيدِهم الهائض . ولما رأينا هذه القلعة الشريفةَ المناسب فى القلاع ، المنيفةَ المناصبِ على البِقاع ، قد استشرى داؤها ، وأعيا دواؤها ، استخرْنا الله تعالى على صمْدِها ، وضرعْنا إليه فى تسهيل قصْدها ؛ وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا ، وإن كانت فى صيانة ديانته مبذولة ، وعلى المكروه والمحبوب فى ذاته محمولة ؛ فقصدْنا إليها ، وهجمنا هجومَ الردَى عليها ، فى وقت انسدّت فيه أبوابُ السُّبُل ، وأعيتْ أهلَها بحول الله وجوهُ الحِيل ، والدّهرُ قد كشّر عن أنيابه العُصل ، وقام من الوُحول والسّيول على أثبت رِجل ؛ فنزلنا بساحة القوم ، فساء صباحُهم ذلك اليوم ؛ فلم نزل

نُصاولهم مصاولةَ المحتسِب المؤتجر ، ونُطاولهم مطاولة المرتقِب لأمر الله المنتظر ؛ ونشنّ الغارات ، على جميع الجهات ؛ فترِدُ جيوشُنا عليهم خفافا وتصدر إلينا ثِقالا ، فتملأ صدور الأعداء أَوجالا ، وأيدى الأولياء أموالا ؛ وأمرْنا بإقامة سوق سَبيهم وأموالهم ، على مرأى ومَسمع من نسائهم ورجالهم ؛ فازدادت ريحُهم بذلك رُكوداً ؛ ونارُهم خموداً .

« ولما ضمَّهم لِضيقِ ولاجِه الحصار ، وغشيهم بتفريق أمواجِه البوار ، وأحاط بهم البلاء ، واستشاط عليهم بغضبِ الجبارِ القضاء ، ولم يكن للنَّيْلِ بأسائهم سَحَرٌ يُتأمَّل ، ولا لِوِرْدِ ضرَّائهم صَدَرٌ يُؤمَّل ، اختاروا الدَّنيةَ على المنيَّة ، ورَضُوا بالاستسلام للعبودية ، وإسلام الأهل والذُّرية ، والسلامة من مدارج الكفَن ، وموالج الجَنن ، ولو بجُرْيعةِ الذَّقَن ؛ وكان القتل كما قدّمنا قد أتى على صِيدِ أعيانهم ، وصَناديدِ فُرسانهم ، فلم تبْقَ إلا شِرذِمةٌ قليلة ، وعُصبةٌ ذليلة ، لا تُضرّ حياتهم موحِّدا ، ولا تسر نجاتهم مُلحدا ؛ نقلناهم من يمينِ المنون ، إلى شِمال الهُون ؛ ومن أَليم الحِصار ، إلى أثيم الإسار ؛ وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم ، بعد أن قدموا من الخضوع صدقةً بين يدَىْ نجواهم ، ووهبنا أولاهم لأخراهم ، وجعلنا العفوَ عنهم تطريقاً لسواهم ، ممن يتقيَّلُ صنيعَهم إذا نحن غداً بإذن الله حاصرناهم .

« وهذه القلعة التى انتهينا إلى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحبُ المدن أمداً للعيون ، وأخصبُها بلداً فى السنين ، لا يَريمُها الخِصبُ ولا يتخطاها ، ولا يَرُومها الجدبُ ولا يتعاطاها ؛ فروعُها فوق الثريا شامخة ، وعُروقها تحت الثَّرى راسخة ، تُباهي بأزهارها نجومَ السَّما ، وتُناجى بأسرارها

أُذنَ الجوزَا ؛ مواقع القِطار فى سواها مُغبرَّةٌ مُربدّه ، وهى زاهرةٌ ترِفُّ أنداؤها ؛ ومطالع الأنوار فى حشاها مقشعِرّةٌ مسودّة ، وهى ناضرة تشِفُّ أضواؤها ؛ وكانت فى الزمن الغابر ، أَعْيَتْ على عظيم القياصِر ، فنازلها بأكثر من القَطْر عددا ، وحاولها بأوفر من البحر مَددا ؛ فأبتْ على طاعته كل الإبا ، واستعصتْ على استطاعته أشدَّ الاستعصا ، ومَرَدتْ مُرودَ ماردٍ على الزَّبّا . فأمكننا اللهُ تعالى من ذِروَتها ، وأنزل رُكابها لنا عن صَهْوتها » .

* * *

ومن رسائله الإخوانياتِ رسالةٌ كتب بها إلى أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال يخطب مودّتَه ، ويستدعى من إخائه جِدَتَه :

« أنا مع عمادى الأعظم ـ أدام الله علوه ـ كعزيبٍ طواه الجهْد ، وآواه من تِهامةَ وَهْد ، وماله بريحها العقيم ولا بحَرّها المُقعِد المقيمِ عهْد ؛ فرفضت به من سرابها المغرِق وشرابها المُحرِق فى حمّام (١) ، فأشرفَ من ذلك الجحيم وضرَمِه ، لولا تنفيسُ الرحيم عنه بكرَمِه ؛ فوألَ إلى ربوة من رُباها ، وسأل جبالَ فاران عن مَهبِّ صَباها ؛ ليلتقط من أنفاسها بوساطة نجْد ، بَرْداً يُهديه إلى حرِّ الوجد ؛ فحيّته ببليل ، من نسيمها العليل ، فأحيتْه بعد التعليل .

« وأنا ماقصدتُ فيما خطبت به إليك لآخُذَ عليك بفضل الابتدا ، وإنما

---

(١) فرفضت به من سرابها ... الخ : كذا بالأصل ؛ ويرى دوزى أن صوابها « فرقصت ... » كما فى ريحان الألباب .

سلكتُ سبيلَ الاقتدا ، واتّبعت دليل الاهتدا ؛ وأردت أن أستنير بأضوائك ، وأستثير من سمائك ، نجوما تهدينى فى غسق الظلام ، أو رُجوما تعدينى على مُسترِق سمعِ الكلام ؛ فإن سمح عمادى بالجواب ورَجْعِه ، غالبتُ - بما حصل منه لدىّ ووصل إلىّ - الحمَامَ فى سَجْعه ، والأنصارَ فى حسّانها ، والإعصار فى نَيسانِها ، وطيّئاً فى وَليدها وحبيبها ، وسعداً فى خالدِها وشبيبها ؛ وخرقتُ - بما أعار من مِراحٍ وأثار من ارتياح - جيبَ مُخارِقٍ طرَبا ، ولم أَدَع لأبى العتاهية فى المغرب وخفيفه المطرب أرَبا ، وطويت كشحاً عن أغاريد عَبيد ، وأضربت صفحا عن أناشيد لَبيد ، وطالبت بُلغاءَ العصر ، بالمثل المضروب فى جمل مِصر ، وقلت هذه القارَةُ فرامُوها وأنصِفوا ، وهذه الغاية فرُوموها أو نصِّفوا ، وإن كانت تُؤْمُه البواهرُ ما أُنجِلتْ فى دَرْجى . ونجومُه الزواهرُ ماحلَّتْ فى بُرجى ؛ وإن كفّنى من جَنى ثمارِه لِصفْر ، وإن طَرْفى من سَنا أقمارِها لقفْر ، وإنى بضَنِّه علىَّ بدُرّةٍ من بحره ، أو نفْثة من سِحره ، لبين ظَنَّيْن ، لم أحصل من تحقيقهما على أثرٍ ولا عين : أحدُهما قلت إنه أجْرَى اسمى على خَلدِه ، فلم يجدنى فى أندادِه ولا بَلده ، فقال : وما أنا وفلان ، وهل هو إلا من الغرْب ، وإن كان بزعمه فى الصميم من العُرْب ، وهل الغربُ فى الأقطار ، إلا كاللَّحق بين الأسطار ؛ والآخر ربما يقول ، مالا تقبله العقول : إنى لأنظر من فلانٍ بأحدَّ من نظر الزّرقا ، إلى أجلّ من خطرِ العنقا ؛ وينشد قول أبى العلاء ابن سليمان ، شاعر معرة النعمان :

* أرى العنقاء تكبر أن تُصادا *

«وأنا أُقسم بالربيع المُمطر وائتلاف أوانه ، والبقيع المُزهر واختلاف ألوانه ، والشباب ودولته ، والمِضراب وصولته ، والمثانى إذا نُسقت ، والقنانى وما وَسقتْ ، وإن أقسمت من بعضها بيمين ، لا أتلقّى رايتها بشمال ولا يمين - أن اسمى فى البلغاء والفهما ، كاسم العنقاء فى الأسْما : اسمٌ ماوقع على مُسمًّى ، ولفظٌ مادلّ على معنًى : فأين أقع مما تريد ، وكتابى بين يدى حمدى أو عتابى بريد ، ينفُضُ تهائم ظنونى ، أو ينقُض تمائم جنونى ؛ وله الرأى العالى فى الجواب ، على خطإٍ كنت من ظنى أو صواب ، إن شاء الله عز وجل .

« ومن سلامى ، على عمادى الأعظم وإمامى ، أحفَله وأحفَده ، وأجزلُه وأوْفَدُه ؛ والسلام الأتم الأعم عليه ورحمةُ الله وبركاته . »

* * *

فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يُكتب مثلُها فى بابها ، أبدع فيها غاية الإبداع ، وإن كان فيها بعض تكلُّف ، تسمى هذه الرسالة « الحولية » منعنى من إيرادها فى هذا المرسوم مافيها من الطول .

ولأبى محمد عبد المجيد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار شهرة الأمثال ، وسار ذكره فيها سير الجنوب والشَّمال .

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف - كما ذكرنا - فى إيثار الغزو ، وقمع ملوك الروم ، والحرص على مايعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس ، إلى أن توفى فى شهور سنة ٤٩٣ (١) .

(١) كذا فى الأصل ؛ وسائر المؤرخين على أن وفاته كانت سنة ٥٠٠ .

[ولاية أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين]

وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه « المرابطين » ، فجرى على سَنَن أبيه فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ؛ وكان حَسَن السيرة ، جيّد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ؛ كان إلى أنْ يُعَدّ فى الزهاد والمتبتلين أقرب مِنه إلى أن يُعَدّ فى الملوك والمتغلّبين ؛ واشتد إيثارُه لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ؛ فكان إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يَعْهَدُ إليه ألا يقطع أمراً ولا يبتّ حكومةً فى صغيرٍ من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمورُ المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامُهم صغيرُها وكبيرُها موقوفةٌ عليهم ، طول مدته ؛ فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوهُ الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم ؛ وفى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنّى ، من أهل مدينة جَيّان من جزيرة الأندلس [١] :

أَهْلَ الرياءِ لبستُمو ناموسَكُم * كالذئب أدلج فى الظلام العاتمِ

فملكتُمو الدنيا بمذهبِ مالكٍ * وقسمتمو الأموال بابن القاسمِ [٢]

وركبتمو شُهْبَ الدوابِ بأشهبٍ * وبأصْبغٍ [٢] صبغتْ لكم فى العالم

---

(١) ذكره الفتح بن خاقان فى القلائد والمطمح .

(٢) من مشاهير علماء المالكية .

وإنما عرّض أبو جعفر هذا فى هذه الأبيات بالقاضى أبى عبد الله محمد بن حمدين قاضى قرطبة ، وهو كان المقصود بهذه الأبيات ؛ ثم هجاه بعد هذا صريحا بأبيات أولها :

أدَجّالُ هذا أوانُ الخروج ☆ ويا شمسُ لُوحِى من المغربِ
يُريدُ ابنُ حَمْدِينَ أن يَعْتَفِى ☆ وجَدْوَاه أنأى من الكوكب
إذا سُئِلَ العُرْفَ حكَّ آسْتَهُ ☆ ليُثْبِتَ دَعْوَاهُ فى تَغْلِبِ (١)

فى أمثال لهذه الأبيات ، وكان القاضى أبو عبد الله بن حمدين ينتسب إلى تغلب ابنة وائل .

☆ ☆ ☆

ولم يكن يَقرب من أمير المسلمين ويَحْظى عنده إلا من عَلِم عِلم الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنَفقت فى ذلك الزمان كُتب المذهب وعُمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسى النظر فى كتاب الله وحديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يكن أحدٌ من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كلّ من ظهر منه الخوض فى شيءٍ من علوم الكلام ؛ وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيحَ علم الكلام وكراهةَ السلف له وهجْرَهم مَن ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة فى الدين وربما أدّى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، فى أشباهٍ لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسه بُغض علم الكلام وأهله ، فكان يُكتب عنه فى كل

(١) يشير إلى قول الشاعر :

والتَّغْلِبىُّ إذا تَنَحْنَحَ لِلقِرَى ☆ حكَّ آسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأمثالا !

وقت إلى البلاد بالتشديد فى نَبْذ الخوض فى شىء منه ، وتَوَعّد من وُجد عنده شىء من كُتبه ؛ ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفْك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شىء منها ؛ واشتدّ الأمر فى ذلك .

[أعيان الكتاب فى عهد أبى الحسن]

ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرَف عنايته إلى ذلك ؛ حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك ، كأبى القاسم ابن الجدّ المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكر محمد ابن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنَة ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفا ؛ فى جماعة يكثر ذكرهم .

* * *

وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه : أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحُقّ له ذلك ؛ إذ هو آخر الكُتّاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب ، واليد الطولى .

فمما أختاره له رحمه الله ، فصولٌ من رسالة كتب بها مُراجعا لبعض إخوانه ، عن رسالةٍ وردتْ عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ؛ وهذا الرجل صاحبُ الرسالة هو أبو الحسن علىّ بن بسام صاحب كتاب الذخيرة :

« وصل من السيد المسترِقّ ؛ والمالك المستحِقّ ـ وَصَل الله إنعامه لديه ،

كما قصر الفضل عليه – كتابةُ البليغ ، واستدراجه المُريغ ؛ فلولا أن يَصْلد زَنْدُ اقتداحه ، ويَرْقُدَ طرفُ افتتاحه ، وتنقبضَ يدُ انبساطه ، وتغبَنَ صفقةُ اغتباطه – لَلَزِمْتُ معه مركزَ قدرى ، ولُصِمتُ سريرةَ صدْرى ؛ لكنه بنفثات سحره يُسمع الصُّمّ ، ويستنزلُ العُصم ، ويقتاد الصعبَ فيُصْحب ، ويستدرّ الصخورَ فتُحْلَب .

«ولما فجأنى ابتداؤه ، وقرع سمعى نداؤه ، فرغت إلى الفكر ، وخفق القلبُ بين الأمن والحذر ، فطاردتُ من الفِقَر أوابدَ قفر ، وشواردَ عفر ، تُغبّر فى وجه سائقها ، ولا يتوجه اللحاق لوجيها ولاحقها ؛ فعلمت أنها الإهابة والمهابة ، والإصابة والاستِرابه ، حتى أيأستنى الخواطر ، وأخلفتنى المواطر ؛ إلا زِبْرجاً يُعْقِب جوادا ، وبَهْرَجاً لا يحتمل انتقادا ؛ وأنَّى لمثلى والقريحة مُرْجاة ، والبضاعةُ مُزْجاة – ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب ؛ ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قِدْح ، ولا تحصَّلَ لى فى سوقه ربح ؛ لكنه جوٌّ خال ، ومضمارُ جُهَّال ؛ وهى حكمة الله فى الخلق ، وقسمته للرزق ؛ وأنا – أعزك الله – أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النُّتَفِ الأخيرة ، وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ؛ وأنا أخشى القَدْحَ فى اختيارك ، والإخلال بمختارِك ؛ وعلى ذلك فوالله ما من عادتى أن اثبت ما أكتب فى رسم يُنْقل ، ولا فى وضع المراتب عندنا مخاطَب يُتحفَّزُ له ويُحتفَل ؛ وإنما هو عفْوُ فِكر ، ويسيرُ ذِكر .

«وعذراً – أعزك الله – فإنى خططت ما خططته والنوم مُغازِل ، والقُرُّ مُنازِل ،

والريح تلعب بالسِّراج ، وتصول عليه صولةَ الحجَّاج ، فطورا تُسدِّده سِنانا ، وتارة تُحرِّكه لسانا ؛ وآونة تطويه حُبابة ، وأخرى تنشره ذُؤابة ؛ وتُقيمه إبْرة لهَب ، وتعطفه بُرّةَ ذهب ، أو حُمَةَ عقْرَب ؛ وتُقوِّسه حاجبَ فتاة ، ذاتَ غمزات ، وتُسلِّطه على سليطه ، وتُزيله عن خليطِه ؛ وتخْلعُه نجْما ، وتمدّه رجْماً ؛ وتسلّ روحه من ذُبالهِ ، وتُعيده إلى حاله ؛ وربما نصبتْه اذُنَ جواد ، ومسختْه حدقَ جراد ؛ ومشقتْه حُروفاً برقّ ، بكفٍّ ودقّ ؛ ولثمتْ بِسناهُ قِنديله ، وألقتْ على أعطافه مِنديله ؛ فلا حظّ منه للعين ، ولا هداية في الطِّرس لليدين ؛ والليلُ زنجيٌّ الأديم ، تِبريُّ النجوم ؛ قد جلَّلنا ساجُه ، وأغرقتْنا أمواجُه ؛ فلا مجالَ لِلحْظ ، ولا تعارُف إلا بلفْظ ؛ لو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلتْ ، أو خُضبتْ به الشَّيبةُ لما نصلتْ ؛ والكلبُ قد صافح خيْشومُه ذَنَبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبه ؛ والتوى التواءَ الحُباب ، واستدار استدارةَ الحَباب ؛ وجلده الجليد ، وصعّد أنفاسه الصَّعيد ؛ فحماه مُباح ، ولا هرِير ولا نُباح ؛ والنار كالرَّحيق ، أو كالصديق ؛ كلاهما عنقاءُ مُغرِب ، أو نجم مغرب . استوى الفصْل ، ولك في الإغضاءِ الفضْل ؛ والسلام . »

* * *

ولأبي عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس ، قد جعلوه مثالا يحتذونه ، ونصبوه إماما يقتفونه ؛ منعني من إيراد ما أختار له من ذلك ، خوْفُ الخروج إلى التطويل المملّ ، والإكثارِ المخلّ .

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه كاتبين لأمير المسلمين ، إلى أن أخر أميرُ المسلمين أبا مروان عن الكتابة ، لموجِدةٍ كانت منه عليه ؛ سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بَلَنْسِيَة ، حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير ـ لعنه الله ـ هزيمةً قبيحة ، وقَتَل منهم مَقْتَلةً عظيمة ؛ فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة فى ذلك ؛ وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسنَ فيها ما شاء ، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول ؛ وكتب أبو مروان رسالة فى ذلك الغرض ، أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله :

«أىْ بنى اللئيمة ، وأعيارَ الهزيمة ، إلام يزِّيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ؛ لقد آن أن نُوسعكم عقابا ، وألا تَلوثوا على وجه نقابا [1] ؛ وأن نُعيدكم إلى صحرائكم ، ونُطهر الجزيرة من رحضائكم . . » .

فى أمثالٍ لهذا القول ؛ فأحنق ذلك أميرَ المسلمين وأخَّره عن كتابته ، وقال لأبى عبد الله أخيه : كنا فى شك من بُغض أبى مروان المرابطين ، والآن قد صح عندنا : فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش ؛ وأقام هو بقرطبة إلى أن استُشهد فى داره ـ رحمه الله ـ أولَ الفتنة الكائنة على المرابطين .

---

(١) يعنى ألا يضعوا لثاما على وجوههم ؛ واللثام شعار لمتونة ، وبه يسمون « الملثمين » ، كما يسمون « المرابطين » .

[اختلال أحوال المرابطين]

واختلت حالُ أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة [١] اختلالا شديدا ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ؛ وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ؛ وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ؛ فصار كلٌّ منهم يصرّح بأنه خير من عليٍّ أميرِ المسلمين ، وأحقُّ بالأمر منه !

واستولى النساء على الأحوال ، وأُسندت إليهن الأمور ، وصارت كلُّ امرأة من أكابر لمتونة ومسّوفة مشتملةً على كل مفسدٍ وشِرّيرٍ وقاطع سبيل وصاحب خمرٍ وماخور ؛ وأميرُ المسلمين فى ذلك كله يتزيّد تغافله ، ويقوى ضعفُه ؛ وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ؛ وعكف على العبادة والتبتُّل ؛ فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ؛ وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ؛ فاختلّ لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأول ، لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسُّوس .

---

(١) ذكرنا من قبل (انظر التعليق رقم ١ ص ١٧٠) أن وفاة يوسف بن تاشفين وولاية ابنه أبى الحسن ، كانت سنة ٥٠٠ خلافا لما يذكره المراكشى ؛ وعلى هذا فلا بد من تصحيح هذا التاريخ كذلك .

ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى

[وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس]

ولما كانت سنة ٥١٥ (١) قام بسوس محمد بن عبد الله بن تُومَرْت فى صورةِ آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر .

ومحمد هذا رجلٌ من أهلِ سُوس (٢) ، مَولده بها بضَيعة منها تُعرف بإيجِلِي أَنْ وارْغن ، وهو من قبيلة تسمى هَرْغَة ، من قوم يعرفون بإيسَرغِينَنْ ، وهم الشُّرفاء بلسان المصامدة ؛ ولمحمد بن تومرت نسبةٌ متصلة بالحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وُجِدتْ بخطِّه (٣) ؛ وكان قد رحل إلى المشرق فى شهور سنة ٥٠١ (٤) فى طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، ولقى أبا بكر الشاشى فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين (٥) ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدِّثين ، وقيل إنه لقى أبا حامد الغزالى بالشام أيام تزهُّده ؛ فالله أعلم (٦) .

وحُكى أنه ذُكر للغزالى ما فَعل أميرُ المسلمين بكتبه التى وصلتْ إلى

---

(١) ذكر ابن خلكان أن أول ظهوره وقيامه بالدعوة سنة ٥١٤ .

(٢) جبل السوس : فى أقصى المغرب .

(٣) هو — كما نقله ابن خلكان — محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام ابن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ...

(٤) كان عمره فى ذلك التاريخ ست عشرة سنة .

(٥) أصول الدين : علم الكلام .

(٦) روى ابن خلكان أنه لقى الغزالى ، والكيا الهراسى ، والطرطوشى ، وغيرهم .

المغرب ، من إحراقها وإفسادها (١) ، وابنُ تومرتَ حاضرٌ ذلك المجلس ؛ فقال الغزالى حين بلغه ذلك : « ليذهبنّ عن قليل مُلكه ، وليُقتلنّ ولدُه ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسَنا ! » وكان ابنُ تومرت يحدّث نفسه بالقيام عليهم ؛ فقوى طمعُه .

وكرّ راجعاً إلى الإسكندرية ، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبى بكر الطُّرْطوشىّ الفقيه ؛ وجرت له بها وقائعُ فى معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أفضتْ إلى أن نفاه مُتولى الإسكندرية عن البلاد (٢) ؛ فركب البحر ؛ فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهلُ السفينة فى البحر ؛ فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يُصِبْه شىء ؛ فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعَظُم فى صدورهم ؛ ولم يزالوا مُكرِمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بِجَاية (٣) ، فأظهر بها تدريس العلم والوعظ ؛ واجتمع عليه الناس ،

(١) انظر ص ١٧٣ من هذا الكتاب .

(٢) كان مروره بالإسكندرية فى عهد الآمر بن المستعلى من خلفاء العبيديين . وقد حكى ابن خلكان أنه قبل مقدمه إلى الإسكندرية ، كان قد ناله بمكة شىء من المكروه ، لشدته فى الإنكار على الناس لما يخالف الشرع ؛ فكان ذلك سبب خروجه من مكة إلى مصر ، ثم كان إبعاده عن الإسكندرية ...

(٣) رواية ابن خلكان أنه نزل أولا « المهدية » . وكان وصوله إليها أيام ولاية الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الحميرى الصنهاجى صاحب أفريقية لذلك العهد ، فنزل من المهدية فى مسجد من مساجدها ، فاجتمع إليه جماعة من أهل المدينة ، وأقرأهم كتابا فى علم أصول الدين ، وشرع فى تغيير المنكر ؛ فرفع أمره إلى الأمير يحيى بن تميم ، فأحضره وجماعة من الفقهاء ، فرأى ما هو عليه من الخشوع والتقشف والعلم ، فسأله الدعاء ، فقال له ابن تومرت : « أصلحك الله لرعيتك ونفع بها ذريتك ! » .

ومالت إليـه القلوب ؛ فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته ؛ فخرج منها متوجهاً إلى المغرب ؛ فنزل بضيعة يقال لها ملالة ، على فرسخ من بجاية ؛ وبها لقيه عبد المؤمن بن على ، وهو إذ ذاك متوجه إلى المشرق فى طلب العلم ؛ فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التى كانت عنده ؛ وكان ابن تومرت هـذا أَوْحَدَ عصره فى عِلم خـط الرَّمْل ، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحِمَ من عمـل المنجـمين وجُفورٍ من بعض خزائن خلفاء بنى العباس ؛ أوصله إلى ذلك كلـه فرُط اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدّث به نفسه (١) .

=وأقام بعد ذلك بالمهدية أياما ، ثم ارتحل عنها إلى المنستير ، (على وزن عصيفير) فأقام بها مدة ، ثم انتقل إلى بجاية ...

وروى ابن خلكان فى موضع آخر : أنه لما وصل المهدية ، نزل فى مسجد مغلق ، وجلس منه فى طاق مشرف على الطريق العام ، ينظر إلى المارة ، فلا يرى منكرا من آلة الملاهى أو أوانى الخمر إلا نزل إليها وكسرها ، فتسامع الناس به فى البلد ، فجاءوا إليه ...

وأقام فى بجاية مدة وهو على حاله فى الإنكار ، فأخرج منها ...

(١) روى ابن خلكان أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو إلى الله ، ويكون مقامه ومدفنه بموضع من الغرب ، هجاء اسمه ت ى ن م ل ل ، ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه ، يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ؛ فأوقع الله – سبحانه وتعالى – فى نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ؛ فما كان ابن تومرت يمر بموضع إلا ويسأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته – وكانت حلية عبد المؤمن معه – فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده ، على الصفة التى معه ، فقال له وقد تجاوزه : ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ؛ فرجع إليه وقال له : الله أكبر ! أنت بغيتى . ونظر فى حليته فوافقت ما عنده ...

والجفر فى اللغة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليه ؛ فزعم الروافض أن الإمام جعفراً الصادق قد كتب لهم فى جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون إليه وكل ما هو كائن أو سيكون إلى يوم القيامة ...

وحديث الجفور طويل فى بعض كتب الشيعة ومن يعارضهم من أهل الجماعة .

وبلغني من طرق صِحاح أنه لما نزل ملالة ـ الضيعةَ التي تقدم ذكرها ـ سُمع وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها ، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولامان (١) ؛ فكان ـ كما ذكرنا ـ إذا كررها يقول : ليست هي !

وأقام بهذه الضيعة أشهرا ، وبها مسجد يعرف به ، وهو باق إلى اليوم ، لا أدري أبُني على عهده أو بعده .

... فاستدعى عبدَ المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمَّى له وانتسب (٢) ؛ وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل في طلب العلم إلى المشرق ؛ فقال له ابن تومرت : أوَ خيرٌ من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة : تصحبني وتُعينني على ما أنا بصدده ، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراده .

وأقام ابن تومرت بملالة أشهرا ، ثم رحل عنها ، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد ، يعرفه المصامدةُ بعبد الواحد الشرقي (٣) ، وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن ؛ وخرج متوجِّهاً إلى المغرب .

(١) هو تينمل (بلام مشددة) كما سيأتي ؛ وانظر التعليق السابق ص ١٨٠

(٢) رواية ابن الأثير أن ابن تومرت سأله عن اسمه وقبيلته ، فأخبره أنه من قيس عيلان ، ثم من بني سليم ؛ فقال ابن تومرت : هذا الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : «إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس . فقيل : من أي قيس ؟ فقال : من بني سليم» .

(٣) نظنه يعني أبا عبدالله الونشريسي ، كما ذكر ابن الأثير ، أو أبا عبدالله التومرتي كما يسميه ابن كثير ؛ ويذكره ابن خلكان باسم عبدالله الونشريسي بلا كنية ؛ وأولئك جميعا فيما نرى ـ شخص واحد ، اسمه عبدالواحد ، وكنيته أبوعبدالله ، وينتسب إلى « ونشريس » : بليدة بأفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينية المغرب ، إلى الشرق من جبل المصامدة ، فهو الشرقي ، والونشريسي ، والتومرتي ، من أجل ذلك جميعا .

وقيل إنه (١) إنما لقى عبدالمؤمن بموضع يعرف بفَنزارَةَ من بلاد مَتّيجة ، وعبدُ المؤمن يعلّم صبيان القرية المذكورة ؛ فسأله ابنُ تومرت صُحبتَه والقراءةَ عليه وإعانته ، بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم

وبهذه القرية له حكايةٌ طريفة ؛ وذلك أنه (٢) رأى وهو بها فى المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف فى صَحْفة واحدة ؛ قال : ثم زاد أكلى على أكله وأحسست من نفسى شَرَهاً إلى الطعام ، ولم يزل ذلك بى إلى أن اختطفت الصحفة من بين يديه وانفردت بها ! فلما انتبه قصّ الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه ، اسمه عبد المنعم بن عَشير ، يكنى أبا محمد ، كان يقرأ عليه ؛ فلما أتى على آخرها ، قال (٣) : يابنىّ ، ياعبد المؤمن ، هذه الرؤيا لا ينبغى أن تكون لك ؛ إنما هى لرجل ثائر ، يثور على أمير المسلمين فيشاركه فى بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها !

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التى تَثْبُتُ فى باب الكَلِم الموافِقة للقَدَر ، أنّ رجلا من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصّنهاجى صاحب بِجاية والقلعة ، وَجد عليه الملكُ العزيز ، فاشتدّ خوفه ، فهرب منه إلى هذه الضيعة التى كان فيها عبد المؤمن ، فكان معه بها يعلّم الصبيان ؛ وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال ؛ ثم اتفق أن صاحبه رضى عنه ، فبلغه ذلك ، فسار إلى بِجاية ، فدخل عليه ، فسأله : أين كنت فى هذه الأيام ؟ فأخبره بقصته

---

(١) يعنى ابن تومرت .

(٢) يعنى عبدالمؤمن .

(٣) يعنى ابن عشير .

وكيف كان الصبيان يحيّونه بالكِسَر ! فضحك وقال : الضيعةُ لك وما والاها !
وأمر له بمال ومركب وثياب ، فخرج الرجل إلى الضيعة في خيل ورجالٍ معه ،
وخرج إليه أهلها يتلقّونه ؛ فأتى الصبيانُ عبدَ المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد ،
فقالوا له : أتعرف من هذا الذي اهتزّت له هذه الأرض ؟ قال : لا ! قالوا :
هو فلان صاحبك الذي كان يعلّمنا معك ! فقال : إن كانت حالة فلان انتهت
إلى هذا ، فلا بدّ أن أكون أنا غداً أمير المؤمنين ! فكان الأمر كما قال ،
ووافقت كلمتُه القدر .

وخرج ابن تومرت كما ذكرنا متوجهاً إلى المغرب ، حتى أتى مدينة
تِلِمْسان ، فأقام بمسجدٍ بظاهرها يعرف بالعُبّاد ، جارياً على عادته ؛ وكان
قد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة ، فلا يراه أحدٌ إلا هابه ،
وعَظُم أمره ؛ وكان شديد الصمت كثير الانقباض ؛ إذا انفصل عن مجلس
العلم لا يكاد يتكلم بكلمة . . .

أخبرني بعض أشياخ تِلِمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه
بمسجد العبّاد ، أنه خرج عليهم ذات ليلة بعد ما صلى العتمة ، فنظر إليهم
وقال : أين فلان ؟ لرجل كان يصحبهم ؛ فأخبروه أنه مسجون ، فقام من وقته
ودعا برجل منهم يمشي بين يديه ، حتى أتى باب المدينة ، فدق على البوّاب دقا
عنيفاً ، واستفتح ؛ فأجابه البواب إلى الفتح بسرعة من غير تلكؤ ولا إبطاء ،
ولو استفتح أمير البلد لتعذر ذلك عليه ؛ ودخل حتى أتى السجن ، فابتدر إليه
السجّانون والحرس يتمسحون به ، ونادى : يا فلان ! باسم صاحبهم ؛ فأجابه ؛

فقال : اخرج ! فخرج والسجانون ينظرون إليه كأنما افرِغ عليهم الماء الحارّ ، وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد ؛ وكانت هذه عادته فى كل ما يريد ، لا يتعذر عليه مُراد ، ولا يمتنع عليه مطلوب ، قد سُخِّرت له الرعية ، وذُلِّلت له الجبابرة .

ولم يزل مقيما بتلمسان وكلُّ مَن بها يعظمه من أمير ومأمور ، إلى أن فَصَل عنها بعد أن استمال وجوهَ أهلها وملك قلوبها ؛ فخرج قاصداً مدينة فاس ؛ فلما وصل إليها أظهر ماكان يظهره ، وتحدّث فيما كان يتحدّث فيه من العلم ؛ وكان جلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعَرِيّة ؛ وكان أهل المغرب ـ على ما ذكرنا (١) ـ ينافرون هذه العلوم ، ويُعادون من ظهرتْ عليه ، شديداً أمرُهم فى ذلك ؛ فجمع والى المدينة الفقهاء وأحضره معهم ، فجرتْ له مناظرة كان له الشُفوف فيها والظهور ؛ لأنه وجد جوّاً خاليا ، وألفى قوماً صِياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علمَ الفروع ؛ فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والى البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام ؛ فأمره والى البلد بالخروج ؛ فخرج متوجّهاً إلى مراكش .

[ابن تومرت فى حضرة ابن تاشفين]

وكُتب بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ؛ فلما دخلها احضر بين يديه ، وجمع له الفقهاء للمناظرة (٢) ؛ فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول ، حاشا

---

(١) انظر ص ١٧٢ ـ ١٧٣

(٢) رواية ابن خلكان أن ابن تومرت لما دخل مراكش ـ وملكها يومئذ أبوالحسن على ابن يوسف بن تاشفين ـ شرع فى الإنكار على جارى عادته ، حتى أنكر على ابنة الملك ... قال : =

رجلٍ من أهل الأندلس اسمه مالك بن وُهيب كان قد شارك فى جميع العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما يَنفُقُ فى ذلك الزمان ؛ وكانت لديه فنون من العلم ، رأيت له كتاباً سمّاه « قُراضة الذهب ، فى ذكر لئام العرب » ضمّنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وضمّ إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب ؛ فجاء الكتاب لا نظيرَ له فى فنه ؛ رأيته فى خِزانة بنى عبد المؤمن .

ولمالك بن وُهيبٍ هذا تحقّقٌ بكثيرٍ من أجزاء الفلسفة ؛ رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطليموس فى الأحكام ، وكتاب المجسطى فى علم الهيئة ، وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي .

ولما سمع مالكٌ هذا كلامَ محمد بن تومرت ، استشعر حِدّةَ نفسه وذكاء خاطره واتساعَ عبارته ؛ فأشار على أمير المسلمين بقتله ، وقال : هذا رجلٌ مُفسِد لا تؤمَنُ غائلتُه ولا يسمع كلامَه أحدٌ إلا مال إليه ، وإن وقع هذا فى بلاد المصامدة ثار علينا منه شرٌّ كثير (١) ! فتوقف أمير المسلمين فى قتله ، وأبى

= وله فى ذلك قصة يطول شرحها ؛ فبلغ خبره الملك ، وأنه يتحدث فى تغيير الدولة ؛ فتحدث ابن تاشفين مع مالك بن وهيب فى أمره ــ وكان عالما صالحا ــ فقال ابن وهيب : نخاف من فتح باب يعسر علينا سده ، والرأى أن تحضر هذا الشخص وأصحابه ، لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد ؛ فأجابه الملك إلى ذلك ...

ويذكر ابن الأثير قصة ابنة الملك التى نقلنا الإشارة إليها عن ابن خلكان فيما سبق ، فيقول إنها ابنة الملك يوسف بن تاشفين ، أخت أبى الحسن ؛ وتفصيل أمرها كما رواه ابن الأثير ، أن ابن تومرت كان فى طريقه بمراكش يوما ، إذ رآها فى موكبها ومعها من الجوارى الحسان عدة كثيرة ، وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين : يسفر نساؤهم وجوههن ويلتثم الرجال ! فحين رأى ابن تومرت النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن ؛ وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها ...

(١) روى ابن خلكان طرفاً من الحوار الذى جرى بين ابن تومرت وفقهاء الحضرة ، نرى =

ذلك عليه دينُـه (١) ؛ وكان رجـلا صالحاً مجابَ الدعوة ، يُعَـدُّ فى قُوّام الليل وصُوَّام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعَفا ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادِهن بالأمور ؛ وكان كل شِرِّير من لص أو قاطـع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ووَزَراً على ماتقدم ...

... فلما يئس مالكٌ مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بِسَجْنه حتى يموت ؛ فقال أمير المسلمين : عَـلَامَ نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعيّن لنا عليه حق ؟ وهل السجنُ إلا أخو القتل ؟ ولـكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجهْ حيث شاء !

= من الفائدة أن نثبته بإيجاز :

قال الملك لعلماء بلده : سلوا هذا الرجل مايبغى منا ؟

فانتدب له قاضى المرية ـ واسمه محمد بن أسود ـ فقال : ماهذا الذى ينقل عنـك من الأقوال فى حق الملك العادل الرحيم ، المنقاد إلى الحق ، المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟

قال ابن تومرت : أما مانقل عنى فقد قلته ، ولى من ورائه أقوال ؛ وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد إلى الحق ... فهل بلغك ياقاضى أن الخمرة تباع جهاراً ، وتمشى الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ... ؟ وعدد من ذلك شيئاً كثيرا .

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ؛ ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع فى المملـكة لنفسه ؛ ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لـكلامه لم يتكلم أحد منهم ؛ فقال مالك ابن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك ـ : أيها الملك ، إن عندى لنصيحة ، إن قبلتها حمدت عاقبتها ، وإن تركتها لم تأمن غائلتها .

فقال الملك : ماهى ؟

قال : إنى خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى أنك تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتـكتفى شره ؛ وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها ثم لاينفعك ذلك ! ...

(١) ويروى ابن الأثير أن الذى منع أمير المسلمين من الأخذ برأى مالك بن وهيب ، رجل من أكابر الملثمين يسمى بيان بن عثمان .

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سُوس (١) ؛ فنزل بموضع منها يُعرَف بتِينمَل" (٢) ...

[بدء دعوة الموحدين]

من هذا الموضع قامت دعوته ، وبه قبرُه ؛ ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع فى تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، من غير أن يُظهر إمرةً ولا طِلْبَةَ مُلْك ؛ وألّف لهم عقيدةً بلسانهم ؛ وكان أفصحَ أهل زمانه فى ذلك اللسان ؛ فلما فهموا معانى تلك العقيدة زاد تعظيمهم له ، وأُشرِبت قلوبُهم محبتَه ، وأجسامهم طاعتَه ؛ فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاغير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها ؛ وأقاموا على ذلك مدة ؛ وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل ، وجعل يذكر المهدى ويشوّق إليه ، وجمع الأحاديث التى جاءت فيه من المصنَّفات ؛ فلما قرر فى نفوسهم فضيلةَ المهدىّ ونسبه ونعْته ، ادعى ذلك لنفسه ، وقال أنا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ؛ وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدىّ المعصوم ؛ وروى فى ذلك أحاديث كثيرة ، حتى استقر عندهم أنه المهدى ، وبسط يده فبايعوه على ذلك ، وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحابُ

(١) يروى ابن خلكان وابن الأثير أنه خرج من مراكش إلى أغمات ؛ وهناك لقى رجلا من أعوانه اسمه عبدالحق بن إبراهيم ، من فقهاء المصامدة ، فأشار عبدالحق على ابن تومرت أن يلجأ إلى تينمل ، لأنها أكثر حصانة ومنعة .

(٢) انظر ص ١٨١

(٣) انظر التعليق رقم ٣ ص ١٧٨

رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله .

ثم صنف لهم تصانيف فى العلم ، منها كتاب سماه « أعزّ مايطلب » ، وعقائد فى أصول الدين ؛ وكان على مذهب أبى الحسن الأشعرى فى أكثر المسائل ، إلا فى إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها ؛ وكان يُبطن شيئا من التشيُّع ، غير أنه لم يَظهر منه إلى العامة شيء .

[طبقات الموحدين]

وصنَّف أصحابه طبقات : فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته ، وهم المسمَّون بالجماعة ؛ وجعل منهم الخمسين ، وهم الطبقة الثانية ؛ وهذه الطبقات لاتجمعها قبيلة واحدة ، بل هم من قبائل شتى ؛ وكان يسميهم المؤمنين (١) ، ويقول لهم : ماعلى وجه الأرض مَن يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصابة المعْنِيُّون بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفةٌ بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من خَذَلهم حتى يأتى أمر الله . » ؛ وأنتم الذين يفتح الله بكم فارسَ والروم ، ويَقتل الدَّجال ؛ ومنكم الأمير الذى يصلِّى بعيسى بن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة ؛ هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وَقَع أكثرها (٢) ؛ وكان يقول : لو شئت أن أعدَّ خلفاءكم

---

(١) من هذه التسمية اتخذ أميرهم لقب « أمير المؤمنين » ؛ ويسمون الموحدين أيضا ؛ لأنهم أول من تحدث فى التوحيد وعلم الكلام بالمغرب ، وكان ذلك محرماً على المغاربة فى عهد المرابطين كما سبق ذكره .

(٢) اختلف مؤرخو المشارقة فى الحكم على بعض ماجاء به ابن تومرت أو عزى إليه مما يسمونه بالخوارق ، ونسبه كثير منهم إلى الدجل والشعبذة ، وتعقبوا دعاوى أنصاره وما ينسبون إليه من ذلك بالتفنيد والإبطال ، محاولين رد كل شيء منه إلى أسباب طبيعية زعموها تهويناً لشأنه وشأن =

خليفةً خليفة . . .

فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا له شدةَ الطاعة .

وقد نظم هـذا الذى وصفناه من قول ابن تومرت فى تخليد هـذا الأمر ، رجلٌ من أهل الجزائر ، مدينةٍ من أعمال بجاية ، وَفَدَ على أمير المؤمنين أبى يعقوب [١] وهو بتينملّ ؛ فقام على قبر ابن تومرتَ بمحضرٍ من الموحّدين وأنشد قصيدة أولها :

سلامٌ على قبرِ الإمام الممجَّدِ ✻ سلالةِ خيرِ العالمين محمدِ
ومشبِهِه فى خلْقه ثم فى اسمه ✻ وفى اسم أبيه والقضاءِ المسدَّدِ
ومحيي علومِ الدين بعد مَماتها ✻ ومظهرِ أسرارِ الكتاب المسدّد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدُّنا ✻ بقسطٍ وعدلٍ فى الأنام مخلدِ

--- خوارقه ؛ ولزم قليل منهم جانب الصمت مكتفيا بسرد ما انتهى إليه من أنبائه ، ماله منها وما عليه ، من غير تعليق ولا رأى ؛ ولم يحاول أحد منهم — فيما نعلم — إنصافه أو الدفاع عنه أو الإشادة بعمله ذلك — فيما نظن — لأن المغرب الإسلامى — ونعنى به الأندلس وما يدانيها من بلاد العدوة — لم يكن يعترف بشىء من الولاء للخليفة العباسى فى بغداد ؛ ولم يدع له يوما على منبر من منابر المغرب ، لا فى الأندلس ولا فى الشاطىء الأفريقى ؛ عدا فترات قليلة متقطعة ؛ وأول دعاء دعى للخلافة العباسية على منابره — كما يقول صاحب المعجب — كان فى أيام بنى تاشفين ؛ ثم انقطع على يد الموحدين — أصحاب ابن تومرت — الذين لقبوا أميرهم بـ « أمير المؤمنين » ؛ وهو لقب الخليفة فى بغداد ؛ فما أحرى هذا أن يحمل مؤرخى المشارقة على النظر بارتياب إلى ابن تومرت وأصحابه ، وأن يعتبروهم طلاب ملك يخلعون فى سبيله طاعة الخليفة ويخرجون عن الولاء له ؛ ومن ثمّة كان رأى مؤرخيهم فى شيخ الموحدين ! ...

على أن الرأى مهما يختلف فى شأن محمد بن تومرت ، فما لاشك فيه أنه رجل من أهل الإيمان والفطنة ، كان له رأى فى سياسة الدولة الإسلامية يستند إلى أساس من الدين ؛ فاتخذ أسبابه لتنفيذ رأيه والوصول إلى هدفه ؛ وقد بلغ بإيمانه ، وفطنته ، وقوة عزمه ، كثيراً مما أراد .

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

ويفتتح الأمصارَ شرقاً ومغرباً ﴿ ويملك عربا من مغيرٍ ومنجِدِ
فمِن وصفِه : أقنَى وأجلَى وأنه ﴿ علاماتُه خمسٌ تبين لمهتدى :
زمانٌ ، وإسمٌ ، والمكانُ ، ونسبةٌ ، ﴿ وفعلٌ له فى عصمةٍ وتأيدِ
ويلبثُ سبعاً أو فتسعا يعيشها ﴿ كذا جاء فى نصٍّ من النقل مُسندِ
فقد عاش تسعاً مثلَ قول نبينا ﴿ فذلكمُ المهدىُّ بالله يهتدى
وتتبعه للنصرِ طائفةُ الهدى ﴿ فأكرِم بهم إخوانَ ذى الصدق أحمد
هى الثُّلةُ المذكور فى الذكر أمرها ﴿ وطائفةُ المهدىِّ بالحق تهتدى
ويقدُمها المنصورُ والناصرُ الذى ﴿ له النصرُ حزبٌ إذ يروح ويغتدى
هو المنتقَى من قيسِ عيلان مفخراً ﴿ ومن مُرَّةٍ أهلِ الجلال الموطّد (١)
خليفة مهدىِّ الإله وسيفُه ﴿ ومن قد غدا بالعلم والحلم مُرتدى
بهم يَقمَع الله الجبابرةَ الأولى ﴿ يصدّون عن حُكم من الحق مُرشد
ويَقطع أيامَ الجبابرةِ التى ﴿ أبادت من الإسلام كلَّ مشيَّدِ
فيغزونَ أعرابَ الجزيرة عنْوةً ﴿ ويغزُون منها فارساً وكأن قدِ
ويفتتحون الرومَ فتْحَ غنيمةٍ ﴿ ويقتسمون المال بالتّرس عن يد
ويغدون للدّجال يغزونه ضُحاً ﴿ يُذيقونه حدَّ الحسام المهنَّد
ويقتله فى بابِ لُدٍّ وتنجلى ﴿ شكوكٌ أمالتْ قلبَ من لم يوحّدِ
وينزلُ عيسى فيهم وأميرُهم ﴿ إمام فيدعوهم لمحرابِ مسجدِ
يصلِّى بهم ذاك الأمير صلاتَهم ﴿ بتقديم عيسى المصطفى عن تعمُّدِ

---

(١) انظر نسب عبدالمؤمن ؛ التعليق رقم ٢ ص ١٨١

فيمسح بالكفين منه وجوهَهم ❊ ويخبرهم حقا بعزٍّ مجـدَّد

وما إن يزال الأمر فيه وفيهـمُ ❊ إلى آخر الدهر الطويل المسَرْمِد

فأبلغ أمير المؤمنين تحيــةً ❊ على النأى منى والودادِ المؤكَّد

عليه سلام الله ماذَرَّ شارقٌ ❊ وما صدَر الوُرَّاد عن وِرْدِ مورد

وقد قيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه ؛ منعته عن ذلك الكَبْرَة وبعدُ الشُّقَّة ؛ وإنما أرسل بها فأنشدت على قبر الإمام ؛ وكان عمله إياها وعبد المؤمن حىٌّ ؛ فالله أعلم ؛ وهى طويلة ، هذا مااخترت له منها ؛ ولم اوردها فى هذا الموضع لأنها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها .

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكَّد ؛ إلى أن بلغوا فى ذلك إلى حدٍّ لو أُمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء ؛ وأعانهم على ذلك وهوّنه عليهم مافى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ؛ وهذا أمرٌ جبلت عليه فِطَرهم واقتضاه ميل إقليمهم .

حكى أبو عبيد البكرى الأندلسى ثم القرطبي فى كتابه الموسوم بـ « المسالك والممالك » عن رجال ، قال : اهديت إلى الإسكندر فرسٌ ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها ، لم يكن فيها عيبٌ إلا أنها لم يسمع لها صهيل قَط ؛ فلما حل الإسكندر فى تطوافه بجبال دَرَن ، وهى بلاد المصامدة ، وشربت تلك الفرس من مياهها ، صهلت صَهلةً اصطكت منها الجبال ؛ فكتب الإسكندر

إلى الحكيم يخبره بذلك ؛ فكتب إليه : أنها بلادُ شرٍّ وقسوة ، فعجِّل الخروج منها !

فهذه حال بلاد القوم ؛ وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيامَ كَوني بسوس ما قضيت منه العجب .

[الحرب بين المرابطين والموحدين]

ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشا عظيما من المصامدة جلُّهم من أهل تينملّ ، مع من انضاف إليهم من أهل سوس ، وقال لهم : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدّلين الذين تَسمَّوا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ؛ فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم مالهم وعليهم ماعليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السُّنة قتالهم .

وأمّر على الجيش عبدَ المؤمن بن على ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم . فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش (١) ، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة ، بجيش ضخم من سَراة لمتونة ، أميرهم الزبير بن على بن يوسف ابن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت ، فردّوا عليهم أسوأ ردّ ، وكتب عبدالمؤمن إلى أمير المسلمين علىّ

(١) كانت هذه المعركة ــ على ماذكره أهل التاريخ ــ سنة ٥٢٤ وقد سبقتها معارك أخرى لم يذكرها المراكشى .

ابن يوسف بما عَهِد إليه محمد بن تومرت ؛ فردّ عليه أمير المسلمين يحذّره عاقبةَ مفارقة الجماعة ، ويذكّره الله فى سفك الدماء وإثارة الفتنة ؛ فلم يردع ذلك عبدَ المؤمن ، بل زاده طمعا فى المرابطين وحقّق عنده ضعْفهم ؛ فالتقت الفئتان ، فانهزم المصامدة وقُتل منهم خلق كثير (١) ، ونجا عبد المؤمن فى نفرٍ من أصحابه ؛ فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبدُ المؤمن ؟ قالوا : نعم . قال : لم يُفقد أحد !

ولما رجع القوم إلى ابن تومرت ، جعل يُهوّن عليهم أمر الهزيمة ، ويُقرر عندهم أن قتلاهم شهداء ؛ لأنهم ذابّون عن دين الله ، مُظهرون للسُّنة ؛ فزادهم ذلك بصيرةً فى أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوّهم ؛ ومن حينئذ جعل المصامدة يشنّون الغارات على نواحى مراكش ، ويقطعون عنها موادَّ المعايش وموصولَ المرافق ، ويقتلون ويَسْبُون ، ولا يُبقُون على أحد ممن قَدَروا عليه ؛ وكثر الداخلون فى طاعتهم والمُنْحَاشون إليهم ؛ وابن تومرت فى ذلك كلّه يكثر التزهّد والتقلّل ، ويظهر التشبّه بالصالحين ، والتشدّد فى إقامة الحدود ، جاريا فى ذلك على السُّنة الأولى .

أخبرنى من رآه ـ ممن أثق إليه ـ يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النَّخل ، متشبها فى ذلك بالصحابة .

ولقد أخبرنى بعض من شهده وقد اتى برجل سكران ، فأمر بحدّه ، فقال رجلٌ من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان : لو شدّدنا عليه حتى يخبرنا

---

(١) فقد فى هذه المعركة أبوعبدالله الونشريسى .

من أين شربها لِنَحْسِم هذه العلةَ من أصلها ... ! فأعرض عنه ؛ ثم أعاد عليه الحديث ، فأعرض عنه ، فلما كان فى الثالثة قال له : أرأيتَ لو قال لنا : شربتُها فى دار يوسف بن سليمان ، مانحن صانعون ؟ فاستحيا الرجل وسكت ، ثم كشف على الأمر ، فاذا عبيدُ ذلك الرجل سَقَوه ، فكان هذا من جملة مازادهم به فتنةً وتعظيما ، إلى أشياء كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر .

ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة ، وأصحابه ظاهرون ، وأحوال المرابطين المذكورين تختلّ ، وانتقاض دولتهم يتزيد ، إلى أن توفى ابن تومرت المذكور فى شهور سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورَسم لهم ماهم فاعلوه .

ذكر ولاية عبد المؤمن

ثم قام بالأمر من بعده عبدُ المؤمن بن على ، وبايعه المصامدة ، واتفقت على تقديمه الجماعة ؛ وكان الذين سَعَوا فى تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة ، وهم من أهل الجماعة (١) : عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، وعمر ابن ومَزَال ـ الذى كان اسمه قبل هذا فَصْكَةَ فسماه ابنُ تومرت عمر ، يَعْرفونه بعمر إينتى ـ وعبد الله بن سليمان من أهل تينملّ ، من قبيلة يقال لها مَسَكّالة ؛ ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقى الموحدين .

[وصية ابن تومرت]

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة ، استدعى هؤلاء المسمَّين بالجماعة ، وأهل خمسين ؛ وهم ـ كما ذكرنا ـ من قبائل مفترقة لايجمعهم إلا اسم

(١) انظر طبقات الموحدين ، ص ١٨٨ من هذا الكتاب .

المصامدة؛ فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم؛ ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوانُ الله عليهم، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات فى دينهم، والعزيمة فى أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه فى الله لومةُ لائم، وذكر من حدِّ عمر رضى الله عنه ابنَه فى الخمر، وتصميمِه على الحق، فى أشباه لهذه الفصول، ثم قال:

«... فانقرضت هذه العصابة - نضّر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيِّها - وخبطت الناسَ فتنةٌ تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلا مُداهنا؛ فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوهَ الناس إليهم...» فى أشباه لهذا القول، إلى هلم جرًّا:

«ثم إن الله - سبحانه وله الحمد - مَنّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيدِه، وقيّض لكم من ألفاكم ضُلاًّ لا تهتدون، وعُمْياً لا تبصرون، لا تعرفون معروفا، ولا تُنكرون منكرا، قد فَشَتْ فيكم البِدع، واستهوتكم الأباطيل، وزَيّنَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أُنزِّهُ لسانى عن النطق بها، وأربأ بلفظى عن ذكرها؛ فهداكم الله به بعد الضلالة، وبَصّركم بعد العَمَى، وجمعكم بعد الفُرقة، وأعزّكم بعد الذّلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين؛ وسيُورثكم أرضهم وديارهم؛ ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرتْه قلوبُهم؛ وما ربك بظلام للعبيد؛ فجدِّدوا للهِ سبحانه خالصَ نيّاتكم، وأروه من الشكر قولا وفعلا ما يُزكّى به سعيَكم،

ويتقبَّلُ أعمالكم ، وينشر أمركم ؛ واحذروا الفرقة واختلافَ الكلمة وشتاتَ الآراء ، وكونوا يداً واحدة على عدوِّكم ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحقَّ على أيديكم ، وإلا تفعلوا شَمِلكم الذل وعمَّكم الصَّغارُ واحتقرتكم العامةُ فتخطَّفتكم الخاصة ؛ وعليكم فى جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ؛ واعلموا مع هذا أنه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأمة إلا على الذى صلح عليه أمرُ أولها ، وقد اخترنا لكم رجلا منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ؛ هذا بعد أن بَلَوْناه فى جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ثَبْتاً فى دينه ، متبصِّراً فى أمره ، وإنى لأرجو ألا يُخلف الظنّ فيه ؛ وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ؛ فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بَدَّل أو نكص على عقبه أو ارتاب فى أمره ، ففى الموحدين ـ أعزهم الله ـ بركةٌ وخير كثير ، والأمرُ أمرُ الله يقلّده من شاء من عباده » .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحدا ؛ فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله . ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

فصل

[حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله]

وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن على بن عَلوىّ الكومىّ (١) ، أمّه

---

(١) الكومى : نسبة إلى كومية ، أو كومة : قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان .

حرة كومية أيضا، من قوم يقال لهم بنو مُجـبَر، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تُعرف بتاجرا [١]؛ وقيل إنه كان يقول إذا ذكر كومية [٢]: لستُ منهم، وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [٣]، ولكومية علينا حقُّ الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهم الأخوال. وهكذا أدركتُ من أدركتُ من أولاده وأولادِ أولادِه ينتسبون لقيس عيلان بن مضر، وبهذا استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت: « قسيمُه رضى الله عنه فى النسب الكريم ».

كان مولده فى آخر سنة ٤٨٧ فى أيام يوسف بن تاشفين؛ وكانت وفاته فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨، ومدة ولايته من حينَ استوسق له الأمر بموت على بن يوسف أمير المسلمين - فى سنة ٣٧ على التحقيق - إحدى وعشرين سنة، إلى أن تُوفى فى التاريخ المذكور.

وكان أبيض ذا جسمٍ عَممٍ تعلوه حمرة، شديدَ سوادِ الشعر، معتدل القامة، وضيء الوجه، جَهْوَرِيَّ الصوت، فصيح الألفاظ، جَزْل المنطق؛ وكان محبَّباً إلى النفوس؛ لا يراه أحدٌ إلا أحبه بديهة؛ وبلغنى أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه:

تكاملتْ فيكَ أخلاقٌ خُصِصتَ بها ☼ فكلُّنا بِكَ مسرورٌ ومُغتبِطُ
فالسنُّ ضاحكةٌ، والكفُّ مانحةٌ ☼ والصدرُ مُنشرِحٌ، والوجهُ مُنبسِطُ

---

(١) فى ابن خلكان وغيره: تاجرة.

(٢) فى الأصل: كمية؛ وسماها ابن خلكان: كومة.

(٣) انظر التعليق رقم ٢ ص ١٨١

أولاده

كان له من الولد ستة عشر ذكرا ، وهم : محمد ، وهو أكبر ولده وولىّ عهده وهو الذى خُلع ؛ وعلى ، وعمر ، ويوسف ، وعثمان ، وسليمان ، ويحيى ، وإسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعيسى ، وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب .

وزراؤه

وَزَرَ له فى أول الأمر أبو حفص عمر أزناج ، إلى أن استقر الأمر واستقلّ عبد المؤمن ؛ فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة ورَبأ بقدْره عنها ، إذ كان عندهم فوق ذلك ؛ واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية ، فجمع بين الوزارة والكتابة ، فهو معدود فى الكتاب والوزراء ، فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية ، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلا من نُبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمى - وسيأتى ذِكره فى كُتَّابه - واستمرت وزارة أبى جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن فى شهور سنة ٥٣ واستصفى أمواله ، ثم وزر له عبد السلام الكومى ، وكان يدعى المُقرَّب ، لشدة تقريب عبد المؤمن إياه ، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن مَن قتله خنقا فى شهور سنة ٥٥٧ ، ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفى عبد المؤمن .

كتابه

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور فى الوزراء ، كان قبل اتصاله بعبد المؤمن

وفى الدولة اللّمتونية ، يكتب لعلى بن يوسف فى آخر أيامه ، وكتب عن
تاشفين بن على بن يوسف ؛ فلما انقرض أمرهم هرب وغيَّر هيئته وتشبَّه
بالجند ، وكان محسنا للرَّمى ، وكان فى الجند الذين خرجوا إلى سُوس لقتال
ثائر قام هناك ؛ كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر إينتى المتقدم الذكر
فى أهل الجماعة ، فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانفضَّت تلك الجموع ،
طلب أبو حفص مَن يكتب عنه صورةَ هذه الكائنة إلى الموحدين الذين
بمراكش ، فدُلَّ على أبى جعفر هذا ونُبِّهَ على مكانه ، فاستدعاه ، وكتب عنه
إلى الموحدين رسالة فى شرح الحال ، أجاد فى أكثرها ما شاء ، منعنى من رسْمها
فى هذا الموضع ما فيها من الطول ؛ فلما بلغت الرسالةُ عبد المؤمن استحسنها
واستدعى أبا جعفرٍ هذا واستكتبه ، وزاده إلى الكتابة الوزارة ؛ لِما رآه من
شجاعة قلبه وحصافة عقله ؛ فلم يزل وزيرَه كما ذكرنا إلى أن قتله فى التاريخ الذى
ذُكر ؛ وكان سبب قتله – فيما بلغنى – أنه كانت عنده بنت أبى بكر بن يوسف بن
تاشفين ، التى تُعرف ببنت الصحراوية ؛ وأخوها يحيى فارسُ المرابطين المشهورُ
عندهم ، يُعرف أيضا بيحيى ابن الصحراوية (١) ؛ فحظى يحيى هذا عند الموحِّدين ،
وقوَّدُوه على من وحَّد من لمتونة ، ولم يزل وجيها عندهم مُكرَّما لديهم –
وكان خليقا بذلك – إلى أن نُقلت عنه إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوالٌ
كان يقولها أحنقته عليه ؛ فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك فى مجلسه ، وربما

---

(١) هو يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان له بلاء شديد فى مقاومة الموحدين
دفاعاً عن دولة بنى تاشفين ؛ حارب فى تلمسان ، وفى فاس ؛ ثم انقاد حين لم يجد بدا من الانقياد
كما انقاد كثير من لمتونة وانضووا تحت لواء الموحدين ؛ فقوده عبد المؤمن على من وحد من قومه .

همّ بالقبض على يحي هـذا ؛ فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين : من نصح أميره ، وتحذيرِ صهره ؛ فقال لامرأته أخت يحي المذكور : قولى لأخيك يتحفَّظ ، وإذا دعوناه غداً فليعتلّ ويُظهر المرض ، وإن قَدَر على الهروب واللّحاق بجزيرة مُيُرْقَة فليفعل ! فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر أنّ ألماً به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن عِلّته ، فأسرّ إلى بعضهم - ممن كان يثق به - مابلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجلُ الذى أَسَرّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤمن ، فكان هذا هو السببَ الأكبر فى قتل أبى جعفر المذكور ؛ وأمر أميرُ المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحي المذكور وسَجْنِه ، فكان فى سِجْنه إلى أن مات !

ثم كتب له بعد أبى جعفر هذا : أبو القاسم عبد الرحمن القالمى ، من أهل مدينة بجاية ، من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عَيّاش ابن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قُرطبة .

قضـــاته

أبو محمد عبد الله بن جبل ، من أهل مدينة وُهْرَان من أعمال تلمسان ؛ ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقى ، لم يزل قاضيا له إلى أن توفى عبد المؤمن ، وصَدْراً من خلافة أبى يعقوب .

[رجْع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن]

وكان عبد المؤمن مُؤْثراً لأهل العلم ، مُحبا لهم ، محسنا إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكَوْن عنده والجِوار بحضرته ، ويُجرى عليهم الأرزاق الواسعة ،

ويُظهر التنويهَ بهم والإعظامَ لهم؛ وقسم الطلبةَ طائفتين: طلبة الموحِّدين، وطلبة الحَضَر؛ هذا بعد أن تسمَّى المصامدةُ بالموحدين، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوْضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحدٌ من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه (١).

وكان عبد المؤمن في نفسه سَرِيَّ الهِمة، نزيهَ النفس، شديد الملوكية، كأنه كان ورثها كابراً عن كابر (٢)، لا يرضى إلا بمعالي الأمور.

أخبرني (٣) الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر الوزير، عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر، قال: دخلتُ على عبد المؤمن وهو في بستانٍ له قد أينعت ثماره، وتفتحت أزهاره، وتجاوبت على أغصانها أطيارُه، وتكامل من كل جهةٍ حسنُه؛ وهو قاعد في قُبة مُشرفة على البستان، فسلمت وجلست، وجعلت أنظر يَمْنة وشَأْمة، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان، فقال لي: يا أبا جعفر، أراك كثير النظر إلى هذا البستان! قلت: يُطيل الله بقاء أمير المؤمنين، والله إن هذا لمنظرٌ حسَن! فقال: يا أبا جعفر، المنظرُ الحسنُ هذا؟ قلت: نعم؛ فسكت عني، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة، أمر بعرْض العسكر آخذي أسلحتهم، وجلس في مكان مُطِلّ، وجعلت العسكر تمرّ عليه قبيلةً بعد قبيلة وكتيبةً إثر كتيبة، لا تمرّ كتيبة إلا والتي

(١) انظر ص ١٧٢–١٧٣، والتعليق رقم ١ ص ١٨٨

(٢) كان والد عبدالمؤمن صانعاً في عمل الطين، يعمل منه الأواني والجرار فيبيعها؛ وذلك كل مرتزقه؛ ثم كان من أمر ابنه عبدالمؤمن ما كان!.

(٣) من هنا يبدأ عبد الواحد رواية التاريخ عن محدثيه رواية مباشرة، وكان من قبل ناقل آثار وناسخ كتب. انظر ما أثبتناه في المقدمة عن مصادر عبدالواحد في كتاب المعجب.

بعدها أحسنُ منها ، جَوْدَةَ سِلاح ، وفراهةَ خيل ، وظهورَ قُوة ؛ فلما رأى ذلك التفت إلىَّ وقال : ياأبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لاثمارُك وأشجارك !

ولم يزل عبد المؤمن ـ بعد وفاة ابن تومرت ـ يطوى الممالك مملكةً مملكةً ، ويُدوِّخ البلاد ، إلى أن ذلَّت له البلاد ، وأطاعته العباد .

[نهاية المرابطين وآخر من ولى الأمر منهم]

وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التى يملكها المرابطون ، مدينة مرّاكش ، دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين على بن يوسف بن تاشفين ؛ وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حَتْفَ أنفِه فى شهور سنة ٥٣٧ (١) ؛ وكان قد عهد فى حياته إلى ابنه تاشفين ، فعاقته الفتنة عن تمام أمره ، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشىء من الأمور .

وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصدا تِلمسان ، فلم يتفق له من أهلها مايريد ، فقصد مدينة وُهْران ـ وهى على ثلاث مراحل من تلمسان ـ فحاصره الموحدون بها ؛ فلما اشتد عليه الحصار خرج راكبا فرساً شهباء ، عليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك (٢) ؛ ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه ؛

(١) كان فتح الموحدين لمدينة مراكش فى سنة ٥٤٢ ؛ وكان أميرها يومئذ ، إسحاق بن على ابن يوسف بن تاشفين ، وهو صبى ؛ وأول ما دان من البلاد لعبدالمؤمن قبل مراكش : وهران ، ثم تلمسان ، ثم فاس ، ثم طنجة ، ثم مكناسة ، ثم سلا ، ثم سبتة .

(٢) يروى فى وصف مهلك تاشفين بن على ، أنه لما تيقن أن دولتهم إلى زوال ، أتى مدينة وهران ـ وهى على البحر ـ يريد أن يتخذها مقرا ، فإن غلبه الموحدون على الأمر ركب البحر منها إلى الأندلس حيث يأمل أن تكون له ثمة دولة ، كما قامت دولة بنى أمية بالأندلس بعد انقراض دولتهم بالشام ؛ وكان بظاهر وهران ربوة على البحر ، بأعلاها رباط يأوى إليه المتعبدون ؛ فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ ـ وهى ليلة يعظمها أهل المغرب ـ صعد تاشفين =

فالله أعلم بصحة ذلك .

فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل - كما ذكرنا - بمدينة وهران ، ثلاثة أعوام إلا شهرين ؛ وكان قتله سنة ٥٤٠ [١] ؛ وكان طولَ هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال ، تَنبُو به البلاد ، وتتنكر له الرعية ؛ فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذُكر [٢] .

وبعد دخول عبد المؤمن - رحمه الله - مراكش ، طلب قبر أمير المسلمين ، وبحث عنه عبد المؤمن أشدّ البحث ؛ فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره فى أيام حياته ؛ وتلك عادة الله الحُسنى مع الصالحين المصلحين .

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبنى العباس بموت أمير المسلمين وابنِه ، فلم يُذكروا على منبر من منابرها إلى الآن ، خلا أعوامٍ يسيرة بأفريقية ، كان قد ملكها يحيى بن غانية الثائر من جزيرة مُيُرْقة على ما سيأتى بيانه .

وكانت مدة المرابطين - من حين نزولهم رحبة مراكش إلى أن انقرض ملكهم جملةً واحدة بموت أمير المسلمين وابنه - نحوا من ست وسبعين سنة .

= إلى ذلك الرباط ليشارك أولئك المتعبدين فى الاحتفال بتلك الليلة المعظمة ؛ وعلم الموحدون - وكانوا غير بعيد - بانفراد تاشفين فى ذلك الرباط ، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه ؛ فأيقن الذين فيه بالهلاك ؛ وأراد تاشفين أن يخلص من تلك الحبالة ؛ فكأنما خيل إليه أنه مستطيع - حين يستمكن من ظهر فرسه - أن يثب وثبة فارس فوق النار فيتجاوزها وينجو ، فاعتلى صهوة فرسه وشد لجامه ووثب ... ولكن الفرس ترامى نازيا من الذعر ولم يمسكه اللجام ؛ فتردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة فى وعر ، فتهشم الفرس وهلك فارسه !

(١) انظر التعليق السابق ، وفيه أن مهلك تاشفين بن على كان فى رمضان سنة ٥٣٩

(٢) لما توفى تاشفين بن على ، جعل المرابطون أمرهم من بعده لأخيه إسحاق بن على ، وكان صبيا ، وعليه دخل الموحدون مراكش فى سنة ٥٤٢ بعد حصار استمر أحد عشر شهراً ، فقتلوه صبراً ؛ فهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم .

[تغلب عبد المؤمن على بجاية وقلعة بنى حماد]

ولما دان لعبد المؤمن جميعُ أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون ـ على ما قدمنا ـ وأطاعه أهلها، جمع جموعا عظيمة وخرج من مرّاكش يقصد مملكة يحي بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصّنهاجيّ (١)

(١) يعنى مملكة بنى حماد؛ وأول ملوكهم حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد الحميرى الصنهاجى، أخو المنصور صاحب أفريقية؛ وكان لبنى مناد هؤلاء جاه قديم فى أفريقية من قبل أن تكون دولة العبيديين فى المهدية؛ واستعان بهم بنو عبيد حين استوسق لهم الأمر فى تلك البلاد؛ فلما هم المعز لدين الله العبيدى «الفاطمى» أن يتوجه إلى مصر حين اتخذها قاعدة لملكه بعد انهيار الدولة الأخشيدية بها، استخلف على أفريقية بلكين بن زيرى؛ فكان له الحكم فى تلك البلاد إلى أن مات فى سنة ٣٧٣، ولم تكن تبعيته للعبيديين فى القاهرة إلا تبعية اسمية.

ثم ولى من بعده أمر البلاد المنصور بن بلكين، فقام بالأمر مقام أبيه وزاد عليه، إلى أن توفى سنة ٣٨٦.

وخلفه على عرش أفريقية ولده باديس؛ وكان له ـ كما كان لأبيه وجده من قبل ـ تعيين الولاة والعمال فى البلاد التى تخضع لحكمه، فأقطع عمه حماد بن بلكين «أشير»، فأنشأ بها حماد قلعته سنة ٣٨٦ وأقام بها ملكا يتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال، ولكنه يقر بالولاء لابن أخيه بالقيروان والمهدية وتونس.

ومنذ الوقت الذى أنشئت فيه تلك القلعة صار بنو مناد فرقتين: بنى حماد بقلعتهم، وبنى باديس بالقيروان والمهدية. وتوفى باديس سنة ٤٠٦

ثم خلف باديس على عرش أفريقية ولده المعز بن باديس، وهو مؤسس دولتهم الحقيقى؛ فقد أعلن انفصاله صريحاً عن العبيديين فى القاهرة، وخلع طاعتهم، وقطع خطبة الخليفة العبيدى المستنصر بالله فى القاهرة، وخطب للامام القائم بأمر الله العباسى صاحب عرش الخلافة فى بغداد سنة ٤٣٥ ولما بعث إليه المستنصر يتهدده لم يعبأ به، وقال لرسوله: قل له إن لنا ملك أفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر!

ولما استقل المعز بن باديس بملك أفريقية، بدأ استقلال بنى حماد كذلك بما تحت أيديهم من البلاد؛ ووقف أبناء العم بعضهم بازاء بعض متنافسين، يريد كل فريق أن يوسع سلطانه؛ فنشأت بينهما سلسلة من الحروب أضعفت الفريقين جميعا وهيأت للفرنجة أن يستولوا على صقلية ـ وكانت حتى ذلك الوقت جزءا من مملكة أفريقية ـ ثم ولى الفرنجة وجههم بعد ذلك نحو أفريقية نفسها؛ فاستولوا على طرابلس وكثير من الأطراف الشرقية لمملكة بنى باديس.

=

وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وهذا الموضع

= وتوالى على عرش أفريقية طائفة من ولد المعز بن باديس :

تميم بن المعز : من سنة ٤٥٤ إلى سنة ٥٠١

ويحيي بن تميم : من ٥٠١ إلى ٥٠٩ وفى عهده وصل ابن تومرت إلى المهدية قادماً من المشرق فى طريقه إلى المغرب الأقصى كما ذكر . انظر التعليق رقم ٣ ص ١٧٩

ثم على بن يحيي إلى سنة ٥١٥

ثم أبو يحيي الحسن بن على ، وهو آخر ملوكهم ، وفى عهده استولى الفرنجة على طرابلس عنوة سنة ٥٤١ ، ثم على المهدية حاضرة الدولة سنة ٥٤٣ ، وهى السنة التى انتهى فيها ملكهم . وفر أبو يحيي هذا إلى قلعة محرز بن زياد ، فأقام عنده حينا ، ثم بدا له أن يفارقه الى مصر ملتجئا إلى الحافظ العبيدى ، ولكن صاحب صقلية كان يتربص به فى البحر ؛ فعدل عن السفر إلى القاهرة وقصد إلى ابن عمه يحيي بن العزيز — المذكور — ملك بجاية ووارث ملك بنى حماد ؛ فسيره يحيي بأهله إلى جزائر بنى مزغنان ، فأقام بها هو ومن معه من أهله ممنوعين من التصرف كالمحجور عليهم فى أسر ابن عمهم ؛ فلم يزالوا كذلك حتى ملك عبدالمؤمن بجاية وقضى على مملكة بنى حماد ، كما انقضى من قبل ذلك ملك بنى عمهم خلفاء المعز بن باديس على يد صاحب صقلية

وإنما ذكرنا هذا لنكشف عن أولية بنى حماد الصنهاجيين أصحاب بجاية وقلعة بنى حماد وماوالى ذلك من البلاد .

ثم نعود من حيث بدأنا الحديث عن حماد بن بلكين بن مناد ، فنقول إن رغبته فى الانفصال عن صاحب عرش القيروان بدت منذ سنة ٣٩٠ ، وتوالت الحروب بين بنى العم بسبب ذلك ؛ وأعان على اشتداد الخلاف وتواتر أسبابه بين الدولتين الشقيقتين ، مادبره العبيديون فى القاهرة من كيد للأفارقة ، بسبب قطع المعز بن باديس خطبتهم وخلعه طاعتهم — كما قدمنا — فدعا العبيديون قبائل من العرب : بنى زغبة ، وبنى رياح ، وبنى الأثبج ، وبنى عدى ، وبنى سليم : بنى هلال بن عامر ، إلى النزوح إلى المغرب ، ليناوئوا الصنهاجيين من بنى المعز وبنى حماد جميعا ، فعاثوا فى البلاد عيثا شديداً ، وأعانوا بعضاً من أهلها على بعض ؛ فهم حينا من أنصار بنى المعز على بنى حماد ، وحينا من أنصار بنى حماد على بنى المعز ؛ وأحياناً يتقاسمون الجبهتين ، فبعضهم مع هؤلاء وبعضهم مع أولئك ، وتنشب الحرب بين أبناء العم ومع كل فريق منهما فريق من العرب ، وكان الربح دائما للعرب ، سواء أكانوا مع الغالبين أم كانوا مع المغلوبين ؛ إذكان موقفهم فى كثير من تلك المعارك موقف المرتزقة ، لهم الأجر والغنيمة فى حالتى النصر والهزيمة ...

وتوالى ملك بنى حماد بعد وفاة حماد فى سنة ٤١٧ ، فملك بعده ولده « القائد » إلى أن توفى سنة ٤٤٦ ، وملك بعد القائد ابنه « محسن » ثم ملك بعد محسن ابن عمه « بلكين » ، ثم « الناصر » بن علناد بن محمد بن حماد ، إلى أن ملك يحيي بن العزيز المذكور ؛ فظل على عرش =

هو الحدّ فيما بينه وبين لمتونة ؛ فقصده عبد المؤمن - كما ذكرنا - فى شهور سنة ٥٤٠ ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيّق عليها أشد التضييق ، فلما رأى يحيي ابن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يَدَانِ بمنْعهم ، هرب فى البحر حتى أتى مدينة بُونة ، وهى أولُ حدّ بلاد أفريقية ، ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينة المغرب ، فأرسل إليه عبد المؤمن - رحمه الله - بالجيوش ، فاستُنزِل وأُتى به عبدُ المؤمن ، هذا بعد أن عاهد عبدُ المؤمن أن يؤمّن يحيي فى نفسه وأهله .

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها ، ومَلَك قلعةَ بنى حماد ، وهى معقل صنهاجة الأعظم وحِرْزُهم الأمنع ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرُهم .

وكان يحيي هذا وأبوه العزيزُ وجدّاه المنصور والمنتصر ، وجدُّهم الأكبر حماد - من شيعة بنى عُبيدٍ وأتباعِهم والقائمين بدعوتهم ؛ ومن بلادهم - أعنى صنهاجة - قامت دعوةُ بنى عُبيد ؛ وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها (١) ؛ فلم يزل مُلك بنى حماد هؤلاء مستمرا ، ودولتهم قائمةً ، وأمرهم نافذا ، لا ينازُعهم أحدٌ شيئاً مما فى أيديهم ؛ إلى أن أخرجهم من ذلك كلّه وملكه بأسره وضمّه إلى مملكته : أبو محمد عبد المؤمن بن على فى التاريخ الذى تقدم !

ولما مَلك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها ، رتّب من الموحّدين من

= بجاية حتى استولى عليها وعلى قلعة بنى حماد وسائر تلك النواحى ، أمير الموحدين عبد المؤمن بن على . ويذكر ابن الأثير وابن كثير أن مسير عبد المؤمن نحو بجاية ومملكة بنى حماد ، كان فى سنة ٥٤٦ ، وتمت له الغلبة عليها فى سنة ٥٤٧ خلافاً لما يذكره المراكشى .

(١) كذلك كانوا قبل أن يقطع المعز بن باديس الصنهاجى خطبة المستنصر سنة ٤٣٥ ويخلع طاعته . انظر التعليق رقم ١ ص ٢٠٤

يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها ؛ واستعمل عليها ابنه عبدَ الله ؛ وكرّ راجعا إلى مراكش ومعه وفى جُنده يحيي بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته ؛ فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتّسِعة والمراكب النبيلة والكِسَى الفاخرة والأموال الوافرة ؛ وخصّ يحيي من ذلك بأجزلِه، وأسناه وأحفلِه ؛ ونال يحيي هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما، وأظهر عبد المؤمن عنايةً به لامزيدَ عليها ...

بلغنى من طرق عدة أن يحيي بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوما، فذكروا تعذُّرَ الصرف ؛ فقال يحيي : أما أنا فعليَّ مِن هذا كُلْفةٌ شديدة، وعبيدى فى كل يوم يشكون إليَّ مايلقَون من ذلك، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف ـ وذلك أن عادتهم فى بلاد المغرب أنهم يضربون أنصافَ الدراهم وأرباعَها وأثمانها والخراريب، فيستريحُ الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بِياعاتُهم ـ فلما قام يحيي بن العزيز من ذلك المجلس، أتْبعه عبدُ المؤمن ثلاثةَ أكياسٍ صُروفٌ كلُّها، وقال لرسوله: قل له لايتعذرْ عليك مطلوبٌ مادمت بحضرتنا إن شاء الله عز وجل !

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش، مرتِّباً للأمور المختصة بالمملكة، من بناء دور، واتخاذِ قصور، وإعداد سلاح، واستنزال مُستعصٍ، وتأمينِ سُبُل، وإحسانٍ إلى رعية، وما هذا سبيله.

فصل

[أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين]

فأما أحوال جزيرة الأندلس ، فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلّت أحوالُها اختلالا مُفرِطا ، أوجب ذلك تخاذلُ المرابطين وتواكلهم ، ومَيلُهم إلى الدَّعة ، وإيثارُهم الراحة ، وطاعتُهم النساء ؛ فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلُّوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ؛ وكان أيضاً من أسباب ماذكرناه من اختلالها ، قيامُ ابن تومرت بسوس ، واشتغالُ على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة .

ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ماذكرناه من ضعف أحوال المرابطين، اخرجوا مَن كان عندهم من الولاة ، واستبدّ كلٌّ منهم بضبط بلده ؛ وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بنى أمية ؛ فأما بلاد أفراغَة فاستولى عليها ملك ارغن لعنه الله (١) ، ومَلك مع ذلك سَرَقُسْطة (٢) - أعادها الله للمسلمين - وكثيراً من أعمال تلك الجهات .

واتفق أمر أهل بلنسيه ومرسية و جميع شرق الأندلس على تقديم رجل

(١) هوريموندبيرنجه الرابع ، استولى فى سنة ٥٤٣ على طرطوشة ، وملك معها جميع قلاعها ، وحصون لاردة وأفراغة .

(٢) كان استيلاء الأسبان على سرقسطة سنة ٥١٢ — قبل الاستيلاء على أفراغة بإحدى وثلاثين سنة — فى عهد الأذفونش الأول ملك أرغون .

من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض ؛ وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم ؛ بلغنى عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجابَ الدعوة ؛ ومن عجائب أمره أنه كان أرقّ الناس قلباً وأسرَعهم دمعة ، فإذا ركب وأخذ سلاحه لايقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ؛ كان النصارى يعُدونه وحده بمائة فارس ، إذا رأوا رايته قالوا : هذا ابن عياض ! هذه مائة فارس ! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدوّ ببركة هذا الرجل الصالح ؛ وانتشر له من الهيبة فى صدور النصارى ما ردّهم عن البلاد . وأقام ابنُ عياض هذا بشرقى الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفى ، رحمه الله ونضر وجهه وشكر له سعيه ؛ لا أتحقق تاريخ وفاته [1] .

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد ، المعروف عندهم بابن مردنيش [2] ؛ كان محمد هذا خادما لابن عياض ، يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه فى حوائجه ؛ فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له : إلى من تُسند أمورَنا وبمن تشير علينا ؟ وكان له ولد ، فأشاروا

---

(١) مات من جراح أصابته فى فتنة نشبت فى مرسية ، سنة ٥٤١

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش ، ينتسب إلى جذام — من قبائل اليمن — ولكن أهل العلم ينكرون نسبه فى العرب ، ويرجحون أنه من أصل أسبانى ؛ وأن اسم جده الأعلى « مردنيش » محرف عن مرتينيس Martinez أى ابن مارتين ، ويقولون إن والد جده « أحمد بن مردنيش » هو أول من أسلم من آبائه ؛ وكان ينزع به عرق إلى الأسبانية ، لأنه كان يتشبه بملوك النصارى فى لباسه وسلاحه ، وكان أكثر جنده من مرتزقة الأسبان ، وكان لذلك متهما فى دينه ؛ وكان على صلة بملوك النصارى ، يهاديهم بالتحف والألطاف ، وربما استعان بهم على المسلمين فى حروبه ! .

وكان بين ابن مردنيش هذا والأمير ابن عياض صهر هيأ له السبيل إلى الإمارة من بعده فى مرسية وشرق الأندلس .

به عليه ؛ فقال : إنه لا يصلح ، لأنى سمعت أنه يشرب الخمر ويَغْفُل عن الصلاة ، فإن كان ولا بدّ فقدِّموا عليكم هذا - وأشار إلى محمد بن سعد - فإنه ظاهر النجدة كثير الغَناء ، ولعل الله أن ينفع به المسلمين !

فاستمرّت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات فى شهور سنة ٥٦٨ (١) .

* * *

وأما أهل المَرِية فأخرجوا من كان عندهم أيضا من المرابطين ؛ واختلفوا فيمن يقدّمونه على أنفسهم ؛ فندبوا إليها القائد أبا عبد الله بن ميمون ، ولم يكن منهم ، إنما هو من أهل مدينة دانية ؛ فأبى عليهم وقال : إنما أنا رجلٌ منكم ، ووظيفتى البحرُ وبه عُرفت ؛ فكل عدوٍ جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ؛ فقدِّموا على أنفسكم من شئتم غيرى ! فقدَّموا على أنفسهم رجلا منهم اسمه عبد الله بن محمد ، يُعرف بابن الرميمى (٢) ؛ فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه

---

(١) فى الإحاطة : أنه مات وهو محصور بمرسية سنة ٥٦١ وفى نفح الطيب : أن وفاته كانت سنة ٥٦٦

(٢) يكنى أبا يحيى ، وكان أديبا ظريفا طيب النفس ، وأصل بنى الرميمى من بنى أمية ملوك الأندلس ؛ وينتسبون إلى رميمة : قرية من أعمال قرطبة . وكان يتولى المرية قبله عامل من قبل الموحدين اسمه ابن مخلوف ؛ فخلع أهل المرية طاعة الموحدين وقتلوا عاملهم ذاك ، وولوا عليهم أبا يحيى ابن الرميمى ؛ فلما دخل النصارى المرية وفعلوا بها مافعلوا ، فر ابن الرميمى إلى فاس ، وعاش بها ضائعاً خاملا ، يسكن فى غرفة مفردة ويعيش من نسخ الكتب ؛ وفى ذلك يقول :

أمسيتُ بعد المُلك فى غرفةٍ ضيِّقةِ الساحلِ والمدخلِ
تستوْحِشُ الأرزاقُ من وجهها فما تزالُ الدهرَ فى معزِلِ
النسخ بالقوتِ لديها ولا تقرَعُها كفٌ أخٍ مُفْضِلِ !

فبينما هو ذات ليلة فى غرفته تلك ينسخ فى ضوء السراج ، سمع قرعاً بالباب ، ففتحه ، فإذا شخص متنكر لا يعرفه وقد مد يده إليه بصرة فيها دنانير ، ويقول : خذها من كف أخ ... وأنت

النصارى من البر والبحر ؛ فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم فى خبر يطول ذكره [١].

* * *

ومَلك جَيَّانَ وأعمالها إلى حصن شَقورة وما والى تلك الثغور، رجلٌ اسمه عبد الله، لا أعرف اسم أبيه، هو معروف عندهم بابن هَمُشْك؛ وربما ملك عبد الله [٢] هذا قرطبة أياما يسيرة.

وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وأشبيلية.

* * *

فهذه جملة أحوال الأندلس فى آخر دعوة المرابطين؛ وفى ضمن هذه الجملة جُزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربتُ عن ذكرها خوفاً من الإطالة، لأنها نكرةٌ والتعريف بها مُخرج إلى الطول.

وقام بمغرب الأندلس دُعاة فتن ورءوس ضلالات؛ فاستفزُّوا عقول

= المفضل! يشير إلى أبياته تلك. فأخذها أبو يحيى وحسنت بها حاله. وله غير هذا شعر جيد.

(١) روى المقرى أن عدد من سبى من أبكار المرية فى هذه الغارة بلغ ١٤ ألفاً!

(٢) كذا يسميه المراكشى: عبد الله ابن همشك؛ وفى غيره: إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك؛ وهمشك جده نصرانى أسلم على يد بنى هود بسرقسطة؛ وقد اتصل ابن همشك بالأمير ابن عياض أمير شرق الأندلس، فتهيأ له بهذه الصلة أن يتأمر على شقورة وقلاعها، وغلظ أمره حتى ساوى ابن مردنيش، وداخله حتى زوجه بنته، ثم فسد ما بينهما بسبب هذا الصهر فتعاديا؛ وكان جباراً عنيفا شديد النكال عظيم الجرأة، وقد صفا ما بينه وبين الموحدين فى آخرة أمره، فأقطعوه بمكناسة أملاكا ذات خطر، وأقام بها إلى أن مات.

ويروى ابن الأبار فى «تحفة القادم» شعراً لأبى بكر اليعمرى، من أهل بذة يهجو به إبراهيم ابن همشك:

همُشكُ ضُمَّ من حرَفيـنِ : من هَمٍّ ، ومن شكِّ
فعَينُ الدين والدنيـا لإمرته أسًى تبكى !

الجهال ، واستمالوا قلوبَ العامّة ؛ من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قَسِيّ ؛ كان فى أول أمره يدّعى الولاية ، وكان صاحبَ حيلٍ ورَبَّ شَعبذة ، وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ؛ ثم ادعى الهداية ؛ بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ؛ ثم لم يستقم له شىء مما أراد ، واختلف عليه أصحابه ؛ وكان قيامه بحصن مارتلة ـ وقد تقدم اسم هذا الحصن فى أخبار الدولة العَبَّادية [1] ـ فأسلمه ـ كما ذكرنا ـ أصحابه ، واختلفوا عليه ، ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد ؛ فعبروا به إلى العدوة ، فأتوا به عبدَ المؤمن رحمه الله ، فقال له : بلغنى أنك ادعيت الهداية ! فكان من جوابه أن قال : أليس الفجر فجران [2] : كاذب وصادق ؟ فأنا كنت الفجرَ الكاذب ! فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ؛ ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعضُ أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ؛ ولابن قسى هذا أخبار قبيحة ، مضمونها الجراءة على الله سبحانه ، والتهاون بأمر الولاية ؛ منعنى من ذِكرها صَرْف العناية إلى ما هو أهم منها .

[عبور الموحدين إلى الأندلس]

ولما انتشرت دعوة المصامدة ـ كما ذكرنا ـ بالمغرب الأقصى ، تشوّف إليهم أعيانُ مغرب الأندلس ؛ فجعلوا يفِدون فى كل يوم عليهم ، ويتنافسون فى الهجرة إليهم ؛ فدخل فى ملْكهم كثيرٌ من جزيرة الأندلس ، كالجزيرة

(١) انظر ص ١٤٢ ـ ١٤٣

(٢) كذا قال ؛ وهو غلط نحوى .

الخضراء ، ورندة ؛ ثم أشبيلية ، وقرطبة ، وأغرناطة ؛ وكان الذى فتح هذه البلاد الشيخُ أبو حفص عمر إينْتى المتقدّم الذكر فى أهل الجماعة (١) ؛ واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس .

فلما رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعا عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس ؛ فسار حتى نزل مدينة سَبتة ، فعبر البحر ، ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسماه هو جبلَ الفتح ؛ فأقام به أشهراً ، وابتنى به قصوراً عظيمة ، وبنى هناك مدينة هى باقية إلى اليوم ؛ ووفد عليه فى هذا الموضع وجوهُ الأندلس للبيعة ، كأهل مالَقة ، وأغرناطة ، ورُندة ، وقُرطبة ، وأشبيلية ، وما والى هذه البلاد وانضمّ إليها ؛ وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفى مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذنُ لهم .

[محمد بن حبوس الفاسى الشاعر]

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ؛ فدخلوا ، فكان أول من أنشد : أبو عبد الله محمد بن حَبُّوس من أهل مدينة فاس ؛ وكانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسى ، فى قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير ؛ إلا أن محمد بن هانئ كان أجودَ منه طبعا وأحلى مَهْيعاً : فأنشد فى ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد . [أولها] :

(١) انظر ص ١٨٨

بلغ الزمانُ بهدْيكمُ ما أمّــلا ٭ وتعلمتْ أيامُــه أن تعدلا

وبحسْبهِ أن كان شيئاً قابلاً ٭ وجَد الهدايةَ صورةً فتشَكلا

لم يبق على خاطرى منها أكثر من هذين البيتين .

ولابن حبّوس هذا قصائد كثيرة ؛ وكان حظِيا عنده[١]، نال فى أيامه ثروة ، وكذلك فى أيام ابنه أبى يعقوب ؛ وكان فى دولة لمتونة[٢] مقدَّماً فى الشعراء ، حتى نُقلت إليهم عنه حماقاتٌ ؛ فهرب إلى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفيا ينتقل من بلد إلى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية .

قرأ علىّ ابنُه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة شِلْب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتُها ثلاثة أيام لم أَطْعَمْ فيها شيئا ؛ فسألت عمن يُقْصدُ إليه فيها ، فدلّنى بعض أهلها على رجل يُعرف بابن الملح ؛ فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سِحاةً ودواة ، فأعطانيهما ؛ فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدّهليز ؛ فسلّمت عليه ، فرحب بى وردَّ علىّ أحسنَ رد ، وتلقانى أحسنَ لقاء ، وقال : أحسَبُك غريبا ! قلت : نعم ؛ فقال لى : من أى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ؛ ثم أنشدته الأبيات التى قُلت ؛ فوقعت منه أحسن موقع ؛ فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلىّ الطعام ، وجعل يحدّثنى ؛ فما رأيتُ أحسنَ محاضرةً منه ؛ فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عَبدان يحملان

---

(١) يعنى عند عبد المؤمن

(٢) يعنى دولة المرابطين .

صندوقا حتى وضعه بين يدىّ ؛ ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مُرابِطِية ، فدفعها إلىّ وقال : هذه لك ! ثم دفع إلىّ صُرَّةً فيها أربعون مثقالا ، وقال : هذه مِن عِندى ! فتعجبت من كلامه وأَشْكَلَ علىّ جدا ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى : سأحدّثك : إنى أوقفتُ أرضا من جملة مالى للشعراء ، غلَّتُها فى كل سنة مائةُ دينار ؛ ومنذ سبع سنين لم يأتى أحد لتوالى الفِتن التى دَهمت البلاد ؛ فاجتمع هذا المال حتى سِيقَ إليك ؛ وأما هذه فمن حُرِّ مالى ! يعنى الأربعين دينار ؛ فدخلتُ عليه جائعا فقيرا ، وخرجت عنه شبعان غنيا[1] .

[الأصم المروانى الشاعر ، ابن الطليق]

وأنشده فى ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المرْوَانىّ [2] ، كان

---

(١) انظر قصة ابن عمار فى « شلب » ، والسوقى الذى ملأ مخلاته شعيراً ، ص ١١٤

(٢) لما انتثرت دولة بنى مروان بالأندلس وتغلب ملوك الطوائف على ما بأيديهم من البلاد ، تفرق من بقى من بنى مروان فى البلاد وانبثوا فى الشعب وعاشوا كما يعيش سائر الناس، بلا جاه ولا سلطان ؛ ولكن أوليتهم ظلت تحفظ لهم الهيبة فى نفوس العامة والخاصة على السواء ، ولقبهم الناس بالشرفاء ؛ فكل من نسل من بنى مروان فهو عندهم « الشريف المروانى » ، وقد حفظت كتب الأدب والتاريخ أسماء طائفة من أعلام الشرفاء المروانيين ، منهم الشاعر ، والكاتب ، والفارس ، والزاهد ، والمشتغل بتحصيل العلم والتأليف فى أصوله وفروعه ؛ فمن هؤلاء هذا الشريف المروانى الذى يروى المراكشى مدحه لعبدالمؤمن .

ويسمى المقرى هذا الشاعر : الأصم المروانى ؛ ويقول إنه أنشد هذه القصيدة فى مدح عبدالمؤمن يعارض بها بائية أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب

وسيورد المراكشى فيما بعد ، حديثا عن الشريف المروانى الطليق جد الشاعر ، معللا تسميته بالطليق ، طليق النعامة . وقد أورد المقرى حديثا يشبهه عن الشريف مروان بن عبدالرحمن بن عبدالملك بن الناصر الأموى ، ويسميه « الطليق » أيضا ؛ ثم يعلل هذه التسمية قائلا : « إنه لما قتل أباه — وقد وجده مع جارية له كان يهواها — سجنه المنصور ابن أبى عامر مدة ، إلى أن رأى =

شريفا من جهة أمه :

ما لِلعَدا جُنَّةٌ أوقى من الهربِ * ... ...

فقال عبد المؤمن رافعا صوته : إلى أين ... إلى أين ؟ فقال الشاعر :

... ... * أين المفرُّ وخيلُ الله فى الطلب !

وأين يذهب من فى رأس شاهقةٍ * وقد رَمَتْه سماءُ الله بالشُهُبِ

حَدِّثْ عن الروم فى أقطارِ أندلس * والبحرُ قد مَلأ العِبْرَينِ بالعرب[1]

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تُمدح الخلفاء ! فسمَّى نفسه خليفةً كما ترى ...

وجدٌ هذا الشاعر هو الشريف الطليق ، طليقُ النَّعامة ؛ وإنما سُمى بذلك لأنه كان محبوسا فى مُطبِق أبى عامر محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور القائم

= فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم يأمره بإطلاقه ، فأطلقه ، فمن أجل ذلك عرف بالطليق ... »

ولسنا ندرى أهذا الطليق الذى يسميه المقرى هو الطليق الذى يعنيه المراكشى ، اختلف الرواة فى سبب تسميته بالطليق ، أم هو طليق مروانى آخر من طلقاء المنصور بن أبى عامر ؟.

ثم اعجب لتصرف الأقدار ؛ فإن هذا المنصور بن أبى عامر الذى يستعبد ويعتق ، ويسجن ويطلق ، ويتصرف فى حريات بنى مروان ومعايشهم ــ لم يكن فى أوليته إلا عاملا من عمالهم وصنيعة من صنائعهم ؛ والملك لله يورثه من يشاء من عباده !

وانظر خبر ابن عطاف اليفرنى مع شريف مروانى آخر ، هامش ص ٥٢ ــ ٥٣

(١) أورد المقرى من هذه القصيدة قوله :

وطوْدُ طارقَ قد حَلَّ الإمامُ به * كالطُورِ كان لموسى أيمنَ الرتب

لو يعرف الطَودُ ما غشَّاه من كرمٍ * لم يبسط النور فيه الكفَّ للسحب

ولو تيقَّنَ بأساً حلَّ ذِرْوَتَهُ * لغار كالعَين من خوفٍ ومن رَهَب

منه يُعاوَدُ هذا الفتحُ ثانيةً * أضعافَ ما حدَّثوا فى سالف الحِقبِ

ويلبس الدينُ غضًّا ثوبَ عِزَّته * كأن أيام « بدرٍ » عنه لم تغِبِ .

بدعوة هشام المؤيد ، أقام فى ذلك المحبس سنين ، فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنْك العيش ، فرُفعت إلى ابن أبى عامر ؛ فأخذها فى جملة رِقاع ودخل إلى داره ، فجاءت نعامةٌ كانت هناك ، فجعل يُلقى إليها الرقاع ، فتبتلع شيئا وتُلقى شيئا : فألقى إليها رقعة هذا الشريف فى جملة الرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقتها فى حِجره ، فرمى بها إليها ثانية ، فدارت القصرَ كلَّه ثم جاءت وألقتها فى حجره ، فرمى بها إليها ثالثة... وفعلت ذلك مرارا ؛ فتعجب من ذلك ، وقرأ الرقعة ، وأمر بإطلاقه ؛ فسُمى بذلك طليقَ النعامة !

* * *

وأنشد فى ذلك اليوم رجلٌ من أهل أشبيلية يُعرف بابن سيِّد ، ويلقب باللص :

غَمِّض عن الشمس واستقِصر مَدَى زُحَلِ
وانظر إلى الجبلِ الراسى على جَبلِ
أَنَّى آستَقرَّ به ، أَنَّى استقلَّ به ✽ أَنَّى رأى شخصَه العالى فلم يَزُلِ

فقال له عبد المؤمن : لقد ثقَّلتَنا يارُجل ! فأمر به فأجلس ؛ وهذه القصيدة من خيار مامُدِح به ؛ لولا أنه كدَّر صفوَها بهذه الفاتحة .

[الرصافى الرفاء الشاعر]

وأنشده فى ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البَلَنسى المعروفُ بالرُّصافى ؛ كان مستوطنا مدينة مالقة (١) :

---

(١) منسوب إلى رصافة بلنسية ؛ وكان شاعر عصره ؛ اقتصر على التعيش من صناعة احترفها =

لو جئتَ نارَ الهدَى من جانبِ الطُّورِ * قَبستَ ماشئتَ من عِلمٍ ومن نُورِ
من كلِّ زَهراءَ لم تَرْفعْ ذُؤابتَها * ليلاً لِسارٍ ولم تُشبَبْ لمقْرُورِ
فَيضيَّةِ القدْحِ من نورِ النُّبوَّةِ أو * نورِ الهدايةِ تجلو ظُلمةَ الزُّورِ
مازال يُقيضمُها التقوى بمَوْقِدِها * صَوّامُ هاجرةٍ قوّامُ دَيجُورِ
حتى أضاءت من الإيمان عن قَبَسٍ * قد كان تحت رَمادِ الكفرِ مكفورِ
نورٌ طوَى اللهُ زَنْدَ الكونِ منه على * سقْطٍ إلى زمنِ المهديِّ مذخورِ
وآيةٌ كأياتِ الشمسِ بين يدَىْ * غزْوٍ على الملكِ القَيْسيِّ منذورِ
يادارُ دارَ أميرِ المؤمنين بسفحِ الطَّودِ طودِ الهدى، بُورِكتِ في الدُّورِ
ذاتِ العِمادَيْن من عِزٍّ ومملكةٍ * على الأساسين من قُدس وتطهير
ماكان بانيك بِالوانى الكرامةِ عن * قصرٍ على مجمعِ البحرين مقصورِ
مواطئٌ من نبيٍّ طالما وُصلتْ * فيها الخُطا بين تسبيحٍ وتكبير
حيث استقلَّتْ به نَعلاه بُورِكتا * فطيّبتْ كلَّ موطوءٍ ومعبور
وحيث قامت قناةُ الدين ترفُلُ في * لواءِ نصرٍ على البَرَّين منشور
في كفِّ منشمِرِ البُردَينِ ذى وَرَعٍ * على التُّقى وصفاءِ النفس مفطور

= وهى رفُّ الثياب، ترفعاً عن التكسب بشعره، فأمداحه لذلك قليلة؛ وكانوا يسمونه «ابن رومى الأندلس» توفى سنة ٥٧٢ بمالقة.

ومن شعره فى الترفع عن امتداح الملوك:

على أنني لا أرتضى الشعرَ خطةً * ولو صيّرتْ خُضرَ أمسارحيَ الغُبْرا
يقول أُناس: لو رفعتَ قصيدةً * لأدركتَ حتماً فى الزمان بها أمرا!
ومِن دون هذا غَيرةٌ جاهليةٌ * وإن هى لم تلزم فقد تلزم الحُرّا
ألم يأتهم أنى وأدتُ بحُكمها * بُنيّاتِ صدرى قبل أن تبرح الصدرا؟

يلقاك في حال غيب من سريرته ✿ بعالم القدس مشهود ومحضور

تسنم الفلك من سخط المرار وقد ✿ تؤدين ياخير أفلاك العلا سيرى (١)

فسرن يحملن أمر الله من ملك ✿ بالله مستنصر في الله منصور

يومى له بسجود كل محركة ✿ منها، ويوليه حمداً كل تصرير

لما تسابقن في بحر الزقاق به ✿ تركن شطيه في شك وتحيير

أهز من موجه أثناء مسرور؟ ✿ أم خاض من لجه أحشاء مذعور؟

كأنه سالك منه على وشل ✿ في الأرض من مهج الأسياف مقطور

من السيوف التي ذابت لسطوته ✿ وقد رمى نار هيجاها بتسعير

ذو المنشآت الجوارى في أجرتها ✿ شكل الغدائر في سدل وتضفير

أعدى المياه وأنفاس الرياح لها ✿ مافى سجاياه من لين وتعطير

من كل عذراء حبلى في ترائبها ✿ ردعان من عنبر ورد وكافور

نجالها بين أيد من مجاذفها ✿ يغرقن في مثل ماء الورد من جور

وربما خاضت التيار طائرة ✿ بمثل أجنحة الفتخ الكواسير

كأنما عبرت تختال عائمة ✿ في زاخر من يدى يمناه معصور

حتى رمت جبل الفتحين من كثب ✿ بساطع من سناه غير مبهور

لله ما جبل الفتحين من جبل ✿ معظم القدر في الأجيال مذكور

من شامخ الأنف في سحنائه طلس ✿ له من الغيم جيب غير مزرور

معبراً بذراه عن ذرى ملك ✿ مستمطر الكف والأكناف ممطور

(١) كذا بالأصل؛ ولم نتبين وجهه، أو صوابه.

تُمسي النُّجوم على إكليل مَفْرِقِهِ ✿ في الجوِّ حائمةً مثل الدنانير
وربما مَسَحته من ذوائبها ✿ بكلِّ فضلٍ على فوْدَيْهِ مجرور
وأدْرَدٍ مِن ثناياهُ بما أخذتْ ✿ منه مَقاحِمُ أعْوادِ الدَّهارير
مُحنَّكٍ حلبَ الأيامَ أشْطُرَها ✿ وساقها سوْقَ حادِي العِير للعِير
مُقيَّدِ الخطْوِ جوَّال الخواطِر في ✿ عجيبِ أمْرَيْهِ من ماضٍ ومنظور
قد واصل الصَّمتَ والإطراقَ مُفتكِراً ✿ بادي السَّكينةِ مُغْبَرَّ الأسارير
كأنه مُكْمَدٌ مما تعبَّدَهُ ✿ خوْفُ الوعيدَين من دكٍّ وتسيير
أخلِقْ به وجبالُ الأرض راجفةٌ ✿ أن يطمئنَّ غداً من كلِّ محذور
كفاه فضلاً أنِ انتابتْ مواطِئَهُ ✿ نعْلا مليكٍ كريمِ السَّعْيِ مشكور
مُستنْشِياً بهما ريحَ الشفاعةِ مِن ✿ ثرًى إمامٍ بأقصى الغرب مقبُور
ما انفكَّ آمِلَ أمرٍ منه بين يدَيْ ✿ يوْمِ القيامة محتومٍ ومقدور
حتى تصدَّى من الدُّنيا على رَمَقٍ ✿ يستنجِزُ الوعد قبل النَّفخِ في الصور
مُستقبِلَ الجانبَ الغربيَّ مرتقِباً ✿ كأنه باهتٌ في جو اسمير[1]
لِبارقٍ مِن حُسامٍ سَلَّهُ قَدَرٌ ✿ بالغرْبِ من أُفُقِ البيضِ المشاهير
إذا تألَّقَ قيسيًّا أهابَ بِهِ ✿ إلى شفًى من مُضاعِ الدِّين موتورِ
مَلْكٌ أتى عِظماً فوق الزمان فما ✿ يمر فيه بشيءٍ غيرِ محقور
ما عنَّ في الدين والدُّنيا له أرَبٌ ✿ إلا تأتَّى له من غيرِ تعذير
ولا رَمى مِن أمانيه إلى غرَضٍ ✿ إلا هدَى سهمَه نُجحُ المقادير

(١) كذا بالأصل ، ولم نتبين وجهه ، أو صوابه .

حتى كأنَّ له فى كل آونةٍ * سُلطانُ رِقٍّ على الدنيا وتسخير

مُمَيَّزُ الجيشِ ، مُلْتفاً مواكبه * مِن كلِّ مثلولِ عرشِ الملكِ مقهور

من الأولى خضعُوا قسراً له وعنَوْا * لأمرِه بين مَنْهِىٍّ ومأمور

من بعْد ما عاندُوا أمراً فما تركوا * إذ أمكنَ العفْوُ ميسوراً لمعسور

بقِيَّةُ الحرْبِ ، فاتوها وما بهمُ * فى الضَّربِ والطعنِ سِيماءٌ لتقصير

لا ينكر القوم مما فى أكفِّهمُ * بيض مفاليل أو سُمْر مكاسير (١)

إذا صدَعْتَ بأمر الله مجتهداً * ضربتَ وحدَكَ أعناقَ الجماهير

لا يذهبنَّ لتقليلٍ أخو سببٍ * من الأمورِ ، ولا يرْكنْ لتكثير

فالبحرُ قدعادَ من ضرْبِ العصا يبَساً * والأرض قد غرِقَت من فوْرِ تنُّور

وإنما هو سيفُ الله قلَّدَهُ * أقوَى الهُداةِ يداً فى دفع محذور

فإن يكنْ بيدِ المهدىِّ قائمُهُ * فموضِعُ الحدِّ منه حدٌّ مشهورِ

والشمسُ إن ذكرَتْ موسى فما نسيتْ * فتاهُ يوشعَ قمَّاعَ الجبابير

وكان الرُّصافى يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة (٢) ؛ وهو من مُجيدى شعراء عصره ، لا سيما فى المقاطيع : كالخمسة الأبيات فما دونها ؛ وقد رويتُ شعره عن جماعةٍ ممن لقيه ، وقد رأيتُ أن أورد منه هاهنا نبذة يسيرة تدلّ على ما وصفناه به ، فمن ذلك قوله يصف نهر أشبيلية الأعظم ، وهو نهر لا نظير له فى الدنيا :

---

(١) كذا بالأصل ؛ ولو استقام له معنى لم يستقم له إعراب !

(٢) قلنا : وهذه القصيدة على ما فى بعض أبياتها من ركاكة وسخف ولحن ، تدل على شاعرية مبكرة ، وخاصة الأبيات التى يصف فيها الجبل ، جبل طارق ، فى وقفته ، وصمته ، وشموخ أنفه .

ومُهدَّلِ الشَّطَّينِ تحْسَبُ أنهُ ✿ مُتسايلٌ من دُرَّةٍ لصفائه

فاءتْ عليه مع الهجيرةِ سَرْحَةٌ ✿ صَدِئتْ لفيئَتِها صفيحةُ مائه

فتراه أزرقَ فى غُلالةِ سُمْرَةٍ ✿ كالدَّارع استلقَى بِظِلِّ لوائه

وله وقد اجتمع مع إخوان له فى بعض العَشَايا فى بستان رجلٍ يقال له موسى بن رزق :

ما مِثْلُ مَوْضِعِك ابنَ رِزْقٍ مَوْضِعُ ✿ رَوْضٌ يَرِقُّ وجَدْوَلٌ يتَدَفَّعُ

فكأنما هو من محاجرِ عادةٍ ✿ فالحُسْنُ يَنبُتُ فى ثَرَاه وينبُعُ

وعشيَّةٍ لبستْ رداءَ شُحوبها ✿ والجوُّ بالغيم الدَّقيقِ مُقنَّعُ

بلَغَتْ بِنا أمدَ السُّرورِ تألُّفا ✿ والليلُ نحو فِراقنا يتطلَّعُ

فابلُلْ بها رمقَ الغَبُوقِ فقد أتى ✿ مِن دُونِ قُرْصِ الشمسِ ما يُتوقعُ

سَقطتْ فلم يملكْ نديمُك ردَّها ✿ فودِدْتُ ياموسى لوانك يُوشَعُ

وله يصف عشية أيضاً فى موضع هذا الرجل المتقدم الذكر :

محَلٌّ ابنِ رزقٍ جَرَّ فيه ذُيولَه ✿ من المُزْنِ ساقٍ يحسن الجرَّ والسُّقيا

ذكرتُ عَشِيًّا فيك لا ذُمَّ عهدُهُ ✿ وإن نحن لم نَهْتَعْ ببهجتِه لُقيا

ولم يَعتلقْ بى منكَ عند افترِاقنا ✿ سِوى عبَقٍ من مسكِ فِيْنَتِكَ اللَّمْيا

وكنتُ أرانى فى الكَرى وكأننى ✿ اناولُ كالدِّينار من ذهب الدُّنيا

فلما انطوى ذاك الأصيلُ وحُسنُه ✿ على ساعةٍ من انسنا، صحَّتِ الرُّؤيا

وله يصف دولابا :

وذي حنين يكاد شوقاً ✲ يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جاراً ✲ قال له المحل لا مساسا
يبتسم الروض حين يبكى ✲ بأدمع ما رأين باسا
من كل جفن يسل سيفاً ✲ صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبيا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه، يحكى بذلك الدموع:

عذيري من جذلان يبدى كآبة ✲ وأضلعه مما يحاول له صفر
أميلد مياس إذا قاده الصبا ✲ إلى ملح الإدلال أيده السحر
يبل مآقى زهرتيه بريقه ✲ ويحكى البكا عمداً كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه ✲ وهل عصرت يوما من النرجس الخمر؟

وقال يصف نائما قد تحبب العرق على خده:

ومهفهف كالغصن إلا أنه ✲ سلب التثنى النوم عن أثنائه
أضحى ينام وقد تحبب خده ✲ عرقاً فقلت الورد رش بمائه

وللرصافى هذا افتنان فى الآداب؛ وكان رحمه الله عفيف الطعمة نزيه النفس، لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته فى كثير منه.

[وصل الحديث عن عبد المؤمن بن على]

وأقام عبد المؤمن بجبل الفتح، مرتباً للأمور، ممهداً للمملكة؛ وأعيان البلاد يفدون عليه فى كل يوم، إلى أن تم له ما أراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس.

فولى مدينة أشبيلية وأعمالها ابنه يوسف، وهو الذى ولى الأمور بعده

على ماسيأتى بيانه ؛ وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوى الرأى والتحصيل منهم مَن يرجع إليه فى أموره ، ويعوّل عليه فيما ينويه .

وولّى قرطبةَ وأعمالها أبا حفص عمر إينْتى .

وولى أغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن ، يكنى أبا سعيد ، وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الصرامة منهم ؛ وكان محبا فى الآداب ، مؤْثراً لأهلها ، يهتز للشعر ويُثيب عليه ، اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابةٌ ماعلمتها اجتمعت لملك منهم بعده .

ثم كرّ عبد المؤمن راجعاً إلى مراكش ، بعد ماملأ مامَلكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجالا من المصامدة والعرب وغيرِهم من أصناف الجند .

[منازل العرب الهلالية فى المغرب والأندلس]

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس ، استنفر أهل المغرب عامة ؛ فكان فيمن استنفره العربُ الذين كانوا ببلاد يحيي بن العزيز (١) ؛ وهم قبائلُ من هلال بن عامر ، خرجوا إلى البلاد حين خلَّى بنو عبيدٍ بينهم وبن الطريق إلى المغرب ؛ فعاثوا فى القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ؛ ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد (٢) ، وهذا بعد موت المعز بن باديس ؛ فانتقل تميم إلى المهدية (٣) ، وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر ؛

(١) يعنى مملكة بنى حماد بأفريقية ؛ وانظر التعليق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦

(٢) بنو حماد أصحاب بجاية ، وبنو باديس أصحاب القيروان والمهدية : ينتسبون جميعا إلى زيرى ابن مناد الصنهاجى الحميرى ، وقد فصلنا حديثهم فى التعليق رقم ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦

(٣) يعنى تميم بن المعز بن باديس ، وقد أزعجه هؤلاء العرب عن مقر ملكه ، حتى اضطر إلى النزوح من القيروان ـ حاضرة ملكه ـ إلى المهدية .

فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غـلّة البلاد ، من تمـرها وبُرِّها وغير ذلك ؛ فأقاموا على ذلك باقىَ أيامه ، وأيامَ ابنه الملقب بالعزيز ، وأيامَ يحيى ؛ إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله ، فأزال ذلك من أيديهم ، وصيَّرهم جنداً له ، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد.(١)

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس ، وأمر أن تُكتب فى آخرها أبياتٌ قالها ـ رحمه الله ـ فى ذلك المعنى ، وهى :

أقيمُوا إلى العلياءِ هُوجَ الرّواحِلِ * وقُودُوا إلى الهيجاءِ جُردَ الصواهل

وقُوموا لنصرِ الدِّينِ قومةَ ثائرٍ * وشُدُّوا على الأعداء شدّةَ صائل

فما العِزُّ إلا ظهرُ أجْردَ سابحٍ * يفوتُ الصَّبا فى شدِّهِ المتواصل

وأبيضَ مأثورٍ كأنَّ فِرِنْدهُ * على الماءِ منسوجٌ وليس بسائلِ

بنى العمِّ من عُلْيا هلالِ بن عامرٍ * وما جَمَعتْ من باسلٍ وابنِ باسلِ

تعالوْا فقد شُدّتْ إلى الغزْوِ نِيَّةٌ * عواقبُها منصورة بالأوائل

هى الغزوةُ الغرّاءُ والموعِدُ الذى * تنجّزَ من بعدِ المدَى المتطاولِ

بها تُفتحُ الدُّنيا ، بها تُبلَغُ المُنى ، * بها يُنصَفُ التحقيقُ من كلِّ باطل

أَهبْنا بِكم للخيرِ واللهُ حَسْبنا * وحَسْبُكمو واللهُ أعدلُ عادل

فما همُّنا إلا صلاحُ جميعِكم * وتسريحُكم فى ظلِّ أخضرَ هاطل

(١) استمر هؤلاء العرب من بنى هلال بن عامر مصدر قلق فى شمال أفريقية أكثر من قرن ولهم وقائع مذكورة تطفح بها كتب التاريخ ؛ ومن وقائعهم هذه استمد القصاص الشعبى إلهامه فى « سيرة أبى زيد الهلالى سلامة » التى ماتزال تلاوتها حتى اليوم مادة من مواد السمر المحبوب فى المجامع الشعبية .

وانظر التعليق رقم ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦

وتسويغُكم نُعْمَى ترفُّ ظِلالُها * عليكم بخيرٍ عاجلٍ غيرِ آجل
فلا تتوانوْا فالبِدارُ غنيمةٌ * وللمُدْلجِ السارى صفاءُ المناهل

فاستجاب له منهم جمع ضخم؛ فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها؛ فجعل بعضهم فى نواحى قُرطبة، وبعضهم فى نواحى أشبيلية مما يلى مدينة شرِيش وأعمالها؛ فهم بها باقون إلى وقتنا هذا - وهو سنة ٦٢١ - وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير؛ وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك: فبالجزيرة اليومَ من العرب من زُغبة ورياح وجُشم ابن بكر وغيرِهم نحوٌ من خمسة آلاف فارس سوى الرَّجالة.

* * *

وكان عبورُ عبد المؤمن - رحمه الله - إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح فى سنة ٥٣٨، ثم كرّ - كما ذكرنا - راجعاً إلى مراكش؛ فأخبرنى غير واحد ممن أرضى نقْله، أنه لما نزل مدينة سَلاَ - وهى مدينة على البحر الأعظم المحيط، ينصبُّ إليها نهر عظيم يصب فى البحر المذكور - عبَر النهر، وضُربت له خيمة على الشاطئ؛ وجعلت العساكر تعبر قبيلةً بعد قبيلة: فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم، خرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه وقد بلَّ الدمعُ لحيتَه؛ والتفت إلى مَن عنده وقال: «أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شىء لهم إلا رغيف واحد، فراموا عُبور هذا النهر، فأتوا صاحب القارب وبذَلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال: لا آخذه إلا على اثنين خاصة؛ فقال لهم أحدهم - وكان شابا جَلداً -: خذا ثيابى معكما وأعبر أنا سباحةً! فأخذا ثيابه

معهما ، وصعدا فى القارب ؛ فجعل الشابُّ يسبح ، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح ، فضَرَبه صاحبُه بالمجداف الذى معه حتى يؤلمه ؛ فما بلغ البرَّ إلا بعد جهد شديد ! » .

فما شك السامعون للحكاية أنه العابر سباحةً ، وأن الاثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقى .

ثم سار حتى أتى مراكش ، فنزلها ، وأخذ فى البناء والغراسة وترتيب القصور ، غير مُخِلٍّ بشىء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبُّب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافتُه .

وأخبرنى السيد حقيقة والماجد خلقا وخليقة ، أبو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن بن على : أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين ، وقال لى رحمه الله : لا أدرى هماله أو لغيره (١) :

وَحكِّمِ السَّيْفَ لا تعبأ بعاقبةٍ ۞ وَخلِّها سِيرةً تَبْقَى على الحِقَبِ

فما تُنالُ بغير السيف منزلةٌ ۞ ولا تُرَدُّ صدورُ الخيلِ بالكُتُبِ

وقد كان عبد المؤمن حين فَصَل عن بِجاية وولَّى عليها ابنه عبد الله - حسبما تقدم (٢) - عَهِدَ إليه أن يشن الغارات على نواحى أفريقية ؛ (٣) وأن

(١) نحسبهما من شعر الأصم المروانى ، من قصيدته التى أولها :

۞ ما للعِدا جُنَّةٌ أوقى من الهرب ۞

انظر ص ٢١٥ – ٢١٦

(٢) انظر ص ٢٠٧

(٣) كان ذلك بعد انتثار عقد دولة بنى باديس ، وفرار آخر ملوكها أبى يحيى الحسن بن على . أنظر التعليق ص ٢٠٤ – ٢٠٦

يُضيق على تونس ويمنع عنها المرافق التى تصل إليها على طريقه ؛ ففعل ذلك .

[غزو الموحدين لأفريقية]

ثم إن عبد الله تجهز فى جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم ، وسار حتى نزل على مدينة تونس ، وهى حاضرة أفريقية بعد القَيروان ، وكرسىُّ مملكتها ، ومَقَرُّ تدبيرها ، وإياها يستوطن والى أفريقية ، لم يزل هذا معروفا من أمرها إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ فحاصرها عبد الله المذكور ، وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها ؛ وكان الذى يملكها فى ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومىّ صاحب صِقِلِّية ، لعنه الله ! وكان عامله عليها رجلٌ من المسلمين اسمه عبد الله ؛ يعرف بابن خراسان (١) ؛ لم يزل عاملا عليها حتى أخرجه الموحدون فى التاريخ الذى سيذكر ؛ فلما طال على ابن خراسان الحصار ، أجمع رأيه ورأى أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ؛ ففعلوا ذلك ، وخرجوا بخيلٍ ضخمة ؛ فالتقوا هم وأصحابُ عبدالله (٢) ؛ فانهزم أصحاب عبد الله ، وقُتل منهم خلق كثير ؛ ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بِجاية ؛ فكتب إلى أبيه يخبره بذلك .

[فتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين]

فلما كان فى آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن فى الحركة إلى أفريقية ؛ فجمع جموعا عظيمة من المصامدة وغيرِهم من جُند المغرب ؛ وسار حتى نزل على

---

(١) فى ابن الأثير : أحمد بن خراسان .

(٢) يعنى عبدالله بن عبدالمؤمن .

مدينة تونس ، فافتتحها عَنْوة ؛ وفَصَل عنها إلى مهديّةِ بنى عُبيد [١] : وفيها الروم أصحابُ ابن الدوقة ، وفيها معهم يحيي [٢] بن حسن بن تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور بن بُلُجِّين بن زِيرى بن مناد الصُّنهاجى ، ملوك القَيروان ؛ فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار ، وهى من معاقل المغرب المنيعة ؛ لأن بنيانها فى غاية الإحكام والوَثاقة ؛ بلغنى أن عَرض حائط سورها تَمْشى ستة أفراس فى صفٍّ واحد ، ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد ، والبحرُ فى قبضة مَن فى البلد : يدُخل الشينىّ كما هو بمُقاتِلتِه إلى داخل دار الصناعة ، لا يقدر أحدٌ ممن فى البر على منعه ؛ فبهذا َقدر الرومُ على الصبر على الحصار ؛ لأن النجدة كانت تأتيهم من صِقِلِّية فى كل وقت ؛ وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياما ؛ وأصابتهم عليها شدةٌ شديدة من غلاء

(١) تسمى مهدية بنى عبيد ، لأن بانيها هو المتسمى بالمهدى رأس دولة العبيديين ، وكانت حاضرتهم قبل أن ينتقلوا إلى القاهرة .

(٢) ذكرنا فى التعليق ص ٢٠٥ أن أبا يحيي حسن بن على بن يحيي بن تميم بن المعز ، آخر ملوك بنى باديس ، لجأ إلى ابن عمه يحيي بن العزيز صاحب بجاية ، بعد انتهاء ملكه واستيلاء صاحب صقلية على المهدية ؛ فالآن نذكر أن أبا يحيي هذا فى أثناء مسيره إلى ابن عمه ببجاية ؛ لقيه بالطريق أمير من العرب اسمه حسن بن ثعلب ، فطالب أبا يحيي بمال كان له عنده ؛ فدفع إليه أبو يحيي ولده يحيي رهينة ؛ ثم سار فى طريقه ... فهل هو يحيي بن حسن الذى يعنيه المراكشى هنا ويقول إنه كان بالمهدية مع الروم حين قصد إليها عبدالمؤمن غازيا ؟ نعنى : هل دفعه حسن بن ثعلب أمير العرب إلى خصوم أبيه فى المهدية فظل بها معهم حتى جاء عبدالمؤمن لاستردادها من يد النصارى بعد اثنى عشر عاماً من احتلالهم إياها ؟

إن صح هذا فهو إذن : يحيي بن حسن [بن على] بن تميم بن المعز ... ابن بلكين . ويلاحظ أن المراكشى يسميه ابن بلجين ، بالجيم لا بالكاف .

ثم نقول : إن أبا يحيى حسن بن على آخر ملوك أفريقية ، كان فى جيش عبدالمؤمن هذا الذى سار لحصار المهدية واستردادها من يد الروم الصقليين ؛ فلما من الله عليهم بالفتح ، ظل أبو يحيي فى المهدية ، وأقطعه بها عبدالمؤمن رزقاً جزيلا ، وأمر نائبه عليها أن يتخذ أبا يحيي له معيناومشيرا...

السعر ؛ بلغنى عن غير واحد أنهم اشتروا الباقِلّاء فى العسكر ، سبع باقلات بدرهم مُؤمِنىّ ، وهو نصف درهم النِّصاب ؛ ثم افتتحها عبد المؤمن - رحمه الله - بعد أن أمّن النصارى الذين بها على أنفسهم ، على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدِهم حيث مملكةُ صاحبِهم ؛ ففعلوا ذلك ، ودخل عبدالمؤمن وأصحابُه المهديةَ فملكوها .

وبعث إلى قابس من افتتحها ، وفيها الروم أيضا .

[امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق]

ثم افتتح طرابلس المغرب ، وأرسل إلى بلاد الجريد ، وهى توْزَر ، وَقفْصة ، ونفطة ، والحامّة ، وما والى هذه البلاد ؛ فافتُتحت كلُّها ، وأَخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم كما تقدم ؛ فمحا الله به الكفر من أفريقية ، وقطع عنها طمع العدو ؛ فانتبه بها الدينُ بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله .

وتم لعبد المؤمن - رحمه الله - ملك أفريقية كلها منتظما إلى مملكة المغرب ؛ فملك فى حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة ، وأكثرَ جزيرة الأندلس ؛ وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ اختلت دولةُ بنى أمية إلى وقته .

[ألوان من شكر النعمة]

ثم كرّ عبدُ المؤمن راجعاً من أفريقية ، بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها ؛ فأخبرنى بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة ، أن

عبد المؤمن مرّ فى طريقه راجعاً من أفريقية ببِجاية ؛ فدخل البلد متنزهاً فيه ، فمرّ بِسوَيْقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاُطنت ؛ فوقف ووقفتْ معه وجوهُ دولته ؛ فسأل عن بيّاع بها سمّاه باسمه ؛ فأخبره أهلُ السُّويقة بوفاته ، فقال : هل خلّف عَقِبا ؟ قالوا : نعم ؛ فأمر بشراء جميع الدكاكين التى بتلك السويقة وأوقفها عليهم ، وأمر لهم بمال كثير ؛ ثم التفت إلى بعض خواصّه وقال له : أتيتُ إلى هذا البيّاع ولى وللإمام - يعنى ابن تومرت - ولجماعةٍ من أصحابنا من الطلبة أيامٌ لم نَطعَم فيها ، وما معى إلا سِكين الدّواة ؛ فأخذتُ منه خُبزاً وإداما ، ثم وضعت عنده السكين رهنا على ذلك ، فأبى قبولها وقال لى : إنى توسمتُ فيك الخير ؛ فمتى أعوزَكَ شىءٌ فهلُمّ الدكانَ فهو بين يديك وبحكمك ! فحقّه علىّ أكثرُ من هذا .

* * *

ونظر فى هذا اليوم الذى ركب فيه مخترقا بجاية إلى يحي بن العزيز (١) يمشى بين يديه راجلا وقد علاه الغبار ؛ فدمعت عيناه ، واستدعاه فقال له : أتذكر يوما خرجتَ إلى بعض منتزهاتك ، فأذكر أنى جمعنى وإياك هذا البابُ ، فوطئتْ دابتُك عَقِبى ، فلما نظرتُ إليك أمرتَ بعض عبيدك فوكزنى وكزةً كدت أقع منها لِفِىّ ! فاستحيا يحي وتغيّر لونُه وأطرق ، وجعل يقول : اللهَ اللهَ يامولاى ! وظنّ أنه الشر ؛ فلما رأى ذلك منه قال له : إنما ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار ؛ ولِتَذكُر وتنظر كيف تقلّبُ الأيامِ بأهلها !

---

(١) صاحب عرش بجاية قبل عبدالمؤمن ؛ وكان يصحبه فى أثناء مسيره إلى بجاية ؛ كما كان حسن بن على صاحب عرش المهدية الأول يصحبه فى مسيره إلى المهدية !

وأمر له بما زال به رَوْعه.

* * *

ومرّ فى طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التفّ فيه الدوْح، فجاءت منه دوْحة عظيمة فى وسطها رَحْبة نقية؛ فأمر أن يُضرب خِباؤه هنالك؛ وهو غيرُ منزلٍ معروف، فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول، قال لبعض خواصه: أتدرون لِمَ آثرتُ النزول بهذا المكان؟ قالوا: لا؛ قال: ذلك لأنى بِتُّ بهذا الموضع فى بعض الليالى جائعا مقرورا، وكانت ليلةً ممطورة: فما زال هذا الدوح وقائى حتى أصبحت؛ فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرقِ ما بين المنزلتين والفصلِ ما بين المبيتين! ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل. وجدتُ هذه الحكاية بخط رجل من ولدِ ولدِ عبدالمؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبدالمؤمن.

* * *

وبدا لهُ فى هذا الوجه أن يمر على القرية التى تُسمى تاجرا ـ وبها كان مولده كما تقدم [1] ـ لزيارة قبر أمه وصِلةِ مَنْ هُناك من ذوى رحِمِه؛ فلما أطلّ عليها والجيوشُ قد انتشرت بين يديه وقد خفقتْ على رأسه أكثرُ من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية، وهُزّتْ أكثرُ من مائتى طبل ـ وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الضخامة، يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتزّ ويحِسّ قلبه يكاد يتصدع من شدة دوِيّها ـ فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة؛ فقالت امرأةٌ عجوزٌ من عجائز القرية، ممن كانت تصحب أمّه: هكذا يعود الغريب إلى بلده! تقول ذلك رافعةً صوتها...

(١) انظر ص ١٩٧

[وفاء وفداء]

ونازع عبدَ المؤمن الأمرَ قومٌ من قرابة ابن تومرت يُعرفون بأيت ومَغار - معناه بالعربية : بنو ابن الشيخ - وانتهوا فى ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلا فيقتلوه؛ وظنوا أن ذلك يخفَى من أمرهم، وأن عبد المؤمن إذا فُقد ولم يُعلم مَن قتله صار الأمر إليهم؛ لأنهم أحق به؛ إذ كانوا أهلَ الإمام وقرابتَه وأولى الناس به؛ فأُعلم بما أرادوه من ذلك رجلٌ من أصحاب ابن تومرت، من خيارهم، اسمه اسماعيل بن يحيى الهزْرَجى؛ فأتى عبدَ المؤمن فقال له: يا أمير المؤمنين، لى إليك حاجة! قال: وما هى يا أبا إبراهيم؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية! قال: أن تخرج عن هذا الخباء وتدَعنى أبيتُ فيه! ولم يُعلمه بمراد القوم؛ فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوْهبه الخباء لأنه أعجبه؛ فخرج عنه وتركه له؛ فبات فيه إسماعيل المذكور؛ فدخل عليه أولئك القوم فتولَّوه بالحديد حتى بَرَد؛ فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المؤمن؛ فرُّوا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها؛ فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح، فأبوا عليهم؛ فضربوا عنقَ أحدهم وفرّ باقيهم؛ وكادوا يَغلبون على تلك القصور؛ ثم إن الناس اجتمعوا عليهم، من الجند وخاصّة العبيد، فقاتلوهم قتالا شديدا من لدُنْ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم؛ ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أُخذوا قبضاً باليد، فقُيِّدوا وجُعلوا فى السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن -

رحمه الله - إلى مراكش ؛ فقتلهم صبرا ، وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة ، بلغه أنهم قادحون فى مُلكه متربّصون به .

ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر فى الخباء مقتولا على الحال التى ذكرنا ، أعظم ذلك عبدُ المؤمن ووَجد عليه وجداً مُفرطا أخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع ، فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، ودُفن .

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحدٍ ذكر ، اسمه يحيي . نال يحيي هذا فى أيام أبى [يوسف] يعقوب جاها متسعا ورتبة عالية ، وكذلك فى أيام أبى عبد الله [محمد] ؛ كانت أكثر أمورهم ترجع إليه ؛ لم يزل كذلك إلى أن مات فى شهور سنة ٦٠٢ وترك بنتا واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، اسمها فاطمة ، لا عقب له منها ؛ طال عمرها ، تركتها بالحياة حين فصلتُ عن مراكش فى شهور سنة ٦١١ .

* * *

ولإسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر يَقرُبُ مما قدَّمنا فى النصح والتحذير ، تَلطَّف فيه إسماعيل غاية التلطف ؛ وذلك أن ابن تومرت حين خرج من مراكش على الحال التى تقدمتْ من إخراج أمير المسلمين إياه عنها (١) ، سار حتى نزل الضَّيعةَ التى فيها أبو إبراهيم ؛ فدخل المسجد ، فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون إلى ابن تومرت ويقول بعضهم لبعض همسا : هذا الذى نفاه أمير المسلمين عن بلاده لإفساده عقولَ الناس ؛ ونحوَ

(١) انظر ص ١٨٦

هذا القول؛ وهمّوا بقتله تقرّباً بذلك إلى أمير المسلمين؛ فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم، تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية: «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين.» ففهم ابن تومرت ما أراد، وخرج عن تلك الضيعة، وعَرف لأبى إبراهيم نصحه؛ ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد مااشتهر أمره بتينملّ؛ فهو معدود فى أهل الجماعة.

* * *

ولما َقتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً، هابه المصامدة وسائر أهل دولته، وعظم أمره فى صدورهم.

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفى أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس؛ وكُتبت عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضّهم على الجهاد ويرغّبهم فيه؛ فاجتمعت له جموع عظيمة؛ وخرج يقصد جزيرة الأندلس مُظهرا للغزو والاحتساب، ويتمم أيضا مع ذلك مابقى عليه من مملكتها مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر (١)؛ فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سَلاَ؛ فأقام بها ينتظر تكامل العساكر؛ فاعتلّ علته التى مات منها رحمه الله.

[وفاة عبد المؤمن وعهده لولده]

وكانت وفاته كما تقدم فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعنى سنة ٥٨.

---

(١) محمد بن سعد بن مردنيش، ملك شرق الأندلس. انظر ص ٢٠٩

وكان قد عَهِد فى حياته إلى أكبر أولاده محمد ، وبايعه الناس ، وكتب ببيعته إلى البلاد ؛ فأبى تمامَ هذا الأمر لمحمدٍ هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة ، من إدمان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ ويقال إنه مع هذا كان به ضَرْبٌ من الجُذام ، فالله أعلم .

ولما مات عبد المؤمن ، اضطرب أمر محمد هذا واختُلف عليه اختلافا كثيراً ؛ فكانت ولايته إلى أن خلع خمسا وأربعين يوما ، واتفقوا على خلعه فى شعبان من هذه السنة ؛ وكان الذى سعى فى خلعه ـ مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك ـ أخواه يوسف وعمر .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد فى التاريخ المذكور ، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف ، وعمر ؛ وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغَناء منهم ؛ فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختارا ؛ وبايع لأخيه أبى يعقوب ، وسلّم له الأمر ؛ حَمَله على ذلك فرُط عقله وإيثارُ دينه وحُبُّ المصلحة للمسلمين ؛ لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ؛ فبايع الناسُ أبا يعقوب ، واتفقت عليه الكلمة ؛ فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرِهم ؛ وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، وشدّةِ تلطّفه ، وجودةِ رأيه ؛ فاستوسق لأبى يعقوب هذا أمرُه ، وتمّت بيعتُه فى التاريخ المذكور ؛

وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت - كما ذكرنا - أخوه لأبيه وأمه، أبو حفص المتقدم الذكر.

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن على؛ أمّه وأمّ أخيه أبى حفص، امرأةٌ حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير: كان [موسى هذا] من [شيوخ] أهل تينملّ وأعيانهم، [من ضيعة يقال لها: أنسا]؛ وكان عبدالمؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينملّ، برأى ابن تومرت؛ وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة: إبراهيم، وعليا، ومحمدا؛ وبنات.

صفة أبى يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة، شديدَ سوادِ الشعر، مستدير الوجه، أفوَهَ، أَعْيَنَ، إلى الطول ماهو؛ فى صوته جهارة، رقيق حواشى اللسان، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، أَعْرَفَ النـاسِ كيف تكلمت العرب، وأحفَظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام؛ صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بأشبيلية والياً عليها فى حياة أبيه؛ ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن: منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الملك المعروف عندهم بابن مُلْكون؛ فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه.

أخبرنى من لقيته من ولده، كأبى زكريا، وأبى عبد الله، وأبى إبراهيم إسحاق، وغيرهم ممن لقيته وشافهتُه منهم، أنه كان أحسنَ الناس ألفاظا بالقرآن،

وأسرعَهم نفوذَ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظَهم للغة العربية ؛ وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال ؛ هذا مع إيثار للعلم شديد ، وتعطُّشٍ إليه مُفرط : صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ـ الشك منى : إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى ـ حَفِظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ؛ هذا مع ذِكر جُمل من الفقه ؛ وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساعٌ فى حفظ اللغة ، وتبحُّرٌ فى علم النحو حسبما تقدم ؛ ثم طمح به شرفُ نفسه وعلوُّ همته إلى تعلُّم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ؛ ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرفُ منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ؛ فاجتمع له منها قريبٌ مما اجتمع للحَكم المستنصر بالله الأموى [١] .

أخبرنى أبو محمد عبد الملك الشَّذونىّ [٢] ، أحد المتحققين بعلمَى الطب وأحكام النجوم ، قال : كنت فى شبيبتى أستعير كتب هذه الصناعة ـ يعنى صنعة الأحكام ـ من رجل كان عندنا بمدينة أشبيلية ، اسمه يوسف ، يُكنى أبا الحجاج ، يعرف بالمرانى (بتخفيف الراء) ، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعتْ إلى أبيه فى أيام الفتنة بالأندلس ؛ فكان يُعيرنى إياها فى غرائر : أحمل غرارة وأجىء بغرارة ؛ من كثرتها عنده ؛ فأخبرنى فى بعض الأيام أنه عَدِمَ تلك الكتبَ جملتها ؛ فسألته عن السبب الموجب لذلك ، فأسرَّ إلىَّ : إن خبرها أنهى إلى

(١) انظر التعليق رقم ٣ ص ٢٥

(٢) نسبة إلى شذونة : بلد من أعمال أشبيلية .

أمير المؤمنين ، فأرسل إلى دارى وأنا فى الديوان لا علم عندى بذلك ؛ وكان الذى ارسل كافور الخصىّ مع جماعة من العبيد الخاصة ، وأمره ألا يرُوعَ أحدا من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ؛ وتوعّده والذين معه أشدّ الوعيد إن نقص أهلَ البيت إبرةٌ فما فوقها ؛ فاخبرت بذلك وأنا فى الديوان ؛ فظننته يريد استصفاء أموالى ؛ فركبتُ وما معى عقلى ، حتى أتيتُ منزلى ؛ فإذا الخصىُّ كافور الحاجبُ واقفٌ على الباب والكتبُ تخرج إليه ؛ فلما رآنى وتبيَّنَ ذعرى قال لى : لا بأس عليك ! وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلّم علىّ ، وأنه ذكرنى بخير ! ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى ؛ ثم قال لى : سَلْ أهل بيتك هل راعهم أحدٌ أو نقصهم شىءٌ من متاعهم ؟ فسألتهم ، فقالوا : لم يَرُعْنا أحدٌ ولم ينقصنا شىء : جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاثَ مرات ، فأخلينا له الطريق ، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها . فلما سمعتُ هذا القول منهم زال ما كان فى نفسى من الرّوع .

وولّوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولايةً ضخمة ما كان يُحدّث بها نفسه .

ولم يزل (١) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصةً أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله ممن مَلَك المغرب .

[أبو بكر بن طفيل]

وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة

---

(١) يعنى الأمير أبا يعقوب .

المسلمين ؛ كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة ؛ قرأ على جماعة من المتحقّقين بعلم الفلسفة ، منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ؛ ورأيت لأبي بكر(١) هذا تصانيفَ في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك ؛ فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة « حيّ بن يقظان » غرضُه فيها بيانُ مبدإ النوع الإنساني على مذهبهم ؛ وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن ؛ ومن تصانيفه الإلهيات رسالةٌ في النفس رأيتها بخطه رحمه الله ؛ وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهيّ ونبذ ماسواه ؛ وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظّماً لأمر النُّبُوّات ظاهراً وباطنا ؛ هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية ؛ وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عِدة أصناف من الخدَمة ، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرُّماة والأجناد ، إلى غير هؤلاء من الطوائف ؛ وكان يقول : لو نَفَق عليهم علمُ الموسيقا لأنفقتُه عندهم ! وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديدَ الشغف به والحبّ له ؛ بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهاراً لا يظهر ؛ وكان أبو بكر هذا أحدَ حسنات الدهر في ذاته وأدواته ؛ أنشدني ابنه يحي بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله :

أَلَمَّتْ وقد نام المُشِيحُ وهوّما ✳ وأَسْرت إلى وادى العقيق من الحِمَى
وجرَّتْ على تُرْبِ المحَصَّبِ ذيلَها ✳ فما زال ذاك التُّربُ نَهْباً مقسّما
تناوَلَهُ أيدى التّجار لِطِيمَةً ✳ ويحملُه الدّارِيُّ أَيّانَ يَمّما

(١) يعنى ابن طفيل .

ولمـَّا رأتْ ان لا ظـلامَ يجنُّها ❊ وأنَّ سُراها فيه لن يُتـكـتَما

نضـتْ عذَباتِ الرَّيطِ عن حُرِّ وجـهِها

فأبدتْ مُحيا يُدْهِشُ المتوسِّما

فكان تجلِّيها حجابَ جمالِها

كشمس الضحى يَعشى بها الطرفُ كلَّما ...

ولما التقينا بعد طول تهاجُرٍ ❊ وقد كاد حبلُ الوُدِّ أن يتصرَّما

جَلتْ عن ثناياها وأومض بارقٌ ❊ فلم أدرِ مَن شقَّ الدجنَّةَ منهما

وساعدنى جفنُ الغمام على البُكا ❊ فلم أدرِ دمعاً أيّنا كان أسجَما

فقالت وقد رقَّ الحديثُ وأبصرتْ ❊ قرائنَ أحوالٍ أذَعنَ المُكتَّما :

نشَدتُكَ لا يذْهب بك الشوقُ مذهبا ❊ يُهوِّنُ صَعباً أو يُرخِّصُ مأثما

فأمسكتُ لا مُستغنيا عن نوالها ❊ ولكن رأيتُ الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره فى الزهد ـ رحمه الله ـ ماقرأ علىَّ ابنُه من خطه فى التاريخ المذكور :

يا باكيا فُرقةَ الأحباب عن شَحَطٍ ❊ هلاَّ بكيتَ فِراقَ الرُّوح للبدن

نورٌ تردَّدَ فى طينٍ إلى أجلٍ ❊ فانحاز عُلواً وخَلَّى الطينَ للكفن

يا شَدَّ ما افترقا من بعد ما اعتلقا ❊ أظُنُّها هُدنةً كانتْ على دَخَنِ

إن لم يكن فى رِضى الله اجتماعُهما ❊ فيالهـا صفقةً تمَّت على غَبَنِ

وأنشدنى بعض أصحابنا من الكُتّاب له رحمه الله :

ما كلُّ مَن شمَّ نال رائحةً ❊ للناس فى ذا تبايُنٌ عجَبُ

قومٌ لهم فكرةٌ تجولُ بهم ❊ بين المعانى ، أولئك النُّجُبُ

وفِرْقةٌ فى القُشور قد وقفوا * وليس يدْرُون لُبَّ ما طلبوا

لا غايةٌ تنجلى لناظرهم * منه ولا ينقضى لهم أرَبُ

لا يتعدَّى آمْرُؤٌ جِبلَّتهُ * قد قُسمتْ فى الطبيعة الرُّتب

ولم يزل أبو بكر هذا يَجْلِبُ إليه (١) العلماء من جميع الأقطار، وينبِّهه عليهم، ويحضُّه على إكرامهم والتنويه بهم؛ وهو الذى نبَّهه على أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد؛ فمن حينئذ عرَفوه ونبُه قدْرُه عندهم.

[أبو الوليد بن رشد]

أخبرنى تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بُنْدُود بن يحيى القرطبى قال: سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة: لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبى يعقوب وجدُته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما؛ فأخذ أبو بكر يُثنى علىَّ ويذكر بيتى وسلَفى، ويضمُّ بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغُها قدْرى؛ فكان أولَ ما فاتحنى به أميرُ المؤمنين بعد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى: ما رأيهم فى السماء - يعنى الفلاسفة - أقديمةٌ هى أم حادثة؟ فأدركنى الحياء والخوف؛ فأخذتُ أتعلَّل وانكر اشتغالى بعلم الفلسفة؛ ولم أكن أدرى ما قرَّر معه ابنُ طفيل؛ ففهم أميرُ المؤمنين منى الرَّوْعَ والحياء؛ فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها، ويذكر ماقاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميعُ الفلاسفة، ويُورد مع ذلك احتجاجَ أهل الإسلام عليهم؛ فرأيتُ منه غزارةَ حفظ لم أظنَّها فى أحد من المشتغلين

(١) يعنى إلى أبى يعقوب.

بهذا الشأن المتفرغين له ؛ ولم يزل يبسطنى حتى تكلمت ، فعرف ما عندى من ذلك ؛ فلما انصرفتُ أمر لى بمال وخلعة سنية ومَركب .

وأخبرنى تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استدعانى أبو بكر بن طُفيل يوما فقال لى : سمعتُ اليوم أميرَ المؤمنين يتشكّى من قلقِ عبارة أرسطوطاليس ، أو عبارة المترجمين عنه ، ويذكر غُموضَ أغراضه ، ويقول : لو وَقَع لهذه الكتب من يُلخِّصها ويُقرِّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقَرُبَ مأخذُها على الناس ؛ فإن كان فيك فضلُ قوةٍ لذلك فافعل ، وإنى لأرجو أن تفى به ؛ لما أعلمه من جَودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نُزوعك إلى الصناعة ؛ وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعلَمُه من كِبرةِ سنِّى واشتغالى بالخدمة وصَرْفِ عنايتى إلى ما هو أهمُّ عندى منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخَّصْتُه من كتب الحكيم أرسطوطاليس » .

وقد رأيت أنا لأبى الوليد هذا تلخيصَ كُتُبِ الحكيمِ فى جُزء واحد فى نحو من مائة وخمسين ورقة ، ترجَمهُ بـ « كتابِ الجوامع » لَخَّص فيه كتابَ الحكيم المعروفَ بسمع الكيان ، وكتابَ السماء والعالم ، ورسالةَ الكَوْنِ والفساد ، وكتابَ الآثارِ العُلوية ، وكتابَ الحِسّ والمحسوس ؛ ثم لخَّصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء .

[رجع الحديث عن الأمير أبى يعقوب]

وفى الجملة ، لم يكن فى بنى عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخَّر مَلكٌ بالحقيقة غير أبى يعقوب هذا .

وزراؤه

وَزَر له أخوه عمرُ أياما يسيرة ، ثم ارتفع قدرُه عن الوزارة إذ رآها دونه .

ثم وَزَر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، إلى أن قبَض عليه واسْتَصْفى أمواله فى شهور سنة ٥٧٧ .

ووزر له بعده ابنُه أبو يوسف ولىّ عهدِه إلى أن مات سنة ٥٨٠ .

فكانت ولايته من حين بُويع له إلى أن استشهد ـ رحمة الله عليه ـ ببلاد الروم ، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهرا (١) .

كتابه

أبو محمد عيّاش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه ، وأبو القاسم المعروف بالقالمى (٢) ، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروفُ بابن مَحْشُوَّة ، من أهل مدينة بِجاية ، كان يخدم أبا القاسم القالمىَّ إلى أن مات ، فكتب مكانه .

هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة ، وكتاب الجيش : أبو الحسين الهوزنى الأشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى .

حاجبه

كافور مولاه الخَصِىّ ، كان يُدْعَى كافور بِغُرَّة .

---

(١) سيأتى تفصيل ذلك ص ٢٥٩ ـ ٢٦١

(٢) انظر ص ١٩٨ ، ٢٠٠

أولاده

كان له من الولد ثمانية عشر ذكرا ، وهم : عمر ، ويعقوب - وهو ولى عهده - ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى - كان يحيى هذا ، رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقَّيْتُ أكثر أخبارهم ؛ لم أرَ فى الملوك ولا فى السُّوقة مثله رحمة الله عليه ؛ وما اسْتَجَزْتُ لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظُ الخدمة ، إلا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إلىّ : أخى ، وصديقى فى بعض الأوقات ، وولِيِّى فى بعضها ؛ اجتمعتْ عِندى بخطِّه رقاعٌ كثيرة ، خلَعَ علىَّ فيها فضلَه ، وحلانى بما لم أكن استحقه - وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة . وإسحاق ، ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبدالرحمن ، وإسماعيل . وبنات

قضاته

أبو محمد المالقى المتقدم الذكر [١] ؛ ثم عزله وولّى بعده عيسى بن عمران التازى ، من أهل رِباط تازا من أعمال مدينة فاس ، من قبيلة يقال لها تَسُول من البربر يرجعون إلى زناتة .

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم ، وكان خطيباً مِصقَعاً وبليغا لَسِناً وشاعراً مُفلِقاً مشارِكا فى كثير من العلوم ؛ ونال فى أيام أبى يعقوب حُظوةً ومكانة ؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب فى النوازل فيأتى

(١) هو عبدالله بن عبدالرحمن . انظر ص ٢٠٠

بكل عجيبة ؛ وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصُّب لمن ينقطع إليه مُفرِط ؛ أخبرنى ابنه أبو عمران ـ قاضى الجماعة فى وقتنا هذا ـ قال : سمعت أبى يقول وقد لامه بعضُ من يلوذ به فى التنويه بأقوام ليست لهم سوابقُ ولا أقدار ، رَفَعهم من الحضيض جاهُه ، ونبَّههم بعد الخمول اعتناؤه : « ليس العجب ممن يأتى إليه رجلٌ نبيهُ القدر يرفعه ، إنما العجب ممن يُحيي الميت ويُنبِّه الخامل ويرفع الوضيع ؛ فأما النبيه القدرِ فنباهتُه تكفيه . »

وبلغ من إفراطه فى التعصب أن قال يوما : « ليس بحمايةٍ أن تحمى صاحبك وهو مُحِقٌّ ؛ فإن الحق أظهرُ وأقوى من أن يُحمَى ؛ إنما الحماية أن تحميه وهو مُبْطل ! » فى أشباه لهذه الأخبار .

وكان له أولاد ما مِنهم إلا من ولى القضاء ؛ وهم علىٌّ ، وكان علىٌّ هذا رجلا صالحا ، ولى فى حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ، ثم عُزل عنها وولى مدينة تِلِمسان ؛ وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتُّل فى دينه ، وممن لا تأخذه هوادة فى الحق ؛ ومن أولاده طلحة ، ولى قضاء تلمسان ؛ ويوسف ، تركته قاضيا بمدينة فاس ، بلغتْنى وفاته وأنا بمكة فى سنة ٦٢٠ ؛ وأبو عمران موسى ، قاضى الجماعة فى وقتنا هذا ، وسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله عز وجل .

ثم ولى بعد أبى موسى هذا (١) رجلٌ اسمه حجاج بن إبراهيم التُّجِيبى ، من أهل مدينة أَغمات من أعمال مدينة مراكش ؛ كان حجاجٌ هذا رجلا صالحاً يُعَدُّ فى الزُّهاد المتبتِّلين ، وكان له تبحُّرٌ فى الفقه ومعرفةٌ بأصوله

---

(٢) يعنى عيسى بن عمران التازى .

وبَصَرٌ بعلم الحديث ، هذا مع نزاهة نفس وطهارة عِرض وتصميمٍ فى الحق ؛ أَفرط فى ذلك حتى ثَقُلَتْ على كثير من وجوه الدولة وطأَتُه ، ونالوا منه عند أبى يعقوب ؛ فما زاده ذلك إلا حُبا وتقريباً ، إلى أن مات ــ رحمه الله ــ فى حياة أبى يعقوب ؛ بلغ من رقة قلبه وسرعة دَمْعته أنه دخل يوماً على أمير المؤمنين أبى يعقوب وقد بَلَّ لحيته ورداءه بدموعه ؛ فلما مَثَل بين يديه زاد فى البكاء ، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه ؛ فقال : ياأمير المؤمنين ، سألتك بالله ، ألاَ أَعفيتَنى ؟ قال : عزمتُ عليك لَتُخبِرَنّى أولا بسبب بكائك ! قال : بَيْنا أنا قاعد فى مجلس الحُكم إذ أُتِيتُ بشيخٍ سكرانَ كنت قد حَدَدْتُه مرارا ، فكان من كلامى أن قلتُ له : ياشيخ ، كيف تُحشر ؟ ففتح يديه وقال : هكذا ... (١) فوالله ماملكتُ دمعتى حين عرفتُ ماعَنَى بقوله ؛ إنما عَرَّضَ لى بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن القاضىَ يُحشَرُ مُطوَّقةً يداه إلى عُنقه ؛ فإما أن يَحُلَّه عدلُه أو يهوِى به جورُه ! » هذا معنى الحديث ؛ فأسألك بالله ، ألا أعفيتَنى ؟ فوعده بذلك ؛ فقال : عسى أن يكون فى مقامى هذا ! فقال له : لا أفعل حتى أجد عِوَضاً منك ! فخرج من عنده ، فما لبث إلا أياما يسيرة حتى مات ، رحمة الله عليه !

ثم ولى بعده القضاءَ أبو جعفر أحمد بن مَضَاء ، من أهل مدينة قُرطبة ؛ فلم يزل أبو جعفر هذا قاضياً إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وصدراً من خلافة أبى يوسف المنصور رحمه الله .

(١) يشير إلى أنه جعل يديه مغلولتين إلى عنقه .

فصل

[دخول بنى مردنيش فى طاعة الموحدين]

ولما استوسق لأبى يعقوب هذا الأمرُ ، لم يزل مقيما بمراكش إلى أن كانت سنة ٥٦٧ ، فبدا له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس ، مُظهِراً قصدَ غزو الروم ، ومُبطِنا إتمام تملُّك الجزيرة والتغلُّبَ على مافى يد محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش منها ؛ وكان يملك منها ابنُ سعد المذكورُ من أول أعمال مُرسِية إلى آخر مايملكه المسلمون اليوم من شرقيِّها - وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته إياها ومن أين اتصلتْ إليه (١) - فجمع أمير المؤمنين أبو يعقوب جموعا عظيمة من قبائل الموحِّدين وغيرِهم من أصناف الجند ، وسار حتى نزل مدينة سَبتة ، فبُنى له بها منزل هو باق هناك إلى اليوم ؛ فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ، ولحق به من كان تأخَّر عنه من العساكر ؛ ثم عبر البحر وقصد مدينة أشبيلية ، فنزلها ، وجهَّز العساكر إلى محمد بن سعد .

وكان أخو أبى يعقوب ، عثمانُ بن عبد المؤمن ، والياً على مدينة أغرناطة ؛

---

(١) انظر ص ٢٠٨ - ٢١٠

ولم تكن هذه أولى المعارك بين ابن مردنيش والموحدين ؛ فقد سبقتها معارك أخرى ، كان النصر فيها لابن مردنيش ، ملك شرق الأندلس ، وحليفه وصهره إبراهيم بن همشك ؛ وقد تم لهما فى بعض تلك المعارك الاستيلاء على غرناطة من يد واليها الموحدى أبى سعيد سنة ٥٥٦ ...

ثم اتصلت المعارك بين الموحدين وابن مردنيش ، ولم يزل له النصر والغلبة حتى نشب الخلاف بينه وبين صهره إبراهيم بن همشك ، بسبب ابنته التى كانت زوجاً لابن مردنيش ثم انفصلت عنه ... فحل به البوار من يومئذ .

فكتب إليه أن يقصد بالعساكر إلى مدينة مُرسِية ، دارِ مملكة محمد بن سعد ؛ فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يُدعَى الجَلّاب ، وخرج إليه محمد بن سعد فى جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج ؛ لأن ابن سعد كان مستعيناً بهم فى حروبه ؛ قد اتخذهم أجناداً له وأنصارا ؛ وذلك حين أحس باختلاف وجوه القُوّاد عليه ، وتنكُّرِ أكثر الرعية له ، فقَتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعةً بأنواع من القتل ؛ بلغنى أن منهم من بَنَى عليه فى حائط وتركه حتى مات جوعا وعطشا ، إلى غير هذا من ضروب القتل ؛ واستدعَى النصارى كما ذكرنا ، فجعلهم أجناداً له ، وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه ، وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دُورهم ...

فزحف [1] كما ذكرنا بجيشه ، ومعظمهم من الإفرنج ؛ فالتقى هو والموحّدون بالموضع المعروف بالجلاب ، على أربعة أميال من مُرسية ؛ فانهزم أصحاب محمد ابن سعد انهزاماً قبيحا ، وقُتل من أعيان الروم جملة ، ودخل محمد بن سعد مدينة مُرسية مستعدًّا للحصار ؛ فضايقه الموحّدون ، وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو فى الحصار حَتْفَ أنفِه ؛ وسُتِرتْ وفاتُه إلى أن وَرَد أخوه يوسف بن سعد ، الملقّب بالرئيس ، من بلنسية ؛ وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد ؛ فاجتمع رأيه ورأى أكابرِ ولد محمد بن سعد - بعد أن أَتْهَمُوا وأَنجَدوا وأخذوا فى كل وجه من وجوه الحِيل - على أن يُلقوا أيديَهم فى يد أمير المؤمنين أبى يعقوب ، ويُسلموا إليه البلاد ، ففعلوا ذلك ؛ وقيل إن

---

(١) يعنى ابن مردنيش .

أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة ، جمع بنيه ـ وكان له من الولد على علمى ثمانية ذكور ، وهم : هلال ـ يُكنى أبا القمر ، وهو أكبر ولده وإليه أوصى ـ وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ؛ وأصاغرُ لا عِلم لى بأسمائهم ؛ وبناتٌ تزوج إحداهن أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وتزوّج الأخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ـ فكان فيما أوصاهم به أن قال : «يا بَنِيّ ، إنى أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد فى طاعتهم ؛ وإنى أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم ؛ فسلّموا إليهم الأمر اختياراً منكم ، تحظَوْا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم ؛ وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التى دخلوها عَنوَة !» ففعلوا ما أمرهم به ؛ فالله أعلم أىّ الأمرين كان .

* * *

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من أشبيلية قاصداً بلاد الأدفنش ـ لعنه الله ـ فنزل على مدينةٍ له عظيمة تسمى وَبْذَة ، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش ووجوهَ أجناده فى تلك المدينة ، فأقام محاصراً له أشهراً ، إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد ؛ أخبرنى جماعة يكثر عددهم ممن أدركتُ من شيوخ أهل الأمر ، أن أهل هذه المدينة لما بَرّحَ بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم ، على أن يخرجوا له عن المدينة ؛ فأبى ذلك عليهم ، وأطمعه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم ؛ فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم فى بعض الليالى لَغَطٌ عظيم وجلبةُ أصوات ؛

وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم ، واجتمع قِسِّيسوهم ورُهبانهم يَدْعون ويؤمِّن باقيهم ، فجاء مطر عظيم كأفواه القِرَب ، ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، وشربوا وارتووا وتَقَوَّوا على المسلمين ؛ فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعا إلى أشبيلية ، بعد أن هادَنَ الأدفنشَ - لعنه الله - مدة سبع سنين .

ولم يزل أمير المؤمنين مقيما بالأندلس بقية سنة سبع ، وثمان ، وتسع ، إلى أن رجع إلى مراكش في آخر سنة ٥٦٩ وقد مَلَكَ الجزيرة بأسرها ، ودانت له بجملتها ، ولم يخرج عن طاعته شيء منها .

[الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب]

وفي سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلافٍ وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بدَرَن ، فتمَّ له ما أراد من إخماد الفتنة وجَمْع الكلمة وإطفاء النائرة وحَسْم الخلاف .

* * *

وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغُمارة مفارقةَ الجماعة ونَزْعَ اليد من الطاعة ؛ وكان رأسهم في ذلك الذي إليه يرجعون ، وعميدَهم الذي عليه يعوِّلون ، رجلٌ اسمه سَبُع بن حَيَّان ؛ ووافقه على ذلك أخ له يسمَّى مَرْزْدَغ ؛ فدَعَوا إلى الفتنة ، واجتمع عليهما خلقٌ كثير ؛ والقبيلةُ المذكورة لا يكاد يحصرها عددٌ ولا يحدُّها حَزْر لكثرتها ؛ مسافةُ بلادها طولا وعرضا نحوٌ من اثنتي عشرة مرحلة ؛ فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه ؛ فأسلَمتهما جموعهما ، وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما ، وأُخذا قَبْضَ

اليد ؛ فقُتلا صبراً وصُلبا ؛ ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش .

* * *

وفى أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراكش قاصدا بلاد أفريقية ؛ فقصد منها مدينة قَفْصَة ؛ وكان قد قام بها رجل اسمه علىّ ، يُعرف بابن الرَّنْد ، وتلقَّبَ بالناصر لدين النبي ؛ فحاصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن استنزلوه ، وقطعوا دابر الخلاف وحسموا موادّه ، ورجعوا إلى مراكش .

[صُلح ملك صِقلّية]

وفى هذه السَّفرة صالحه ملكُ صِقِلّيَةَ وأرسل إليه بالإتاوة ، بعد أن خافه خوفا شديدا ؛ فقبل منه ماوَجّه به إليه ، وهادنه على أن يحمل إليه فى كل سنة مالاً اتّفقا عليه (١) ؛ وبلغنى أنه اتصلت إليه منه ذخائرُ لم يكن عندَ مَلِكٍ مثلُها ؛ مما اشتهر منها حجرُ ياقوتٍ يسمى الحافر - جعلوه فيما كلّلوا به المصحف ، لاقيمة له (٢) ، على قدْر استدارة حافر الفرس ، هوفى المصحف

---

(١) صقلية : جزيرة عظيمة ببحر الروم ، تتبع اليوم إيطاليا ، وقد فتحها العرب سنة ٢١٢ على يد أسد بن الفرات ، وملكها إبراهيم بن الأغلب ، وظلت تحت حكم الأغالبة زمانا ، ثم حكمها العبيديون ، ثم الكلبيون ، بنو الحسن بن على الكلبي ؛ ثم كان استيلاء الفرنجة النورمانديين عليها سنة ٤٦٤ .

ولما استولى عليها الفرنجة النورمانديون فى التاريخ المذكور ، جعلوها دار ملكهم ، واتخذوها قاعدة بحرية للاغارة على سواحل بلاد المسلمين فى أفريقية ؛ فملكوا طرابلس ، والمهدية ، وغيرها من حواضر المسلمين ؛ وأغاروا على الإسكندرية يؤازرون الصليبيين فى حملتهم على مصر سنة ٥٧٠ لعهد صلاح الدين الأيوبى ، ولكنهم ارتدوا عنها مهزومين .

وقد نشبت عدة معارك بين الموحدين وجيوش صقلية ، كان النصر فيها للموحدين . وانظر فتح المهدية على يد الموحدين ص ٢٢٨ - ٢٣٠

(٢) يعنى : فوق كل قيمة .

إلى اليوم - مع أحجارٍ نفيسة.

[المصحف العثماني في المغرب]

وهذا المصحف الذي ذكرناه، وقع إليهم من نسخ عثمان - رضى الله عنه - من خزائن بنى أمية، يحملونه بين أيديهم أنَّى توجَّهوا، على ناقة حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عَصَيانِ [(١)] عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنّة منهما ذهبٌ شِبْهُ تفاحتين؛ وخلف الناقة بغلٌ محلًّى أيضا، عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت، دون مصحف عثمان في الجرم، محلى بفضة مموَّهة بالذهب؛ هذا كله بين يدى الخليفة منهم.

* * *

ورجع أميرُ المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش من أفريقية، بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلِفٌ عليهم ولا معاندٌ لهم، ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها - كما ذكرنا - وكثرت في أيامه الأموالُ واتسع الخَراج.

[حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك]

وكان - كما ذكرنا - سخيا جواداً؛ بلغني أنه أعطى هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر [(٢)]، صاحب شرقيِّ الأندلس، اثنى عشر ألف دينار في يوم

---

(١) كذا بالأصل، والصواب: عصوان.

(٢) ابن مردنيش.

واحد (١) ؛ ولهلال هذا معه أخبار عجيبة ، من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحبه له ؛ أخبرنى بعضُ ولدِ هلال هذا ، أنه سمع أباه يقول : رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولنى مفتاحاً ؛ فلما أصبحتُ إذا رسوله يستحثّنى ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت ، فاستدنانى حتى مسّت ثيابى ثيابه ، ثم أخرج إلىّ من تحت بُرْنُسِه مفتاحا على النحو الذى رأيتُ فى المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ؛ فتهيبتُ أن أسأل عن شأن المفتاح ؛ فقال لى ابتداءً : يا أبا القمر ، إن عامل مُرْسية أرسل إلينا فى جملة ما أَرسل صُندوقا وجده ـ زَعَم ـ فى بعض خزائنكم ، لا يدرى ما فيه ؛ وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندرى ما فيه ! فقلت : هلاّ أمر أمير المؤمنين أن يُفتح بين يديه ! فقال : لو أردنا أن يُفتح بين أيدينا لم نُسلمْ إليك المفتاح ! وأمر بحمل الصندوق إلىّ ففتحته ، فإذا فيه حلى وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار .

* * *

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم ، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث فى الجهاد تُملى على الموحّدين ليدرسوها ـ وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم ـ فجمع العلماء ذلك وجاءوا به إليه ؛ فكان يمليه على الناس بنفسه ؛ فكان كلّ واحد

(١) أنظر ما كان من شأن عبد المؤمن مع يحيى بن العزيز آخر ملوك بنى حماد (ص ٢٠٧) وما كان من شأنه كذلك مع حسن بن يحيى آخر ملوك أفريقية (التعليق رقم ٢ ص ٢٢٩)، وذلك بعد أن آلت إليه بلادهما وصارا رعية من رعيته وتابعين من أتباعه !

ثم انظر ـ إلى ذلك ـ ما فعل يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد وسائر من غلبهم على بلادهم من ملوك الطوائف بالأندلس !

من الموحّدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الإملاء ؛ فجاء هلالٌ هذا المذكور يوما ولا لوْحَ معه ؛ فأخرج القوم ألواحهم ؛ فقال له الوزير : أين لوحك يا أبا القمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ؛ فأخرج له أمير المؤمنين من تحت بُرْنُسِه لوحاً وناوله إياه ، وقال : هذا لوْحُه ! فلما كان من الغد جاء ومعه لوحٌ غير الذى دفعه له أمير المؤمنين ؛ فلما نظر إليه قال له : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيتُ إذا متُّ أن يُجعل بين جلدى وكفنى ! وأتبع ذلك بكاءً حتى أبكى بعضَ من كان فى المجلس ؛ فقال أمير المؤمنين : هذا المحبُّ الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخِلع ، ولبنيه بمثل ذلك .

[اتساع الدولة وزيادة الخراج]

وكان الذى يُسهِّل عليه بذلَ الأموال - مع ما جُبِلَ عليه من ذلك - سَعَةُ الخراج وكثرةُ الوجوه التى يتحصَّل منها الأموال .

كان يرتفع إليه خراج أفريقية ، وجملته فى كل سنة وِقْرُ مائةٍ وخمسين بغلا ، هذا من أفريقية وحدها ، خلا بجايةَ وأعمالها ، وتِلمسانَ وأعمالها ، والمغربِ - وحدُّ عمَلِ المغرب عندهم الذى يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تُدعى رِباط تازا إلى مدينة تُدعى مِكناسة الزّيتون ؛ طول هذه المسافة وعَرضها نحوٌ من سبعة مراحل ، وهى أخصبُ رقعةٍ على الأرض فيما علمْت ، وأكثرُها أنهاراً مطردة ، وأشجاراً ملتفة ، وزروعا وأعنابا - ومدينةِ سَلاَ وأعمالها ، وسَبتَةَ وأعمالها - وأعمالُ سَبتة هذه فى غاية السعة والضخامة ؛ لأن بلاد غُمارة كلَّها ترجع إليها ، وهى كما ذكرنا طولا وعرضا نحوٌ من اثنتى

عشرة مرحلة ـ وجزيرةِ الأندلس قاطبة؛ أولُ ذلك آخرُ بلادِ المسلمين مما يتاخم أرض الروم، وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شِلْب؛ ومسافة ذلك طولا وعرضا نحوٌ من أربع وعشرين مرحلة.

هذا كلُّه لا ينازعه إياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم، مضافاً إلى مراكش وأعمالها؛ وأعمالُ مراكش أيضاً فى نهاية من السَّعة؛ لأن بالقرب منها قبائلَ ضخمةً وبلاداً كثيرة؛ فلم يرتفع لملك من الملوك ـ أعنى ملوك المغرب ـ قبل أبى يعقوب هذا وبعده، ماارتفع إليه من الأموال.

وقد بلغنى من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال، قال لى: وُجِدت خرائطُ كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبى يعقوب بختمها... قال لى هذا القول فى غُرة سنة ٦١١.

وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغربَ أولُ من وردَها من الغُزّ (١)؛ وذلك فى آخر سنة ٧٤، وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف.

ولم تزل أيام أبى يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم؛ كثرةَ خِصب، وانتشارَ أمْنٍ، ودُرُور أرزاقٍ، واتساعَ معايش؛ لم ير أهلُ المغرب أياما قطُّ مثلها؛ واستمر هذا صدْراً من إمارة أبى يوسف.

[محاولة أبى يعقوب فتح شنترين، ووفاته]

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو، واستنفر أهلَ السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرِهم، وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة

(١) الغز: طائفة من مماليك الترك المصريين، وسيرد ذكرهم ثانية فيما يلى من الكتاب.

الأندلس؛ فعبر البحر بعسا كره كما ذكرنا، وقصد مدينة أشبيلية على عادته؛ إذ هي منزله ومنزل الأمراء من بنيه بالأندلس أيام كونهم بها؛ فأقام بها ريثما أصلح الناس شؤونهم وأخذوا اهبتهم؛ ثم خرج يقصد مدينة شَنترين [١]، أعادها الله للمسلمين؛ وهذه المدينة - أعنى شنترين - بمغرب الأندلس؛ وهى من أمنع المدائن - وقد تقدم ذكرها فى أخبار الدولة اللمتونية [٢] - يملكها وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك: ملكٌ من ملوك النصارى يُعرف بابن الريق، لعنه الله؛ فخرج أمير المؤمنين - كما ذكرنا - فى جيوشه حتى نزل عليها، فضايقها وأخذ فى قطع ثمارها وإفساد زُروعها وشَنّ الغارات على نواحيها؛ وكان ابن الريق - لعنه الله - حين سمع بحركة أبى يعقوب إليه وصحّ عنده أنه يقصده، نظر فى أمره، فلم ير له طاقةً بدفاعه ولا نهضةً لمقاومته؛ فلم يكن له همٌّ إلا أن جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوى الغَناء من قواده وسائر أتباعه، ودخل بهم مدينةَ شنترين؛ واثقاً بحصانتها وشدّةِ مَنَعَتها؛ هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسلاحاً وجميعَ مايحتاج إليه، وجلّل أسوارها مُقاتِلةً معهم الدَّرَقُ والقِسِىُّ والحراب؛ إلى غير ذلك مما يحتاج إليه.

فنزل عليها أبو يعقوب، فألفاها كما ذكرنا: قد استعدّ أهلها بكل مايظنونه نافعاً لهم ودافعاً عنهم؛ وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس

---

(١) شنترين: مدينة كبيرة بالأندلس، على الشاطئ الأيمن من نهر تاجو، وهى مفتاح واديه؛ موقعها إلى الشمال الشرقى من أشبونة، وبينهما ثمانون ميلا؛ وقد ظلت شنترين فى يد العرب منذ الفتح إلى أن ملكها ألفونس السادس ملك قشتالة سنة ٥٤٣ ثم كانت هذه المحاولة لاستردادها؛ وقد قام بعبء الدفاع عنها فى هذه المحاولة، الدون شانجو (Don Sancho)

(٢) انظر ص ١٦٤ وما بعدها

المشهورة ، يسمى تاجُو ؛ فبالغ أبو يعقوب - كما ذكرنا - فى التضييق عليها وانتساف معايشها وقَطْع الموادّ والمدد عنها ؛ فما زاد ذلك أهلَها إلا صرامة وشدة وجلدا ؛ فخاف المسلمون هجومَ البرد - وكان فى آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبورَه وينقطع عنهم المدد ؛ فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى أشبيلية ، فإذا كان وجهُ الزمان عادوا إليها أو بَعَثَ من يتسلمها ؛ وصوّروا له أنها فى يده ، لا يمنعه منها مانع ؛ فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه ، وقال : نحن راحلون غداً إن شاء الله . ولم ينتشر هذا القول كل الانتشار ، لأنه كان قاله فى مجلس الخاصة ؛ فكان أولَ من قوّض خباءه وأظهر الأخذ فى أهبة الرحيل ، أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقى - وقد تقدم ذكر أبيه فى قضاة عبد المؤمن -[1] وكان أبو الحسن هذا خطيبَهم ومعتبراً عندهم ، يُدعَى خطيبَ الخلافة ؛ وكان له حظٌّ جيد من الفقه ومعرفةِ الحديث ، وقسمٌ وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة ؛ فلما رآه الناس قوّض خباءه قوّضوا أخبيتهم ثقة به ، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها ؛ فعبر فى تلك العشية أكثرُ العسكرِ النهرَ يريدون التقدم خشيةَ الزحام وحرصاً على أخذ جيّدِ المواضع واختيار المنازل ؛ ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين .

وبات الناس يعبرون الليل كلَّه وأميرُ المؤمنين لا علم له بذلك ؛ فلما رأى الرومُ عبور العساكر وبلَغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل ، ورأوا انفضاضَ الأجناد وافتراقَ أكثر

(١) انظر ص ٢٠٠

الجموع ، خرجوا منتهزين للفرصة التى أمكنتهم ، فى خيلٍ كثيفة ؛ فحملوا على من يليهم من الناس ، فانهزموا أمامهم ، حتى بلغوا الخباء الذى فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب ؛ فقتل على باب الخباء من أعيان الجند خلقٌ كثير ، أكثرهم من أعيان الأندلس ؛ وخُلِص إلى أبى يعقوب فطُعن تحت سُرَّته طعنةً مات منها بعد أيام يسيرة ...

وتدارك الناسُ فانهزم الروم راجعين إلى بلدهم بعد أن قضوا ما قضوا ، وعُبر بأمير المؤمنين النهر جريحا ، فجُعل فى محفَّة وسِيرَ به .

[عاقبة أبى الحسن المالقى الخطيب]

وسأل أميرُ المؤمنين : مَن كان السببَ فى حركة الناس على هذا الوجه المؤدِّى إلى هذا الاختلال ؟ فأُخبِرَ بما فعله أبو الحسن المالقى ؛ فقال يتوعده : سيجنى ثمرتها إن شاء الله ! فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شَنترين فارًّا بنفسه على ملك الروم ابنِ الريق ؛ فأحسنَ نُزُلَه وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقا واسعا ؛ ولم يزل عنده مُكرَماً إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحِّدين يستعطفهم ويسأل مَن عرَفه من أعيانهم الشفاعةَ له ؛ وادرج فى ضمن ذلك فصلا يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ، ويدلُّهم على بعض عَوراتها مما كان خفى عنهم ؛ وقال لملك الروم ابنِ الريق : إنى أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالى وأولادى وأخبرَهم بسلامتى واعلمهم إكرامَ الملك إياى وإحسانَه إلىَّ وما أنا فيه من العافية ، حتى تطمئن نفوسُهم ؛ واريد أن توجه مع الذى يحمله مَن يخفره إلى أول بلاد

المسلمين ؛ فأذِن له فى ذلك وأجابه إليه ؛ فكتب الكتاب ...

وكان العِلج الموكَّل به الذى يقوم عليه ويأتيه بكل مايحتاج إليه ، يعرف لسان العرب - إلا أنه لم يكن يتكلم به - ويقرأ الخط العربى ؛ فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشورا ، ولم يخطر له أن العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربى ؛ فلمح العلج الكتاب لمحةً ، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده ؛ فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر ...

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده ؛ فلما خرج العبد بالكتاب و فصل عن المدينة بنحوٍ من مرحلة ، أُمر بالقبض عليه هناك وأُخذ الكتابُ منه ؛ فلما أُتى بالكتاب فتحه وجمع المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور ؛ واستحضر أبا الحسن ، وقال لترجمانه : قل له : ماحَمَلك على ماصنعتَ مع إكرامى لك وبِرِّى بك ؟ فكان من جوابه أن قال : إن برَّك بى وإكرامك إياى لايمنعانى من النُّصح لأهل دينى والدلالةِ لهم على مافيه مصلحتهم ! فشاور ابنُ الريق - لعنه الله - قِسِّيسيه فى أمره ؛ فأشاروا عليه بإحراقه ، فأحرقوه .

[وفاة الأمير أبى يعقوب]

وأما ماكان من أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب ؛ فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا ، أثقله الجُرْحُ واشتد عليه ؛ فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثا حتى مات رحمه الله ؛ فأخبرنى من كان معهم فى تلك السَّفرة أنه سُمع النداء فيما بين

العشاءين فى العسكر كله : الصلاةُ على الجنازة ، جنازةِ رُجل ! فصلى الناس قاطبة على الجنازة لا يعرفون على من صلّوا ؛ ولم يعلم بذلك إلا خواصُّ أهلِ الدولة ، وساروا به حتى بلغوا أشبيلية فنزلوها ، فصبّرُوه وبعثوا به فى تابوتٍ مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر[1] إلى تينملّ : فدُفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت .

وكانت وفاته يوم السبت قُبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠ .

أخبرنى ابنه أبو زكريا يحيى - رحمةُ الله عليه - أنه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً مايردد هذا البيت :

طوى الجديدان ماقد كُنتُ أنشرُهُ * وأنكرتنى ذواتُ الأعينِ النُّجُلِ !

ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن يوسف

ابن عبد المؤمن

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على كما ذكرنا ، يكنى أبا يوسف ، امه أم ولد رومية اسمها ساحر ؛ بُويع له فى حياة أبيه بأمره بذلك[2] ؛ وكانت سنّه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة ؛ فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن تُوفى فى شهر صفر الكائن فى سنه ٥٩٥ ، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما ، وتوفى وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب .

---

(١) انظر ص ٢٤٤

(٢) روى ابن الأثير وغيره ، أن أباه مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده ؛ فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبدالمؤمن على تمليك يعقوب .

صـفته

كان صافى السمرة جدا إلى الطول ما هو ، جميل الوجه ، أَعْيَنَ أَفْوَه أَقنى ، شديدَ الكَحَل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جَهْوَرِيّ الصوت ، جَزْلَ الألفاظ ، أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم إصابة بالظن ؛ كان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرِّبا للأمور ، عارفا بأصول الشر والخير وفروعهما : ولى الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعةً أفادته معرفةَ جزئياتِ الأمور ؛ فدبَّرها بحسب ذلك ، فجرتْ أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم :

أولاده

كان له من الولد : محمد ـ وليّ عهده ، وسيأتى ذكر مولده ووفاته ـ وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين ؛ هؤلاء أولاده المخلَّفون بعده ؛ ومات له فى حياته عدةٌ من الولد ، وله بنات فيهنّ كثرة .

وزراؤه

أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى إلى أن مات .

ثم وزَر له بعده [أبو يحيى] أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص عمر إينْتى المتقدم الذكر ، واستمرت وزراة أبى يحيى هذا إلى أن استشهد ـ رحمه الله ـ ببلاد الروم على ما سيأتى بيانه إن شاء الله ؛ فاضطرب أمر الوزارة قليلا ...

ثم وقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر ؛ وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل ، هو ابن عم الوزير الشهيد [أبى يحيى] المذكور آنفا ؛ فوزر أبو عبد الله هذا أياما يسيرة ، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحى أشبيلية ؛ فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهّد ؛ فأرسلوا إليه من ردّه ؛ وأعفَوْه من الوزارة .

ثم وَزَر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجّان الهنْتاتى ؛ فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يوسف ، وصدراً من إمارة ابنه أبى عبد الله ، ثم عزل عن الوزارة .

حجابه

عنبر الخصى مولاه ؛ ثم ريحان الخصى مولاه أيضا ، إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله ، فلم يزل حاجبا له إلى أن مات ريحان المذكور .

كتابه

أبو الفضل جعفر المعروف بابن مَحْشُوّة ؛ كان من كتاب أبيه ـ حسبما تقدم[1] ؛ جمع أبو [الفضل] جعفرُ هذا إلى براعة الكتابة سَعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس ؛ لم يزل كاتباً له إلى أن توفى ، أعنى أبا الفضل

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عيّاش من أهل بُرشانة من أعمال المرِيّة من بلاد الأندلس ؛ لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف ؛ تركته حيا حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ، ثم اتصلت بى وفاته فى شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصرية .

(١) انظر ص ٢٤٤

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما، كاتبا الإنشاء خاصة.

وكتّاب الجيش: رجلٌ يعرف بالكُباشى، ذهب عنى اسمه؛ وقد كان يكتب قبله أبو الحسن بن مُغْنٍ؛ استمرت كتابة الكُباشى هذا ديوانَ الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف.

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم - أعنى من كتبة الإنشاء - مَن عرف طريقتهم وصبَّ فى قالبِهم وجرى على مَهْيَعِهم وأصاب مافى أنفسهم كأبى عبد الله ابن عياش هذا؛ فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب؛ ثم جرى الكُتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة.

قضاته

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر (١) إلى أن مات؛ وولى بعده أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وِهران؛ ثم عزله وولّى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد، رجلا من ولد بَقِىّ بن مخلد الفقيه المحدث الذى يَروى عن أحمد بن حنبل؛ وقد تقدم ذكرُ بَقِىٍّ هذا وطرفٌ من أخباره (٢) فى صدر الدولة الأموية فى أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس؛ لم يزل أبو القاسم هذا قاضيا إلى

(١) انظر ص ٢٤٧.

(٢) ذكره المقرى فيمن لهم رحلة إلى المشرق! وقال: كان له صحبة للامام أحمد بن حنبل؛ وباهى به ابن حزم فى رسالته التى ينوه فيها بفضل أهل الأندلس، وعد له مؤلفات شتى فى التفسير والفقه وغيرهما. ولم يمر ذكره فيما بين أيدينا من الكتاب، للخرم الذى وقع فيه. وانظر التعليق رقم ١ ص ٢٢

أن توفى أمير المؤمنين أبو يوسف ، وشيئاً من أيام ابنه محمد .

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يعقوب - كما ذكرنا - على مراحل من مدينة شنترين ، سُترت وفاته إلى أن بلغوا أشبيلية ، وهم فى كل يوم يُصبحون يمشون بين يدى الدابة التى عليها المحفّة مشاةً على أرجلهم كما جرت العادة ؛ ثم يركبون والمحفّة مسدولٌ عليها سترٌ أخضر ؛ إلى أن بلغوا أشبيلية كما ذكرنا ؛ فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبى يعقوب - زعموا - بتجديد البيعة لابنه أبى يوسف [1] ؛ فبايعه المصامدة والناسُ عامة من جميع الأصناف .

وكان الذى سعى فى بيعته وقام بها ورغّب فيها وتولى كِبْرَ أمرها ، ابنُ عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ؛ فتم له الأمر وبايعه الناس ، يحسبون ذلك بإذن أبيه ؛ فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهيأ له ، أعلن وفاة أبيه عند خواصِّ الدولة ؛ ولم تجر عادتهم بإعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هَلُمّ .

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لايرونه أهلا للإمارة ؛ لما كانوا يعرفون من سوء صِباه ؛ فلقى منهم شدةً - على ماسيأتى بيانه - وكانت هذه البيعة العامة - كما ذكرنا - فى سنة ٥٨٠ .

ولما استوسق أمره - على ماتقدم - عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سَلاَ ، وبها تمّتْ بيعته واستجاب له من كان تلكأ عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن ، بعد ماملأ أيديهم أموالا وأقطعهم الأقطاع الواسعة .

(١) انظر التعليق ٢ ص ٢٦١

[بنيان مدينة الرِّباط]

ثم شرع فى بنيان المدينة العظمى (١) التى على ساحل البحر والنهر من العُدْوة التى تلى مراكش ؛ وكان أبو يعقوب ـ رحمه الله ـ هو الذى اختطّها ورسم حدودَها وابتدأ فى بنيانها ، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها ؛ فشرع أبو يوسف ـ كما ذكرنا ـ فى بنيانها إلى أن أتم سورها ؛ وبنى فيها مسجدا عظيما كبير المساحة واسع الفِناء جدًّا ، لا أعلم فى مساجد المغرب أكبرَ منه ؛ وعمل له مأذنة فى نهاية العُلُوّ ، على هيئة مَنار الإسكندرية ، يُصْعَدُ فيه بغير دَرَج ، تَصْعد الدوابُّ بالطين والآجُرّ والجِصّ وجميعِ ما يُحتاج إليه إلى أعلاها ؛ ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ؛ لأن العمل ارتفع عنه بموت أبى يوسف ؛ ولم يعمل فيه محمدٌ ولا يوسف شيئاً ؛ وأما المدينة فتمَّت فى حياة أبى يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعَمر كثيرٌ منها ؛ وهى مدينة كبيرة جدا ، تجىء فى طولها نحواً من فرسخ ، وهى قليلة العرض .

ثم خرج بعد أن رَتّب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر فى أمر نفقاتها وما يُصلحها ؛ فلم يزل العمل فيها وفى مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤ ، وسار هو حتى نزل مراكش .

[طمع بنى غانية فى التغلب على أفريقية]

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة ٨٠ ـ خرج المُيُرقيون بنو ابن غانية من جزيرة

---

(١) هى مدينة رباط الفتح .

مُ ـيُرقة قاصدين مدينة بجاية ، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين ؛ وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة ؛ وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامدة ، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ .

[التعريف ببنى غانية ودار مُلـكهم]

وتلخيص خبر هؤلاء القوم ـ أعنى بنى غانية ـ أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وجه إلى الأندلس برجلين ؛ اسم أحدهما يحي ، والآخر محمد (١) ، ابنى علىّ ، من قبيلة مسوفة ، يعرفان بابنى غانية ، وهى أمهما ؛ فأما يحي منهما ، وهو الأكبر ، فكان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من النـاس ؛ فمنها أنه كان رجلا صالحاً شديد الخوف لله ـ عز وجل ـ والتعظيم له والاحترام للصالحين ؛ هذا مع علوّ قدم فى الفقه واتساع روايةٍ للحديث ؛ وكان مع هـذا شجاعا فارسا ، إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمائة فارس ؛ وكان علىُّ بن يوسف يُعِـدُّه للعظائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكارهَ قد كانت نزلتْ بهم ؛ كان أمير المسلمين ولاه مدينة بلنسية ، ثم عزله عنها وولاه قرطبة ؛ فلم يزل بها والياً إلى أن مات ـ رحمة الله عليه ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين ، لا أعلم له عقبا .

[محمد بن غانية]

وكان أخوه محمد والياً من قِبله على بعض أعمال قرطبة ، فلما مات اضطرب

(١) يسميه ابن خلكان : حمو « بفتح الحاء وبعدها ميم مشددة مضمومة » .

أمر محمد هـذا وبقى يجول فى بلاد الأندلس والفتنةُ تتزيّد ودعوةُ المصامدة تنتشر ؛ فلما اشتد خوفُ محمدٍ هذا أتى مدينة دانية فعبر منها إلى جزيرة مُيُرقة فى حشمه وأهل بيته ، فملكها والجزيرتين اللتين حولها . مُنُرقة ، ويابسة [1] ؛ ويقال إن أمير المسلمين على بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها ، فالله أعلم .

وهذه الجزيرة - أعنى ميرقة - أخصب الجزر أرضاً ، وأعدلُها هواء ، وأصفاها جوًّا ؛ طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخا ، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت ، من ذئب أو سَبُع أو حية أو عقرب ، إلى غير ذلك مما يُخشى ضرره ؛ ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها فى الخصب ، تسمى إحداهما مُنُرقة ، والأخرى يابسة ، وقد تقدم ذكرهما .

... فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر ، وَضَبَطها لنفسه ، وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة الأول : يدعو لبنى العباس ؛ وكان له من الولد : عبدُ الله ، وإسحاق ، والزبير ، وطلحة ؛ وبنات .

فعهد فى حياته إلى أكبر ولده ، عبد الله ؛ فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ، ودخل عليه فى جماعة من الجند وعبيدٍ له فقتله - قيل فى حياة أبيه ، وقيل بعد وفاته - وتُوفى عبد الله المذكور .

---

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ١٥٠

[إسحاق بن محمد]

واستقل أبو إبراهيم [1] بالملك استقلالا حسنا ، وحسنت حاله ، وكثر الداخلون عليه بجزيرة مُيرقة مِن فَلّ لمتونة وبقاياهم ؛ فكان يُحسن إليهم ويصلُهم حسب طاقته .

وأقبل على الغزو ، وصَرَف عنايته إليه ؛ فلم يكن له همٌّ غيره : فكان له فى كل سنة سَفْرتان إلى بلاد الروم ، يغنم ويسبى وينكى فى العدو أشدّ نكاية ، إلى أن امتلأت أيدى أصحابه أموالا ؛ فقوِى بذلك أمره ، وتشبَّه بالملوك ؛ ولم يزل هذه حالُه إلى أن توفى فى سنة ٧٩ ، وفى أولها وفى آخر أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهادِنهم ويختُصهم من كل ما يسْبى ويغنم بنفيسه وجيِّده ؛ يشغلهم بذلك عنه ، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها ؛ فلما كان فى شهور سنة ٥٧٨ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، ويتوعدونه على ترْك ذلك ؛ فوعدهم ذلك واستشار وجوهَ أصحابه ، فاختلفوا عليه ؛ فمن مُشير عليه بالامتناع بمكانه وحاضٍّ له على الدخول فيما دعوه إليه ؛ فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر ...

وخرج إلى بلاد الروم غازيا ، فاستشهد ـ رحمه الله ـ هناك ؛ وقيل إنه طُعن طعنة فى حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جىء به حيًّا حتى ادخل قصره فمات

(١) يعنى إسحاق بن محمد بن غانية .

فيه ، فالله أعلم [١] .

وكان له من الولد : عليّ ـ وهو أكبر ولده والقائمُ بأمره من بعده ـ [وعبد الله] ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وإبراهيم ؛ توفى إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلا بها على السلطان الملك العادل .

[على بن إسحاق]

ولما توفى أبو إبراهيم إسحاق بن محمد المذكور ، قام بالأمر من بعده ابنه عليٌّ بعهد أبيه إليه ، وخرج بأسطول مُيرقة إلى العُدوة ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعةٌ من أعيانها ـ على مايقال ـ يدعونه إلى أن يملّكوه ؛ ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ؛ ومما جرَّأه أيضا كونُ الموحدين بالأندلس ، وسماعُه خبر موت أبى يعقوب واشتغالهم ببيعة أبى يوسف ؛ وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ ؛ فكان هذا أيضا مما أعانه على الخروج ؛ ولولا هذه الأسباب التى ذكرنا لم يجسر على الخروج ...

فقصد ساحل بجاية فنزل به ، فقاتله أهلها قتالا غير كثير ، ثم دخلها ؛ وكان دخوله إياها ـ كما ذكرنا ـ يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة .

[استطراد عن انتقاض العرب بأفريقية على الموحدين]

وكان فيها إذ دخلها ، أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ؛ لم يكن واليا عليها وإنما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان

(١) ذكر ابن خلكان أن وفاته كانت فى سنة ٥٨٠

أبو موسى مارًّا بها حين رجع من أفريقية ، وكان واليا عليها هو وأخوه الحسن من قِبَل أخيهما أبي يعقوب ، فظهر من العرب إفساد ببعض نواحي أفريقية[١]، فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو علي بجيش من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند ، فالتقوا هم وأولئك العرب المفسدون : فانهزم جند أفريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين ، فأقاما عندهم ، وانتهى الخبر إلى أبي يعقوب ، فأرسل إلى أولئك العرب ؛ فطلبوا مالا اشتطّوا فيه غاية الاشتطاط ؛ ثم إن الأمر تقرر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال ، فلما أُخبر بذلك أبو يعقوب استكثر المال وقال : هذه أيضا مَضرّة أخرى ؛ إن أعطيناهم مثل هذا المال تقوَّوْا به على ما يريدونه من الفساد ! ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصُّفر مموَّهة ، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم ؛ فأطلقوا أبا علي وأبا موسى ومن كان معهما من خدَمهما وحاشيتهما ؛ فهذا ما أوجب كونَ أبي موسى ببجاية ، فخرج من أَسر العرب إلى أسر الميُورقيّين ! .

[رجع الحديث عن بني غانية في بجاية]

فدخل علي بن إسحاق - كما ذكرنا - بجاية في اليوم المؤرّخ ، وأقام بها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبني العباس [٢] ، ثم للإمام أبي العباس أحمد الناصر منهم ، وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدّث المتقن أبو محمد عبد الحق

(١) انظر التعليق ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ والتعليق ص ٢٢٥ عن شأن العرب في أفريقية بعد أن خلع المعز بن باديس طاعة العبيدين !

(٢) انظر ص ٢٠٣ ، ٢٦٨

ابن عبد الرحمن الأزدى الأشبيلي - مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التآليف -
فأحنق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ، ورام سفك دمه ،
فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه !

وخرج على بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها ، وسار حتى
نزل على قلعة بنى حماد ، فملكها وملك جميع تلك النواحى ؛ فانتهى ذلك إلى
أمير المؤمنين يعقوب ، فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية ، فلما سمع على
بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد (١) .

[استرجاع بجاية من يد الميورقيين]

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية ، فتلقاه أهلها ، فلقيهم منشرح
الصدر ظاهر البشر ، وقال لهم من القول مابسط به نفوسهم وردّ إليهم نافر
أنسهم ، وقد كانوا يظنون غير ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا
منه وسمعوا ...

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدين رجلا اسمه محمد بن أبى سعيد

---

(١) يروى ابن الأثير نبأ استيلاء ابن غانية المرابطى على بجاية ومايليها من البلاد ثم خروجها
من يده ، فيقول : إنه سار إلى بجاية من جزيرة ميورقة فى أسطول مكون من عشرين قطعة ،
فأرسى فى ساحل بجاية ، وآزره على ذلك جماعة من بقايا دولة بنى حماد ؛ فدخلها بلا كبير عناء ،
وكان والى بجاية الموحدى قد سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مراكش ، إذ لم يكن فى وهمه أن يجترىء
أحد على قصد بلده ؛ فلما بلغه النبأ عاد ومعه ثلثمائة فارس من الموحدين ، وجمع من العرب والقبائل
فى تلك البلاد نحو ألف فارس ؛ ولكنه لم يلبث أن انهزم ، لانحياز من معه من المقاتلة إلى ابن
غانية ؛ وقصد أمير بجاية إلى مراكش ، وترك ابن غانية يزحف على مايليه من البلاد ، فدانت له
جميعا بالطاعة إلا قسطنطينية ؛ فحصرها ، ولم يزل محاصراً لها حتى جاء جيش الموحدين فى صفر سنة
٥٨١ إلى بجاية فى البر والبحر ، وكان بها - فيما يصف ابن الأثير - يحيى وعبدالله أخوا على بن
إسحاق ؛ فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما ؛ فرحل عن قسطنطينية إلى أفريقية ، شرقاً .

الجنْفِيسى" ؛ ثم سار حتى نزل مدينة تونس ، فجهز جيشا عظيما أمّر عليهم رجلا من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب ، وذلك لِما كانوا يرونه فى ملحمة كانت عندهم من أنهم سيُهزَمون مع رجل اسمه يعقوب ، بموضع يعرف بوطا عمره ؛ فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور ، وأقام هو فى تونس ؛ فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذُكر ؛ وذلك أن الموحدين التقوا هم وأصحاب على بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزاما قبيحا ، واتبعتْهم العرب والبربر يقتلونهم فى كل وجه [1] ؛ وهلك أكثرهم عطشا ، ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين ؛ فلمَّ شعَثهم ، وجبر ما وَهى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقى على بن غانية بموضع يعرف بالحامة ، حامة دُقيُوس ؛ فما وقف أصحابُ علىٍّ إلا يسيرا حتى انكشفوا عنه ، وأبلَى هو عذرا فأثخِن جِراحا ، وخرج فارًّا بنفسه فمات فى خيمة لعجوزٍ أعرابية [2] .

وكان حين خرج من مُيرقة خرج معه من إخوته : عبدالله ، ويحي ، وأبو بكر ، وسِير ؛ فبقى هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ؛ ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحي لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه ؛ فقدموه ، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه .

(١) كان العرب يؤازرون بنى غانية فى هذه المعارك بينهم وبين الموحدين ، كما كان يؤازرهم الغز من المماليك المصريين ؛ وسيرد ذكر هؤلاء الغز فى بعض مايلى من الكتاب .

(٢) رواية ابن خلكان : « فمات على ولا أعلم تاريخ وفاته ؛ ولكنه كان حيا فى سنة ٥٩١ » وقد ذكر ابن الأثير أن على بن إسحاق كان حيا إلى مابعد عودة أبى يعقوب من الأندلس فى رحلته التى يذكرها المراكشى بعد . انظر ص ٢٨٠

[استرجاع قفصة]

وفى هذه السَّفرة انتقضت عليهم أيضا مدينة قفْصَة ، ونزَع أهلها أيديهم من طاعتهم ودَعوا للمُيرقيين (١) ؛ فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشدَّ الحصار ؛ ثم دخلها عَنوة فقتل أهلها قتلا ذريعا ؛ بلغنى أنه قتَل أكثرهم ذبحا ؛ وأمر بأسوارها فهُدِّت .

[إبراهيم الزويلى الكاتب]

وفى ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتّاب ، اسمه إبراهيم ، يُعرف عندنا بالزّويلىّ ، فى قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورمْيهُم إياها بحجارة المنجنيق :

---

(١) انتقضت قفصة على الموحدين مرتين : أولاها فى سنة ٥٧٦ وكان واليها يومئذ من قبل الموحدين : على بن المعز بن المعتز ، قد رأى غلبة الغز المصريين على طائفة من بلاد أفريقية ، وانقياد العرب لهم ؛ فحدث له طمع فى الاستقلال ببلده ... ولكنه لم يلبث أن غلب على أمره ، فرجع إلى الموحدين معتذراً تائبا ، فقبل أبو يوسف ذلك منه وسيره إلى بلاد المغرب مكرماً عزيزاً ، وأقطعه ولاية كبيرة ؛ على عادة الموحدين فى بر اللاجئين إليهم من أصحاب العروش الهاوية ! .

وأما الانتقاضة الأخرى ـ وهى التى يقصدها المؤلف ـ فكانت سنة ٥٨٢ ، وهى السنة التى ملك فيها على بن إسحاق مدينة بجاية ؛ وذلك أن عرب بنى هلال ومن انضاف إليهم من الغز المصريين وعلى رأسهم شرف الدين قراقوش ، وبوزابه مملوك تقى الدين الأيوبى ـ اجتمعوا على خلع طاعة الموحدين والانضواء إلى على بن إسحاق الميورقى ، ولقبوه أمير المسلمين ـ وهو لقب خلفاء المرابطين الذين ينتمى إليهم ـ فدخلها على بن إسحاق ، ودعا فيها للعباسيين ؛ فلما بلغ النبأ أبا يوسف أمير الموحدين سير إليهم جيشاً فوافاهم بقفصة فى سنة ٥٨٣ ...

وكانت الدائرة على الملثمين ، وأسرف الموحدون فى القتل حتى كادوا يبيدون أهل المدينة ، بعد أن قطعوا أشجارها وخربوا ماحولها وأحالوها أنقاضا ...

وقد استأمن الغز بعد هذه الوقعة إلى أبى يوسف ، فأجابهم إلى ماطلبوا وسيرهم إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو ...

سائلْ بقفصةَ هل كان الشقىُّ لها (١) * بَعْلاً وكانت له حَمَّالةَ الحطبِ
تَبَّتْ يَدَا كافرٍ بالله ألهبَهــا * فكان كالكافر الأَشْقَى أبى لهب

وفيها يقول :

لمَّا زَنَت وهى تحت الأمر مُحْصَنَةٌ
حَصَبْتُمُوها اتِّباعَ الشرْعِ بالحصَبِ

أنشدنى ـ رحمه الله ـ هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها ؛ فلما انتهى إلى هذا البيت « لما زنت ... » غلبنى الضحك لِمَا سبق إلى خاطرى من سوء معناه ؛ (٢) فسترتُ وجهى ، فقال لى : مالك ؟ فلم أملك أن قهقهت ! فتغير لى ؛ فلما خِفْتُ غضبه أخبرته بما سبق إلى خاطرى ، فسبَّنى وقال لى : أنت والله شيطانٌ سيئُ القريحة ، غالبٌ على طباعك اللهو ! ...

واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة .

وأبو إسحاق الزويلىُّ هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء ، جمعتنى وإياه مجالسُ عند السيد الأجلّ أبى زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ما قضيتُ منه العجب .

[رجع الحديث عن بنى غانية]

ولما فرغ أبو يوسف من أمر أفريقية ، كرّ راجعاً إلى المغرب .

ولم يزل يحيى بن غانية قائما بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور ؛

(١) يعنى ابن غانية .
(٢) فى هامش المخطوط : الذى سبق الى خاطره : أن « الأمر » فى اصطلاحهم الخليفة .

ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة مُيُرقة ، فألفاها قد انتقضت عليهم ودُعى فيها للموحدين ؛ فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق ؛ فلما قدم عبد الله قام معه عِلْجٌ من عُلوج أبيه يُسمَّى نجاحا ؛ كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة ؛ وكان متحصِّناً فى قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالى والجند ؛ فلما قدم عبد الله – كما ذكرنا – تلقَّوه ، وانضاف إليهم خلقٌ من بوادى الجزيرة من الفلاحين ورُعاة الغنم ؛ فنهد بهم عبد الله إلى المدينة ، فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع ؛ ففتحوا له الأبواب ، ودخلها بمن معه ؛ وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس ؛ فحظى محمد هذا عند المصامدة حُظوة عظيمة ، وولَّوه مدينة دانية ، فلم يزل والياً عليها حتى مات .

واستقر عبد الله بميرقة ، فضبط أمرها وجرى فى الغزو وإخافة العدو على سَنن أبيه ؛ فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحِّدون فى سنة ٥٩٩ على ماسيأتى بيانه إن شاء الله .

ولم يزل أمر يحيى بأفريقية يَنْبُه تارة ويَخمُل أخرى ؛ وله أخبارٌ يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها .

[اختلاف بنى عبد المؤمن]

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً فى هذا الوجه الذى ذكرنا ، طمع فى الأمر أخوه أبو حفص عمرُ المتلقِّب بالرشيد ، وعمُّه سليمان بن عبد المؤمن ؛ وكان أحدهما بشرقىّ الأندلس بمدينة مُرْسِية ، والآخر بتادلا من بلاد صُنهاجة .

فأما أبو الربيع سليمان فسوَّلت له نفسه وزيَّن له سوءُ رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته ، وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ماأراد ؛ فلم يتفق له من ذلك أكثرُ من أن تشعَّثتْ عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأُشنوعة القبيحة ، وبلغ الخبر أمير المؤمنين .

وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتنقُّص أمير المؤمنين أبى يوسف على رءوس الأشهاد ، تعريضاً مرة وتصريحاً تارة ، وإلقاء ذلك إلى خواصّه ليُلقوه إلى وجوه الأندلس ؛ وانتهى أن قَتل قاضىَ مُرسِيَة وخطيبَها المعروفَ بابن أبى جمرة ، وقيل إنه وَكَزه برِئاس السيف فى صدره وكزةً مات منها بعد أيام .

فاستحشتْ هذه الأخبارُ أميرَ المؤمنين وأزعجته ، فعَجِلَ من بِجاية إلى فاس سبعَ عشرةَ مرحلة ؛ وهذا نهاية مايكون من سرعة السير لمثله : فلما سمع بقدومه أبو الربيع سليمان وعمر المذكوران ، خرجا يلتقيانه ؛ فعبر عمر البحر ، وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضا ؛ فأما عمر فلقيه بالقرب من مدينة مِكناسة ، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه ، فلما قرب منه لم تدُرْ بينهما كلمتان حتى أَمر بالقبض عليه وتقييده ، وحُمل بعد التقييد إلى مدينة سَلا ؛ ولقيه سليمان عمُّه ، ففعل به مثل ذلك ؛ وسار حتى نزل مدينة سلا ، وفَصَل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما ، وأثقلهما بالحديد ؛ وسار حتى بلغ مراكش ، فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاةِ عليهما ودَفْنهما ؛ فقتلهما صبراً ، ودفنهما ، وكتب يُعلمه بذلك ؛ فبلغنى أنه قال له : بنيتُ قبريهما بالكدان والرخام ؛ وجعل يذكرِ حسنَهما ، فكتب

إليه : مالنا ولدفن الجبابرة ، إنما هما رجلان من المسلمين ، فادفنهما كيف يُدْفَنُ عامة المسلمين .

وبعد قتْله هذين الرجلين هابه بقيةُ القرابة وأُشربت قلوبُهم خوفه ، بعد أن كانوا متهاوِنين بأمره محتقرين له ؛ لأشياء كانت تظهر منه فى صِباه تُوجب ذلك ؛ وكان قتْله هذين الرجلين فى سنة ٥٨٣ ، وأظهر بعد ذلك زُهداً وتقشُّفاً وخشونةَ ملبس ومأكل .

وانتشر فى أيامه للصالحين والمتبتلين وأهلِ علم الحديث صِيتٌ ، وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتُهم منه ومن الناس ؛ ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ، ويصل من يقبل صِلته منهم بالصِّلات الجزيلة .

[دعوة أبى يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة]

وفى أيامه انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرِّد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد ، كمدوَّنة سُحْنون ، وكتابِ ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ومختصرِه ، وكتابِ التهذيب للبراذعى ، وواضحةِ ابن حبيب ، وما جانَسَ هذه الكتبَ ونَحَا نحوَها ؛ لقد شهدتُ منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتَى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار ؛ وتقدَّم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه ، وتوَعَّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ؛ وأمر جماعةً ممن كان عنده من

العلماء المحدّثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : (الصحيحين ، والترمذى ، والموطّأ ، وسُنن أبى داود ، وسُنن النَّسائى ، وسنن البزّار ، ومسند ابن أبى شَيبة ، وسنن الدّار قطنى ، وسنن البَيْهَقى) فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ؛ فأجابوه إلى ذلك ، وجمعوا ما أمرهم بجمعه ؛ فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ؛ وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوامّ والخاصة ؛ فكان يجعل لمن حفظه الجُعلَ السَّنِيَّ من الكِسَا والأموال ؛ وكان قصْده فى الجملة مَحْوَ مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحَمْلَ الناس على الظاهر من القرآن والحديث ؛ وهذا المقصد بعينه كان مقصدَ أبيه وجدّه ، إلا أنهما لم يُظهراه وأظهره يعقوب هذا ؛ يشهد لذلك عندى ما أخبرنى غيرُ واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجدّ ، أنه أخبرهم قال : لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبى يعقوب أولَ دَخْلة دخلتُها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحدثت فى دين الله ؛ أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعةُ أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا : فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيُّها يجب أن يأخذ به المقلِّد ؟ فافتتحت أُبيّن له ما أَشكل عليه من ذلك ؛ فقال لى وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ؛ وأشار إلى المصحف ؛ أو هذا ؛ وأشار إلى كتاب سُنن أبى داود ، وكان عن يمينه ؛ أو السيف ! فظهر فى أيام يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ؛ ونال عنده طلبةُ العلم - أعنى علم الحديث - ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجدّه ؛ وانتهى

أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحِّدين يُسمعهم - وقد بلغه حسَدُهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخَلْوته بهم دونهم - يا معشر الموحدين، أنتمُ قبائل؛ فمن نابه منكم أمرٌ فزِع إلى قبيلته؛ وهؤلاء - يعنى الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا؛ فمهما نابهم أمرٌ فأنا ملجؤُهم وإلىَّ فزَعُهم وإلىَّ ينتسبون! فعظم منذ ذلك اليوم أمرُهم، وبالغ الموحِّدون فى برِّهم وإكرامهم.

[استرجاع مدينة شِلب]

ولما كان فى سنة ٥٨٥، قصد بِطْرُو بن الرّيق[1] - لعنه الله - مدينة شِلب، من جزيرة الأندلس؛ فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنجُ بالبُطْس والشوانى؛ وكان قد وجّه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه، على أن يجعل لهم سَبْيَ البلد، وله هو المدينة خاصة؛ ففعلوا ذلك، ونزلوا عليها من البر والبحر؛ فملكوها وسَبَوْا أهلها؛ وملك ابنُ الريق - لعنه الله - البلد.

وتجهز أميرُ المؤمنين فى جيوش عظيمة، وسار حتى عبر البحر؛ ولم يكن له همٌّ إلا مدينة شِلب المذكورة، فنزل عليها؛ فلم تُطق الرومُ دفاعه، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها؛ ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصنا من حصونهم عظيما يقال له طُرَّش؛ ورجع إلى مراكش.

[طامعٌ آخر من بنى عبد المومن!]

وبعد رجوعه مرض مرضا شديداً خِيف عليه منه؛ وكان قد ولّى أخاه أبا يحيى الأندلس، فجعل يتلكأ فى خروجه ويبطئ تربُّصاً به وطمعاً فى وفاته؛ وكلما

(١) هو بيدرو بن ألفونس هنريكيز ملك البرتغال.

أفاق هو سأل : هل عبر أبو يحيي أم لا ؟ فلما بلغ أبا يحيي استحثا ثه إياه ، أسرع إلى العبور وهو لا يشك أن أول مايَرِد عليه خبرُ وفاته ؛ فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه ، وقال : ماتركتُ أمير المؤمنين إلا هامَةَ اليومِ أو غد ، وليس لها غيرى ! فجعل أشياخُ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض ، وأهلُ بلدٍ على أهل بلد ؛ حتى بلغ مُرْسِية ؛ وكتبوا بذلك مساطيرَ خوفاً على أنفسهم .

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالسفر ، فخرج قاصدا مدينة فاس ، يُحمَل فى مَحَفَّةٍ على بغلين ؛ وبلغه أمرُ أبى يحيي المذكور ، وجاءته كتبُ أهل الأندلس والمساطيرُ التى كتبوها .

ولما سمع أبو يحيي بحركته ، جاء معتذراً إليه حتى عبر البحر ، فلقيه بمدينة سَلاَ ؛ فلما وقعت عينُه عليه قال لمن عنده : هذا الشقىُّ قد جاء ! وأمر به فقُيِّد ، ووجّه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدّوا شهاداتهم ؛ وأمر به فاحضر وقال : إنما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع خليفتان بأرضٍ فاقتلوا الآخِر منهما » ! وأمر به فضُربت عنقُه ؛ تولى قتْله أخوه لأبيه عبد الرحمن ابن يوسف ؛ وذلك بمحضرٍ من الناس ، وأمر به فكُفِّن ودُفن ؛ وأقبل على القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً ، وأمر بإخراجهم على أسوإ حال ، حُفاةً عُراة الرءوس ؛ فخرجوا وكلٌّ واحدٍ منهم لا يشك أنه مقتول !

ولم يزل أمرُ القرابة من يومئذ فى خمول وهلُمّ ، وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذِ العلامة ؛ فكان جملةُ من قتل يعقوبُ : أخويه وعمّه !

[وقعة الأرك]

ولما كان فى سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأدفنش - لعنه الله - من العهد (١) ؛ فخرجت خيلُ الأدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها ؛ إلى أن كثر عيثُها بالأندلس .

وتجهَّز أمير المؤمنين وأخذ فى العبور ، فعبر البحر فى جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ، ونزل مدينة أشبيلية ، فلم يُقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجندَ وقسم الأموال ، وخرج يقصد بلاد الروم .

وسمع الأدفنش - لعنه الله - بقصده ، فتجهز هو أيضاً فى جموع ضخمة ؛ والتقوا بموضع يُعرف بفُحْصِ الحديد ؛ وكان الأدفنش قد جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط (٢) ؛ فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم ؛ لما رأوا من كثرة عدوهم ؛ وأميرُ المؤمنين فى ذلك كله لا مستندَ له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظنّ عنده خيرا من الصالحين .

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان (٣) من هذه السنة المذكورة ، التقى المسلمون وعدوُّهم ؛ فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتافَ الروم ؛ وكانت الدائرة على الأدفنش - لعنه الله - وأصحابه ؛ ولم ينجُ إلا هو فى نحوٍ من ثلاثين من وجوه قواده ؛ واستشهد من المسلمين

---

(١) هو ألفونس الثامن ملك قشتالة .

(٢) يحكى صاحب بغية الملتمس : أن عسكر الأدفنش كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائة ألف راجل ؛ وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين ! .

(٣) رواية ابن خلكان وغيره : أن الوقعة كانت يوم الخميس التاسع من شعبان .

جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم ، منهم الوزير أبو يحيي أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر فى وزراء أبي يوسف [(١)] .

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح ، وقد انجلى عنها أهلـُها ، فدخلها ، وأمر بكنيستها فغُـيِّرت مسجداً ؛ فصلى فيها المسلمون ؛ واستولى على ماحول طُليطلة من الحصون ؛ ثم رجع إلى مدينة أشبيلية منصورا مفتوحا عليه .

وكانت هذه الهزيمة أُختاً لهزيمة الزَّلاقة ، المتقدم ذكرُها فى مدة يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين [(٢)] .

وأقام أمير المؤمنين بأشبيلية بقية سنة ٥٩١ ، وقصد بلاد الروم فى السنة الثانية ، فنزل على مدينة طُليطلة بعساكره ؛ فقطع أشجارها ، وانتسف معايشها ، وغوّر مياهها ، وأنكى فى الروم أشدّ نكاية .

ثم عاد فى السنة الثالثة أيضا ، وتوغل بلادَ الروم ، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملكٌ من ملوك المسلمين قط ؛ ورجع إلى مدينة أشبيلية ، فأرسل الأدفنش إليه - لعنه الله - يسأله المهادنة ، فهادنه إلى عشر سنين [(٣)] ، فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتّب فيها من يقوم بحمايتها ، وقصد مدينة مراكش ، وذلك فى سنة ٥٩٤ .

---

(١) انظر ص ٢٦٢

(٢) انظر ص ١٣٢

(٣) كان أبو يوسف - فيما يروى أهل التاريخ - موشكا أن يغلب الأدفونش على طليطلة دارملكه ، ويفيدها إلى الإسلام ؛ وإعجاله على قبول الهدنة مابلغه من حركة ابن غانية فى أفريقية مع قراقوش الأيوبي...

[عزم أبي يوسف على قصد مصر ، ووفاته]

فبلغني عن غير واحد أنه صرّح للموحّدين بالرحلة إلى المشرق ، وجعل يَذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول : نحن إن شاء الله مُطهِّروها (١)؛ ولم يزل هذا عزمَه إلى أن مات - رحمه الله - في صدر سنة ٥٩٥ - كما ذُكر - ودفن بتينملّ مع آبائه (٢) .

[شيء من سيرته]

وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل ، متحرِّياً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمةُ التي هو فيها ؛ كان في أول أمره أراد الجري على سُنن الخلفاء الأول ...

---

(١) كان ملك مصر في ذلك التاريخ هو العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي ، وقد مات في المحرم سنة ٥٩٥ وخلفه على العرش أخوه الأفضل على بن صلاح الدين . وكانت وفاة أبي يوسف أمير الموحدين بين صفر وجمادى الأولى من تلك السنة ، على اختلاف بين المؤرخين . وانظر ص ٢٦١ من هذا الكتاب .

(٢) يروي ابن خلكان نبأ غريبا عن آخرة أمير الموحدين أبي يوسف ، فيقول إن الروايات اختلفت في أمره بعد عودته إلى مراكش من الأندلس ؛ فمن الناس من يقول إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد المشرق وهو مستخف لا يعرف، ومات خاملا ؛ ومنهم من يقول إنه توفي ... على اختلاف في تاريخ وفاته ؛ قال ابن خلكان : « ثم حكى لي جمع كثير بدمشق في شهر شوال سنة ٦٨٠ أن بالقرب من المجدل ، من أعمال البقاع ، قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف ... »

ويعلق المقري صاحب نفح الطيب على هذه الرواية فيقول :

« ... وما يقال من أنه ساح في الأرض وتخلى عن الملك ووصل إلى الشام ودفن بالبقاع ، لا أصل له... وممن صرح ببطلان هذا القول : الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال إن ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور ! »

فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه فى الصلوات الخمس ؛ لم يزل على ذلك مستمرا أشهرا ، إلى أن أبطأ يوما عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت ، وقعد الناس ينتظرونه ؛ فخرج عليهم فصَلَّى ثم أوسعهم لوما وتأنيبا ، وقال : ماأرى صلاتكم إلا لنا ، وإلا فما مَنَعكم عن أن تقدّموا رجلا منكم فيصلى بكم ؟ أليس قد قدم أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب ؟ أما لكم بهم اسوةٌ وهم الأئمة المتَّبعون والهداة المهتدون ؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة .

وكان يقعد للناس عامة ، لا يُحجب عنه أحدٌ من صغير ولا كبير : حتى اختصم إليه رجلان فى نصف درهم ، فقضى بينهما ؛ وأمر الوزيرَ أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ؛ وقال لهما : أما كان فى البلد حُكام قد نُصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود فى أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لاينفِّذها غيره .

ولما ولَّى أبا القاسم بن بَقِيّ المتقدم الذكر (١) ، كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يَسمع حكمه فى جميع القَضايا ؛ فكان يقعد فى موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح .

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحَضر فى كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحُكامهم .

وكان إذا وَفد عليه أهلُ بلد فأول ما يسألهم عن عُمالهم وقُضاتهم

(١) انظر ص ٢٦٤

وو ُلاتهم ؛ فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة ؛ فلا يقولنّ امرؤٌ منكم إلا حقا ؛ وربما تلا فى بعض المجالس « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة ٩٢ ــ وهى الغزوة التى كانت بعد الوقعة الكبرى التى أذل الله فيها الأدفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره ــ كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحَمْلهم إليه ؛ فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! ويشير إلى العسكر ؛ فكان فى ذلك شبيهاً بما حُكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خُراسان حين لقى التركَ وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ؛ فجعل يُكثر السؤالَ عنه ، فاخبر أنه فى ناحية من الجيش متكئاً على سِيَةِ قوسه رافعاً إصبعه إلى السماء يُنَضْنِضُ بها ؛ فقال قتيبة : لَأصبعُه تلك أحبُّ إلىّ من عشرة آلاف سيف !

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا ، أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة ، فقبل منهم من رأى القبول وردّ مَن رأى الردّ ؛ فتساوى عنده ــ رضى الله عنه ــ الفريقان ، وقال : لكلٍّ مذهب ؛ ولم يزد هؤلاء ردُّهم ولا نقص أولئك قبولُهم .

وكان كثيرَ الصدقة ؛ بلغني أنه تصدّق قبل خروجه إلى هذه الغزوة ــ أعنى

التى كانت فيها الوقعة الكبرى - بأربعين ألف دينار ، خرج منها للعامة نحوٌ من نصفها ، والباقى فى القرابة ؛ أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعا ، وجعلوا فى كل رُبع أمناء معهم أموالٌ يتحرّون بها المساتير وأربابَ البيوتات ، وكان كلما دخلت السنةُ يأمر أن يُكتب له الأيتام المنقطعون ، فيُجمعون إلى موضع قريبٍ من قصره ، فيُختَتَنُون ويأمر لكل صبيٍّ منهم بمثقال وثوب ورغيف ورُمانة ؛ وربما زاد على المثقال درهمين جديدين ؛ هذا كلُّه شهدُته لا أنقله عن أحد من الناس .

وبنى بمدينة مرّاكش بيمارستاناً ما أظنّ أنّ فى الدنيا مثله ؛ وذلك أنه تخَيّر ساحةً فسيحة بأعدل موضع فى البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكَمة ما زاد على الاقتراح ؛ وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشموماتِ والمأكولات ، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع بِرَكٍ فى وسطه ، إحداها رخام أبيض ؛ ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكتّان والحرير والأديم وغيرِه بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت ، وأجرَى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم الطعام وما يُنْفَقُ عليه خاصة ، خارجا عما جَلَب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادِلة لعمل الأشرِبة والأدهان والأكحال ؛ وأعدَّ فيه للمرضى ثيابَ ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ؛ فإذا نَقَهَ المريضُ فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمالٍ يعيش به ريثما يستقلّ ، وإن كان غنيًّا دُفع إليه مالُه وتُرِكَ وسَبَبَه ؛

ولم يَقْصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كلُّ مَن مَرِض بمراكش من غريبٍ حُمل إليه وعُولج إلى أن يستريح أو يموت ؛ وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، يعودُ المرضى ويسأل عن أهلِ بيتٍ أهلِ بيت ، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القَوَمَةُ عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج ؛ لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله .

[مماليك الغُزّ المصريون فى المغرب]

وفى أول ولايته ـ إما سنة ٨٣ أو ٨٢ ـ وَرَد علينا البلادَ الغُزُّ من مصر (١) ؛

(١) الغز : جنس من الترك ، بلادهم فى أقصى المشرق على تخوم الصين ، وقد عرفهم العرب فى أيام الفتوح الأولى ؛ دخلوا بلاد المسلمين أسارى ومماليك ؛ فلم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا فى الحياتين المدنية والعسكرية جميعا ؛ فصار منهم قواد ووزراء وولاة ؛ ثم قوى سلطانهم حتى صار الخلفاء فى قبضة أيديهم وسياسة الدولة وفق إرادتهم .

ومن الغز كان أحمد بن طولون صاحب عرش مصر فى القرن الثالث .

على أن الأسارى والمماليك فى الدولة الإسلامية لم يكونوا جميعا من الغز ؛ بل لم تكن الأكثرية منهم ؛ فقد كان منهم الترك والعجم والكرد والأرمن والروم والشركس والصقالبة وأجناس شتى ؛ ولكن كتاب العربية فى مختلف أقطارها لم يكونوا يفرقون بين جنس وجنس حين يتحدثون عن المماليك أو من يمت إلى المملوكية بصلة ؛ فهم ينسبونهم إلى ما يشاءون من الأجناس لا يعنيهم من تلك النسبة إلا الإشارة إلى سابقتهم فى الرق والمملوكية ؛ ومن هذا كانت تسمية هؤلاء بالغز حينا، وبالترك حينا آخر، وبالمماليك فى أحيان كثيرة . ومن العسير فى أغلب الحالات نسبة مملوك أو طائفة من المماليك إلى جنس معين ؛ ذلك لأن تجارة الرقيق بعد انتهاء عهد الفتح قد حملت طائفة من ذوى النفوس الغليظة على احتراف النخاسة ، فكانوا يخطفون الأطفال ، بنين وبنات ، من حجور أمهاتهم ويسلكون بهم المفاوز والمحيطات إلى حيث يبيعونهم فى أسواق الرقيق بعد أن يقطعوا كل صلة لهم بماضيهم ، ومن ثمة يخفى جنسهم الحقيقى إلا على ذوى الحذق والفراسة .

وهؤلاء الغز الذين يشير إليهم المراكشى ، كان لهم شأن فى تاريخ أفريقية أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ؛ وكان وصولهم إليها حوالى سنة ٥٦٨ ، وعلى عرش مصر وقتئذ الملك الناصر صلاح الدين ، وكانت الحروب الصليبية ناشبة فى الشرق والغرب ؛ فثمة صليبيون يغيرون على الشام ومصر ، قد تجمعوا من أقطار شتى ؛ وصليبيون فى صقلية يحاولون أن يغلبوا =

وكان فيمن وَرَد علينا مملوك يُسمى قَرَاقُش (١) ، ذكروا أنه كان مملوكاً لتقيّ الدين ابن أخى الملك الناصر ؛ ورجل يسمى شعبان ، ذكروا أنه من أمراء الغُزّ ؛ ومن أجناد المصريين رجلٌ يُعرف بالقاضى عماد الدين ، فى آخرين ؛ فأحسَنَ نُزُلهم ، وبالغَ فى تكرمتهم ، وجعل لهم مزيةً ظاهرة على الموحِّدين ؛ وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكيةَ ثلاثَ مراتٍ فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ؛ وجامكيةُ الغزّ مستمرةٌ فى كل شهر لاتختلّ ، وقال : الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشىء لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصّلة . هذا مع أنه أقطع أعيانَهم أقطاعا كأقطاع الموحِّدين أو أوسع : أقطعَ رجلا منهم فيما أعرف ، من أهل إرْبَل ، يُعرف بأحمد الحاجب ، مواضعَ ليس لأحد من قرابته مثلُها ؛ وأقطع شعبانَ المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغلُّ فى كل سنة

=العرب على سواحل أفريقية ، وصليبيون من الأسبان والفرنجة يضيقون الخناق على العرب فى الأندلس وما يصاقبها من الجزر فى بحر الروم .

قال أهل التاريخ : وفى بعض هذه الحملات أحس صلاح الدين الأيوبى صاحب عرش مصر والشام بحاجته إلى معونة المسلمين فى المشرق والمغرب على رد عادية الصليبيين على بلاده ؛ فأرسل الرسل والكتب إلى أمراء المسلمين هنا وهنالك ؛ وكان فيمن أرسل إليهم صاحب عرش المغرب والأندلس من أمراء الموحدين ، وسماه فيما كتب « أمير المسلمين ... » قالوا : فغضب ملك مراكش إذ لم يسمه صلاح الدين « أمير المؤمنين » ولم يستمع لندائه ...

وخلال ذلك ظهر المماليك المصريون فى ذلك التاريخ بأرض أفريقية ؛ وأميرهم شرف الدين قراقوش مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ... فحالفوا عرب بنى هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لمملكة الموحدين ، ففتحوا كثيراً من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد ، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ماكان بينهم وبين جيش الموحدين فى قفصة . انظر ص ٢٧٣ – ٢٧٤

(١) هو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين .

نحواً من تسعة آلاف دينار ، هذا خارجا عن جامكيتهم الكثيرة التى ليس لأحد من الأجناد غيرِهم مثلُها .

ولم يرِد المغربَ من هذه الطائفة - أعنى الغز - ألطفُ حِسًّا ولا أزكى نفسا ولا أحسنُ محاضرةً ولا أطْيَبُ عِشرة من شعبانَ هذا المذكور ؛ مالقيتُه إلا استنشدنى أو أنشدنى .

أنشدته يوما لشاعرٍ من أصحابنا من أهل أشبيلية :

وقائل : فيمَ لم تَهْجَعْ ؟ فقلتُ له : ☆ كيف الهُجوعُ لطرفٍ نافرِ الوَسَنِ

لم تدْرِ أن الكرى الممنوعَ عن بَصَرِى ☆ هى السِّنَاتُ التى فى مُقْلَتَىْ حسنِ !

فضحك وقال : لقد حوَّم هذا الشاعر وما وَرَد ، ورفرفَ فما طار ، وأراد غايةً فوقع دونها ؛ ولله مَن أثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول :

اِعيدُوا صَبَاحِى فهو عِند الكواعبِ

وردُّوا رُقادى فهو لحْظُ الحبَائبِ

قلت : هو أبو الطيب . قال لى : نعم ، هو الطيب أبو الطيب .

وأنشدُته يوما - وقد جرى ذِكر التجنيس اللفظى ، فأنشد هو منه وأكثر - :

إذا صال ذو وُدٍّ بوِدٍّ صديقه ☆ فيأيها الخِلُّ المصاحِبُ لى صُلْ بى

فإنىَ مثلُ الماء ليناً لصاحبى ☆ وناهيك للأعداءِ مِن رجلٍ صُلْبِ !

فاستحسنهما وكتبهما عنده ، وقال لى رحمه الله : لك علىَّ بهذين البيتين حق ؛ فما وافقنى شىءٌ من الشعر فى هذا المعنى ولا فى غيرِه ولا وقع منى موقعهما .

وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد، وكان يقرِض شيئا من الشعر، وربما ندَرَتْ له الأبياتُ الجيدة؛ سألته أن يكتب لي شيئا من شعره أو يُنشدنيه، فأبى عليّ كلّ الإباء، وحلف لا يفعل ...

[أبو يوسف وعقيدة العامة في ابن تومرت]

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تِينمل للزيارة ومعه هؤلاء الغُزّ المذكورون، فقعدوا تحت شجرة خرّوب مقابلةٍ للمسجد؛ وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم ووَعدهم به: لَيُبصرنّ منكم مَن طالت حياتُه أمراءَ أهلِ مصرَ مستظلّين بهذه الشجرةِ قاعدين تحتها! فلما جلس الغُز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليومُ في تينملّ يوما عظيما؛ اتصل التكبير من كل جهة، وجاء النساء يُوَلوِلْن ويضربن بالدُّفوف ويقلن ما معناه بلسانهم: صَدَق مولانا المهدي! نشهد أنه الإمام حقا!

فأخبرني من رأى أميرَ المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافاً لعقولهن؛ لأنه لا يرى شيئاً من هذا كلّه، وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت؛ فالله أعلم.

أخبرني الشيخ الصالحُ أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المَرِيّ ونحن بحِجْر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس، اشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت - قال: وقال لي يوما وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس، أين الإمام ...؟ أين الإمام ...؟

أخبرنى شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جَيّان من جزيرة الأندلس ، يسمى أبا بكر بن هانئ ، مشهور البيت هناك ؛ لقيتُه وقد عَلَتْ سِنُّه فرويت عنه ، قال لى : لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرَك - وهى التى أوقع فيها بالأدفنش وأصحابه (١)- خرجنا نتلقّاه ؛ فقدَّمنى أهلُ البلد لتكليمه ، فرُفِعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته ووُلاته وعُماله - على ما جرت عادته - فلما فرغتُ من جوابه سألنى كيف حالى فى نفسى ؛ فتشكرت له ودعوتُ بطول بقائه ؛ ثم قال لى : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأتُ تواليفَ الإمام ؛ - أعنى ابن تومرت - فنظر إلىّ نظرة المُغْضَب ، وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حُكمك أن تقول : قرأتُ كتاب الله ، وقرأت شيئا من السُّنة ؛ ثم بعد هذا قل ماشئت . فى أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص .

[اهتمامه بالتشييد والبناء]

وكان عند رجوعه من السَّفرة التى استنقذ فيها مدينة شِلْب من أيدى الروم على ماتقدم (٢) ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم ، نهر أشبيلية ، حِصن ؛ وأن تُبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً فى ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشديد - فإنه كان مهتما بالبناء ، وفى طول أيامه لم يخلُ من قصر يستجِدُّه أو مدينةٍ يَعْمُرُها ؛ زاد فى مدينة مراكش فى أيامه زيادةً كثيرة يطول تفصيلها - فتمت له هذه القصور المذكورة على ماأراد وفوقه ؛ وسَمّى ذلك الحصنَ «حِصنَ الفَرج»

(١) انظر ص ٢٨٢

(٢) انظر ص ٢٨٠

[علي بن حزمون الشاعر]

ولما رجع من غزوته العظمى - المتقدم ذكرها - في سنة ٥٩١ ، جلس للوفود في قبة من تلك القِباب مشرفةٍ على النهر الأعظم ، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم ؛ وأنشده الشعراء : فممن أنشده في ذلك اليوم صديقٌ لي من أهل مُرسية اسمه عليّ بن حزمون ، أنشده قصيدةً في عَروض يسمى الخَبَبْ (١) كان يقترحه على الشعراء ، فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان ، أولها :

حيَّتْك مُعطَّرةَ النَّفَسِ * نَفحاتُ الفتحِ بأندلُسِ
فذَرِ الكُفّارَ ومأتَمهم * إن الإسلام لفي عُرُس
إمامَ الحقِّ وناصِرَهُ * طهَّرتَ الأرضَ من الدَّنَس
وملأت قلوبَ الناس هُدًى * فدنا التوفيق لملتمِس
ورفعت منارَ الدين على * عمدٍ شُمٍّ وعلى أُسس
وصدعتَ رداءَ الكفرِ كما * صدَعَ الدَّيجورُ سَنا قَبَسِ
لاقيتَ جموعهمو فغدَوْا * فرصاً في قبضةِ مُفترِس
جاءوك تَضيقُ الأرضُ بهم * عَدداً لم يُحْصَ ولم يُقَسِ
خَرجوا بَطَراً ورِئاءَ النا * س ليختلسوا مع مُختلِس
ومضيتَ لأمر الله على * ثقةٍ بالله ولم تَخِس
فأناخ الموتُ كلاكِلَهُ * بِظُباكَ على بَشَرٍ رَجِس

(١) تفعيلاته : « فعلن فعلن فعلن فعلن » مرتين .

وتساوى القاع بهامهم * الربض مع الحرب الضرس (١)

سقيت بنجيعهمو أكم * وطئوا منهن على دهس

فأولئك حزب الكفر ألا * إن الكفار لفى نكس

أذوى الصلبان وراءكمو * خيل الملك الخبر الندس

لو أن البحر تناوله * جرعا وطئته على يبس

ولو ان الصم تراجمها * أضحت كحل المقل النعس

ملأ التوحيد أعنتها * وأغار بها روح القدس

نهضت فمضت فقضت أملا * أنسى عتب الدنيا فنسى

جاست جنبات الكفر فلم * تترك لهمو مالم تجس

لم يبق بها مثوى رجل * إلا وعليه شذى فرس

لحقوا بقرون الشم فلا * سقيا لطلولهمو الدرس

إن كان نجا أدفنشهمو * فإلى عيش نكد تعس

نظر الملك الأعلى فرأى * ملكا مابين قنا وقسى

كالصبح توشح رونقه * كالطور بنور الله كسى

فمضى لم يلو على أحد * ورمى بالدرع وبالترس

لصليل الهند بمفرقه * لايسمع صلصلة الجرس

سهر الموتور وأرقه * تذكار المنصل والمرس

وبكاء عقائل هاتفة * كالورق ينحن مع الغلس

---

(٢) عجز البيت فى الأصل : « المرفض مع الحدب الضرس »

بَرَزَتْ وكأنَّ ذوائبَها ٭ أذنابُ رَوَائِحَةٍ شُمْسِ

ترنُو كظباء الرَّمْلِ على ٭ وَجَلٍ لضراغمةٍ شُرْسِ

قد كُنَّ مها أُنْسٍ فغَدَتْ ٭ تحتَ الرايات بلا أنس

إن الأيام قد ازدهرتْ ٭ كالروض يَرُوق لمُغترِسِ

وتناسقتِ الآمالُ لنا ٭ كالثَّغْرِ تنظَّمَ فى لَعَسِ

وتلألأ نورُ الحقِّ على الثائرِ المهديَّةِ فاقتَبِسِ

أجزيرةَ أندلسٍ اعتصِمى ٭ بإمام الأمةِ واحترِسى

أَرْعاكِ حِراستَه مَلِكٌ ٭ جبريلُ له أحدُ الحَرَسِ

حكمتْ أسيافُك سيِّدَنا ٭ فى كلِّ مُصِرِّ الكفرِ مُسِى

ومضتْ فى الرومِ مَضارِبُها ٭ وكذلك تفعل فى الفُرس

لا يُخلف ربُّك موعِدَهُ ٭ دَوِّخْ أقطارَهُمُو ودُس !

أوردتها على تَوَاليها وإن كان فيها طول ، لغرابة عَرُوضها وَجودة أكثرِ أبياتها ؛ أنشدَنيها منشئُها المذكور من لفظه ، ثم أعدتُها عليه بلفظى آخر مرة لقيتُه بمدينة مرسية فى سنة ٦١٤ .

ولِعلىٍّ بن حزمون هذا قدمٌ فى الآداب ، واتساعٌ فى أنواع الشعر ، ركب طريقةَ أبى عبد الله ابن حجاج البَغدادى (١) ـ سامحه الله وغفر له ـ فأربى فيها عليه ؛ وذلك أنه لم يَدَعْ موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا

---

(١) هو أبو عبدالله الحسن بن أحمد بن الحجاج ، من شعراء المائة الرابعة ، ذكره الثعالبى فى اليتيمة ؛ وكان هازلا ماجنا ؛ وهو وابن سكرة الهاشمى متعاصران وفى السخف متشابهان ؛ فكان يقال : إن زماناً جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدا ...

عمل فى عَروضها ورَوِيِّها موشحةً على الطريقة المذكورة ؛ وله مع هذا فى الهجاء يدٌ لا تُطاوَل ، غير أنه يُفحش فى كثير منه ؛ فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحُطيئة : ابتدأ يهجو نفسه ، ثم استطرد يهجو رجلا من أعيان قُواد الأندلس يقال له محمد بن عيسى ، مشهور النجدة عندهم . والأبيات :

تأملتُ فى المرآةِ وجهى فخِلْتُهُ ✽ كوجهِ عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللَّهوِ
كأن على الأزرار مِنّىَ عَوْرَةً
تُنادى الوَرَى : غُضُّوا ولا تنظروا نحوِى
فلو كنتُ مما تُنبت الأرضُ لم أكن
من الرائق الباهى ولا الطيِّبِ الحُلْوِ
وأقبحُ من مَرْآىَ بَطْنى فإنه ✽ يُقرْقِرُ مثلَ الرعدِ قرْقرَ فى الجوِّ
وإلا كقلْبٍ بين جَنْبَىْ محمدٍ ✽ سليلِ ابنِ عيسى حين فرَّ ولم يَلْوِ
يَوَدُّ بأن لو كان فى بطنِ امِّهِ ✽ جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزْوِ
ثقيل ولكنْ عقلُه مثلُ ريشةٍ ✽ تَطيرُ بها الأرواحُ فى مَهْمَهٍ دوِّى
تميلُ بشِدْقيْهِ إلى الأرض لحيةٌ ✽ تظُنُّ بها ماءً يُفَرَّغُ من دَلْوِ
وقد حدَّثوا عنه بكلِّ نقيصةٍ ✽ ولكنَّ مِثْلى لا يُرَوِّى ولا يَرْوِى

وله فى هذا المعنى أحسنُ من هذا كثيرا إلا أنه أقذع فيه ؛ فلذلك لم أودعه هذه الأوراق ؛ لأنى لا أستجيز أن يُنقل مثلُ هذا عنى .

ونال ابنُ حزمون هذا عند قُضاة المغرب وعُماله ووُلاتِه جاها وثروة ؛

كل ذلك خوفاً من لسانه وحذرا من هجائه ؛ ولا أعلم فى جميع بلاد المغرب بلداً إلا وأهاجى هـذا الرجل تُحفظ فيه وتُدرس ؛ أسأل الله له المسامحةَ ولجميع إخواننا من المسلمين .

[محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد]

وأمر أميرُ المؤمنين بعرض الجند فى هذا اليوم (١) فى السلاح التام ؛ فلما انتشروا بين يديه وأعجبه مارأى من حسن هيآتهم ، قام فصلى ركعتين شكراً لله عز وجل ؛ واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابةٌ فأمطرت مطرا جودا حتى ابتلّ الناس ؛ فقال فى ذلك صديق لى من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه (٢) ، أصله من الجزيرة الخضراء ، كان يكتب لأبى الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان مختصًّا به :

بَادى الكرامةِ بل بادى الكراماتِ * قد شَفَّعَ اللهُ آياتٍ بآياتِ
ياليت شعرىَ ماشىءٌ دَعَوْتَ به * قبل السلام ومِن بَعد التَّحيَّاتِ
شىء تأثَّرَ عنه الجوُّ فاتصلتْ * من السحائب راياتٌ براياتِ
من كلِّ وطْفاءَ لفّاءِ الربابِ هَمتْ * ماءً نَقِيًّا على زَغْفٍ نَقيَّاتِ
قلْ كيفَ لايَفْتَحُ اللهُ البلادَ وقدْ * تفتَّحتْ لكَ أبوابُ السماواتِ

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هـذا (٣) وعُرف مكانُه ونَبُه قدْرُه ؛ وله إحسانٌ كثير وقَدَمٌ راسخة فى صناعتَى النظم والنثر ، مع تحقُّقٍ بشىءٍ من

(١) يعنى يوم عودته من وقعة الأرك سنة ٤٩١ .
(٢) ذكره المقرى مرتين فى نفح الطيب ، فيمن لهم رحلة إلى المشرق .
(١) يعنى محمد بن عبد ربه المذكور ، كنيته أبو عبد الله .

أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق ؛ أنشدنى - رحمه الله - من شعره :

قِفْ بالقِباب وأين ذاك الموقفُ * واسألْهُمْ بمأمِّهِمْ أن يعطفوا

وأنشُد فؤادك إن عرفت مكانه * بين القِباب وما إخالُك تعرفُ

عند التى رَمت الجمارَ غُديَّةً * وبَنانُها بدم القلوب مُطرَّفُ

نفسى الفداء لها وإن لم تُبق لى * نفساً تُذكِّرنى بها وتُعرِّفُ

وهى قصيدة طويلة لم يُبقِ تقادُمُ العهد [منها] على خاطرى سوى ما أوردتُه .

وأنشدته - رحمه الله - يوما ونحن فى قبة على شاطىء نهر وقد أخذ المطر فى الانسكاب ، بيتين أحفظهما لشاعر قديم :

حاكت يمينُ الرياح مُحْكمَةً * فى نَهرٍ واضح الأسارير

فكُلما ضَعَّفتْ به حلَقاً * قام لها القَطرُ بالمسامير

فاستحسنهما وقال لى : ذكَّرتنى هذا المعنى ؛ وأنشدنى فيه لنفسه أبياتا ما سمعت بمثلها ؛ هذا على إكثار الناس فى هذا المعنى وتواردِهم عليه حتى صار أخْلَقَ من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع ، فلا يتخلَّص منه إلا من لطُف حسُّه وجاد طبعُه وحسُن مَيزُه ؛ والأبيات :

بين الرِّياضِ وبين الجوِّ مُعترَكٌ * بِيضٌ من البرقِ أو سُمرٌ من السَّمرِ

إن أوترتْ قوسها كفُّ السماءِ رَمتْ * نَبلاً من الماء فى زَغفٍ من الغُدُر

لأجل ذاك إذا هبَّتْ طلائعُها * تدرَّع النهرُ واهتزتْ قَنا الشجرِ

فانظر - حفظك الله - إلى حسن توطئته لهذا المعنى وقوةِ تخلّصه إلى هذا التشبيه

بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق .

واستأذنت عليه يوما وهو فى مجلس له ؛ فلم ير - رحمه الله - أن يحجبنى ؛ فاسترفع ما كان لديه وأذن لى ؛ فدخلت ؛ فتلقانى أحسن لقاء ، وأخذ يحدثنى ؛ وفهمت أنه مُستحيٍ خَجِلٌ إذ عرَف أنى تفطّنتُ لبعض الأمر ، فأنشدته رافعا عنه كلفة الخجل لبعض الشعراء :

أَدِرْها فما التحريمُ فيها لِذاتِها ⁕ ولكنْ لأسبابٍ تَضمّنها السُّكر
إذا لم يكن سُكرٌ يزلُّ به الفتى ⁕ فسيّانِ ماءٌ فى الزجاجة أو خمر !

فطرب - نضر الله وجهه - وعاودَه أنسُه وانبسط ، ثم سكت عنى ساعةً واستدعى الدواة وكتب بَديهاً فى قريب من المعنى الذى أنشدته فيه :

ما ضرَّت الخمرُ لولا الشرعُ يَشرُبها ⁕ قومٌ حديثُهمو هَمْسُ التّسابيحِ
لَيسوا بِرُعشٍ إذا أدَّوْا فرُوضَهمو ⁕ عِندَ القيام ولا مِيلٍ مَراجيحِ
بيت كبيتٍ وفيه شادِنٌ سَدِنٌ ⁕ مَزْجُ الكؤسِ به وقدُ المصابيحِ

وأنشدنى بعد هذا لنفسه ، فى هذا المجلس ، من قديم شعره ، مقطوعةً سينية لم أسمع بأحسن منها ؛ لم يبق على خاطرى منها سوى آخر بيت فيها ، وهو :

ولكنَّ قوماً لايغيبُ نهارُهم ⁕ إذا غَرَبَتْ شمسٌ يُديرونها شَمْسا

وله - رحمه الله - رحلة إلى مصر لقى فيها ابنَ سناء الملك [1] وأخذ عنه من شعره ، وهو أولُ من سمعتُ يذكره عندنا ويَرْوِى شعرَه .

ولأبى عبدالله هذا اتساعٌ فى صناعة الشعر ، إلا أنه نَحَلَ كثيراً من شعره

(١) هو القاضى السعيد هبة الله بن جعفر ، من شعراء مصر فى المائة السادسة ، كان معاصراً للقاضى الفاضل ، توفى بالقاهرة سنة ٦٠٨ .

السيدَ الأجلَّ أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له، ولم يَدَّع بعد ذلك فى شيءٍ مما نَحَله إياه من شعره، ولا ذَكَر أنه له؛ فكان أكثر شعرِه يُنشد لأبى الربيع وترويه الرُّواة له؛ عرفتُ ذلك بعد مفارقته إياه؛ لأنى فقدت شِعرَ السيد أبى الربيع واختلف علىَّ كلامه، ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جدا؛ فعلمتُ أن ذلك الأول ليس من نَسْجِه!

وأخبرنى ابن عبد ربه هذا قال: دخلت على السيد أبى الربيع وهو فى قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كُوًى صِغارٍ فى أعلاها، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبنى وقلت بَديهاً:

لما رأته الشمسُ يفعلُ فعلَها * فى العالمين مُقاسِمًا ومُساهما
خافت توالى الجودِ يُنفِدُ مالَه * نَثَرتْ عليه دنانِراً ودراهما!

فحذف الياء من «دنانير»، وهذا جائز، كما قال الأول:

* تضلُّ به أمْناً وفيه العصافر *

[أبو جعفر الحميرى المؤدِّب]

ومما يتعلق بأخبار أبى يوسف ـ رحمه الله ـ ما أخبرنى شيخى وأستاذى أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى ـ رحمه الله ـ أيام قراءتى عليه بقرطبة سنة ٦٠٦، وذلك أنَّا بلغنا عليه فى الحماسة إلى مقطوعة ابن زَيَّابَةَ التَّيْمِىِّ (١) التى أوَّلها:

(١) هو مسلمة بن ذهل التيمى، وزيابة: أمه، وبها يعرف؛ والحارث المذكور فى البيت هو الحارث بن همام الشيبانى؛ وأنشد ابن زيابة هذه المقطوعة يناقض بها الحارث المذكور فى شعر قاله؛ انظر ديوان الحماسة لأبى تمام.

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارثِ الـصابح فالغـانم فالآيبِ

فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقَيْتُه خاليـاً * لآب سَيْفَانا مع الغالبِ !

قال لنا (١) : أحدِّثكم بأعجبِ ما اتفق لى فى هـذا البيت ؛ وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف ـ رحمه الله ـ لما فَصَلَ عن قُرطبة متوجها إلى لقاء الأدفنش ـ لعنه الله ـ قال لى ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أوليلتين : يا أبتِ ، رأيت البارحةَ أميرَ المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين ! فقلت : يا بُنىَّ ، لئن صدقت رؤياك هذه ليَهْزِمَنَّ الأدفُنْشَ لعنه الله ! وخطر لى هذا البيت :

والله لو لاقيتُه خاليـاً * لآب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير .

وأبو جعفر هذا المذكور ، آخرُ من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ؛ لزمتُه نحوا من سنتين ، فما رأيت أرْوَى لشعرٍ قديم ولا حديث ، ولا أذكَرَ بحكاية تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائر أو بيتٍ نادر أو سَجعةٍ مستحسَنة منه ، رضى الله عنه وجازاه عنا خيراً . أدرك جِلّةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك طولُ عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم ؛ قال لى ولده عصام ـ وقد رأيتُ عنده نسخة من شعر أبى الطيب قُرِئَتْ علىَّ أو أكثرُها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له ـ :

---

(١) يعنى أبا جعفر الحميرى .

لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرَّزْتَ فى نقلها. فقال لى: ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصلٌ أصحُّ من الأصل الذى كتبتُ منه! فقلت له: أين وجدتَه؟ قال: هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا! وكنا فى المسجد فى زاوية، فقلت له: أين هو؟ فقال لى: عن يمينك! فعلمت أنه يريد الشيخ، فقلت: ماعلى يمينى إلا الأستاذ! فقال لى: هو أصلى، وبإملائه كتبْت: كان يُملى علىَّ من حفظه! فجعلت أتعجب، فسمع الأستاذ حديثنا؛ فالتفت إلينا وقال: فِيم أنتما؟ فأخبره ولدُه الخبر، فلما رأى تعجّبي قال: بعيداً أن تُفلحوا! يَعجَب أحدُكم من حفظ ديوان المتنبي! والله لقد أدركتُ أقواما لا يَعُدّون مَن حَفظ كتاب سيبويه حافظا ولا يرونه مجتهداً!

توفى أبو جعفر هذا فى شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كملتْ له ست وتسعون سنة؛ لم يبقَ فى الأندلس أعلى روايةً منه فى كل ما يُروَى، ولم أر قبله ولا بعده - مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحُسنِ اختياره ومعرفته بعلل هذه الصناعة - أكثر إنصافا منه ولا أسرع رجوعا إلى الحق؛ كنت أُنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه وبُعده من الجودة أبياتا لا أُعدُّها شيئا؛ يحملنى على إنشادها إياه فرُط استدعائه ذلك منى؛ فيلهج بها ويشتد استحسانه لها، وربما درسها فحفظها.

أنشدتُه يوماً - وقد استدعى منى ذلك على عادته - بيتين ارتجلتُهما فى شاب كان يقرأ معنا كان شديدَ العفة - رحمه الله - مع حسنٍ رائع وظرف ناصع، كان اسمه «فتحاً» وهما:

يا مَن له عن كِناسٍ ٭ من المتيمِ قلبُهْ

ما أنت كاسمِكَ فتحٌ ٭ وإنما أنت قلبُهْ

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تُصدِّعُنى به طولَ نهارك ؛ إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت ! فلما كان من الغد قال لى رحمه الله : أعلمتَ ما صنَع عصامٌ أمس ؟ قلت : لا ؛ قال : كان كما قالوا فى المثل : « سكت الْفاً ... » ؛ لم يزل أمس يُعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد أَخذ معنى بيتَيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملةً فقال :

سَبَى فؤادِىَ خشْفُ ٭ فقوتى اليومَ ضعْفُ

سَمَّوهُ فتحاً مجازاً ٭ وفى الحقيقة حتْفُ !

مازاد فيه أكثرَ من المجاز والحقيقة ؛ فقلت أنا : هذا والله أحسنُ من شعرى ! فتغير لى وقال : يا بُنىّ ، دع عنك هذه العادة ؛ فإن أسوأ ما تَخلَّقَ به الإنسانُ : الملق وتزيين الباطل ، سيّما إذا أضاف إلى ذلك الحلِفَ الكاذب ؛ والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشىء ، وإلا فقد اختل مَيزُك وساء اختيارُك ، وما أظن هذا هكذا .

وسمعته - من شدة إنصافه رحمه الله - يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبُنا علىّ بن خروف رحمه الله[١] ؛ وذلك أن الأستاذ - رحمه الله وعفا عنه - كان يُلقَّبُ بالوَزَغِىّ [٢] ، وكان عنده شابٌّ يقرأ عليه يلقب بالغُرْنوق - وهو اسم عندهم للكُركىّ ، والفصيح فيه غرْنيق [٣] - فكان بعض الطلبة يتهمون

(١) نظنه يعنى أبا الحسن بن خروف القرطبي الشاعر .

(٢) لعل صوابه : يلقب بالوزغة .

(٣) كذا يقول المؤلف ، وإنما هما فصيحان كلاهما .

الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ؛ وذلك خلقٌ قد أعاذه الله منه ونزّهه بفضله عنه ؛ فقال ابن خروف فى ذلك ، سامحه الله :

أَحقا سامّ أَبْرَصَ ماسمِعنا * بأنكَ قد تعشّقْتَ ابنَ ماء
وكيف وأنتَ فى الحيطانِ تمشى * وذاك يطيرُ فى جوّ السماء !

فأبعده الأستاذ - رحمه الله - وأنهى خبره إلى القاضى أبى الوليد بن رشد ، فأوجعه ضربا ؛ وامتنع الأستاذ من قراءته عليه ؛ فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه ، وأبعده عن مَرِيع جنابه ، وولاه الأستاذ خطته ، وألقى حبله على غاربه ؛ فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شىء من العلم ؛ وإنما كان يعتمد فيما يأتى به على طبعه خاصة .

وقد امتد بنا عنان القول إلى ما لا حاجة لنا بأكثره ؛ رغبة فى تنشيط الطالب وإيثاراً للأحماض ؛ ولنرجع الآن إلى ما قطعنا :

[اليهود فى عهد أبى يوسف]

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يُميّز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ؛ وذلك ثيابٌ كُحلية وأكمام مفرطة السّعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلاً من العمائم كلوتاتٌ على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم ؛ فشاع هذا الزىّ فى جميع يهود المغرب ؛ ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبى عبدالله ، إلى أن غيّره أبو عبدالله المذكور ، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة ، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم ؛ فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثيابٍ صُفر وعمائم صُفر ؛ فهم على هذا الزى إلى

وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ وإنما حمل أبا يوسف على ماصنعه من إفرادهم بهذا الزِّى وتمييزه إياهم به، شَكُّه فى إسلامهم؛ وكان يقول: لوصح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكِحتهم وسائرِ أمورهم، ولو صح عندى كُفرُهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرارِيَهم وجعلت أموالهم فَيْئاً للمسلمين؛ ولكنى متردد فى أمرهم.

ولم تنعقد عندنا ذِمَّةٌ ليهودى ولانصرانى منذ قام أمر المصامدة، ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعةٌ ولا كنيسة؛ إنما اليهود عندنا يُظهرون الإسلام ويصلّون فى المساجد ويُقرِئون أولادهم القرآن؛ جارِين على ملّتنا وسنتنا، والله أعلم بما تُكنُّ صدورهم وتحويه بيوتهم.

[محنة أبى الوليد بن رشد]

وفى أيامه نالت أباالوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ـ المقدم الذكر(١) ـ محنةٌ شديدة؛ وكان لها سببان جلىٌّ وخفى؛ فأماسببها الخفى وهو أكبر أسبابها، فإن الحكيم أبا الوليد ـ رحمه الله ـ أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاليس صاحب كتاب المنطق، فهذّبه وبَسط أغراضه وزاد فيه مارآه لائقا به، فقال فى هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ: «وقد رأيتُها عند ملك البربر ...» جارياً فى ذلك على طريقة العلماء فى الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم، غير ملتفِت إلى مايتعاطاه خَدمةُ الملوك ومتحيِّلو الكتّاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق؛ فكان هذا مما أَحْنَقهم عليه

(١) انظر ص ٢٤٢

غير أنهم لم يظهروا ذلك ؛ وفى الجملة فإنها كانت من أبى الوليد غفلة ؛ فقد قال القائل : « رحم الله من عَرَف زمانه فمانه ، ومَيَّز مكانه فكانه ! » وما أحسن ما قال الأول :

وأنزلنى طولُ النوى دارَ غُربةٍ * إذا شئتُ لاقيتُ الذى لا اشاكله
فحامقته حتى يُقالَ سجيةٌ * ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ اعاقله !

واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس ؛ ثم إن قوما ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدّعى معه الكفاءة فى البيت وشرفِ السلف ، سَعوا به عند أبى يوسف ؛ ووجدوا إلى ذلك طريقاً ، بأن أخذوا بعضَ تلك التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم : « فقد ظهر أن الزُّهرة أحدُ الآلهة ... » ، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ؛ فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد ــ رحمه الله ــ قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق : أخَطُّك هذا ؟ فأنكر ! فقال أمير المؤمنين : لعن الله كاتبَ هذا الخط ! وأمر الحاضرين بلعنه ؛ ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم ؛ وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس فى ترك هذه العلوم جملة واحدة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب وما يُتوصلُ به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذِ سمتِ القِبلة ؛ فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعُمل بمقتضاها .

ثم لما رجع [1] إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله ، وجَنح إلى تعلم الفلسفة ،

(١) يعنى أبا يوسف .

وأرسل يستدعى أباالوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه؛ فحضر أبو الوليد - رحمه الله - إلى مراكش، فمرض بها مرضه الذى مات منه، رحمه الله؛ وكانت وفاته بهافى آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين، رحمه الله.

ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير، وكانت وفاته - كما ذكرنا - فى غرة صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ (١).

ذكر ولاية أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علىّ، امه أمٌّ ولدٍ اسمها زَهر، رومية: بويع له بعهد أبيه إليه فى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه؛ وقد كان أبوه أمر ببيعته فى سنة ٨٦ وسِنُّه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهرا؛ وكان مولده فى آخر سنة ٥٧٦، ولم يزل مرشَّحاً للخلافة معروفا بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر فى التاريخ المذكور، وسنُّه يوم بُويع له البيعة الكبرى العامة، سبع عشرة سنة وأشهر؛ وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠؛ فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهرا.

صفاته

أبيض، أشقر شعر اللحية، أشهل العينين، أسِيل الخدين، حسن القامة، كثير الإطراق، شديد الصمت بعيد الغور - كان أكبر أسباب صمته لثغا كان بلسانه - حليما، شجاعا، عفيفاً عن الدماء، قليل الخوض فيما لايعنيه جدا، إلا أنه كان يُبخَّل أولادَه.

(١) انظر ص ٢٦١

[أولاده]

كان قليل الولد جدا ، لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولى عهده ، ويحيي ، وإسحاق ؛ توفى يحيي فى حياته بأشبيلية سنة ٦٠٨ ، وبلغنى عن جماعة من الحَشَم أنه كان رشح يحيي هذا لولاية العهد ؛ وله بنات .

وزراؤه

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجّان ، وزير أبيه (١) .

ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبى يوسف ...

[صلة المؤلف بإبراهيم بن أبى يوسف]

... وهو خير ولده وأجدرُهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطّراح الهوى : لا أعلم فيهم أنجبَ منه : كان لى - رحمه الله - محِبًّا وبى حَفِيًّا ؛ وصلتْ إلىّ منه أموال وخلع جمّة غيرَ مرة ؛ لم أعرفه أيام وزارته ، لأنى كنت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت الاحتلام ، وإنما كانت معرفتى إياه حين ولّوه أشبيلية فى سنة ٦٠٥ ، من جهة رجل من أصحابنا من الكُتّاب اسمه محمد بن الفضل - جازاه الله عنى خيرا - هو الذى أوصلنى إليه ؛ أنشدته أولَ يومٍ لقيتُه قصيدةً مدحته بها ، أولها :

لكمو على هذا الورَى التقديمُ ❊ وعليهمو التفويض والتسليمُ

---

(١) انظر ص ٢٦٣

اللهُ أعلاكم وأعلى أمرَهُ ✿ بكمو وأنفُ الحاسدين رَغِيمُ

أحييتمو المنصورَ (١) فهو كأنه ✿ لم تفتقِدْهُ معالمٌ وعلومُ

ومحابرٌ ومنابرٌ ومحارِب ✿ وحِمًى يُحاطُ وأرمَلٌ ويتيمُ

إلى أن أقول فيها في ذكر ولايته أشبيلية :

فكأنما حِمصٌ (٢) جمالاً سارَةٌ ✿ وكأنَّ إبراهيمَ إبراهيمُ

وأرى طُليطلةً كهاجَرَ إثرَها ✿ سيزُفُّها الأدفُنْشُ وهو ذميمُ

أقول فيها :

يذَرُ الصَّليبَ صغيرَه وكبيرَه ✿ فيها جُذاذاً والعُلوجُ جُثُومُ

ويُحرِّقُ الأعداءَ فيما أضرمتْ ✿ ويَجُوبُ نار الحربِ وهى جحيمُ

لم يبق على خاطرى منها لتقادم عهدها وقلة اعتنائى بها سوى هذه الأبيات التى أوردتُها ؛ فاستحسنها ـ رحمه الله ـ وبالغ فى الثناء عليها ، تفضُّلا منه وسُودداً ، وجَرْياً على سَنن الأجواد ؛ هذا مع ركاكتها وقلةِ انطباعها وظهور تكلُّفها .

ثم علتْ حالى عنده بعد ذلك ـ نضر الله وجهه ـ إلى أن كان يقول لى فى أكثر الأوقات : والله إنى لأشتاقك إذا غبتَ عنى أشد الشوق وأصدقه ! ثم لم تزل حالى معه على هذا إلى أن فارقته ـ رحمة الله عليه ـ وهو والٍ على أشبيلية ولايتَه الثانية .

وكان توديعى إياه ـ قدّس الله روحه ـ آخر يوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ،

---

(١) يعنى أمير الموحدين أبا يوسف ، وكان لقبه المنصور .

(٢) انظر التعليق ص ١١٣

ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧ .

لم أر فى العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر ؛ كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية .

* * *

... ثم عزله أبو عبد الله وولّى بعده أبا عبد الله محمد بن على بن أبى عمران الضرير جدّ يوسف بن عبد المؤمن لأمه (١) ؛ وكناه أبا يحيى ؛ فكان أبو عبدالله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرةً وسريرة ، وكان يحضّه على فعل الخير بجهده ، ونشر العدل حسب طاقته ، والإحسان إلى الرعية والأجناد ؛ رأى الناسُ فى أيام وزارته من الخِصب وسَعة الأرزاق وكثرة العطاء مثلَ الذى رأوا فى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه .

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع ...

[أولية الوزير أبى سعيد بن جامع]

... كان إبراهيم بن جامع جدّ هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت ، صحبه من مراكش ؛ وكان أصله من الأندلس ؛ آباؤه من أهل مدينة طُليطلة ، ونشأ هو - أعنى إبراهيم - بساحل مدينة شَرِيش على البحر الأعظم ، بضيعةٍ تسمَّى رُوطة ، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة فى كل سنة ؛ ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة ، وكان يحاول صنعة النحاس ؛ فتعرف بابن تومرت ، فكان من أصحابه ، فهو معدود فيهم ؛ ووُلد له أولادٌ نالوا فى الدولة

---

(١) انظر ص ٢٣٧

حظوة وجاها متسعا ؛ فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكره [١] ؛ وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر ، اسمه عبد الله ، كان يتولى فى إمارة أبى يعقوب مدينة سَبتة وجهاتها ، وزيادة على ذلك ولاية الأسطول فى جميع بلادهم ؛ فلم يزل كذلك إلى أن مات ـ أظن أمير المؤمنين أبا يعقوب قتله ! ـ وترك من الولد : يوسف ، والحسين ، وعثمانَ الوزيرَ هذا المذكور ، ويحيى ؛ وبنات .

... فاستمرت وزارة أبى سعيد هذا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ؛ ووزر بعده لابنه أبى يعقوب إلى حينَ ارتحلتُ من البلاد ـ وهو سنة ٦١٤ ـ ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتى ذكره بعد هذا إن شاء الله عز وجل .

حُجابه

ريحان الخصىّ ، ويدعى ريحان بِيَنْك ، حَجَبه ريحان هذا إلى أن مات .

ثم حجبه بعده مبشّرٌ الخصى ، يدعى مبشر وَلدِى ؛ فلم يزل مبشرٌ هذا حاجباً له إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ، رحمه الله .

كتابه

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر فى كتاب أبيه [٢] .

وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه فى

(١) انظر ص ٢٤٤

(٢) انظر ص ٢٦٣

كتاب عبد المؤمن وأبي يعقوب [١] .

وأبو عبد الله محمد بن يَخْلُفْتَن بن أحمد الفازازى ؛ ذكره الله فيمن عنده ، وقرب مطالعتى تلك الغُرةَ الميمونة ، وسماعى تلك الألفاظَ الحلوة ، واستمتاعى بتلك الشمائل الشريفة ؛ فما أشدّ شوقى إلى تقبيل يديه !

هؤلاء كتبة الإنشاء . وكتّاب الجيش : أبو الحجاج يوسف المُرَانى (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس .

ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

قضـــاته

أبو القاسم أحمد [بن محمد] بن بَقِيّ قاضى أبيه [٢] .

ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله [٢] ؛ فلم يزل قاضيا إلى أن مات .

وولّى بعده رجلا من أهل مدينة فاس ، اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر ، يدّعى أنه من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ؛ كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوّف ، لم يزل هذا دأبه ولا برح معروفا به ؛ وكان له مع هذا حظ جيدٌ من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشىء من الخلاف ؛ اتصل بأمير المؤمنين أبى يوسف شهور سنة ٥٨٧ ، فحظى عنده وكانت له منه منزلة ؛ سمعت أبا عبد الله الحسينى هذا يقول وأنا عنده فى بيته : جملةُ ما وصل إلىّ

(١) انظر ص ٢٠٠ وص ٢٤٤

(٢) انظر ص ٢٦٤

من أمير المؤمنين أبي يوسف منذ عرفته إلى أن مات ، تسعةَ عشر ألف دينار ، خارجا عن الخلع والمراكب والأقطاع .

لم يزل أبو عبد الله هذا قاضيا إلى أن مات بالأندلس في شهور سنة ٦٠٨ ، وكانت ولايته في شهور سنة ٦٠١ .

ثم ولي بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران ؛ كان أبوه من قضاة أبي يعقوب [١] ؛ فاستمرت ولاية أبي عمران هذا إلى هذا الوقت - وهو سنة ٦٢١ - لم يبلغني عزلُه ولا وفاته ؛ وأبو عمران هذا لي صديق ، لم أر صديقا لم تغيِّره الولايةُ غيرَه ، ولم يزل يعاملني بما كان يعاملني به قبل ذلك ، لم ينقصني شيئا من برِّه ؛ ما لقيتُه قط في مركَبِه إلا سلّم عليَّ مبتدئاً وجدّد لي بِرًّا ؛ جزاه الله عني أفضل الجزاء ، وعمّ بذلك سائر إخواني !

[أعمال أبي عبد الله بن أبي يوسف]

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا - وكان الذي تولاها وقام بأمرها من القرابة : أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، وهو الذي قام ببيعة أبيه [٢] ؛ ومن الموحدين : أبو زيد عبد الرحمن بن موسى وزير أبيه [٣] وأبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ؛ وهو الذي ولاه محمدٌ بعد هذا أمر أفريقية - كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى أفريقية ؛ وذلك أن يحيى بن إسحاق ابن غانية المتقدم الذكر [٤] ، كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل الموحدون

---

(١) انظر ص ٢٤٥

(٢) انظر ص ٢٦٥

(٣) انظر ص ٢٦٣

(٤) انظر ص ٢٦٦ وما بعدها

عنه بغزو الروم ؛ فأول جيش جهّز [أبو عبدالله] من الموحدين ، الجيش الذى استعمَل عليه السيدَ أبا الحسن على بن عمر بن عبد المؤمن ؛ لم أر لهم جيشا أضخم منه ولا أكثر منه سلاحا ولا أحسن عُدة ؛ وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملةٌ وافرةٌ ؛ فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والمُيرْقِيُّون فيما بين بِجاية وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة ؛ فانهزم الموحدون أصحابُ أبى الحسن المذكور ، ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة .

وجهّز بعد هذا الجيش جيشا على مثاله ، وأمّر عليهم من الموحدين أبا زيد عبدالرحمن بن موسى الوزير ؛ فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينةَ المغرب .

[دخول الموحدين جزيرة ميورقة]

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبدالله على أفريقية وأعمالها ، السيدَ الأجلّ أبا زيد عبدَ الرحمن بن عبدالمؤمن ، وخرج هو فى سنة ٥٩٧ إلى تينملّ لزيارة قبر أبيه أبى يوسف وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ؛ ثم رجع إلى مراكش ، وأقام إلى أول سنة ٦٠٩ ، فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها ، وأشاع أنه يقصد أفريقية ــ هذا بعد أن بلغه أن المُيرقى استولى على مدينة تونس وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن ــ فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياما ، وبداله أن يبعث بَعثاً إلى جزيرة مُيرقة ، ليستأصل شأفة بنى غانية ويقطع دابرَهم ؛ فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال ؛ واستعمل على الأسطول عمّه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان بن أبى حفص من أشياخ الموحدين ؛ فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عَنوة

وقتلا عبدَ الله بن إسحاق بن غانية الأميرَ عليها (١) ؛ وكان الذى قتله رجلٌ من الأكراد يقال له عمر المقدَّم ؛ وذلك أنه حين نازله القومُ خرج على باب من أبواب المدينة سكران ، فكبَتْ به فرسُه ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات ؛ وقيل إنه قتله بسيف نفسه .

وكان دخولهما مُيرقة وقتلهما أميرَها المذكور فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٩٩ ، فانتهبا أمواله ، وسَبيا حُرَمه ، ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال فى هيئة الأسارى ؛ فأما النساء فدخلَ بهن ليلا فجُعلن فى بعض الخانات إلى أن نفذَ الأمرَ بالمنّ عليهن وإطلاقهن وتزويجِ من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزِها بمال ؛ وأما الرجال فلم يزالوا فى الحبس إلى أن منّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرُهم واتّخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم .

وبلغنى أن المتولّين لفتحها انتهبوا منها أموالا عظيمة وذخائر نفيسة .

ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبدالله إلى مراكش ، وبها اتصل به خبر فتح مُيرقة ؛ وكان رجوعه إلى مراكش فى ذى القعدة من السنة المذكورة .

[عبدالرحمن الجزولىّ الثائر]

وقد كان قبل هذا فى سنة ٩٧ ، قام بسوس رجلٌ من جزولة اسمه عبدالرحمن ، يعرف عندهم بما معناه بلسانهم «ابن الجزارة» ، فدعا إلى نفسه ؛ واجتمع إليه خلق كثير ؛ واشتد خوف الموحدين منه ، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر ، وفى كل ذلك يهزمهم ؛ إلى أن بعثوا بعثا من الموحدين والغزّ وأصناف

---

(١) انظر ص ٢٧٦

الجند ، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التى كان فيها ؛ وقالوا : إنما يقوى هذا الرجل بتغافلكم عنه ، ومسامحتكم إياه ، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوما واحداً ! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحميَّة ، والتقوا هم وأصحاب عبدالرحمن المذكور - وكان يدعى أبا قصبة - فأسلمته جموعه ، وقتل وسير برأسه إلى مراكش ؛ فكتب إلىّ بعضُ إخوانى ، وهو إذ ذاك صبى صغير كان مع أبيه بسوس - وكان أبوه من العمال ، من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية - يخبرنى بهذا الفتح قبل وصوله إلىّ من جهة كتّاب الموحدين المتولين له ، رسالة أولها :

« كُتِبَ من منزل سوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريق الضلال وشيعتُه أين المفرّ ؟ وقد ألقى النصرُ جِرانه ، وأعزَّ الله حزبه المؤيَّدَ وأعوانه ؛ وشرحُ الحالِ على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال فى إنهاء هذه البشائر والانحفاز ، أن الناكثين النابذين للعروة الوُثقى ، المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصرهم الموحدون - أنجدهم الله - أشدّ الحصار ، وقطعوا عنهم موادّ المعايش وزرافات الأنصار ؛ ولسانُ التأييد يتلو علينا بالعشىّ والإشراق : ماينظرُ هؤلاءِ إلا صيحةً واحدةً مالها مِن فَواق ؛ ولِحِينِ ماأخذ الموحدون - أنجدهم الله - فى حسم دائهم العُضال ، وجرّدوا لهم من عَزَماتهم الصادقة ماهو أمضى من النصال ، طاحوا مُجدَّلين بالحضيض ، وملأ جثمانُهم الفضاء العريض ، وخيَّبَ الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيَّرهم إلى أُمّهم الهاويةِ فكانت أولى بهم ؛ ذلك بأنهم اتّبعوا ماأسخطَ الله وكرِهوا رضوانه فاحبط

أعمالهم ؛ وأمكن اللهُ من رأس ضلالهم المدعوِّ بأبي قصَبة ، فقهره الحزبُ المنصور وغلَبَه ، وحزَّ الحسامُ منه قُنَّةً ورقبة ... » .

* * *

إنما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردتْ عليَّ منه ؛ وذلك أنه كان حين كتب بها إليّ لم يحتلم بعد !

[فتح جزيرة منرقة]

ومع اتصال هذا الفتح بهم ، اتصل معه فتحُ جزيرة مُنرقة ؛ كان فيها من أصحاب ابن غانية رجلٌ اسمه الزُّبير بن نجاح ؛ دخلوها عليه فقتلوه ووجَّهوا برأسه إلى مراكش ، فهو معلّق بها مع رأس أبي قصبة المذكور .

[محاربة يحي بن غانية بأفريقية]

ولما كانت سنة ٦٠١ ، تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة ، وقصد بلاد أفريقية ؛ وقد كان الميُرْقي يحي بن غانية قد استولى عليها ، خلا قسطنطينة وبِجاية ؛ هيأ له ذلك غفلةُ الموحدين عنه ، واشتغال أمير المؤمنين أبي يوسف بغزو الروم بالأندلس على ماقدمناه (١) .

فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد أفريقية ؛ فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية ، مهدية بني عُبيد ؛ فإنه أقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها ؛ أوجب ذلك ماقدّمنا من شدة مَنَعَتِها (٢) - وكان يحي بن غانية قد ولى فيها

(١) انظر ص ٢٨٠ وما بعدها

(٢) انظر ص ٢٢٩

ابن عمه لَحًّا ، أبا الحسن عليّ بن عبد الله بن محمد بن غانية ـ فلما طال عليه الحصار سَلَّم البلدَ وخرج بنفسه يقصد ابنَ عمه ؛ ثم بدا له أن يَرجع إلى الموحدين ، فأرسل إليهم فتلقَّوه أحسن لقاء ، ووصلوه من الصِّلات النفيسة بما لاقيمة له (١) ولا يصل بمثله إلا الخلفاء ؛ وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيي بن غانية ، سيرُ بن إسحاق بن محمد ؛ فأكرموا نُزُله وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملئوا يديه أموالا (٢) .

ولم يزل أبو عبدالله أمير المؤمنين مقيما بأفريقية يُصلح ماأفسده ابن غانية ، إلى أن تم له ماأراد من ذلك ؛ وبلغنى أن جملة ماأنفق فى هذه السفرة مائة وعشرون حِملا ذهبا .

ثم رجع إلى مراكش دار الملك ، بعد أن ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها مَن رامها ، واستعمل عليها من أشياخ الموحدين أبا محمد عبدَ الواحد بنَ الشيخ أبى حفص عمر إينْتى (٣) ، فأقام بمراكش (٤) .

[انتقاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة]

وكان رجوعه إليها فى شهور سنة ٦٠٤ ، فأقام بها ـ كما ذُكر ـ إلى أول سنة ٦٠٧ ، فانتقض مابينه وبين الأدفنش ـ لعنه الله ـ من المهادنة ، وبَدَا له أن يقصد بلاد الروم للغزو ؛ فخرج بالجيوش حتى عبر البحر ؛ وكان عبوره فى شهر

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢٥٢

(٢) انظر «حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك» ص ٢٥٣

(٣) انظر ص ٣١٣

(٤) يعنى أبا عبد الله .

ذى القعدة من سنة ٧ المذكورة ، فسار حتى نزل أشبيلية على عادة من سلف قبله ؛ فأقام بها بقية السنة المذكورة .

[فتح شلبتره]

وتحرك فى أول سنة ٨ فقصد بلاد الروم ؛ فنزل على قلعة عظيمة لهم فى غاية المَنَعة تُدعى شَلْبَتِرَّه (١) ـ معناه بلسان العرب : الأرض البيضاء ، إلا أن فيه تقديماً وتأخيراً (٢) كما جرت العادة فى لسان العجم ـ ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد ؛ وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياما يسيرة ثم تركها شفقة على المسلمين وخوفا عليهم ؛ فراع فتحُ هذه القلعة الروم ، وخامرهم الرعب ؛ وخرج الأدفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصية بلاد الروم مستنفرا من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ؛ فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام (٣)، حتى بلغ نفيرُه إلى القسطنطينية ، وجاء

(١) Salvatierra وقد ذكرت فى بعض المراجع العربية باسم سربطره ، وشربطره .

(٢) فى الأصل ، « إلا أن فيه تقديم وتأخير . » وهو خطأ .

(٣) كذا بالأصل ، وفى بعض النسخ : « ومن ألمان » . ومما يذكر فى تاريخ هذه الفترة أن ألفونس الثالث ملك قشتالة حين راعه تقدم الموحدين صوب بلاده ، وخشى أن تنال الأسبانيين على يد الناصر محمد ، هزيمة مثل هزيمة الأرك التى نالتهم منذ بضع عشرة سنة على يد أبيه المنصور يعقوب ، أوفد رسولا إلى البابا فى رومية يستصرخه ويسأله أن يرسل الصيحة فى الأمم الصليبية التى كانت فى ذلك الوقت موليــة وجهها شطر المشرق ، لـكى تنظم حملة صليبية ضد المسلمين فى الأندلس ؛ ولم يكتف ملك قشتالة باستصراخ البابا ، فأرسل مطران طليطلة وعدداً كبيراً من رجال الدين إلى فرنسا والبلاد الواقعة فى شرقيها ، يبثون دعاية لحرب صليبية جديدة فى أسبانيا ...

وقد استجاب البابا ، كما استجاب الرعايا المسيحيون بين جبال البرانس وشواطىء البحر الأسود لهذا الصريخ ، فاجتمع على أرض الجزيرة جيوش من شتى بلاد أوربا المسيحية ، ومن الجزر البريطانية ، فكان اجتماعها تمهيداً لوقعة العقاب التى يورد المؤلف خبرها فيما بعد ؛ والتى كانت هزيمة المسلمين فيها سببا إلى كل ماتوالى بعدها من النكبات على مسلمى الأندلس !

معه صاحب بلاد أرْغُن المعروفَ بالبرشنونى [١] لعنه الله !

[أشهر الإمارات الأسبانية فى ذلك العهد]

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربعَ أربعةُ ملوك من الروم :

إحدى الجهات تسمى أرغون ـ وهى التى ذكرنا ـ وهى شرقىُّ الجزيرة مما يقابل الجنوب منها .

والجهة الأخرى ـ وهى المملكة الكبرى ـ بلاد تسمى بلاد قَشتال ، يملكها الأدفنش لعنه الله ؛ وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال ، أمْيَل إلى الجنوب قليلا .

والجهة الأخرى تسمى ليون ، فهوأول الحد الشمالىّ المغربى ، يملكها رجل يدعى بالبَبُوج [٢] ؛ ومعنى هذا الاسم بالعربية : الكثير اللُّعاب !

والجهة الأخرى فى الشمال مما يلى البحر الأعظم ، بحرأقيانس [٣] ، يملكها رجل يعرف بابن الريق ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب [٤]

والجزيرة بأسرها ، أعنى جزيرة الأندلس ، تسمى فى قديم الدهر عند الروم جزيرة أشبانية .

---

(١) هو بيدرو الثانى ملك أرجون ، وقد عقد فى تلك الفترة حلفا مع ألفونس الثالث ملك قشتالة .

(٢) ملك ليون فى تلك الفترة هو ألفونس التاسع .

(٣) يعنى مملكة البرتغال .

(٤) انظر ص ٢٥٧ ، وص ٢٨٠ ويعنى المؤرخون العرب بابن الريق ، أو ابن الريك : ملك البرتغال ألفونس هنريكيز ؛ وهم يطلقون هذه التسمية على كل من ملكها من ولده ، وقد كان ملك البرتغال فى ذلك العهد ، شانجه الأول ابن ألفونس هنريكيز المذكور ؛ ويغلب على الظن أن كلمة « ابن الريق » هذه هى تحريف كلمة « هنريكيز » مع شىء من الترخيم .

* * *

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى أشبيلية، استنفر الناس من أقاصي البلاد، فاجتمعت له جموع كثيفة، وخرج من أشبيلية فى أول سنة ٦٠٩، فسار حتى نزل مدينة جَيَّان؛ فأقام بها ينظر فى أمره ويعبئ عساكره، وخرج الأدفنش - لعنه الله - من مدينة طليطلة فى جموع ضخمة، حتى نزل على قلعة رباح - وهى كانت للمسلمين، افتتحها المنصور أبو يوسف فى الوقعة الكبرى[1] - فسلّمها إليه المسلمون الذين بها، بعد أن أمّنهم على أنفسهم؛ فرجع عن الأدفنش - لعنه الله - بهذا السبب من الروم جموعٌ كثيرة، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة، وقالوا: إنما جئتَ بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين! مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه!

[وقعة العقاب وهزيمة المسلمين]

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيَّان، فالتقى هو والأدفنش بموضع يعرف بالعِقاب، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم؛ فعبأ الأدفنش جيوشه ورتّب أصحابه، ودَهَم المسلمين وهم على غير اهبة؛ فانهزموا، وقُتل من الموحدين خلق كثير[2].

(١) يعنى وقعة الأرك، انظر ص٢٨٢

(٢) بلغ عدد القتلى من المسلمين فى هذه المعركة مئات الآلاف، يقول المكثر إن عددهم بلغ خمسمائة ألف، والمقل إنهم مائة ألف؛ ولم يجر على مسلمى الأندلس فى تاريخهم الطويل مثل ماجرى عليهم فى هذه الوقعة المشئومة، التى كانت نذيراً بذهاب ملكهم وانقراض عقبهم فى تلك البلاد بعد بضعة قرون من ذلك التاريخ!

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلافُ قلوب الموحدين ؛ وذلك أنهم كانوا على عهد أبى يوسف يعقوب يأخذون العطاء فى كل أربعة أشهر ، لايخلّ ذلك من أمرهم ؛ فأبطأ فى مدة أبى عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصا فى هذه السَّفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء ؛ وخرجوا وهم كارهون ؛ فبلغنى عن جماعة منهم أنهم لم يَسُلّوا سيفا ولاشرعوا رمحاً ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال ؛ بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك ؛ وثبت أبو عبد الله هذا فى ذلك اليوم ثباتا لم يُرَ لملك قبله ، ولولا ثباته هذا لاستُؤصِلت تلك الجموع كلُّها قتلا وأسراً !

ثم رجع من هذا الوجه إلى أشبيلية ، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم عبر البحر قاصداً مدينة مراكش ...

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين ، يوم الاثنين منتصف صفر الكائن فى سنة ٦٠٩ .

وفصل الأدفنش - لعنه الله - عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالا وأمتعة من متاع المسلمين ؛ فقصد مدينتَى بَيَّاسة وأُبذَة ؛ فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية (١) ، فحرق أدؤرها وخرّب مسجدها الأعظم ؛ ونزل على أُبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهلِ بياسة وأهلِ البلد نفسه ؛ فأقام عليها ثلاثة عشر يوما ، ثم دخلها عَنوةً فقتل وسَبَى وغنم ؛ وفصَل هو وأصحابه من السَّبْى من النساء والصبيان بما ملئوا به بلادَ

(١) لم يكن فى بياسة سوى طائفة من المرضى والضعفاء ، قد لجأوا إلى مسجد المدينة ينتظرون مصيرهم ؛ فأجهز عليهم النصارى وخربوا المسجد !

الروم قاطبة ؛ فكانت هذه أشدّ على المسلمين من الهزيمة !

[وفاة الناصر محمد]

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيما بمراكش بقية سنة ٩ وأشهراً من سنة ١٠ إلى أن توفى فى شهر شعبان كما قدمنا ؛ واختلف علينا فى سبب وفاته[١] ؛ فأصحّ مابلغنى أنه أصابته سكتة من وَرَم فى دماغه ؛ وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ؛ فأقام ساكتا لايتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ؛ وأشار عليه الأطباء بالفَصْد فأبى ذلك ؛ وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ؛ صَلَّى عليه خاصةُ الحَشَمَ !

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على[٢] ، أمّه أم ولد رومية اسمها قمر ، تُلقَّب حكيمة ؛ كانت ولادته فى صدر شوال من سنة ٥٩٤ ؛ قبل وفاة جده أبى يوسف بأربعة أشهر .

بويع له وسنه يومئذ ستّ عشرة سنة ، لا أعلم له ولداً لحداثة سِنّه ؛ ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦٢١ أن يوسف هذا تُوفِّى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة سنة ٢٠ ، فكانت مدة ولايته من يوم بُويع له - وذلك

---

(١) يروى ابن خلكان عن بعض المغاربة أن الناصر أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه فى مراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهومباح الدم لهم ؛ ثم أراد أن يختبر قدرأمره فتنكر وجعل يمشى فى البستان ليلا ؛ فعند مارأوه جعلوه غرضا لرماحهم ، فجعل يقول : أنا الخليفة ! أنا الخليفة ! فما تحققوه حتى هلك .

(٢) لقبه المستنصر بالله .

لأحد عشر يوما خلت من شعبان من سنة ٦١٠ - إلى أن توفى كما ذُكر فى التاريخ المذكور، عشرة أعوام وشهرين .

صفته

كان صافى السمرة ، مستدير الوجه ، شديد الكَحَل ، يشبِّهونه بجده أبى يوسف فى أكثر خَلْقه وخُلقه .

وزراؤه

أبو سعيد - المتقدم الذكر - [١] وزير أبيه ؛ استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ .

ثم عزله وولى بعده رجلا اسمه زكريا بن يحيي بن أبى إبراهيم إسماعيل الهزرجى صاحبِ ابنِ تومرت والمقتول فى حياة عبد المؤمن كما تقدم [٢]

أمّ هذا الوزير هى بنت أبى يوسف المنصور ؛ فهو وزيره إلى أن توفى كما ذكر .

حجابه

مبشّر الخصىّ حاجب أبيه [٣] .

ثم حجبه بعده فارح الخصىّ ، يكنى أبا السرور ؛ فلم يزل حاجباً له إلى أن توفى كما قيل .

---

(١) هو أبو سعيد عثمان بن جامع ؛ انظر ص ٣١٠

(٢) انظر ص ٢٣٣ - ٢٣٤

(٣) انظر ص ٣١١

قاضيه

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه [١] ؛ لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له إلى أن توفى كما قيل .

كتابه

أبو عبد الله بن عياش كاتب أبيه وجده [٢] .

وأبو الحسن بن عياش .

ثم اتصلت بى وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية فى شهور سنة ٦١٩ ، وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد بن يَخْلُفْتَن الفازازى المتقدم الذكر فى كتاب أمير المؤمنين أبى عبد الله [٣] ؛ وكان قاضياً بمدينة مُرسية من شرق الأندلس ، وبها فارقته ؛ فأعادوه إلى الكتابة كما كان .

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش . أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم ، وقد تقدم ذكره فى كتّاب ثلاثة أمراء منهم [٤] .

وكاتب الجيش أحمد بن منيع [٤] ؛ لم يتغير .

[بيعته]

بويع لأبى يعقوب هذا يوم دفن أبيه ، لا أدرى أبعهد أبيه إليه أم لا ؛ لأنى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه ؛ لما كان يسمع من

---

(١) انظر ص٣١٣

(٢) انظر ص ٢٦٣ ، ٣١١

(٣) انظر ص ٣١٢

(٤) هو أبو عبدالله المذكور قبل بضعة أسطر ؛ كتب له ، ولأبيه ، ولجده

سوء أخباره . والذين قاموا ببيعته من القرابة : أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ـ عمُّ جدِّه الذى دخل عليه المَيُرْقِيُّون [١] بجاية ، وهو آخِرُ من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، لم تبلغنى وفاته إلى وقتنا هـذا ـ وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن : كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ؛ ومن الموحدين : أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبى زيد الهنتاتى ـ كان أبوه أولَ وزير وزر لأبى يوسف ، وقد ذُكر [٢] ـ وأبو على عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقى [٣] ؛ وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان ، من أهل تينملّ .

وبويع البيعةَ الخاصة يوم الخميس ، ويومَ الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة ، وفى يوم السبت أذن للناس عامة : شهدتُ ذلك اليومَ وأبو عبد الله ابن عياش الكاتبُ قائمٌ يقول للناس :

« تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على مابايع عليه أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله ، من السمع والطاعة فى المَنْشَط والمَكْرَه واليُسر والعُسر والنُّصح له ولولاته ولعامة المسلمين ؛ هـذا ماله عليكم ولكم عليه : ألا يُجَمِّر بعوثكم ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمّكم مصلحتُه ، وأن يعجّل لكم عطاءكم ، وألا يحتجب دونكم ؛ أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلّدَ من أموركم . » .

يعيد هـذا القول لكل طائفة ، إلى أن انقضت البيعة ؛ ثم اتصلت وفادة

---

(١) انظر ص ٢٧٠ ـ ٢٧١

(٢) انظر ص ٢٦٢

(٣) انظر ص ١٨١

أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر .

[فاطمي من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش]

ولأربعة أشهر من ولايته قُبض على رجل كان قد ثار عليهم يدَّعى أنه من بني عُبيد ويقول إنه ولد العاضد لصُلبه [١] ، اسمه عبد الرحمن .

كان قد ورد البلاد في حياة أبي يوسف أيام كونه بأشبيلية ، ورام الاجتماعَ به فلم يأذن له ؛ وأقام بالبلاد مطَّرحا إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله في شهور سنة ٥٩٦ ، فلم يزل في الحبس إلى أن كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين إلى أفريقية ؛ شفع له فيه أبو زكريا يحيي بن أبي إبراهيم الهزرجي ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك في أمر يكرهونه ؛ فلم يُقم هذا العُبيدي بمراكش إلا أياما يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبي عبد الله ، ثم خرج وقصد بلاد صُنهاجة ، فالتفّت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم ؛ لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ؛ لقيتُه مرتين فلم أر في أكثر من شهدتُه من المشبَّهين بالصالحين مثلَه في الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة

(١) العاضد : آخر ملوك العبيديين في القاهرة ، غلبه بنو أيوب على عرش مصر ، ولكنهم لم يعزلوه ، بل صابروه حتى مات حتف أنفه سنة ٥٦٧ ، فاستقل من يومئذ صلاح الدين الأيوبي بملك البلاد وانتهى عهد العبيديين .

وقد مات العاضد شابا في الحادية والعشرين ؛ وليس يعرف له ولد من صلبه ، وقد حكى بعض المؤرخين أنه مُنع أن يتصل بنسائه وجواريه لينقطع بموته نسب بني عبيد فلا يطالب بعرش البلاد أحد منهم ؛ ولكن ذلك لم يمنع ظهور أدعياء يزعمون أنهم من صلبه ؛ ليجعلوا ذلك سببا إلى الملك . وقد ظهر دعي من هؤلاء في القاهرة بعد سنين من موت العاضد ؛ ولكن دعواه لم تجد تأييداً .

المفرطة . ثم قصد مدينة سجلماسة فى حياة أمير المؤمنين أبى عبد الله بجيش عظيم ، فخرج إليه مُتَوليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ؛ فهزمه العبيدىّ المذكور وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عَوْد ؛ ولم يزل يتنقل فى قبائل البربر من موضع إلى موضع ، وفى ذلك كلّه لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة ؛ أوجبَ ذلك كونُه غريبَ البلد واللسان ، لا عشيرة له ، ولا أصل بالبلاد يرجع إليه ؛ إلى أن قُبض عليه بظاهر مدينة فاس ؛ لم يبلغنى تفصيلُ قضية القبض عليه ؛ وكتب إلى أميرِ المؤمنين متولى فاس أبو إبراهيم إسحاق بن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده فى سجنه ؛ فكتب إليه يأمره بقتله وصَلبه ، فضُرب عنقه وصُلب جسده ووُجّه برأسه إلى مراكش ؛ فهو معلق هناك مع عدة رُءوس من الثوار والمتغلّبين .

* * *

ولم يغيّر أبو يعقوب هذا على الناس شيئا من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله ؛ خلا أنى رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملئ قلبه منه رعبا ؛ لما يعلمون من شهامته وشدة تيقُّظه ؛ لقيتُه وجلستُ بين يديه خالياً به ، وذلك فى غُرة سنة ٦١١ ؛ فرأيت ـ من حِدَّة نفسه وتيقُّظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثرُ السوق فكيف الملوكُ ـ ما قضيْتُ منه العجب ؛ وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يُتَوَقع .

[ثائران آخران على أبى يعقوب الثانى]

وثار فى أيام يوسف هذا ـ بعد قتل العبيدى ـ رجلان : أحدهما ببلاد

جزُولة من سُوس، كان يُدْعى بالفاطمى؛ قُتل وجىء برأسه إلى مراكش فى شهور سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بجزيرة الأندلس؛ لم يبلغنى تفصيلُ أمره لبعدى عن الحضرة، غير أنى رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتْله؛ والآخر من صُنهاجة، قتل فى سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثاراً قبيحة فيما بلغنى وهزَم بعوثاً عدة واستفسد خلقا كثيرا؛ بلغنى هذا كلّه وأنا بالبلاد المصرية فى التاريخ المتقدم؛ وكان الذى تولى قتلَ هذا الرجل والإراحة منه وحسْمَ الخلاف الواقع بسببه، السيد الأجلّ أبا محمد عبدالعزيز بن أمير المؤمنين أبى يعقوب بن عبدالمؤمن بن على، وهو يومئذ والٍ على مدينة سجلماسة وأعمالها.

[وفاة أبى يعقوب الثانى]

ثم اتصل بى فى هذه السنة - وهى سنة ٦٢١ - أن أبا يعقوب أمير المؤمنين توفى فى أحد الشهرين من شوال أوذى القعدة من سنة ٦٢٠ ولم يبلغنى كيفيةُ وفاته[1]؛ فاضطرب الأمر واشرأبّ الناس للخلاف.

[ولاية أبى محمد عبد العزيز بن أبى يعقوب الأول]

ثم ذُكر لى أن عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبدالعزيز[2] ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين أبى محمد عبدالمؤمن

---

(١) كان أبو يعقوب هذا - فيما يروى - شابا كثير اللهو، وكان من هواه أن يرعى الأبقار ويحاول رياضتها، فبينما هو ذات يوم يحاول أن يروض بعض أبقاره هجمت عليه بقرة شموس وضربته بقرنها فأصابت قلبه؛ وكذلك كانت ميتته، فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠، على ما يحكى صاحب روض القرطاس.

(٢) فى غيره: أن الذى ولى عرش الموحدين بعد أبى يعقوب، هو عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن، لا عبدالعزيز. وكان من أولاد يوسف: عبدالواحد، وعبدالعزيز. انظر ص ٢٤٥

ابن علي ، رحمهما الله ونضّر وجوههما وجزاهما خيرا عن صَلاحهما وإصلاحهما !

وأبو محمد عبدالعزيز هذا من أصاغر أولاد أبي يعقوب ؛ أمه حرة اسمها مريم، صُنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه ؛ وكانت سُبِيتْ هى وأمُّها ملكة فيمن سُبُوا من أهل القلعة ؛ فأعتقهما أبو محمد عبدالمؤمن ، وزوّج مريمَ هذه لابنه أبى يعقوب ، فولدت له ثمانية من الولد : أربعة ذكور ، وأربع بنات ؛ فالذكور هم : إبراهيم ، وموسى ، وإدريس ، وعبدالعزيز هذا المذكور ، وهو أصغرهم ؛ توفى موسى بظاهر مدينة تاهَرْت ؛ قتله العرب أصحابُ المُيرقى فى شهور سنة ٦٠٥ ؛ وتوفى إبراهيم منهم بأشبيلية وأنا بِها فى شهور سنة ٦١٢ ؛ وتوفى أبو العلاء إدريس منهم بأفريقية كما سيأتى ؛ والبنات هن : زينب ، ورقية ، وعائشة ، وعلية .

لم يتول أبو محمد عبدالعزيز هذا شيئا من أمرهم فى حياة أبيه ، ولا فى حياة أخيه أبى يوسف ؛ فلما ولى أبو عبد الله الأمر [1] ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس [2] ؛ وذلك فى شهور سنة ٥٩٨ ؛ ثم عزله عنها فى شهور سنة ٦٠٣ وولاه أمر قبيلة هَسْكُورَة ، وهى ولاية ضخمة ؛ فلم يزل واليا عليها

---

(١) يعنى الناصر محمد بن أبى يوسف .

(٢) وردت العبارة الآتية فى هامش المخطوطة مع إشارة إلى أن موضعها من صلب الكتاب بعد عبارة « ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس » ، وهذه هى العبارة :

« وبها عرفتُه وصاحبْتُه ، جارياً على طريقه من التصوُّف »

وقد لاحظ دوزى أن المراكشى كان مايزال فى أفريقية حوالى سنة ٥٩٨ ، وأنه عبر إلى الأندلس فى سنة ٦٠٣ ، وهى السنة التى يروى أن أبا عبدالله ولاه فيها أمر هسكورة ؛ وبناء على هذه الملاحظة يعتقد دوزى أن مقابلة المراكشى له كانت فى سجلماسة من أفريقية لا فى جزيرة الأندلس .

إلى أن عزله عنها وولاه أمر سجلماسة ، فلم يزل واليا عليها بقية مدته ومدة ابنه أبي يعقوب ، إلى أن قتل هذا الثائرَ المتقدم الذكر (١) في ولاية أبي يعقوب بن أبي عبدالله ؛ فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة أشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر أفريقية ؛ فلم يزل أبو العلاء إدريس والياً بأفريقية إلى أن مات بها في رمضان من سنة ٦٢٠ على مابلغني ، رحمة الله عليه .

فهذه جملة أخبار هذا الرجل ، أبي محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لأمرهم كما قالوا ؛ ولئن كان ما قالوا حقا وتمّ هذا الأمر له (٢) ، ليملأنّها خيرا وعدلا ، ولتزكُوَنَّ الأرض وتُخرجُ بركاتها ، ولترسلنّ السماء مدرارَها ؛ بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميدِ سريرته ؛ هذا إذا ساعده الدهر وقيّض الله له أعوانا صالحين ؛ فإنه - ما علمتُ - صوّام قوّام ، مجتهدٌ في دينه ، شديد البصيرة في أمره ، قويُّ العزيمة ، شديد الشكيمة ، لا تأخذه في الحق لومةُ لائم ؛ أرطبُ الناس لساناً بذكر الله ، وأتلاهم لكتاب الله ؛ شهدتُه والولاية قد اكتنفته ، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته ، وهو في كل ذلك لا يُخلُّ بشيءٍ من أوراده ، ولا يترك وظيفةً من الوظائف التي رتبها على نفسه ، مِن أخذِ العلم وقراءة القرآن ، وأذكارٍ رتّبها على أوقات الليل والنهار ؛ شهدتُ هذا كلّه منه بنفسي ، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية ؛ هذا مع دماثة خُلق ولينِ جانب

(١) انظر ص ٣٢٩

(٢) يبدو من عبارة المراكشي أنه لم يكن على يقين بأن عبدالعزيز قد ولى عرش المغرب بعد أبي يعقوب الثاني ؛ وفي شكه هذا ترجيح لما رواه غيره من أن صاحب العرش بعد أبي يعقوب هو عبدالواحد بن يوسف لا أخوه عبدالعزيز .

وخفض جناح لأصحابه ولمن علم فيه خيراً من المسلمين أو ظنّه مضافا إلى سخاء نفس وطلاقة وجه

وصفته

أبيض تعلوه صفرة ، جميلُ الوجه جدا ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ؛
وله من الولد - على علمى - ثلاثة : **محمد** ، وهو أكبرهم ؛ وعبد الرحمن ؛ وأحمد ؛ وبنات .

* * *

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم - وهو سنة ٥١٥ - إلى وقتنا هذا - وهو سنة **٦٢١** - فذلك مائة سنة وست سنين ، على الإجمال لا على التفصيل .

وإنما أوردنا من ذلك ماتدعو الحاجة إليه ، وتجشم الضرورةُ مَنْ عُنى بالأخبار إلى معرفته ، من غير تعرُّض إلى ما لا حاجة بنا إليه ، من ذكر أولاد عبد المؤمن ، وأولادِ أولاده ، وأولادِ أولادِ أولاده ، وتفاصيل أخبارهم فى ولايتهم وعزْلهم وأمهاتهم وكُتابهم وحُجابهم ووزرائهم ؛ إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص ولَحِقَ بالكتب المبسوطة ؛ هذا على أنّا لو كُفينا ضروراتِ المعاش ، وأُعفينا من كَدِّ الزمان ، لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصّلته المشاهدة .

* * *

ولم أثبت فى هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ماحققتُه

نقلا من كتاب ، أو سماعا من ثقة عَدل ، أو مشاهدةً بنفسى ؛ هذا بعد أن تحرَّيتُ الصدق وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجَهَدْتُ ألا أنقص أحداً ذرةً مماله ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه ؛ وبالله أستعين ، وإياه أسأل ، وإليه أضرع فى إلهام الصواب والسداد فى القول والعمل ، فهو حسبى ونعم الوكيل (١)

---

(١) إلى هنا ينتهى حديث المراكشى عن دولة الموحدين فى المغرب والأندلس ، ولو أن الزمن تأخر به سنين قليلة لشهد خاتمة هذه الدولة ووصف لنا آخر أحداثها وكيف انتهى أمرها ؛ على أننا لا نبعد عن الحق كثيراً إذا زعمنا أن عبدالعزيز - أو عبدالواحد - ابن يوسف بن عبدالمؤمن كان هو آخر أمراء الموحدين ؛ بل لعل الأقرب إلى الحق أن نقول إن آخرهم هو أبو عبدالله محمد بن أبى يوسف الذى ولى العرش من سنة ٥٩٥ إلى سنة ٦١٠ ، والذى كانت هزيمته الساحقة فى وقعة العقاب أذاناً بانتهاء دولة الموحدين ؛ فقد كان ولده أبو يعقوب الثانى صبيا ليس له أهلية ولا كفاية ، ولم يكن له - خلال السنوات العشر التى قضاها على العرش - أمر ولا نهى فى شئون البلاد ؛ ثم لم يخلص بعده عرش الموحدين لواحد من بنى عبدالمؤمن وآذنت الدولة بالزوال ؛ وإذن فإن من حقنا أن نقول إن عبدالواحد المراكشى قد انتهى فى كتابه مع نهاية دولة الموحدين ؛ على إننا مع ذلك كنا نتمنى لو أن كتابه قد وصف لنا اللحظات الأخيرة التى كانت فيها دولة بنى عبدالمؤمن تلفظ آخر أنفاسها ، فيما بين سنتى ٦٢١ و ٦٦٨ ؛ وإننا لنحاول فى هذا التعليق أن نستدرك هذا النقص الذى لم يتهيأ لعبدالواحد أن يتمه ، بوصف الأحداث التى جرت خلال تلك السنين والتى انتهت بها الدولة ، فنقول :

ولاية ابن أبى يعقوب بن عبد المؤمن

لم يكد عبد الواحد - أو عبد العزيز - ابن أبى يعقوب يجلس على عرش المغرب بعد موت أبى يعقوب الثانى سنة ٦٢٠ ، حتى تفرق أمر بنى عبد المؤمن واضطرمت مطامعهم حول العرش الموحدى : فقام بالأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور ، أمير شرق الأندلس ، وأعلن نفسه أميراً على مرسية ، وتلقب بالعادل ؛ ثم أخذ يهيئ أسبابه للوثوب على مراكش =

... ...

= ليستخلص العرش لنفسه ؛ وتم له ما أراد ؛ إذ ثار المغاربة على عبد الواحد ـ أو عبد العزيز ـ ابن أبى يعقوب ، فخلعوه وقتلوه ، بعد بضعة أشهر من ولايته !

ولاية العادل بن المنصور

ولكن عرش المغرب والأندلس لم يخلص للعادل بن المنصور ، كما لم يخلص من قبله لعمه ابن أبى يعقوب : فقد ثار عليه المغاربة فى مراكش ، كما انتقض عليه أمراء الموحدين فى الأندلس ، وانتهى الأمر بقتله فى سنة ٦٢٤ .

ولاية المأمون بن المنصور

وكان أبو العلاء إدريس بن المنصور ، أمير أشبيلية وأخو العادل ، هو مدبر تلك الفتنة ، طمعا فى العرش ؛ فلم يكد يعلم بمقتل العادل حتى ادعى الخلافة فى أشبيلية وتسمَّى بالمأمون ؛ وبايعه أهل الأندلس .

المعتصم بن الناصر

ولكن المغاربة فى مراكش لم يرتضوه خليفة ، وبايعوا شابا من ولد أخيه الناصر محمد بن يعقوب ، اسمه أبو زكريا يحيى ، ولقبوه بالمعتصم ؛ فسار المعتصم هذا إلى الأندلس على رأس قوة من الجند لإخضاع عمه المأمون ؛ فالتقيا فى معركة دامية بشَذُونة ؛ فانهزم المعتصم وفر ناجيا بنفسه فى طائفة قليلة من جنده .

وأتيحت الفرصة للمأمون ليجتاز المضيق إلى المغرب ويتسنم عرش مراكش ؛ ولكن المعارك لم تفتر بينه وبين المعتصم بن الناصر ، ولم يخلص له عرش البلاد ، حتى مات فى ذى الحجة سنة ٦٢٩ . =

... ...

= خروج الأندلس من طاعة الموحدين

وحين كانت المعارك الطاحنة دائرة فى المغرب بين المأمون وابن أخيه المعتصم ، كان النصارى يستولون على بلاد المسلمين فى الأندلس حصنا بعد حصن ومدينة بعد مدينة !

وفى تلك الأثناء قام أمير من سلالة بنى هود الجذاميين أصحاب سرقسطة السابقين (انظر ص ٧٠ ـ ٧٢) اسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف ، فاستولى على مرسية وأعلن نفسه أميراً عليها ، وتلقب باسم المتوكل على الله ، وخطب للعباسيين خلفاء بغداد ، واتخذ السواد شعارا ؛ ثم لم يلبث أن دانت له جيان ، وقرطبة ، وماردة ، وبطليوس ؛ ثم فقد الموحدون غرناطة ؛ وبذلك خرجت الأندلس جملة من طاعة الموحدين ، عدا أشبيلية والجزيرة الخضراء .

ولاية الرشيد بن المأمون

وظن المعتصم بن الناصر أن عرش المغرب قد خلص له بعد موت المأمون ؛ ولكن أمانيه لم تلبث أن خابت ، حين بايع أصحابُ المأمون ولده الصبى أبا محمد عبد الواحد ، ولقبوه بالرشيد .

واستمرت المعارك ناشبة بين المعتصم وابن عمه الرشيد ، حتى مات المعتصم فى رمضان سنة ٦٣٣ .

ثم مات الرشيد غريقاً فى جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ .

ولاية المعتضد بن المأمون

وولى العرش بعد الرشيد ، أخوه السعيد أبو الحسن على بن المأمون =

... ...

= وتلقب بالمعتضد ؛ وفى عهده استشرف بنو زيّان أصحاب تلمسان ، وبنو مرين ملوك المغرب فيما بعد ، إلى استخلاص عرش مراكش ...

وقد قُتل المعتضد هـذا فى صفر سنة ٦٤٦ فى موقعة نشبت بينه وبين يحيى ابن زيان أمير تلمسان .

ولاية المرتضى أبى حفص بن إسحاق

ثم تولى بعد المعتضد ، أميرٌ من أحفاد أبى يعقوب يوسف ، اسمه أبو حفص عمر بن أبى إبراهيم إسحاق ، وتلقب بالمرتضى ...

أبو دبوس الواثق

... ولكن العرش لم يخلص للمرتضى ؛ فقد خرج عليه أمير من أمراء الموحدين اسمه أبو العلاء إدريس ، ويعرف بأبى دبوس ؛ وتلقب بالواثق ، وتحالف مع بنى مرين ليعينوه على استخلاص العرش من يد المرتضى ، وسلَّم إليهم مدينة مراكش ثمناً لمعونتهم ؛ ففر المرتضى ناجياً بنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يفلت من أجله ؛ فمات قتيلا سنة ٦٦٥ .

تغلُّب بنى مرين

ولبث الواثق أميراً بعد المرتضى ثلاث سنين ، ثم أدركه أجله فى معركة دارت بينه وبين بنى مرين حلفائه السابقين ، فى المحرم سنة ٦٦٨ ؛ وبموته انتهى حكم الموحدين فى مراكش والأندلس ؛ ليبدأ تاريخ دولة بنى مرين الذين غلبوا الموحدين على أمرهم فى مراكش ، ودولة بنى الأحمر أصحاب غرناطة الذين غلبوا المتوكل بن هود على ما بيده من شرق الأندلس !

جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم
وأحوالهم فى ظعنهم وإقامتهم

قد قدمنا أنّ أول من صحب المهدى محمد بن تومرت ، عشرةُ أنفس ؛ وهم المسمَّون بالجماعة (١) ؛ أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح ؛ ثم عبد المؤمن ابن على أمير المؤمنين (٢) ، ثم عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، ثم فَصْكَة بن وَمزَال ، سماه ابن تومرت : عمر ، وكناه أبا حفص ؛ انتشر من ظهر عمر هذا بشرٌ كثير ، وكان له عِدّة من الولد ، منهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد - أمُّ محمدٍ هذا ابنةُ عبد المؤمن - ويحيى ، وعيسى ، وموسى ، ويونس ، وعبد الحق ، وعثمان ، وأحمد ، وعبد الواحد ؛ كان عبد الواحد هذا يتولى أمر أفريقية ، ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد الله سنة ٦٠٣ (٣) ، فلم يزل واليا عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ .

وكان ابن تومرت يسمِّى فَصْكة هذا : المبارك ، ويقول : لا يزالون بخير مابقى فيهم هذا الرجل أو أحدٌ من ولدِه ! فكان الأمر كما قال ، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده ، وهو المشهور بعمر إينْتى ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب ؛ ولم يبق فى وقتنا هذا من ولدِه لصُلبه سوى رجلٍ

---

(١) انظر ص ١٨٨ .

(٢) انظر ص ١٨١ وهناك يقرر المراكشى - خلافاً لما يذكر هنا - أن عبدالواحد أول من صحبه بعد عبدالمؤمن ...

(٣) انظر ص ٣١٣ ، ٣١٨

واحد اسمه عثمان ، فارقتُه بمدينة مرسية ، وبها ودّعته حين ارتحلتُ إلى هذه البلاد ؛ وقد ولّوه مدينة جَيّان وأعمالها ؛ هذا آخر عهدى به ؛ ثم اتصل بى بديار مصر أنهم ولّوه بلنسية ثم عزلوه عنها ، فلا أدرى أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش ؟ وهو معدود عندى من جملة إخوانى ، رضى الله عنه وعنا وعن جميع المسلمين .

.. ثم يوسف بن سليمان ، وأخوه عبد الله بن سليمان ، وهما من أهل تينملّ ، من قبيلة تدعى مَسَكالة حسبما تقدم [1] ؛ ثم أبو عمران موسى بن على الضرير ، صهر عبد المؤمن ، كان ضرير البصر ؛ كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها [2] ؛ ثم أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجى ـ وهو الذى أسلم نفسه للقتل وفدى عبد المؤمن بذلك على ما تقدم [3] ـ ثم رجل من أهل تينملّ ، يعرف عندهم بابن بيجيت ـ أنا شاكٌّ فى اسمه ـ ثم أيوب الجِدميوِىّ ، وهو الذى تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين فى أول الأمر .

فهؤلاء العشيرة المسمون بالجماعة ، وبعض الناس يَعُد فيهم أبا محمد واسْنار ، وهو رجل دبّاغٌ أسودُ من أهل مدينة أغمات ، صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مرّ بها ؛ فاختصه أبو عبد الله بن تومرت لخدمته ، لما رأى من شدته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ؛ فكان يتولى وضوءه وسِواكه والإذنَ عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه ؛ فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابنُ تومرت ، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك ؛ توفى واسْنار

---

(١) انظر ص ١٩٤

(٢) انظر ص ٢٣٧

(٣) انظر ص ٢٣٣

هذا فى صدر دولة أبى يعقوب بعد أن علتْ سِنُّه ؛ وكان من العُباد المجتهدين والزُّهاد المتبتلين ؛ لم يكتسب شيئاً ولا خلّف ديناراً ولا درهما ، مع أنه لو شاء لكان أكثرَ الناس مالا ، لمكانِه من عبدالمؤمن ومن المصامدة ، لما كانوا يعلمون من قُربه من صاحبهم وثنائه عليه فى أكثر الأوقات .

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمَّين بالجماعة : خَلْقٌ من قبائلهم ، فعُدُّوا فيهم ونسبوا إليهم .

وأول من يعترض فى العرض العام ، ولدُ عمر بن عبد الله الصنهاجى ، ثم فَرَسُ عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ، ثم سائرُ أهل الجماعة على طبقاتهم مِن سَبْقٍ وإبطاء ، ثم أهل خمسين ، وهم خلقٌ كثير .

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمُّهم - وهم الجند والأعوان والأنصار ، ومَن سِواهم من سائر البربر والمصامدة رَعِيَّةٌ لهم وتحت أمرهم - سَبْعُ قبائل ، أولهم قبيلة ابن تومرت ، وهى قبيلة تُسَمَّى هرغة ، وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين ؛ ثم قبيلة عبد المؤمن ، تُسمى كُومية ، وهى قبيلة كثيرة العدد جَمَّةُ الشعوب ، لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذِكر فى رياسةٍ ولا حظٌ من نباهة ، إنما كانوا أصحابَ فلاحة ورُعاة غَنم وأصحابَ أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع : فتبارك المعزُّ المذِلّ المعطى المانع ! فأصبح القوم اليومَ وليس فوقهم أحد بلاد المغرب ، ولا تُطاوِل أيديَهم يَدٌ بكون عبد المؤمن منهم ؛ هذا على أنه -

كما قدمناه ـ ينتسب إلى غيرهم[١] ؛ ثم أهل تِينمل ، وهم قبائل شتى يجمعها اسمُ هذا الموضع ؛ ثم هَنْتَاتة ، وهى أيضا قبيلة ضخمة جدا ، وفى بعضها رياسة وشرفٌ فى الدهر القديم ؛ ثم جِنفيسة ، وهى قبيلة عزيزة منيعة ، ولغتُها أجودُ اللغات وأفصحُها فى ذلك اللسان ؛ ثم جِدمِيوَه ، وليست كلها ـ بل بعضها ـ رعية ؛ ثم من استجاب للموحدين من قبائل صُنهاجة ، ثم بعض قبائل هَسْكُورة ...

فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون فى البعوث ؛ وغيرُ هؤلاء القبائل من المصامدة رَعيَّة .

وإذ قد جرى ذكرهم ـ أعنى المصامدة ـ على هذا النسق ، فلنذكر لك الآن ـ حفظك الله وأصلحك وأصلح بك ـ القبائلَ التى يجمعها هذا الاسم ، أعنى المصامدة ، وحدّ بلادهم ؛ لتعرفهم ممن سواهم من البربر ؛ فحدّ بلادهم النهرُ الأعظم الذى يصب من جبال صُنهاجة وينتهى إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، يُدْعى هذا النهر أمّ ربيع ، عليه قبيلتان ، إحداهما تسمى هَسكورة ، وأخرى صنهاجة ؛ وهما من المصامدة ؛ وآخر بلادهم الصحراء التى تسكنها قبائل لمْتُونة ومسوفة وسَرْطَة ؛ وهؤلاء ليسوا مصامدة ؛ وقد كانت المملكة فى هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدّم ؛ فهذا حدّ بلاد المصامدة عَرْضا ؛ وحدّها طولاً من الجبل المعروف بِدَرَن[٢] إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس ؛

(١) انظر ص ١٩٧
(٢) جبال أطلس

وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم : هسكورة ، وصنهاجة ، ودُكّالة ، وحاحة ، ورجراجة ، وجزولة ، ولمطة ، وجنفيسة ، وهنتاتة ، وهرغة ، وقبائلُ أهلِ تينملّ ؛ وحول مراكش قبائلُ منهم أيضا ، وهم : هزمير ، وهيلانة ، وهزرجة ؛ يَدْعُونهم الموحدون بالقبائل (١) ؛ فهؤلاء الذين يجمعهم اسمُ المصامدة ، ثم يجمع الكلَّ جنسُ البربر ، من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرْنا ، من لمتونة ومسوفة وسرطة ؛ وآخرُ بلادهم أولُ حدِّ بلاد السودان .

وللمصامدة بعد هذا جُندٌ من سائر أصناف الناس ، كالعرب ، والغُزّ ، والأندلس ، والروم ، وقبائل من المرابطين ، وغيرِهم .

ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان : فالصنف الأول يُدْعَوْن الجموع ، وهم المرتزِقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها ؛ والصنف الآخر يُدْعَوْن العموم ، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا فى النفير الأعظم ؛ وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائرِ من ذكرنا من الأجناد - على ما صحّ عندى تلخيصه - عشرةُ آلاف نفس ؛ هؤلاء الذين بمراكش خارجا عما فى سائر البلاد من الموحدين وأصنافِ الجند .

وإذا كان العَرْضُ العامّ فأول من يعترض ذريةُ أبى حفص عمر الصنهاجى على طبقاتهم فى أسنانهم ، ثم بعدهم فَرَسُ الخليفة من بنى عبد المؤمن ، ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ، ثم أهل خمسين ، ثم القبائل ؛ وأولهم عَرْضاً

(١) كذا بالأصل ؛ والفصيح : يدعوهم الموحدون ... الخ .

هرغة قبيلة ابن تومرت ، ثم بعدهم أهل تينمل ، ثم كومية ، ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم فى سُرعة الهجرة و بُطئها .

وقد جرت عادتهم بالكتْب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن ، وخاصة أهل علم النظر ، وسمَّوهم طلبةَ الحضر ، فهم يكثرون فى بعض الأوقات ويقلّون ؛ وصنف آخر ممن عُنى بالعلم من المصامدة يسمَّون طلبةَ الموحدين ؛ ولا بد فى كل مجلسٍ عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم ، من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم ؛ فأول مايفتتح به الخليفةُ مجلسَه مسئلة من العلم يُلقيها بنفسه أو تُلقى بإذنه ؛ كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يُلْقون المسائلَ بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء : يدعو الخليفةُ ويؤمّن الوزير جهراً يُسمِع مَن بَعُد من الناس ؛ ثم إذا سافروا لايزال القرآنُ يُقرأ بين أيديهم بالغدو والعشىّ رُكبانا ؛ وإذا نزلوا فأولُ شىءٍ يصنعونه فى أول النهار بعد صلاتهم الفجر ، أن يَخرج من ينادى : « الاستعانة بالله والتوكلُ عليه ! » هذه عندهم للركوب ؛ فحينئذ يركب الناس ، ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيانُ القرابة وأشياخُ الموحدين بين يديه مُشاةً خطواتٍ كبيرة ؛ ثم يأمرهم بالركوب ؛ فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا ، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءةَ طلبةُ الموحدين خَلْفَه ؛ فيقرءون حِزْبا من القرآن فى نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رفيقا ، ثم شيئاً من الحديث ، ثم يقرءون تواليفَ ابن تومرت فى العقائد بلسانهم وباللسانِ العربى ؛ فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضا وبسط يديه ودعا ؛ وإذا كان وقتُ

النزول أيضاً نزلوا مشاةً بين يديه إلى خيمته ؛ فإذا بلغها بسط يديه ودعا ؛ فلا يزال هذا دأبَهم فى جميع سَفَرِهم كلّه .

صفة أحوالهم فى إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم فى جُمَعِهم ، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخةٍ فى القبلة ، ويخرج معه خواصُّ حَشَمه ، ويركع ركعتين ثم يجلس ؛ فيقرأ قارئٌ قَدْرَ عشرِ آيات ، حَسَن القراءة حَسَن الصوت ؛ ثم يقوم رئيسُ المؤذِّنين ومعه العَصَا التى يتوكأ عليها الخطيب فيقول : « قد فاء الفئ ياسيدَنا أميرَ المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين ! » يريد بهذا القول استئذانه فى صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ، ثم يناوله ذلك الرجل العصا ؛ فإذا جلس الخطيبُ فوق المنبر أذَّن ثلاثةٌ من المؤذِّنين مفترقين ، أصواتُهم فى نهاية الحسن ، قد انْتُخِبُوا لذلك من البلاد ؛ ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فأول شىء يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادىَ له ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ؛ أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدَىِ الساعة ؛ من يُطِعِ اللهَ وَرسوله فقد رَشَد ، ومن يَعْصِ الله ورسوله فلا يَضُرّ إلا نفسه ولا يضرّ اللهَ شيئاً ؛ أسأل الله ربَّنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبعُ رِضوانه ويجتنبُ سخطه ؛ فإنما نحن به وله ... »

ثم يتعوّذ ويقرأ سورة قاف من أولها إلى آخرها ، ثم يجلس ؛ فإذا قام إلى الخطبة الثانية قال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ، ونبرأ من الحوْل والقوة إليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جِدًّا وعَزْما ، وأنفَدُوا وُسْعَهم فى نصره والصبرِ على ماأصابهم فيه وفاءً وصِدقا وحَزما ، وعلى الإمام المعصوم المهدىِّ المعلوم أبى عبدالله محمد بن عبدالله العربى القرشى الهاشمى الحسنى الفاطمى المحمدى ، الذى أُيِّد بالعصمة فكان أمره حتما ، واكْتُنِفَ بالنور اللائح والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتى لايَدَع فيها ظلاما ولا ظُلما ؛ وعلى وارث شرفِه الصميم قسيمِه - رضى الله عنه - فى النسب الكريم ، المجْتَبى لوِراثة مقامِه العلىّ ، الخليفة الإمام أبى محمدٍ عبدِ المؤمن بن على ؛ وعلى أبى يعقوب ولىّ ذلك الاستخلاص ومستوجب شرفِ الاجتباء والاختصاص اللهم وارْضَ عن المجاهِد فى سبيلك ، المُحْيي سُنَة رسولك ، الخليفةِ الإمام أبى يوسف أميرِ المؤمنين ؛ ابنِ أمير المؤمنين ، ابنِ أمير المؤمنين ؛ وعلى الخليفة الإمام أبى عبد الله ابنِ الخلفاء الراشدين [١] ؛ اللهم وانْصرْ ولىَّ عهدهم ، الطالعَ فى أفق سعدهم ، القائمَ بالأمر من بَعدهم ، الخليفةَ الإمامَ أمير المؤمنين أبا يعقوب ابنَ أميرِ المؤمنين ، ابنِ أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ؛ اللهم كما شَدَدْتَ به عُرَا الإسلام ، وجمعتَ على طاعته قلوبَ الأنام ،

(١) يعنى الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن ؛ أمير الموحدين فى عهد المراكشى

ونصرتَ به دينَ نبيك محمد عليه الصلاة والسلام؛ فاقضِ له بالنصر المقرون بالكمال والتمام؛ اللهم كما اجتبيتَه من الخلفاء الراشدين، والأئمةِ المهديّين، فاجعله من المقتفين لآثارهم، المهتدين بمَنَارِهم، المقتبسين من أنوارهم؛ اللهم وأيِّدِ الطائفةَ المنصورة والجماعة، إخوانَ نبيِّك، وطائفةَ مَهدِيِّك، الذين أخبرتَ عنهم في صريح وَحيك أنهم لايزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة؛ وأمِدَّهم وكافةَ من انتظم في سلكهم من أنصار الدِّين، وحزبِك الموحِّدين، بموادّ النصر والتمكين، والفتح المبين؛ واجعل لهم من عَضدك وتأييدك أعزَّ ظهير، وأكرم نصير ... ».

ثم يدعو وينزل فيصلي؛ فإذا فرغ دعا الخليفةُ بنفسه وأمَّن الوزيرُ على ماتقدم؛ فهذه كليات سِيرتهم مجملةً على مايقتضيه شرطُ التقريب؛ وفي أثناء ذلك تفاصيلُ يطول شرحُها وليس بالناظر في هذا الكتاب إليها كبيرُ حاجة؛ إذ قد بُيِّن له ما يستَدلّ على مالم يُرْسَم في هذه الأوراق بما رُسِم.

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا - أصلحك الله - منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسِيَر ملوكه ووزرائهم وكتّابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة؛ وقد تقدم بسطُ العذر عما يقع من التقصير أو الخلل، مع أن أصغر خدم مولانا [1] لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدّثت قطُّ نفسَه به؛ وإنما بعثتْه عليه الهمة الفخرية - أعلى الله رُتبها - فما كان من إحسانٍ فإلى تلك الهمة العلية نِسْبَتُه وعنها مُنبَعَثُه، وما كان من غير ذلك فإغضاؤها يستُره ومُسامحتُها تَغمُره.

وقد رَسَم مولانا - حرس الله مجدَه - أن يُضاف إلى هذا التصنيف ذكرُ أقاليم المغرب وتعيينُ مُدنه وتحديدُ مابينها من المراحل عدداً؛ من لَدُنْ بَرْقة إلى سوس الأقصى؛ وذِكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ماتقدم؛ فلم يَرَ المملوكُ بُدًّا من الجرْى على العادة فى سرعة الإجابة وامتثالِ مرسوم الخدمة؛ لوجوب ذلك عليه شرعا وعُرفا؛ هذا مع أن هذا الباب خارجٌ عن مقصود هذا التصنيف، وداخلٌ فى باب المسالك والمهالك؛ وقد وضع الناسُ فيه كتبا كثيرة: ككتاب أبى عُبيد البكرى الأندلسى، وكتاب ابن فياض الأندلسى أيضا، وكتاب ابن خُرْدَاذبه الفارسى، وكتاب الفرغانى؛ وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشان المستوعِبَةِ له؛ ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك - موافَقَةً لرأى مولانا العالى - ما يقف به على حدود

---

(١) يعنى نفسه، و«مولانا» المقصود بالخطاب: هو السيد الذى سأله إملاء هذا الكتاب. انظر المقدمة.

البلاد ويصوِّر له صورتَها على التقريب من غير تطويل ، جارِين في ذلك على ماسلف من عادتنا في سائر الكتاب ؛فنقول وبالله التوفيق ومنه الإعانة :

قد تقرر واشتهر أن أولَ حدِّ البلاد المصرية مما يلي الشام ، العريش ؛ وآخره مما يلي المغرب ، مدينة أنطابُلس المعروفة بِبرقة ؛ هذا عَرض الديار المصرية ؛ وحدُّها في الطول من ثغر اسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومي ؛ هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشان .

[أولا : المدن العامرة على الساحل]

وأول حدِّ بلاد أفريقية [١] والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة ، المدعوّة ببرقة ، بناها الروم فكانت حاضرةً لتلك البلاد ومجتمَعا لأهلها ؛ افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه [٢] ؛ ومنها كان ابتداء فتح المغرب ؛ ومن هذه المدينة - أعنى أنطابلس - إلى مدينة طرابُلُس المغرب ، قريبٌ من خمس وعشرين مرحلة .

[اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان]

وما بين الإسكندرية وطرابُلس المغرب ، خمس وأربعون مرحلة ؛ وكانت العمارة متصلةً من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القَيروان ، تمشى فيها القوافل ليلا ونهارا : وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصونٌ متقاربة جدا ، فإذا ظهر في البحر عدوٌّ نوّر كلُّ حصن للحصن الذى يليه ، واتصل

(١) يعنى ببلاد أفريقية ، مايشمل المغرب الأدنى وأقليم تونس إلى مدينة قسطنطينة ، وأما مايلى ذلك غربا فهو المغرب في اعتباره .

(٢) فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ

التنوير؛ فينتهى خبرُ العدو من طرابلس إلى الإسكندرية، أو من الإسكندرية إلى طرابلس، فى ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل؛ فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوَّهم؛ لم يزل هذا معروفا من أمر هذه البلاد إلى أن خرّبت الأعرابُ تلك الحصون ونَفَتْ عنها أهلَها أيامَ خَلَّى بنو عُبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب - وذلك فى حدود ٤٤٠ - حين تغيَّر ما بينهم وبين المعزّ بن باديس الصِّنهاجى وقطع الدعاء لهم على المنابر ودَعا لبنى العباس [١]؛ فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا، واستوطنتها الأعراب من سُليم بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان وغيرهم، فهم اليوم بها، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم.

* * *

ومدينة أنطابلس هذه خراب، لم يبق منها إلا آثارها؛ وفيما بين برقة وطرابلس حصنٌ يسمّى طُلْمَيْثَة، بالقرب منه معدِنُ كبريت؛ فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورةً إلى هذا الوقت، وهى أول مملكة المصامدة، وقد استولى عليها فى مدة مُلكهم وفى ملك أبى يعقوب منهم، المملوك قراقُش المتقدمُ ذِكره فى ترجمة أبى يوسف [٢]، ثم أخرجه منها المصامدة؛ واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثيرٍ من أفريقية حسبما تقدم تلخيصه [٣]، ثم أخرجه عنها أيضا المصامدة، فهى فى ملكهم إلى وقتنا هذا، وهو سنة ٦٢١.

---

(١) انظر ص ٢٠٤ - ٢٠٦، ٢٢٤ - ٢٢٥

(٢) انظر ص ٢٨٨ وما بعدها

(٣) انظر ص ٢٦٦ وما بعدها.

[بلاد أفريقية الساحلية]

فحدّ بلاد أفريقية مما يلى المشرق ، مدينة أنطابلس المذكورة ، وحدّها مما يلى المغرب ، المدينة المعروفة بقسطنطينة الهواء ، سُمِّيتْ بذلك لإفراط عُلوِّها وشدة مَنعتِها ؛ ومسافة مابين أنطابلس وقسطنطينة المغرب قريبةٌ من خمس وخمسين مرحلة ، فهذا حدّ أفريقية طولاً ؛ وعرضُها يختلف بحسب مُزاحمة الصحراءِ العمارةَ ومباعدَتِها ؛ وسُمِّيت أفريقية بذلك لنزول أفريقش من ولد حام بن نوح بها ، وأفريقش هذا هو أبو البربر ، فالبربر كلُّهم من ولد حام بن نوح ، خلا صُنهاجة ، فإنهم يرجعون إلى حِمْيَر ؛ هذا كلُّه قول أبى جعفر [1] محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، من لدُن ذِكر أفريقش إلى ذكر صُنهاجة .

فأول مدن أفريقية المعمورة ، طرابُلُس المغرب المتقدم ذكرها ، ومنها إلى مدينة تسمَّى قابِس ، عَشْرُ مراحل ؛ وقابسُ هذه على ساحل البحر الرومىّ ؛ وكذلك طرابلس ؛ وتنصبُّ إلى قابس هذه أنهارٌ من بعض تلك الجبال التى تليها ، فهى بذلك أخصب بلاد أفريقية وأوسعُها فواكهَ وأعنابا ؛ ومن قابس هذه إلى مدينة صغيرةٍ على الساحل أيضا تسمَّى سَفَاقس ؛ أربع مراحل ؛ ومن سفاقس إلى مهدية بنى عُبيد ، ثلاث مراحل ؛ وقد تقدمت صفة المهدية فى أخبار أبى محمد عبد المؤمن بن على [2] ؛ وبظاهرِ المهدية المذكورة وقريبٌ منها جدًّا ، مدينة تدعى زويلة ؛ بناها بنو عُبَيْد حين بنوا المهدية ؛

---

(١) فى الأصل : أبى عبدالله .

(٢) انظر ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩

فاختصوا المهديةَ لأنفسهم وحَشَمِهم وأعيانِ جُندهم ووجوهِ قُوّادهم ؛ وأسكنوا زويلةَ هذه سائرَ الناس من الرعية والسُّودان وأراذلِ كِتامة وغيرِهم من أتباعهم ؛ ولما ارتحل المعزُّ إلى مصر بعد أن افتتحها على يدَىْ خادمِه جَوْهر ؛ ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه ؛ فإليهم يُنْسَبُ البابُ والحارة التى بالقاهرة اليوم (١) ؛ ومن مهدية بنى عبيد إلى مدينة تسمى سُوسة - وإليها تُنسب الثيابُ السوسية - مرحلتان ؛ ومن سوسة إلى مدينة تونس ، ثلاث مراحل ؛ ولم تكن تونس هذه فى قِدَم الدهر على أيام الإفرنج مدينة ، وإنما بنيت فى أول الإسلام ، بناها عُقبة بن نافع الفِهرى لمصلحة رآها (٢) ؛ وإنما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قَرْطَاجة (٣) ، بينها وبين تونس نحوٌ من أربع فراسخ .

[شأن مدينة قرطاجة فى القديم]

وهذه المدينة - أعنى قَرْطاجة - هى كانت حاضرةَ أفريقية أيام الروم ، وهى مدينة عظيمة ، ظهر فيها من قوتهم وشدّةِ طاعة رعيّتهم لهم وفرطِ

(١) لم يزل هذا الباب والحارة موجودين حتى اليوم ، ويعرف العامة هذا الباب فى مصر باسم « بوابة المتولى » .

(٢) كذا يذكر المراكشى ، ونظن الصواب غيره ؛ فإن تونس مدينة قديمة ، قيل إنها أقدم من قرطاجة ؛ إلا أنها لم يكن لها شأن إلا بعد خراب قرطاجة ؛ فرفع العرب شأنها وعمروها ؛ وفيها أسس حسان بن النعمان - بأمر عبدالملك بن مروان - داراً لصناعة السفن والآلات البحرية ؛ فكانت بذلك أول دار صناعة بالإسلام .

وفى تونس جامع الزيتونة الشهير ، بناه عبدالله الحبحاب فى خلافة هشام بعد عبدالملك . وإليها ينسب ابن خلدون صاحب التاريخ والمقدمة .

(٣) فى الأصل : قرطجنة ، وهو خطأ ؛ فإن قرطاجنة من ثغور الأندلس لا من ثغور المغرب.

جَبَروتهم ما يَعجَبُ منه مَن تأمّله ، ويَعتبر فيه مَن وَقف عليه ؛ وذلك أنهم جلبوا إليها المياهَ من بُعد شديد ، وتحيَّلوا على ذلك بغرائبَ من الحيل يعجز عن أيسرها جميعُ من فى هذا العصر ؛ وكانوا يُضاهون بها مدينة القسطنطينية العظمى ، المنسوبةَ إلى قسطنطين بن هَيلان ملكِ الإفرنج ؛ ثم لما افتتح المسلمون أفريقية فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، خرَّبوا هذه المدينة المذكورة [١] ، واتّخذوا مدينة القَيرَوانِ دارَ مُلكهم [٢] ومَقَرَّ وُلاتهم ومُجتمعَ جُندهم ومركزَ جيوشهم ؛ وأسّسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة [٣] ؛ وكان هناك قبل ذلك دَيْرٌ معظَّم عند الروم يزورونه من أقاصى بلادهم ، فهدمه المسلمون وبنوه مسجدا ، وسمَّوا المدينة تونس ، باسم الراهب الذى كان فى ذلك الدَّير ؛ فما زالت تونسُ معمورةً إلى وقتنا هذا .

ولما خَرِبتْ مدينةُ القَيروان على ماسيأتى الإيماء إليه ، صارت مدينة تونس حاضرةَ أفريقية ومَقَرَّ وُلاتها وموضعَ مخاطبةِ أولى الأمر منها ؛ وكل ما بتونس من جيِّد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة .

* * *

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تُدعى بُونة [٤]

---

(١) كذا ... وإنما خربها الرومان قبل الفتح الإسلامى ، تخلصا من أسباب النزاع التى لبثت دهراً بين رومية وقرطاجة .

(٢) انظر التعليق رقم ١ ص ٩ (٣) انظر التعليق رقم ٢ ص ٣٥٠

(٤) هى مدينة Hippos Reghis القديمة على حدود المغرب الأوسط ، وتسمى الآن « عنابة »

ـ ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج : جيدة ـ ستُّ مراحل ؛ وفيما بين تونس وبُونه بُليدةٌ صغيرة تسمى بَنِي زَرْت [١] ، بينها وبين تونس يومٌ تامّ فى البَرّ للمُجِدّ [[٢] ولبنى زرتَ ، هذه شأنٌ غريب ، وذلك أنه يخرج فى بحرها كلما طلع هلال ، نوعٌ من السمك لم يكن فى الشهر الذى قبل ذلك : هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد ، والمتفطّنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلّة ؛ وهذا منسوبٌ إلى الطِّلّسمات ، اعتنى به من عُنِي بخدمة القمر [٢]] ، ومن مدينة بونه إلى مدينة قسطنطينة التى هى أحد حدّىْ أفريقية ، خمس مراحل ؛ وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا .

هذا ماعلى ساحل البحر أو قريبٌ منه من مدن أفريقية ؛ وبها مما يلى الصحراء مُدنٌ أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغتُ مما على ساحل البحر من بلاد المغرب .

[بلاد المغرب الساحلية]

ومن قسطنطينة المغرب إلى بِجاية ، خمسُ مراحل على الرِّفق ؛ وبجايةُ هذه هى دارُ مُلك بنى حمّاد الصُّنهاجيين الذين تنتسب قلعة بنى حماد إليهم [٣] ؛ وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب إلى موضع يُعرف بسيِوِسيرات ، وقد تقدم هذا الموضع [٣] ، بينه وبين بجاية قريبٌ من تسع مراحل .

---

(١) بنزرت .

(٢) مابين العلامتين [ ] منقول عن هامش المخطوطة .

(٣) انظر ص ٢٠٤ وما بعدها .

لم يزل بنو حماد يملكون بجايةَ وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها في ولاية يحيى منهم، أبو محمد عبد المؤمن بن على حسبما سبق .

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر - وتُنسب إلى قوم يقال لهم بنو مَزْغنّة [١] - قريبٌ من أربع مراحل ؛ وهذه المدينة - المعروفة بالجزائر - على ساحل البحر الرومى ؛ وكذلك مدينة بجاية ؛ ومن الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تسمى تَنَس ؛ أربع مراحل ؛ ومن مدينة تَنَس إلى مدينة وِهران ، سبع مراحل ؛ ومن مدينة وهران إلى مدينة سَبتة على التقريب ، ثمانى عشرة مرحلة .

[ضيق البحر بين المغرب والأندلس]

وبساحل سبتة هذه يلتقى البحران : بحر مانطس الذى هو بحر الروم ، وبحر أقيانُس الذى هو البحر الأعظم [٢] ؛ وهذا أولُ الخليج المعروف بالزقاق .

وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ، ثمانية عشر ميلا ؛ ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهى ذلك من عُدوة البربر إلى موضع يُدعى قصر مصمودة ، بينه وبين سبتة نصفُ يوم ؛ ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيرة طريف ، مقابلا لقصر مصمودة المذكور ؛ فأَضيَقُ مايكون البحر هنالك ، وسَعتُه فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلا ؛ ترى رمال كلٍّ واحد من الشطّين من الآخر فى كل وقت من أوقات النهار ؛ وقد ذكر المؤرخون أن الروم بَنَتْ فى قديم

(١) وإليها لجأ أبو يحيى الحسن بن على آخر ملوك بنى باديس . انظر التعليق ص ٢٠٥

(٢) انظر التعليق ص ٥ - ٦

الدهر قنطرةً على هذا الخليج ، ثم طغت المياهُ فغطّتها ؛ فيذكر قومٌ من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوانَ سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه .

* * *

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة ؛ يومٌ تامٌ فى البر ؛ وطنجة هذه آخر الخليج الذى به يلتقى البحران ، وهى على ساحل البحر الأعظم الذى لاعمارة وراءه [١] ، وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط ، المتصل ببحر الهند والحبشة - وطنجة هذه آخرُ بلد بالمغرب المحقق ؛ وما بعدها من البلاد فإنما هو فى الجنوب ، كمدينة سَـلا ، ومدينة مراكش - ثم لايزال [٢] دائراً فى الجنوب إلى أن يأتى بلاد الحبشة والهند .

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومى ، مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة ؛ وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم ، مدينة طنجة ؛ ومسافة ما بين ذلك على التقريب ، ست وتسعون مرحلة ؛ فهذا ذِكر المدن التى على ساحل البحر من بلاد المغرب .

[ثانيا : البلاد التى ليست على ساحل]

ثم نعود إلى ذكر ماليس على الساحل من مدن أفريقية والمغرب ، فنقول :

[بلاد أفريقية]

من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمَّى قَفْصَة ، ثلاث مراحل ؛

---

(١) انظر التعليق ١ ص ٧

(٢) يعنى المحيط .

ومن مدينة قَفْصة إلى مدينة تَوْزَر ، أربع مراحل .

وتوزر هذه هي حاضرةُ بلاد الجريدِ وأُم قُراها ؛ وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين : قسمٌ يسمَّى قَسْطِيلِيَّة ، وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالِها ؛ وقسمٌ يسمَّى الزاب ، وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بِسْكرة وأعمالها .

ومن مدينة تَوْزَر إلى مدينة بِسكرة ، أربع مراحل ؛ وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نَقَاوس ، بينها وبينها مرحلتان ؛ فهذه المدن التي تلي الصحراء من بلاد أفريقية ، ويتخللها قُرى كثيرة لم نذكرها لصغرها .

[شأن القيروان في قديم الزمان]

وفيما بين مدينة تونس وتوزر ، مدينةُ القَيروان المشهورة ؛ منها إلى الساحل ثلاث مراحل ؛ وهي كانت ـ أعني القَيروان ـ دار مُلك المسلمين بأفريقية منذ الفتح ؛ لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يُولُّون عليها الأمراء من قِبلهم ، إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبد الأغالبة بِمُلك أفريقية بعض الاستبداد ، وهم بنو أغْلَبَ بن محمد بن إبراهيم بن أغلب التميميون ؛ فاتخذوا القيروان دارَ مُلكهم ؛ فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها أيام كونهم بأفريقية ؛ ثم ولَّوا عليها حين ارتحلوا إلى مصر زِيري بن مَنَاد الصُّنهاجي ، [1] فلم يزل زيري وبنوه ملوكا عليها ، إلى أن كان

(١) انظر التعليق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦

آخرهم الذى أخرجه العرب (١) عنها، تميم بن المعزّ بن باديس بن منصور ابن بلجين بن زيرى بن مناد المذكور؛ فانتهبتها الأعراب وخرّبتها، فهى كذلك خرابٌ إلى اليوم، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية.

وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان - منذ الفتح إلى أن خرّبتها الأعراب - دارَ العلم بالمغرب: إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم؛ وقد ألّف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذِكر علمائه ومَن كان به من الزُّهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين، كتباً مشهورة: ككتاب أبى محمد بن عفيف، وكتاب ابن زيادة الله الطُّبْنى، وغيرهما من الكتب؛ فلما استولى عليها الخراب - كما ذكرنا - تفرق أهلُها فى كل وجه: فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صِقِلّية والأندلس؛ وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب، فنزلوا مدينة فاس، فعَقِبُهُمْ بها إلى اليوم.

فهذه نبذة من أخبار أفريقية، وفيها مدن كثيرة قد خَرِبتْ لا أعرف أسماءها؛ لقلة معرفتى بتفاصيل أحوال أفريقية؛ لأنى لم أدخل منها إلا مدينة تونس خاصة؛ أتيتها فى البحر من الأندلس، وذلك سنة ٦١٤؛ وإنما نقلت ما نقلتُه من أخبارها حسب المستفيض من السماع.

وفى خراب القيروان على ما تقدم يقول أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد ابن شرف الجذامى:

تُرَى سَيِّئاتُ القَيروانِ تعاظَمتْ * تَجَلَّتْ عن الغُفْرانِ والله غافرُ!

(١) يعنى بنى هلال، حين كثر عيثهم فى تلك البلاد، حتى غلبوا بنى باديس على القيروان، فانتقلوا عنها إلى المهدية.

تُراها أُصيبتْ بالكبائر وَحْدَها * ألم تكُ قِدْماً فى البلادِ الكبائرُ ؟

[بلاد المغرب]

... فقسطنطينة آخرُ بلاد أفريقية (١) ، مايلى البحرَ منها ومايلى الصحراء ؛ وما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير أفريقية ؛ فأوّل ذلك بُليدة صغيرة قبلىَّ بِجاية فى البر ، تسمَّى مِيلة ، بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ، ومن بجاية إلى قلعة بنى حماد أربع مراحل ؛ وهى أيضا ـ أعنى القلعة ـ قبلىَّ بجاية .

[طريق السُّفَّار من بجاية إلى مراكش]

وها أنا أذكر طريق السُّفَّار من بجاية إلى مراكش ؛ فمن بجاية إلى مدينة تِلِمْسان عشرون مرحلة ، وفيما بين ذلك بُلَيدات صغار كمليانة ، ومازونة ، ووهران ـ وقد ذكرناها فى بلاد الساحل ـ وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلا ؛ وذلك يومٌ للمُجِد ؛ ومن مدينة تلمسان إلى مدينة فاس عشر مراحل ، سبعٌ منها إلى المدينة التى تُدعى رِباط تازا ، وثلاث إلى فاس ؛ وقبلىَّ مدينة تلمسان فى الصحراء ، مدينة سِجِلْمَاسَة ، منها إلى تلمسان عشرُ مراحل ؛ وهذه المدينة ـ أعنى سجلماسة ـ متوسطة فى الصحراء ، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش ، على حد سواء ؛ فمن حيث قصدتَ إليها من أحد هذه البلاد ، كان ذلك مسافة عشر مراحل .

[التعريف بمدينة فاس]

ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا ، وموضعُ العلم منه ؛

---

(١) انظر التعليق ١ ص ٣٤٧

اجتمع فيها علمُ القيروان وعلمُ قرطبة؛ إذ كانت قرطبة حاضرةَ الأندلس، كما كانت القيروان حاضرة المغرب؛ فلما اضطرب أمر القيروان - كما ذكرنا - بِعَيْثِ العرب فيها، واضطرب أمرُ قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبى عامر محمد بن أبى عامر وابنِه، رحل مِن هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة؛ فِراراً من الفتنة؛ فنزل أكثرهم مدينة فاس؛ فهى اليوم على غاية الحضارة، وأهلها فى غاية الكَيْس ونهاية الظَّرف، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم؛ وما زلت أسمع المشايخ يدْعونها بغدادَ المغرب، وبحقٍّ ماقالوا ذلك؛ فإنه ليس بالمغرب شىء من أنواع الظَّرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحدٌ من أهل المغرب؛ ولم يتخذ لمتونةُ والمصامدةُ (١) مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خيرٌ من مدينة فاس فى شىء من الأشياء، ولكنْ لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة؛ فلهذا السبب كانت مراكش كرسىَّ المملكة؛ وإلا فمدينة فاس أحقُّ بذلك منها؛ وما أظن فى الدنيا مدينةً كمدينة فاس، أكثرَ مرافق، وأوسعَ مَعايِش، وأخصبَ جِهات؛ وذلك أنها مدينة يَحُفُّها الماء والشجر من جميع جهاتها، ويتخلل الأنهارُ أكثرَ دُورِها زائداً على نحو من أربعين عينا ينغلق عليها أبوابُها ويحيط بها سورها؛ وفى داخلها وتحت سورها نحوٌ من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء؛ ولا أعلم بالمغرب مدينةً لا تحتاج إلى شىء يُجلَبُ إليها من غيرها - إلا ما كان

(١) يعنى المرابطين ثم الموحدين .

من العطر الهندى ــ سوى مدينة فاس هذه ؛ فإنها لا تحتاج إلى مدينة فى شىء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هى تُوسِع البلادَ مرافق وتملؤُها خيراً .

* * *

ومن مدينة فاس إلى مدينة مِكناسةِ الزيتون ، يومٌ تامّ للمجدّ ؛ ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سَلا ، أربع مراحل .

ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وهى فى الجنوب كما ذكرنا ، ينصب إليها نهر يسمى وادى الرمان ، يصب فى البحر الأعظم المذكور .

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلى مراكش مدينة عظيمة ، سمَّوها رِباط الفتح ، كان الذى اختطّها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأتمها ابنُه يعقوب ، وبنى فيها مسجداً عظيما قد تقدّم ذكره (١) ؛ وقيل إنهم إنما بَنوْها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك ؛ وذلك أنه قال لهم : « تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر ــ يعنى البحر الأعظم ــ ثم يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ؛ ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان ! » فلهذا سموها رِباط الفتح ؛ وبين هذه المدينة وبين سَلا العتيقة ، النهرُ المذكور ؛ وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يَجْزر النهر ، فإذا مَدَّ عَبَروا فى القوارب .

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسىِّ المملكة ، تسعُ مراحل ؛

---

(١) انظر ص ٢٦٦

فمراكش آخر المدن بالمغرب ؛ وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفينُ ابن على [١] ؛ ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ؛ ثم زاد فيها بعدهما علىّ بن يوسف بن تاشفين ؛ ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت فى نهاية الكبر ؛ فهى اليوم طولا وعرضاً قدْرُ أربع فراسخ ـ هذا إذا ضُمَّت إليها قصورُ بنى عبد المؤمن ـ وأجرَى المصامدةُ فيها مياها كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلُها لملكٍ ممن تقدمهم من الملوك ؛ فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال ، كما قال الأول :

ليس فيهــا مايقــال له ✲ كمُلَتْ لو أنه كَمُلا

[ترجمة المؤلف بقلمه]

وبهذه المدينة ـ أعنى مراكش ـ مسقط رأسى ، وهى أولُ أرضٍ مس جلدى ترابها ؛ وكان مولدى بها لسبعٍ خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١ ، فى أول أيام أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على .

ثم فصَلْتُ عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس ؛ فلم أزل بها إلى أن قرأتُ القرآن وجوّدتُه ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرّزين فى علم القرآن والنحو .

ثم عدت إلى مراكش ؛ فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين .

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس فى أول سنة ٦٠٣ ، فأدركتُ بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن ؛ فلم احصّلْ بحمد الله من ذلك كلّه إلا معرفةَ

(١) انظر ص ١٠٠

أسمائهم ومواليدهم ووَفَيَاتهم وعلومهم ؛ انفردوا دُونى بكل فضيلة ؛ ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ؛ يختصُّ برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم !

[بلاد السوس الأقصى]

فمراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورةِ به ؛ وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة ، إلا بُلَيْدَاتٌ صغار بسوس الأقصى ؛ فمنها مدينة صغيرة تسمى تَارُودَانْت ، وهى حاضرةُ سوس ، وإليها يجتمع أهله ؛ ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زُجُنْدَر ، هى على معدن الفضة ، يسكنها الذين يستخرجون مافى ذلك المعدن ؛ وفى بلاد جُزُولة مدينةٌ هى حاضرتهم أيضا تسمى الكُسْت ؛ وفى بلاد لَمْطة مدينةٌ أخرى هى حاضرتهم أيضا تسمى نُول لمطة ؛ فهذه المدن التى وراء مراكش ، فأما تارودانت وزُجندر فدخلتُهما وعرفتُهما ؛ ولم أزل أعرف السُّفَّار من التجار وغيرِهم ، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجُندر ؛ وأما مدينة جُزولة ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلُهما خاصة .

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد

والكبريت والرصاص والزيبق وغير ذلك ، وأسماء مواضعها

قد تقدّم ذكر معدن الكبريت الذى بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طُلَمَيْثَة [١] .

وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تِمْسامان ، فيه معدنُ حديد .

وفيما بين سَلاَ ومراكش قريبا من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلا ، موضع يدعى إبسَنْتار ، فيه معدن حديد أيضا ؛ وليس هذا الموضع على طريق السُّفار ، إنما يقصده من أراد حَمْلَ الحديد منه .

وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصنٌ يدعى وَرْكَنّاس ، فيه معدنُ فِضة ؛ وقد ذكرنا معدن زُجندر الذى بسوس ، غير أن فِضّته ليست هناك ، أعنى فضة معدن زُجندر .

وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ، ومعدن تُوتيا ، وهى التوتيا التى يُصْبَغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر .

فهذا جملة ما بالعُدوة من المعادن .

[المعادن بجزيرة الأندلس]

وبجزيرة الأندلس معادن أيضاً ؛ فمنها معدنُ فِضة ببلاد الروم فى الجهة

(١) انظر ص ٣٤٨

المغربية ، بموضع يدعى شَنْتَرة .

وعلى أربع مراحل من مدينة قُرطبة موضع يسمى شلون ، فيه معدن زيبق ، منه يفترق الزيبقُ على جميع المغرب .

وفى أعمال المَرِيَّة وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدَلاية ، فيه معدنُ رصاص .

وفى أعمال المرية أيضاً على يوم ونصف منها موضع يسمى بَكارِش ، فيه معدن حديد أيضاً .

وما بين دانية وشاطِبة موضع يسمى اورْبة ، على نصف يوم من دانية ، فيه معدنُ حديد .

فهذا أيضا جملة ما بالأندلس من المعادن ؛ فأما الذهب فَمَسُوقٌ إليها من بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التى بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد أفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس، يسمى بَجَرْدة، ينصبُّ من جبل هنالك ينتهى إلى البحر الرومى.

ونهر بِجاية الذى يسمى الوادى الكبير، هو مُتَنَزَّهُها وعليه بساتينُها وقصورها.

ونهرٌ آخر فيما بين تلمسان ورِباط تازا يدعى وادى مُلْوِية، يصب فى البحر الرومىّ أيضا.

ونهر يدعى سَبُو، هو محيطٌ بمدينة فاس من شرقها وغربها.

ويجاور نهر سَبُو هذا نهرٌ آخر كبير يسمى وَرْغة.

وهذان النهران ينصبَّان إلى البحر الأعظم، بحر أقيانس، بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة.

وفيما بين مكناسة وَسَلا نَهْرٌ يدعى بَهْتا، ينصبُّ إلى البحر الأعظم أيضا.

ونهرُ سَلا المتقدم الذكر (١).

وفيما بين سَلاَ ومراكش، وعلى ثلاث مراحل من مراكش، نهرٌ عظيم يدعى امَّ ربيع، ينصب من جبال صُنهاجة من موضع يدعى وانْسِيفَن، يصب فى البحر الأعظم أيضا.

ونهر على أربعة أميال من مراكش، عليه قنطرة عظيمة، يسمى تانْسِيفت

(١) هو الذى يسمى «وادى الرمان» ويصب فى البحر الأعظم. انظر ص ٣٥٩

ونهر سوس الأقصى

ونهرٌ ببلاد حاحة ، يسمى شَفْشَاوَة.

هذه الأنهار كلها تصبُّ إلى البحر الأعظم ؛ فهذه جملة الأنهار الكبار التى بالمغرب التى لايقل ماؤها ولا ينقطع شتاء ولا صيفا ، ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التى تَيْبَسُ فى الصيف .

ذكر جزيرة الأندلس

وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهى المعروفة فى قديم الزمان عند الروم بجزيرة أشبانية ، وقد تقدم ذِكر حدودها فى صدر هذا الكتاب فأغنَى ذلك عن إعادته ههنا ؛ وكان دين أهلها فى الدهر القديم دينَ الصابئة من عبادة الكواكب واستنزال قُواها والتقرُّبِ إليها بأنواع القرابين : شهدتْ بذلك طِلَّسْماتٌ وُجدت بها وضعتْها القدماء من أهلها ؛ ثم انتقل أهلُها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدى أصحاب المسيح عليه السلام .

وكانت هذه الجزيرة - أعنى الأندلس - منتظمة فى مملكة صاحب رُومية ، يستعمل عليها من شاء من أصحابه ؛ فلم تزل كذلك والروم يملكونها - وقاعدة مَلكهم منها مدينة تسمى طالِقة ، على فرسخين من أشبيلية ، وهى مدينة عظيمة باقٍ أثرها إلى هذا اليوم - إلى أن غلبهم عليها القُوطا ، وهى قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى .

وانفرد القُوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة ، فملكوها أضخمَ مُلك قريباً من ثلاثمائة سنة ، وكانت دارُ ملك القوطا ، مدينة طُليطلة ؛ وهى فى قريب من وسط الجزيرة ، فلم يزالوا بها وطليطلةُ دارُ ملكهم - كما ذكرنا - إلى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة ، على ماتقدم فى صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قُرطبة دارَ مُلكهم ومقرَّ تدبيرهم وموضعَ حلِّهم وعَقدهم ؛ فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بنى أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلُّب أبى عامر محمد بن أبى عامر وابنه ، على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر حسبما تقدّم فى صدر هذا الكتاب . (١)

فهذا تلخيص أخبار جزيرة الأندلس .

[مجاز الأندلس]

وأنا ذاكرٌ إن شاء الله أولَ مايلقاه من يعبر إليها من حدودها ومدنها ، فأول ذلك أنى أقول :

قد تقدم أن البحرين : بحر الروم ، وبحر أقيانس ، يلتقيان بساحل سبتة ؛ ثم يضيق الخليج ويتقارب العُدْوَتان حتى ينتهى ذلك إلى قصر مصمودة من العُدوة وجزيرةِ طريف من الأندلس ، ثم يأخذ فى السعة ؛ وأول هذا الخليج مما يلى طنجة ، الجبلُ الخارج فى البحر الأعظم المعروفُ بطرف أَشْبَرْتال ، وآخره الجبل الذى شرقىَّ سبتة ؛ فإذا عبرت إلى جزيرة الأندلس من سبتة ، كان الذى تنزل به المدينةَ المعروفةَ بالجزيرة الخضراء ؛ وإذا عبرتَ من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف ؛ فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هى - فى التحقيق - على ساحل البحر الرومى ، وجزيرةُ طريف على ساحل البحر الأعظم ؛ وبين الموضعين - أعنى الخضراء وطريف - ثمانية عشر ميلا .

(١) انظر ص ٢٧ ومابعدها .

وفى شرقى الجزيرة الخضراء الجبلُ المعروف بجبلِ الفتح ، ويسمَّى أيضاً جبلَ طارق ؛ وله طرف خارج فى البحر يسمى طرف الفتح ؛ وعنده يلتقى البحران بجزيرة الأندلس .

فهذا تلخيص التعريب بخبر مجاز الأندلس .

[البلاد التى تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١]

فأما ذِكر مُدنها فقد كانت فيها مدنٌ كثيرة تغلَّبَ النصارى على أكثرها ؛ فأنا ذاكر أسماء المدنِ التى بأيدى النصارى فى وقتنا هذا ، ومواضعها من الجزيرة من مشرِقٍ ومغرب ، من غير تعرُّضٍ إلى مابينها من المسافات ؛ إذ كان كونُ النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك :

فأول المدن فى الحد الجنوبى المشرقى على ساحل البحر الرومى : مدينة برشنونة ، ثم مدينة طَرَّكُونة ، ثم مدينة طرطوشة ؛ هذه البلاد التى على ساحل البحر الرومى المذكور ؛ أعادها الله للمسلمين !

والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور : مدينة سرقسطة ، ولاردة ، وأفراغة ، وقلعة أيوب ؛ هذه كلها يملكها صاحب برشنونة ـ لعنه الله ـ وهى الجهة التى تُسمى أَرْغُن .

وفى الحد المتوسط مابين الجنوب والمغرب من المدن : مدينةُ طليطلة ، وكُونْكَة ، وأُقْلِيج ، وطَلَبَيْرَة ، ومَكَّادَة ، ومَشرِيط ، ووَبْذ ، وأبلة ، وشُقُوبية ؛ هذه كلُّها يملكها الأدفنش ـ لعنه الله ـ وتسمى هذه الجهةَ قشْتَال .

وتجاور هذه المملكةَ فيما يميل إلى الشمال قليلاً ، مدنٌ كثيرة أيضا ، وهى : سَمّورة ، وشَلَمَنْكة ، والسِّبْطاط ، وقُلُرِيَة : هذه كلها يملكها رجل يعرف بِالبَبُوج [١] - لعنه الله - وتسمى هذه الجهة ليُون .

وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم أقيانس ، مدن أيضا ، منها : مدينة الأشبونة ، وشَنْترين ، وباجة ، وشنترة ، وشَنْت ياقُو ؛ ومدينة يابرة ، ومدن كثيرةٌ ذهبت عنى أسماؤها ، يملكها رجل يُعرف بابن الريق [٢] ، لعنه الله .

فهذا ما بأيدى النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلى بلاد المسلمين ؛ ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم ، مدنٌ كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغّلها فى بلاد الروم ؛ لم يملكها المسلمون قط ؛ لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها .

[المدن التى بقيت بأيدى المسلمين إلى سنة ٦٢١]

وأنا ذاكر بعد هذا مابقى بأيدى المسلمين من البلاد ، وعدد المراحل التى بينها ، وقُرْبَها من البحر وبُعدها ؛ حتى يبين ذلك إن شاء الله تعالى :

فأول شىء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم ، حصنٌ صغير على شاطئ البحر الرومى يسمى بَنَشْكُلة ، بينه وبين مدينة بلنسية ثلاثُ مراحل ؛ وهذا الحصن مما يلى بلاد الروم ، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلا .

(١) انظر التعليق ٢ ص ٣٢٠
(٢) انظر التعليق ٤ ص ٣٢٠

ثم مدينة بلنسية ، وهى مدينة فى غاية الخصب واعتدال الهواء، كان أهل الأندلس يدْعونها فيما سلف من الزمان : مُطيَّبَ الأندلس ؛ والمطيَّبُ عندهم : حُزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ؛ سمَّوا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها ؛ وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومى قريبٌ من أربعة أميال .

ثم بعدها مدينة تُدعى شاطبة ، بينها وبينها مرحلتان .

وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشُّقْر ؛ وسميت جزيرة لأنها فى وسط نهر عظيم قد حفَّ بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة .

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التى على ساحل البحر الرومى ، يومٌ تام .

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام .

ومن مرسية إلى البحر الرومى عشرة فراسخ .

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل .

وبين ذلك بلاد صغار ، أولها مما يلى مُرسية : حصن لرقة ، ثم حصن آخر يدعى بَلِّس ، ثم حصن آخر يدعى ُقلْيَة ، ثم بليدة صغيرة تسمى بَسْطة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادى آش ، ويقال لها أيضاً وادى الأشى ؛ هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها فى أشعارهم ؛ فهذه البُليدات التى بين أغرناطة ومرسية .

وفى مقابلة وادى آش على ساحل البحر الرومى ، مدينةُ المَرِيَّة (مخففة الراء) وهى مدينة مشهورة ، تضرِب أمواجُ البحر فى سورها ، بينها وبين وادى

آش هذه مرحلتان للمجدّ .

وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر الرومى ، حصنُ مُنكّب ، وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضا فى سورها ، بينها وبين المرية أربع مراحل .

وبين حصن منكّب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل .

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجدّ .

وبالجزيرة الخضراء ، أو بجبل الفتح ، يلتقى البحران كما ذكرنا ، فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس : الجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومنكّب ، والمرية ، ودانية ؛ وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ؛ ووراء دانية الحصنُ الذى يسمى بِنَشْكُلة ؛ وقد تقدم ذكره .

فهذا ماعلى الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس ، أعنى مايضرب الموج فى سوره ؛ فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر - كما ذكرنا - قريب من أربعة أميال .

* * *

ثم نعود إلى ذكر البلاد التى ليست على الساحل ؛ فنقول :

من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلا ؛ وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرّفق .

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيّان ، مرحلتان ؛ فبين جيان وبين البحر الرومى ثلاث مراحل .

ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان .

[ذكر قرطبة]

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دارَ مُلك المسلمين ومقرَّ تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية بالأندلس؛ وبلغت قرطبةُ هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغا لم تبلغه بلدة.

حكى ابنُ فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال: كان بالرَّبَض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلُّهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى؛ هذا ما فى ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟.

وقيل إنه كان فيها ثلاثةُ آلاف مُقَلَّس؛ وكان لا يتقلَّس عندهم فى ذلك الزمان إلا من صلح للفُتيا.

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها، أن الماشى كان يستضىء بِسُروج قرطبة ثلاثَ فراسخ لا ينقطع عنه الضوء.

وبها الجامع الأعظم الذى بناه أبو المطرّف عبدالرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله؛ فزيادة الحكم معروفةٌ إلى اليوم.

وحكى أبو مروان بن حَيَّان - رحمه الله - فى أخبار قرطبة، أن الحكم لما زاد زيادتَه المشهورة فى الجامع، اجتنب الناس الصلاة فيها أياما؛ فبلغ ذلك الحكمَ، فسأل عن علته؛ فقيل له إنهم يقولون: ما ندرى هذه الدراهم التى أنفقها فى هذا البنيان من أين اكتسبها! فاستحضر الشهودَ والقاضىَ أبا الحكم

المنذرَ بن سعيد البلوطى المتقدم الذكر فى قضاته (١) ، واستقبل القبلةَ وحلف باليمين الشرعية التى جرت العادة بها ، أنه ماأنفق فيه درهما إلا من خُمس المَغْنَم ! وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه ؛ ومن الخُمس أيضا كان أبوه بناه ؛ وزاد فيه أبو عامر محمد بن أبى عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ؛ فهو مسجد لم ينفق فيه درهمٌ إلا من خُمس المغنم ؛ وهو معظَّم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك ، لا يصلِّى فيه أحدٌ ويدعو بشىءٍ من أمر الدنيا والآخرة إلا استُجيب له ؛ قد عُرف ذلك من أمره واشتهر .

وحكى غيرُ واحدٍ أن الأدفنش لعنه الله لما دخلها فى شهور سنة ٥٠٣ ، دخل النصارى فى هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبُلْ دوابُّهم ولم ترُثْ حتى خرجوا منه ؛ وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة .

وقد جمع أهل الأندلس كتباً فى فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء .

[ذكر أشبيلية]

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة أشبيلية ثلاث مراحل ؛ وأشبيلية هذه هى حاضرة الأندلس فى وقتنا هذا ، وهى التى تسمى عندهم فى قديم الزمان حمص ؛ سُمِّيت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس (٢) .

وقد زاد أمرُ هذه المدينة على صفة كل واصف ، وأتى فوق نعت كل ناعت ؛ وهى على شاطئ نهر عظيم ينصبُّ من جبل شَقُورة ؛ وتنصب فيه أنهارٌ كثيرة ، فلا يصل إلى أشبيلية إلا وهو بحر خِضَمٌّ ؛ تصعد فيه السفنُ

(١) تقدم ذكره ــ ولا ريب ــ فى الجزء المنخرم من الكتاب ؛ انظر التعليق ص ٢٢

(٢) انظر ص ١١٣

الكبار من البحر الأعظم ، ترْسِى على باب المدينة ، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلا ، وذلك مرحلتان .

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بنى عباد حسبما تقدم (١) ، ثم صيَّرها المصامدة منزلا لهم أيام كونهم بالأندلس ؛ منها ينفذ أمرهم ، وفيها يستقر ملكهم ؛ وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه ، وغرسوا البساتين ؛ فزاد ذلك فى حسن هذه المدينة ، أعنى أشبيلية .

* * *

ومن أشبيلية إلى مدينة شِلْب التى على ساحل البحر الأعظم ، خمس مراحل ؛ وبين ذلك بُليدات صغار ؛ كمدينة لَبْلَة ، وحصن مَرْتُلَة ، ومدينة طبيرة ، ومدينة العليا ، والمدينة المعروفة بشَنْتَمِريَّة ؛ هذه البلاد كلها فيما بين شِلب وأشبيلية من مغرب الأندلس .

وبين قرطبة وبين البحر الرومى خمس مراحل ؛ وقرطبة أيضا على ساحل هذا النهر الذى ينصب إلى أشبيلية ؛ يعظم جدا حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ، وينحدر من أراد فى القوارب من قُرطبة إلى أشبيلية ، ويصعدون من أشبيلية إلى قرطبة ؛ كهيئة النيل .

وبين مدينة أشبيلية ومدينة شَرِيش مرحلتان .

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل .

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافاتُ الأبعاد التى بين

---

(١) انظر ص ٧٣ ثم ٩٣ وما بعدها .

كل بلد وبلد على التقريب ؛ منها ما سافرتُ فيه بنفسى ، ومنها ما نقلته مستفيضا عن السُّفّـار المترددين .

فصل

[أنهار الأندلس الكبار المشهورة]

وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها :

فأول ذلك مما يلى المشرق : نهر طرطوشة ، وهو نهر عظيم ينصبُّ من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة ، ثم يصب فى البحر الرومى ؛ وبين طرطوشة وبين البحر الرومى اثنا عشر ميلا .

ثم نهر مرسية ، وهو يصب أيضاً فى البحر الرومى ، منبعه من جبل شَقورة ؛ وهو قسيم نهر أشبيلية ؛ منبعهما واحد ثم يفترقان ؛ فينصب هذا إلى أشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر أشبيلية الأعظم - وقد تقدم ذكر منبعه - ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى أشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحرا كما ذكرنا ، ثم يصب فى البحر الأعظم المسمى أقيانس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمّى تاُجو ، وهو الذى عليه مدينة طليطلة وشنترين ؛ وبين هاتين المدينتين قريبٌ من عشر مراحل ؛ وعلى هذا النهر أيضا مدينة الأشبونة ، وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ؛ ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .

* * *

وقد نجز بحمد الله جميع هذا الإملاء حسبما رسمه مولانا ، وجريتُ فى ذلك كلّه على عادتى فى التلخيص ، وتركت أسماء القرى والضِّياع والأنهار الصغار ، وغير ذلك مما لا تدعو إليه الحاجة ولا يُخلّ بالتصنيف تركه ؛ فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وَفْقَ مراده ، فهى البغية الكبرى والأمنية العظمى التى لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسابق إليها ؛ وإن يَكُ غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحُرِم الإصابة ولم يقع على المراد ولا وفى المقصود !

وبالله أعتصم ، وإياه أسترشد ، وعليه أعتمد ؛ وهو حسبى ونعم الوكيل .

* * *

وكان الفراغ من هذا الإملاء يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنة ٦٢١ ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فهرس الموضوعات

﴿ تم فهرس الموضوعات ﴾

فهرس الأعلام والبلدان والقبائل

(ت)

(ظ)

(ع)

(ق)

(ن)

(هـ)

تقدير

شارك فى وضع هذا الفهرس الأديب الفاضل الأستاذ عبد الستار كمال خريج كلية دار العلوم = جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ؛ فنشكر له معونته ؟

